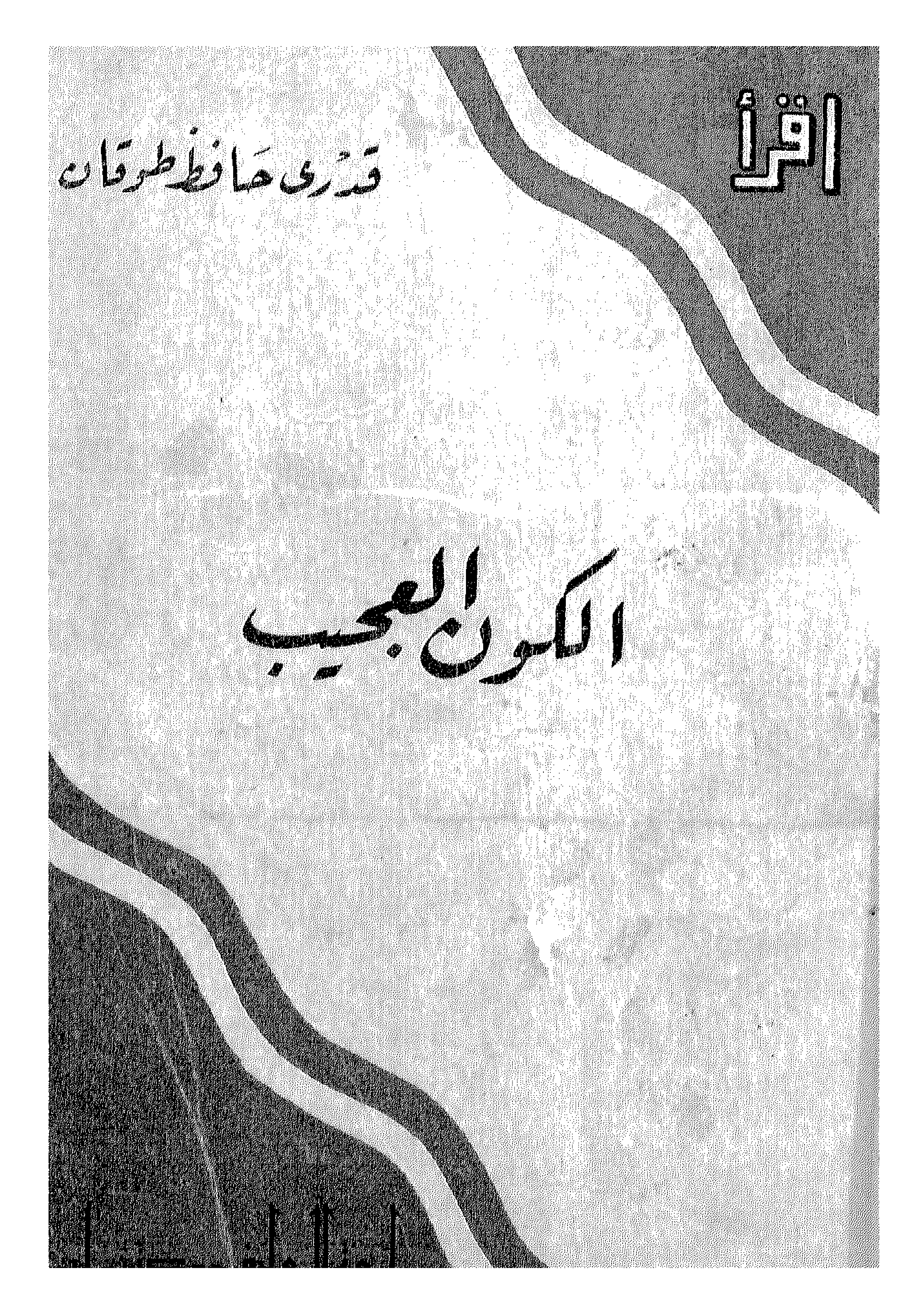

Bibliotheca Alexandrina
0137713

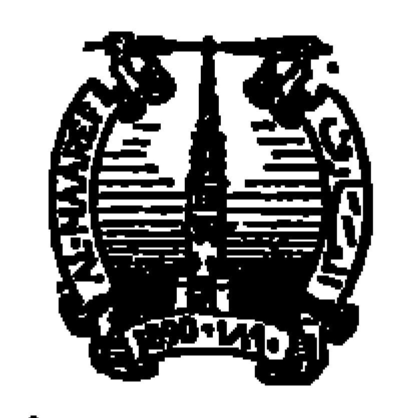

اقرأ
قدري حافظ طوقان
الكون العجيب

قدري حافظ طوقان

الكون العجيب

اقرأ ١١

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



(١)

العلم يُنزل الأرض من عليائها

ملكة الأجرام :

قال العلماء إن الأرض ملكة هذا الكون ومركزه تحيط بها الشمس والقمر والكواكب والنجوم وملحقاتها دائرة حائمة من فوقها نهاراً ومن تحتها ليلا .

هذا ما أخذ به الناس واعتمد عليه المفكرون والفلاسفة قروناً عديدة ، وقد عانوا كثيراً فى تعليل بعض الحركات. وفى تفسير بعض الظواهر الطبيعية على أساس ما اعتمدوا عليه .

وعجبنا كما عجب غيرنا كيف أن بطليموس وأضرابه من حكماء اليونان والرومان وفلكيي العرب والإسلام وفيهم البوزجانى والبيرونى والبتانى والصوفى وغيرهم — وهم من ذوى الأدمغة الكبيرة وأصحاب المدارك الواسعة — نقول كيف أن هؤلاء تمسكوا بهذا الرأى ، وكيف أن أفق تفكيرهم لم يصل إلى استجلاء حقيقته وكشف الخطأ فيه وأن عقولهم الجبارة — وهى التى

تفتحت أمامها المغلقات ، وغزت كثيراً من ميادين المعرفة لم تستطع أن تقودهم إلى معرفة حقيقة مكان الأرض من الكون .

و بقيت الأرض مركز هذا العالم ومحوره فى نظر هؤلاء العلماء والحكماء المفكرين ، إلى أن جاء (كوبر نيكس) ورمى بهذا الرأى الذى أحاطته القرون بهالة من التقديس وقال : « إن ما يظهر للناس من حركة الشمس والقمر والنجوم من الشرق إلى الغرب حول الأرض قد نتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، وإن الأرض والسيارات ليست إلا أجراماً تدور حول الشمس »

نشر كوبر نيكس هذا الرأى وأذاعه فى القرن السادس عشر للميلاد بعد أن دفعه الخوف إلى إخفائه ما يقرب من أربعين سنة

ماذا كانت النتيجة ؟

دوى هائل أقام الدوائر الدينية والعلمية وأقعدها ، وهزة عنيفة دكت بعض الأركان التى يقوم عليها علم الفلك . وقام رجال الكهنوت والعلماء يسفهون هذا الرأى ، وقد رأى فيه أولئك الرجال خروجاً على الدين كما وجد فيه العلماء جهلاً وسخفاً ونقضاً لمبادىء العلم الكونى .

لقد كان هذا الرأى فتحا جديداً ، ليس فى علم الفلك فحسب بل فى العلوم كلها ، أدّى إلى قلب بعض الأوضاع المقررة والنواميس التى كان يظن أنها صحيحة ، وغيرت من رأى الإنسان فى مقام الأرض ودفعته إلى متابعة البحث والرصد والدرس فتوالت الاكتشافات فاذا نحن أمام حقائق عن الكون أصبحت معروفة عند الخاص والعام ، ومن الأمور المقررة التى لا نحتاج إلى شرحها وتفصيلها للتدليل عليها . وخرجنا من هذا كله بأن الأرض جرم من الأجرام السماوية يتناولها علم الفلك وتدخل دراستها فى نطاقه ، وقد ثبت أنها تدور حول الشمس وتخضع لنفس النواميس التى تخضع لهـا موجودات هذا العالم ، وأنه يحيط بها دائرة من الأنظمة هى نفس الدائرة المحيطة بغيرها لا تتعداها ، ولا تشذّ عنها ، فقد تأكد الآن أن البحث فى الأرض مما يساعد على فهم كثير من الحقائق التى تتعلق بالنظام الكونى ، ويجلو نقاطاً غامضة تتعلق بمنشأ الكواكب والنجوم ومادتها ؛ بل إن من يريد دراسة الفلك والتعمق فيه والإحاطة بدقائقه ، عليه قبل كل شيء أن يدرس الأرض التى يعيش عليها ، وأن يسعى للوقوف على طرق الرصد من على سطحها ،

ويبحث فى حركاتها وأصل منشئها وتكوينها وما جرى ويجرى عليها من تطورات وتغيرات .

مستودعات الأسرار — المعادلات :

يرجح كثيرون أن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها منذ ألفى مليون سنة ، فاقترب نجم كبير من الشمس وحدث من ذلك أن زادت قوة الجذب بينهما زيادة نتج عنها اندلاع لسان من مادتها خرج إلى الفضاء وانفصل عن الشمس وبدأ يبتعد عنها ويدور حولها ، ومن هذا اللسان تكونت الكواكب والكويكبات التى لا تزال تدور حول الشمس ، ومنها الأرض — كوكبنا — الذى نعيش عليه ، وبعد ألوف السنين بدأت هذه الـكتلة الحارة الغازية تتحول إلى سائل ، وهـذا بمرور آلاف أخرى من الأجيال تجمد بعضه وتكونت القشرة الأرضية بجبالها ووديانها وهضابها وسهولها وبحارها ، وفى هذه الأثناء — أثناء تجمد الأرض وتكون القشرة — انفصل القمر عن الأرض وبدأ دورانه حولها إلى يومنا هذا ، وسيبقى كذلك إلى ما شاء الله ، وهناك كواكب أخرى انفصل عنها أكثر

من قمر واحد تسير فى مدارات خاصة حول الكوكب الذى انبثقت منه .

ولقد تناول العلماء جوف الأرض وحاولوا اختراقها بعيون العلم والأرقام والمعادلات ليتعرفوا على خصائصها وعلى ما يجرى فيها من تفاعلات ، فقطعوا فى بحوثهم هذه شوطاً لا بأس به ، ولكن ينقصها شىء من التفصيل والإيضاح فى نواح متعددة . .

ومما لا شك فيه أن لجوف الأرض ضغطاً عظيما ، فعلى عمق (١٠٠) ميل نجد أن ما على البوصة المربعة من الصخور والمواد المختلفة يزن أكثر من (٣٠٠) طن . أما الحرارة فترتفع فى الأعماق وهى فى كل (١٠٠) قدم نحو باطن الأرض تزيد درجة سنتيغراد واحدة ، وعلى هذا فالحرارة تصل إلى ألوف الدرجات فى مركز الأرض . وليس غريباً أن يظن كثيرون أن هذه الحرارة العالية تجعل المواد الموجودة فى جوف الأرض فى حالة انصهار ، فهذا ما كان يقول به علماء أوربا ، ولكن البحث العلمى الحديث أثبت غير ذلك وأن تلك المواد من السطح إلى المركز مرنة وجامدة وأكثر صلابة من الفولاذ .

والأرض تدور على محورها مرة كل يوم من الغرب إلى

الشرق ، وقد تحقق ذلك لدى العلماء بطرق عديدة بعضها طريف وفيه متاع ، ولعل طريقة (فوكو Foucault) من أطرفها وأمتعها . وكذلك تدور الأرض حول الشمس فى فلك يقرب شكله من الأهليليجى بسرعة ١٨٫٥ ميلاً فى الثانية ! . . .

وقد حسب العلماء نصف قطر هذا الفلك فوجدوه يقرب من ٩٣ مليونا من الأميال ، وأطلقوا على المدة التى تستغرقها الأرض فى قطع محيطه سنة . وهناك من الـكواكب ما تختلف مدد دورانها حول الشمس . فمنها ما يتم دورته فى ٨٨ يوما ، أى أن السنة (على ذلك الـكوكب) تساوى ٨٨ يوما من أيامنا ؛ ومنها ما يتم دورته فى ٤٨ سنة ، كما نجد كواكب أخرى تتم دورتهـا فى أكثر من هذه المدة .

ما كان فى استطاعة الفلكيين أن يصلوا إلى هذه النتائج ، أو إلى غيرها ، بغير العلوم الرياضية ومعادلاتها وقوانينها واستطاع الإنسان ، بفضل هذه العلوم ، و بفضل ما وهبه الله من قوة التفـكير والملاحظة ، أن يحسب كتلة الأرض بدقة متناهية ، وقد جاءت فى حسابه عدداً مخيفاً يقرب من العدد ٦ و يتبعه واحد وعشرون صفراً من الأطنان أى (٦٠٠٠) مليون مليون مليون طن !!

وهذا العدد من الأطنان ليس شيئاً يذكر أمام كتل النجوم والكواكب الأخرى ، فهناك من النجوم ما تفوق كتلتها كتلة الأرض ألوف المرات أو ملايينها .

ولقد صدق الشاعر المرحوم حافظ ابراهيم حين وصف البحر فى أثناء زيارته لأوربا وصفاً أتى فيه على عظمة الكون وأن الأرض ليست إلا ذرة تدور فى هذا الفضاء قال :

أيها البحر لا يغرنك حول ... واتساع فأنت خلق صغيرُ
إنما أنت ذرة قد حوتها ... ذرة فى فضاء ربى تدورُ
إنما أنت قطرة فى إناء ... ليس يدرى مداه إلا القدير

ولعل أدق وصف للأرض ما جاء على لسان العلامة(جينز) بأن الأرض ليست إلا هباءة دقيقة (لا ترى بالمجهر) فى هذا الفضاء الفلكى الواسع بالنسبة إلى الأجرام السماوية المتناثرة فى أنحاء الكون .

الحياة على الأرض :

مضى على الأرض ألف مليون سنة قبل ظهور الحياة على سطحها ، و بقيت طول هذه المدة عرضة لعوامل جوية وطبيعية

أوجدت هذا التنوع العجيب الذى نراه عليها . ثم بعد ذلك بدأ يظهر على سطحها آثار للحياة فى أولى مراحلها وأبسط صورها فى النباتات البسيطة التركيب والحيوانات الصغيرة الأولية .

وهنا يقف العلم معترفاً بعجزه عن الإجابة على أسئلة تتعلق بهذا الشأن :

كيف بدأت الحياة ؟ وكيف نشأت ؟ وهل هناك ما مهّد لها بالظهور ؟

هل ظهرت أولاً على سطح الأرض أم فى أعماقها ؟ أما الأجوبة فتتلخص فى كلمتين : لا نعرف !

نقول لا نعرف على الرغم من وجود آراء مختلفة لبعض العلماء فى أصل الحياة ومنشئها . ومن يطّلع على هذه الآراء وينعم الفكر فيها يجد أنها لا تشفى الغليل ، ليس فيها حل للغز الحياة على الأرض ، بل فى بعضها ما يزيد هذه المشكلة إبهاماً والتواء

قال فريق : إن أصل الحياة من فعل طبيعى ، وإن الأحوال التى تم فيها هذا الفعل تختلف عن أحوالنا ، ولا تزال سراً من الأسرار لم يستطع العلم إدراكهُ بعد .

وقال فريق آخر : إن الحياة أتت الأرض فى شكل بزور محشوكة فى النيازك الساقطة على الأرض

والآن... ما أصل هذه البزور أو البزيرات ؟ وكيف نشأت ؟ وهنا نرى أن أصحاب هذا الرأى لا يزالون فى صميم هذه المشكلة لم يتقدموا فى حلها خطوة واحدة

وهناك فريق ثالث يرى أن الحياة تولدت من تلقاء نفسها ، كنتيجة لأفعال كيميائية معقدة وفى أحوال غريبة كانت سائدة على سطح الأرض ، ويذهبون إلى أن الحياة تولدت فى عهد كان فيه جو الأرض مؤلفاً من ثانى أوكسيد الكربون والأمونيا ، فكان ظهور الحياة أولا فى مادة كربونية غروية

وهناك آراء غير هذه لا تزال فى حاجة إلى درس وبحث وتمحيص . وعلى كل حال فلا يزال لغز أصل الحياة خافياً على الناس ومن المغلقات التى لم يستطع العلماء اقتحامها والتغلب عليها . ولا ندرى ! فقد يأتى يوم يتمكن فيه الإنسان من إلقاء ضوء على هذا اللغز الدهرى فتنجلى حينئذ أمامه "حقيقة الحياة" واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض .

ثم أخذت الحياة تتطور ، بعد ظهورها على سطح الأرض ،

متأثرة أشكالها المختلفة بعوامل البيئة والتحوّل الفجائى والانتخاب وما أشبه حتى بلغت ما بلغته الآن من التنوّع والتخصص اللذين يحيران العقل

جو الأرض

يحيط بالأرض طبقة من الجو تتركب من النيتروجين والأوكسجين بنسبة كبيرة ، و بنسبة ضئيلة من الأرجون وثانى أكسيد الكربون والايدروجين و بعض الغازات النادرة كالهليوم والنيون والكريبتون و . . . .

ولكل من هذه العناصر والمركبات فوائد ، منها ما هو حيوى للانسان والحيوان والنبات ، ومنها مايحول دون حدوث تأثيرات حرارية شديدة فى الإنسان وفى غير الإنسان ، إذ تمتص جزءاً من حرارة الشمس وتعمل عمل دثار للأرض تحتفظ بالحرارة التى أتت إليها أثناء النهار من الشمس ، فلا يحصل برد شديد فوق سطح الأرض كما يحصل على القمر . ومنها ما هو ضرورى لبعض الصناعات . ويبقى تركيب الجو كما هو مدى أربعة أو خمسة أميال على سطح الأرض ، ولكنه يتغير تغيراً كبيراً عند ما يزيد

الارتفاع عن ستة أميال حيث تقل الكثافة و يلطف الهواء إلى درجة تصعب معها الحياة و يصبح من الضرورى لمن يحلق إلى هذا الارتفاع أن يستعمل الأوكسجين للتنفس . وقد استطاع العلماء أن يعرفوا كثيراً عن درجات الحرارة والضغط فى أعالى الجو على ارتفاعات تزيد على عشرة أميال عن سطح الأرض ، واستعملوا لذلك طرقاً مبتكرة فيها إبداع ومتاع . وكذلك استطاعوا أن يحسبوا عمق الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ، واعتمدوا فى حسابهم على الشهب عندما تحتك بجونا وتظهر فيه متألقة ، فوجدوا أن طبقاته تمتد إلى أكثر من ١٥٠ ميلا . ولقد وجدوا فى هذه الطبقات على ارتفاع عشرين ميلا الأوزون Ozone ، ولهذا الغاز فائدة كبرى ، فهو لم يوجد عبثاً ، إذ يمتص الأشعة فوق البنفسجية التى من الشمس والنجوم ، ولولا هذا الامتصاص لأثرت الأشعة فى جسم الإنسان ولأحدثت فيه من الأضرار ، ما لا قِبَل له بها . والجو هو الذى يملأ الفضاء بالضياء ، فأشعة الشمس حين تقع على الغبـار العالق بالهواء وعلى ذرات الهواء والأجسام المستقرة على الأرض تنعكس إلى كل الجهـات فتملأ الأرض نوراً وسـناء . والجوّ هو

الذى يشتت نور الشمس ويحلله، وإليه يرجع الجمال الذى تكون عليه الأرض فى ألوانها المختلفة البديعة . وهو يشتمل على عدة ألوان : منها الأحمر والأصفر والبنفسجى وغيرها بنسب مختلفة . ومن خصائص هذا الجو — بما يحتويه من رقيق بخار الماء — أنه يمتص كل الألوان إلا الأزرق ، وبذلك نرى السماء زرقاء فى النهار وطرفى الليل . وهنالك أسباب أخرى لزرقة السماء وسط الليل لا يتسع المجال لشرحها وإيضاحها ، كما أن هناك تعليلات لحمرة الشمس وقت الشروق ووقت الغروب وحمرة الشفق وألوان السحاب ، وهذه التعليلات تقوم على انكسار الضوء وتفريقه لا نرى المجال واسعاً لشرح هذه الظواهر ، ففيها تعقيد عدا كونها لا تدخل فى دائرة موضوع هذا الكتاب .

عمر الأرض :

شغلت مسألة عمر الأرض علماء القرن السابع عشر للميلاد والقرون الثلاثة التى تلته وأخذت قسطاً كبيراً من جهودهم وتفكيرهم استخدموا فيها العلوم الرياضية والطبيعية ، واستطاعوا أن يصلوا إلى نتائج تعطى فكرة عن عمر الأرض ، ولكنهم

لم يتمكنوا من تقدير الزمن الذى مضى عليها منذ نشأتها إلى الآن تقديراً صحيحاً ودقيقاً يصلون به إلى نتيجة نهائية يطمئنون لها ويقنع بها علماء الجيولوجيا والبيولوجيا والطبيعة والفلك .

استخدم العلماء طرقا عديدة ومختلفة فى حساب عمر الأرض ، فمنهم من حسب الزمن الذى استغرقته لكى تبرد وتتجمد وتصبح لها حرارتها الحالية ، وقد جاء الحساب فى حدود عشرين مليونا من السنين ، ولكن هذا التقدير لم يقنع كبار العلماء وقد أبدوا بشأنه اعتراضات وجيهة قائمة على أسس صحيحة من الحقائق التى توصل إليها البحث فى الجيولوجيا والبيولوجيا .

وهناك من استخدم (الجيولوجيا) لحساب عمر الأرض فلقد اعتمد (ادموند هالى) فى القرن السابع عشر للميلاد على كمية الأملاح الذائبة فى المحيطات ، واستطاع بعض العلماء فيما بعد أن يحسبوا الزمن اللازم للأنهار والسيول ، لنقل هذه الأملاح إلى المحيطات ، فكان حسابهم حول تسعين مليوناً من السنين . . .

ومن العلماء من سار فى تقديره على دراسة الطبقات الأرضية وعلى حساب الزمن اللازم لبنائها ، ولكن فى هذه الطريقة نقاط

ضعف كثيرة لا تؤدى (فى نظر الكثيرين) إلى نتائج حاسمة يمكن الأخذ بها أو الاعتماد عليها .

وفى مستهل هذا القرن التفت العلماء إلى طريقة هامة لحساب عمر الأرض ، هى أدق الطرق وأقربها إلى الصواب وهذه الطريقة تتناول مصادر حرارة الأرض ومصدر النشاط الاشعاعى لبعض العناصر كاليورانيوم والثوريوم والراديوم وتحولها إلى رصاص ، كما تتناول الزمن الذى يمضى على هذا التحول ، وقد وجد أن عمر الأرض على هذا الأساس نحو ثلاثة آلاف مليون سنة ا ...

هذا التقدير ليس نهائياً ، ولا يجوز أخذه كشىء ثابت ، فقد يكون هناك عوامل نجهلها تغير هذا التقدير إذا اعتبرناها ودخلت فى حسابنا ، ولكن مزيته على غيره أنه مبنى على أحدث ما وصل إليه العلم من وسائل وعلى أن العلماء لايجدون فيه ما يتنافى وعلوم الجيولوجيا والبيولوجيا وغيرهما من العلوم الطبيعية .

(٢)

القمر بين الحقيقة والخيال

طرائف وعجائب :

لو سار قطار إلى القمر بسرعة خمسين ميلا فى الساعة لوصل إليه فى مائتى يوم ولو أطلقت قنبــلة فى الجو بسرعة ١٦٤٠ قدما فى الثانية لوصلت إليه فى ثمانية أيام و بعض يوم . والأمواج اللاسلكية التى تدور حول الأرض فى سبع ثانية تصل إلى القمر فى ثانية وربع .

قد يعجب القارىء إذا علم أن بعد القمر عن الأرض ضئيل جداً إذا قورن بغيره من أبعاد السيارات والنجوم عن الأرض ، ويزيد استغرابه إذا قيل إنه على الرغم من هذا البعد الذى يبدو هائلا بالنسبة للأبعاد الأرضية فان القمر هو أقرب جسم سماوى إلى الأرض لا يزيد بعده عنها على ٢٤٠٠٠٠ ميل !

القمر من الأجرام السماوية التى تستمد نورها وحرارتها من الشمس ، يدور حول الأرض مرة فى كل ٢٨ يوما ، ليله طويل

ونهاره طويل ، طول كل منهما أربعة عشر يوما ، فتأمل ! . .
يشرق متأخراً ويغيب متأخراً خمسين دقيقة ونصف دقيقة عن إشراقه ومغيبه فى اليوم الذى تقدمه . يظهر فى أشكال مختلفة فمرة نراه هلالا ومرة نراه نصف دائرة ومرة نراه دائرة كاملة وفى بعض الأحايين يغيب ولا نستطيع رؤيته . وعلى هذا فالقسم المنير منه يزيد وينقص ، يزيد إلى أن يصبح بدراً كاملا ، ثم ينقص إلى أن يطلع مع الشمس فيكون محاقاً . وسبب هذا أن الشمس تنير نصفه كما تنير نصف الكرة الأرضية ، وفى أثناء دورانه حول الأرض من الغرب إلى الشرق يكون القسم المظلم متجهاً نحونا إذا صدف أن وقع بيننا وبين الشمس . ثم يتقدم قليلاً نحو الشرق وبهذا التقدم يظهر جانباً صغيراً منه منيراً ويزداد هذا القسم المنير كلما تقدم نحو الشرق ، إلى أن يطلع من الشرق وقت غروب الشمس وحينئذ يبدو لنا قرصاً منيراً وبدراً كاملا. ثم يبدأ القمر بإتمام دورته حول الأرض فينقص ما نراه منيراً وتستمر هذه الحركة والقمر المنير فى تناقص إلى أن يطلع مع الشمس فيكون حينئذ وجهه هو المتجه نحونا ويكون عندئذ محاقا ، ونظراً لقربه منا فهو يبدو كبيراً إلا أنه فى الحقيقة صغير بالنسبة للنجوم وبعض

الكواكب ، فقطره أكبر من ربع قطر الأرض بقليل كما تبلغ مساحته مساحة أمريكا الشمالية والجنوبية ، وعلى هذا فجاذبيته أضعف من جاذبية الأرض ، والرجل الذى يزن ٦٠ كيلوجراما على سطح الأرض ، يزن سدس هذا المقدار على سطح القمر . وإذا قذفنا حجراً إلى علو خمسة أمتار هنا ، واستعملنا نفس القوة والسرعة فان الحجر يرتفع إلى علو ثلاثين متراً فوق سطح القمر ، وقد تكون رغبة لاعبى الكرة شديدة فى أن تجرى اللعبة على القمر ، إذ يستطيعون رميها وإرسالها مسافة ستة أضعاف مسافة رميها هنا .

ولضعف جاذبيته فهو تقريباً خال من الهواء والماء إذ ليس فى القمر قوة جذب كافية لحفظ دقائق الهواء محيطة به فهى (أى الذرات) دائمة الحركة والتصادم بسرعة (٤٥٠) متراً فى الثانية ، وليست حركتها فى جهة واحدة بل فى جميع الجهات ، لهذا فهى تفلت تماما من سطح القمر ولا تستطيع البقاء عليه

ولقد نتج عن خلو القمر من الهواء انعدام المياه وعوامل النحت أو التفتت ، فلا نرى على سطحه أثراً من ذلك وبقيت الجبال على حالتها الطبيعية فلم يحصل فيها أى تفتت فى الصخور ولم تتكون أودية بالمياه الجارفة ، ويمكن القول أنه عالم قاحل هادىء

ساكن خال من أنواع الحركة وعلامات الحياة ..

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن خلوه من الهواء أدى إلى تعرض سطحه لحرارة الشمس المحرقة وللبرودة الشديدة ذلك أن الهواء هو الذى يلطف حرارة الشمس وهو الذى يحتفظ بها حائلا دون خروجها

وعلى هذا ترتفع الحرارة على سطحه أثناء النهار الطويل ارتفاعا عظيما حتى تصل إلى درجة الغليان ، وقد تزيد حتى تقترب من درجة انصهار الكبريت ، وتهبط الحرارة فى الليل الطويل فجأة وتستمر فى الهبوط حتى تصل إلى أكثر من (٢٥٠) درجة فهرنهيت تحت الصفر .

وإذا تحادث اثنان على سطحه فلا يسمع أحدهما الآخر فيضطران عندئذ إلى التفاهم بلغة الإشارة ، وذلك لعدم وجود أمواج هوائية تنقل الصوت ، وأظن أن القمر يلائم الذين يعنون بالمدفعية ، فلو أطلق مدفع فى القمر لما سمعه أحد هناك ولما حصل على الأذن أى أثر ولما اضطر الإنسان إلى استعمال ما يقى أذنه من شدة الأمواج التى يحدثها صوت المدافع

القمر يعوق حركة الأرض :

كانت الأرض قبل وجود القمر تسير حول الشمس فى مدة أربع ساعات أى أن يوم الأرض كان أربع ساعات ولم يكن أربعاً وعشرين ساعة كما هو الآن .

لقد زاد القمر فى طول يوم الأرض ، فما السبب فى ذلك ؟ لكل شىء سبب ، وكل ما فى الكون يسير ضمن نواميس لا يتعداها . ولقد استطاع الإنسان بفضل ما وهبه الله من القوة العقلية أن يكشف عن السبب ويعرف المجهول فى بعض الحالات وهو لا يزال سائراً فى ذلك ، وقد كشف من القوانين الكونية والأنظمة الطبيعية ما مكنه من الوقوف على كثير من عجائب الكون وروائعه .

استطاع الإنسان أن يحسب سرعة القمر حول الأرض فوجدها ٢٣٠٠ ميل فى الساعة كما ثبت له أن القمر يدور على محوره مرة واحدة كلما دار حول الأرض مرة واحدة فى ٢٨ يوماً ، ورأى فى الجاذبية ما يفسّر له الإعاقة التى يحدثها القمر فى حركة الأرض فثبت له أنه لولا قوة الجذب بين القمر والأرض لاستمر فى سيره

على خط مستقيم ، ولأصبح بعيداً عنا الآن ملايين الأميال .

ولكن هـذه القوة المستمرة ، هى التى تغير اتجاه سيره وهى التى تجعله يسير فى خط منحن (فلك) حول الأرض على الكيفية التى نعرفها .

إن الجاذبية بين الأرض والقمر متبادلة ؛ فكما أن الأرض تجذب القمر و بينهما قوة تجاذب تجعله يسير فى مسار منحن حول الأرض ، فكذلك القمر يجذب الأرض و بينهما قوة تجاذب ، وهـذه القوة أثرت على الأرض ولا يزال أثرها يعمل فيها (فى الأرض) إذ أبطأت حركة الأرض وجعلت دورتها حول نفسها تستغرق ٢٤ ساعة بدلاً من أربع ساعات .

وعلى أساس قانون الجاذبية العـام الذى ينص على أن قوة التجاذب بين جسمين تتوقف على مقدار كتلتيهما وعلى المسافة بينهما — أقول على أساس هـذا القانون حَسَبَ العلماء وزن الأرض وغيرها من الأجرام السماوية فلقد حسبوا وزن الأرض من جذبها طناً من الرصاص (مثلا) ، أو من جذبها القمر أو غيره من الكواكب .

وهكذا توصل الإنسان بفضل قانون الجاذبية وبفضل ما أخرجته

لرياضيات من معادلات ونواميس من الإتيان بالعجب العجاب وبالسحر يخلب الألباب ! . .

القمر والتجارة :

ما علاقة القمر بالتجارة ؟ أو ما علاقة التجارة بالقمر ؟ وهل القمر يساعد على التجارة أو يعوقها ؟

إن للقمر أكبر الأثر فى إحداث المد والجزر ، ولولا المد والجزر لما كان فى الإمكان أن تدخل البواخر بعض الموانئ أو أن تخرج منها . ومن هنا نتبين علاقة القمر بمصالح الناس واتصاله الوثيق بها ، ويذهب بعض الفلكيين إلى أن هذا الاتصال قوى إلى درجة أن القمر فى نظرهم هو من عوامل تقدم المدنية وارتقائها ، فإذا تلاشى من الوجود أو بعد كثيراً عن الأرض اضطربت التجارة واختل نظامها .

يحصل مدان وجزران فى كل يوم ؛ والمد هو ارتفاع الماء والجزر انخفاضه . ويحدث ذلك من جراء الجاذبية بين القمر والأرض ، هذه الجاذبية ليست من القوة بحيث تجعل دقائق الأرض تتحرك ، ولكن مياه البحار تطيعها بحسب قوتها وتتجمع

فى البحر من هنا ومن هناك تجاه القمر ، ومن هذا و بتأثير الشمس يحصل المد والجزر . وكثيراً ما نسمع بأن للقمر علاقة بالزراعة ، ولكن إلى الآن لم يثبت شيء من هذا . ولا غرابة فى ذلك إذا عرفنا أن الزراعة تتأثر (قبل كل شيء) بالحرارة فالشمس تؤثر فى النبات بحرارتها ، أما حرارة القمر فهى من الضآلة بحيث أنها لا تحدث أى تأثير يذكر فى النبات أو فى غير النبات .

ولقد قاس الفلكيون حرارة القمر وهو بدر كامل فوجدوها لا تزيد على جزء واحد من ١٨٥ ألف جزء من الحرارة التى تخرجها الشمس إلينا .

وقد قام العالم الفلكى (فلا ماريون) بعدة تجارب فى ضواحى باريس ليتحقق هل للقمر تأثير ما فى المزروعات فزرع بعض الخضر كالفول والبطاطس والجزر فى أوقات مختلفة تطابق أوجه القمر الأربعة فلم يثبت لديه أقل تأثير فى نموّها . وإذا كان هناك تأثير للقمر فى النبات فقد يكون من الزوابع والعواصف التى يثيرها القمر بجاذبيته للأرض .

القمر والبحار :

إذا نظرنا خلال التلسكوب إلى القمر فإنا نراه غير مستو كثير الارتفاعات والفوهات البركانية . و يقال إن عدد هذه الفوهات يزيد على ستين ألفاً يبلغ قطر بعضها ١٤٠ ميلاً وعمق بعضها الآخر ١٨ ألف قدم . أما الارتفاعات فهي سلاسل جبال كثيرة ، فهناك من السلاسل ما يمتد إلى أربعمائة وخمسين ميلا ، ومنها ما يشتمل على أكثر من ٣٠٠٠ قلة أعلاها جبل (هيجنز) يزيد ارتفاعه على ٢١٠٠٠ قدم . وكذلك يوجد على سطحه سلسلة تعرف باسم (الألب) تشتمل على ٧٠٠ قلة من قلل الجبال ولها واد طوله أكثر من ثمانين ميلا وعرضه يزيد على خمسة أميال .

ولهذه الجبال ميزات لا نجدها في جبال الأرض ، منها عدم وجود مغاور وكهوف ومنها جمال مناظرها الخلابة وما لها من ظلال تنبسط على ما تحتها من صحاري . هذه الجبال سهلة التسلق لا يجد الإنسان صعوبة أو مشقة في التصعيد فيها أو التسلق إلى أعلاها ، بل يشعر بخفة وسرعة ما كان ليشعر بهما لو كان يتسلق

جبال الأرض . و إذا صدف أن زلت قدمه وهوى من محل عال فلا أذى يصيبه ، ولا ضرر يعتريه . وقد يستغرب القارىء هذه التفصيلات ، وقد يختلط الأمر عليه فيظن أن القمر موطن المعجزات والسحر . ولكن لا معجزات ولا سحر ، فكل ذلك آت من ضعف جاذبية القمر فقوة التثاقل عليه تعادل سدس مقدارها على الأرض .

هذه هى التى تجعل المستحيل هنا ، ممكناً هناك (على القمر) وتجعل المعجزة هنا ، أمراً عادياً هناك ، وتجعل من الحركات الصعبة هنا ، سهلة هناك باستطاعة من (يزود نفسه بالأكسجين) وغير ذلك من الألبسة الواقية من الحر الشديد والبرد الشديد — أن يقوم بها و يتفنن فيها .

وفى القمر أودية كثيرة يربى عددها على عشرة آلاف واد ، منها ما هو واسع جداً كالسهول الفسيحة ومنها ما هو ضيق فيبدو كمجارى الأنهار .

و إذا نظرنا إلى القمر حينما يكون بدراً واستعملنا نظارة صغيرة لذلك رأينا أنه ملئ بالبقع المنيرة التى هى جبال عالية ، و ببقع أخرى مظلمة هى سهول فسيحة . وقد ظن العلماء فى أول الأمر

أن البقع المظلمة بحار فسميت بأسماء البحار كبحر الزمهرير وبحر الرطوبات وبحر الرحيق وبحر الغيوم وبحر الخصوبة وبحر تيخو وو.. الخ .

وعلى ذكر البقع يقول أحد الفلكيين إن هذه البقع لم تعرف إلا عند اختراع النظارات ، ولكنى رأيت فى الشعر العربى مايدل على أن العرب عرفوا هذه البقع المظلمة قبل اختراع النظارات . من ذلك ما قاله التهامى :

فبات يجلو لنا من وجهه قمراً   من البراقع لولا كلفة القمر

القمر من الأرض :

لاحظ العلماء أن كثافة القمر تقرب جداً من كثافة الصخور الموجودة فى أعماق الأرض ،وثبت لديهم أن العناصر التى يتألف منها القمر هى نفس عناصر جوف الأرض ؛ ومن ذلك تحققت النظرية القائلة بأن القمر كان يوماً من الأيام جزءاً من الأرض انفصل عنها من المكان الذى هو اليوم قاع المحيط الهادى ؛ وهذا يطابق رأى العالم الانكليزى (جينز) الذى يرى أن التوابع أو الأقمار ليست إلا قطعاً انتزعت من السيارات كما انتزعت

السيارات من الشمس على أثر سلسلة من الحوادث يغلب أن تكون واحدة فى الحالين .

أما الدكتور على مصطفى مشرفة بك فلا يميل إلى هذا الرأى ولا إلى الأخذ به لأن الأرض (على رأيه) كانت فى حالة سيولة عند ما انفصل القمر عنها .

وقد يكون من الطريف أن يعرف القارىء أنه لما انفصل القمر عن الأرض وأفلت إلى الفضاء نشأ (على رأى الأستاذ بكرنج) انفصال أمريكا عن أوربا فكان الأوقيانوس الأطلنطى وكان ذلك عند ما كانت الأرض مائعة أو شبه مائعة .

اقتراب القمر :

قد يظن بعض الناس أن اقتراب القمر من الأرض مما يزيدها جمالاً ومما يغمرها بهاء وسناء وسحراً ، ومما يجعل الإنسان يتمتع بنوره و بأشعته الفضية أكثر من تمتعه الحاضر . قد يكون هذا الظن فى محله فينعم الإنسان حينئذ بمناظر القمر ويجد فيها كل الجمال وكل المتاع .

ولكن ذلك لا يكون إلا بثمن ! وعلى حساب كوارث و بلايا

تصيب الأرض من اقترابه منها . فعلى فرض أن هناك من العوامل ما يقرب القمر من الأرض وما يجعله على بعد ستين ألفاً من الأميال فقط ، فحينئذ يزيد المد والجزر ٦٤ مرة . فتغمر الموانى والمدن وما يجاورها ، وقد يلتقى من جراء ذلك البحران الأبيض والأحمر ، ولا ينجو من اليابسة إلا القليل كالجبال والربوات العالية .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى الملاحة فلا تعود تأمن سلوك البحار ودخول الموانىء .

منظر الأرض من القمر :

إذا تصورنا أنفسنا على سطح القمر ولدينا ما يلزمنا من الأوكسجين وما يقينا الحر والبرد فكيف نرى منظر الأرض ؟

هنا يختلف الوضع عن منظر القمر من الأرض ، فلا إشراق ولا مغيب لأن أحد وجهى القمر يبقى متجهاً إلى الأرض دائماً ، و إذا اتفق أن ذهبنا إلى الوجه الآخر فلا نستطيع رؤية الأرض بحال ما . وتبدو الأرض كالقمر ولكن أكبر منه ، لا تغير مكانها فى الفضاء ، تظهر فى بعض الأحيان مظلمة ، وفى أحيان أخرى

منيرة كلها أو نصفها أو ربعها . أما جمالهـا فيتجلى عند ما تكون بدراً إذ يكون ضوءها شديداً أخاذاً .

أما السماء المحيطة بنا ونحن على سطح القمر فغير السماء التى نعرفها على سطح الأرض ، فلا شفق هناك ولا سراب ، ولا سحب ولا ضباب ، نرى الشمس على حقيقتها كرة هائلة فى سماء حالكة الظلمة شديدة السواد، ضوءها ساطع، ولونها إلى الزرقة مائل. قد يبدو هذا غريباً ، ولكن ليس فى هذا أى غرابة ، فلا جو حول القمر يشتت الضوء ويحلله إلى ألوانه ، ولا امتصاص ولا انعكاس لهذه الألوان وهذا ما يجعل السماء تبدو سوداء ليس فيها ما نراه فى سماء الأرض من جمال فاتن وألوان مختلفة خلابة .

نرى القمر عالماً هادئاً يطيب المفكرين . فلا زوابع ولا عواصف ولا غبار تعكر السكينة وتفسد الهدوء ، عالماً يكتنف الجبال الكثيرة ويحوى الوديان والفوهات العديدة حيث لا مدن ولا غابات ولا حقول ولا بحار .

القمر والشعراء :

لا تعجب من هذا العنوان : فهناك علاقة وثيقة بين القمر

والشعر ، وكيف لا يكون هناك علاقة والقمر هو الجرم السماوى الذى لفت أنظار الشعراء وشغلهم ، وهو مصدر الوحى الذى يستلهمونه كما أنه المعين الذى يغرف منـه الأدباء الخيال ، وقلما تخلو قصيدة غزلية من التشبيه به أو التحدث عنه . لا يفارق مخيلتهم يأخذون من تزايده ونقصانه ومن اكتماله بدراً ، ومن أشعته الفضية — مادة لنظم الشعر ومسرحاً للأدب الرفيع ، ولا أدرى لم كل ذلك ؟

إنى على يقين من أنهم (أى الشعراء والأدباء) غاضبون حانقون على ما ورد فى هذا المقال من حقائق ، وأقول كما قال الأستاذ توفيق الحكيم « إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو من صنع عيوننا القاصرة . والويل لنا إذا أبصرت عيوننا الآدمية أكثر مما ينبغى لها أن تبصر . . » .

ولئن أبصرت عيوننا أن القمر خال من الهواء ، وأن نهاره محرق وليله بارد لاذع ، وأن أشعته مستمدة من الشمس وهى أشعة أكذب من سواد الخضاب فى اللمة البيضاء .

ولئن أدى البحث إلى أكثر من هذا فصنع لنا عيوناً نبصر بها فوهات براكينه المخيفة ووديانه الموحشة ، وأراضيه المقفرة ؛

أقول لئن أبصرت عيوننا كل ذلك وفجعتنا بالقمر ، فلقد هدتنا عيون العلم الحادة إلى ما هو خير منه وأبانت لنا الشمس على حقيقتها وأماطت اللثام عن روائع كثيرة ما كنا لنعرفها أو نبصرها بعيوننا الآدمية القاصرة .

- كشف لنا العلم عن الشمس ، وأنها باعثة الجمال على القمر ومصدر الحياة على الأرض ، ولولاها لما دارت الأرض ولا دار القمر .

فلماذا إذن لا يتغنى بها الشعراء والأدباء ؟ ولماذا ينكرون عليها خيراتها وبركاتها .

ولئن جحد الشعر والأدب أفضال الشمس عليهما وعلى الناس فلقد أنصفها العلم ورعى حقها وبوأها مكانها اللائق بها وبما تسديه إلينا من نعم لا تحصى .

وأخيراً أعزى الشعراء عن حبيبهم القمر بقول المتنبي :

لو فكر العاشق فى منتهى   حسن الذى يسبيه لم يسبه

(٣)

الشمس مصدر الحيـاة

فى طريق الاضمحلال والانقراض

مزايا الشمس :

الشمس هى أم السيارات ، والجدة الكبرى للتوابع والأقمار ولولاها لما وجدت الحياة على الأرض ، ولما وجدت الحركة والقوة ، وبوساطتها — نورها وحرارتها — تنمو المزروعات ، والأشجار والغابات ، ويتكون الفحم الحجرى ، وتتبخر المياه ، وتنشأ الرياح والعواصف حاملة البخار المائى الذى يتكاثف ويتحول إلى أمطار وثلوج . ولا يخفى أن الإنسان استطاع — بفضل ما وهبه الله من قوى عقلية فى الابتكار والاختراع — أن يستخدم قوة انحدار الماء المتكون من ذوبان الثلوج ويحوله إلى منافعه الخاصة ؛ وقد تمكن بالآلات المختلفة من أن يحوله إلى كهربائية وغيرها من أنواع الطاقة المتعددة .

قد يستغرب القارىء إذا علم أن الشمس — وهذه بعض

مزاياها — نجم مثل سائر النجوم التى نراها ليلاً ، وقد يزيد استغرابه إذا علم أيضاً أنها من النجوم المتوسطة الجرم ، وأن بين الأجرام السماوية ما هو أكبر منها مئات المرات وألوفها ؛ ومع ذلك فحجمها كبير يقدر بمليون وثلاثمائة ألف مرة مثل حجم الأرض ، وهى تبدو كبيرة بالنسبة لغيرها من الأجرام السماوية ، لأنها قريبة منا ، ولو كانت على بعد بعض النجوم لضؤل نورها ، ولما استطعنا أن نراها بالعين المجردة .

قرب الشمس :

الشمس أقرب نجم إلينا ، وتقدر المسافة بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، فلو سار قطار سكة حديدية إليها بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ، لوصلها فى ٢١٠ من السنين . فأين لنا بالسائق يعيش هذه المدة ، والسكة والقطار ؟؟ ولو أطلقنا قنبلة مدفع بسرعة نصف ميل فى الثانية وكان فى الإمكان جعل الانطلاق متواصلاً وبهذه السرعة لوصلت إلى الشمس فى سبع سنين ، فأين لنا بالطاقة التى نستطيع تزويد القنبلة بها ليكون سيرها متواصلا وبسرعة نصف ميل فى الثانية ؟ والأمواج

اللاسلكية التى تدور حول الأرض سبع مرات فى ثانية واحدة !!
والتى سرعتها تساوى سرعة النور (١٨٦٠٠٠) ميل فى الثانية !
هذه الأمواج إذا أرسلت إلى الشمس تصلها فى ثمانى دقائق
وربع دقيقة !

ولكى يدرك القارىء قرب الشمس إلى الأرض ، بالنسبة
لغيرها من النجوم نقول لو أرسلت هذه الأمواج من الأرض إلى
أقرب نجم إلينا بعد الشمس لوصله بعد أربع سنين ونصف
سنة ؛ فاعجبْ ! !

الشمس تضمحل :

يصدر من الشمس مقدار عظيم جداً من الحرارة والنور ،
يشع فى كل الجهات ، وما يصيب كرتنا من هذا لا يزيد على
جزء واحد من ألفى مليون جزء .

ودرجة الحرارة على سطحها تقدر بـ ٦٠٠٠ درجة سنتغراد ،
وترتفع هذه الحرارة كلما تدرجنا من الخارج إلى الداخل ، إلى أن
تبلغ ملايين الدرجات !

لكى يتصور القارىء عظمة هذه الحرارة نقول : إنه إذا

وجد بين الأرض والشمس اسطوانة من الثلج قطر قاعدتها ميلان وطولها ٩٣ مليوناً من الأميال ، واستطعنا أن نسلط على الأسطوانة الجليدية كل ما فى الشمس من حرارة ففى ثانية واحدة تذوب كلها ، وفى ثمان ثوان تتحول إلى بخار ! . فتأمل . . .

ويقول (جينز) إننا إذا استطعنا أن نأخذ من جيبنا قطعة من ذات خمسة القروش ونسختها إلى درجة حرارة مركز الشمس فإن حرارتها تكون كافية لأن تجعل كل كائن حى على بعد آلاف من الأميال منها يضمر ويذبل . . .

أما الضغط على الشمس فحدث عن غرابته ولا تهب . . . وقد وجد العلماء أن الضغط فى مركز الشمس يعادل ملايين الأرطال على السنتيمتر المربع . ولسنا بحاجة إلى القول إن العناصر الموجودة فى الشمس تتفتت وتنحل إلى جواهرها الفردية إزاء حرارتها العظيمة المخيفة . بل إن الجواهر الفردية (لبعض العناصر) تنحل إلى الكهارب والبروتونات التى تتألف منها تلك العناصر .

وهذا يعطينا فكرة عن الشمس ، وأنها ليست إلا كتلة نارية هائلة ، فيها من القوة ما يصهر العناصر ويحولها إلى

غازات تتناثر فى الشمس محدثة الأنواء والعواصف والزوابع ، يخرج منها نافورات عظيمة من اللهب وألسنة أرجوانية إلى الفضاء ، ترتفع إلى آلاف الأميـال فى أشكال تثير الروعة والدهشة والاستغراب . . .

لقد حسب الفلـكيون مقدار ما يخرج من الشمس من الطاقة عن طريق الإشعاع ، فوجدوا أن الـكمية عظيمة جداً وفوق التصور ، وأن كل متر مربع من الأرض يتلقى من أشعة الشمس قوة تعادل قوة حصانين أو (١٦٠٠٠) حصان لـكل كائن من البشر . و إذا كانت هذه القوة التى تخرج من الشمس إلى الأرض تعادل جزءاً من ألفى مليون جزء مما تشعه إلى الفضاء ، فما قولك بقوتها كلها ؟ ! . .

إن الحسابات الدقيقة تبين أن الشمس تفقد من مادتها عن طريق الاشعاع (٣٦٠٠٠٠) مليون طن كل يوم !!.. فهل لنا بعقل يتصور هذه القوة المخيفة . و إذا كانت الشمس تفقد يومياً هذا المقدار ألا يوجب هذا قلق الانسان فيما لو مضت الحال على هذا المنوال ؟ ففى مدة معينة ينفد ما عندها من طاقة وسيكون مصيرها الاضمحلال والانطفاء ، وتصبح الأرض حينئذ غير صالحة للحياة على أنواعها ،

ويختل النظام الشمسى وتسوده فوضى لا يعلم عواقبها إلا الله .

ولقد أخذ هذا البحث كثيراً من عناية العلماء وتوصلوا إلى نتائج مرضية مطمئنة ، وقالوا ، لا موجب للقلق ، و إن هناك قوة وذخيرة تأتى الشمس بعوامل مختلفة ، وعلى الرغم من أن هذه القوى والذخيرة أقل مما يصدر منها (من الشمس) إلى الفضاء ، ففيها ما يكفى لمدّ عمرها إلى آلاف الملايين من السنين .

ويتساءل كثيرون : كيف تتولد فى الشمس هذه المقادير العظيمة من الحرارة ؟ وكيف تنشأ هذه القوى فى جوفها وعلى سطحها ؟

هذا التساؤل فى محله ، حاول بعض العلماء الإجابة عليه . فقالوا بأن تفكك الجواهر الفردية (لبعض العناصر) وانطلاق القوى الهائلة المخزونة فى تلك الجواهر هو السبب فى حرارة الشمس وفى القوى الموجودة فيها .

الأزمة والشمس :

يرى على الشمس بقع سوداء (كلف) تظهر وتختفى ، بعضها بسرعة و بعضها ببطء ، ويختلف العدد الذى يظهر ، ويكون على أكثره كل إحدى عشرة سنة . ومن هذه البقع ما هو كبير جداً

يسع الأرض وما عليها ، وهى تتألف عادة من منطقة قاتمة اللون فى وسطها بقعة سوداء كأنها تجاويف عظيمة . واختلف الفلكيون فى سبب ظهورها ، ويرجح الكثيرون أنها تتكون بسبب التغييرات الكثيرة الناتجة من تأثيرات الحرارة فى جوف الشمس ، وأن هناك مواد تخرج من هذا الجوف إلى السطح ، وعند خروجها تبرد وتظهر مظلمة بالنسبة لوجه الشمس الباهر النور . وزيادة على ذلك فقد يكون فيها كهربائية شديدة تقوى معها مغناطيسية الشمس والأرض . وثبت لدى العلماء أن ظهور البقع واختفاءها من الحوادث النظامية فى تاريخ الشمس ونتيجة لعوامل ثابتة .

لم يستطع أحد أن يجد علاقة بين الكلف وحالة الطقس ، ولم يتوصلوا إلى نتائج مرضية فى هذا الشأن ، ولكن الثابت أن حرارة الشمس تكون أشد من المعتاد عند ظهور الكلف وعندما تكون على أكثرها . أما فيما يتعلق بالنبات والمطر وأحوال أخرى جوية فليس للكلف بها علاقة أو تأثير ، وإذا كان هناك شىء من هذا القبيل فهو بسيط جداً لم يستطع العلم إدراك مداه بعد . أما ما نسبه بعض الفلكيين إلى الكلف من حدوث زلازل وفيضانات وخصب وإمحال وأمراض وأزمات تجارية ، فهذا

لم يثبت علمياً ولا يزال فى دور البحث . ولكن مما يستوقف النظر أن حدوث الرخاء والإقبال فى العالم كان يصدف فى وقت يكثر فيه ظهور الكلف على وجه الشمس . فلقد صدف عند ما كانت الكلف على أكثرها فى سنة ١٩٢٨ أن كان الرخاء يعم الأرض . وكذلك فى سنة ١٩٣٦ فقد بدت بوادر الانتعاش بعد أزمة عالمية حادة وكان عدد الكلف يقترب من نهايته العليا

ومن عجيب المصادفات أن الأزمة بلغت أشدها فى سنتى ١٩٣٢، ١٩٣٣ عند ما كان عدد الكلف على أقله . وجاء فى كتاب «آفاق العلم» للأستاذ فؤاد صروف (وليست هذه المقابلة بفريدة فى بابها بل إن الدكتور ستتسن Stetson يقول : إن البحث فى التاريخ الحديث فى هذه الناحية يسفر عن أن خمساً من الأزمات السبع العظيمة التى ابتلى بها العالم فى الخمسين سنة الأخيرة وافقت فى تطورها كثرة الكلف وقلتها . . فهل هذه الموافقة مجرد اتفاق ؟ أم فى جعبة العلم ما يفسر هذه الظواهر الغريبة . . ؟)

الآلة الفاضحة :

ولقد تمكن العلم الحديث من معرفة أشياء كثيرة عن التركيب الكيميائى للشمس واستطاع الفلكى بفضل آلة الطيف « السبكترسكوب » أو كما يسميها الأستاذ الكردانى « مبين الأطياف » والأستاذ فؤاد صروف « المطياف » وغيرها من الآلات ، أن يدرس طبائع النجوم والشمس وأن يتحقق من وجود العناصر التى يتركب منها جو الشمس ، الأمر الذى كان قبل ستين سنة خيالاً وتحقيقه من المستحيلات .

ولسنا الآن فى مجال ذكر تركيب هذه الآلة الفاضحة التى أذاعت الشيء الكثير عن محتويات الشمس والنجوم وحركاتها وغرائبها وما يتعلق بنورها وحرارتها ، فقد نخرج بذلك عن موضوعنا ، ونترك الكلام عن عملها للكتب العالية فى الفيزياء ، ولكن لا بد لنا من سرد المبدأ الذى تقوم عليه دراسة طبائع الشمس والنجوم وهو يتلخص فيما يلى :

إذا مر شعاع نور أبيض ، كنور الشمس خلال منشور ثلاثى من الزجاج فالأشعة تنفذ منه وتتحلل بحيث إنها إذا وقعت على

حاجز أبيض ظهرت الأشعة النافذة عليه كشريط ملوّن طرفه الأسفل أحمر وطرفه الأعلى بنفسجى وما بين هذين اللونين يقع البرتقالى فالأصفر فالأخضر فالأزرق فالنيلى، و يسمى هذا الشريط الملون بالطيف. وثبت حديثاً أن العناصر المختلفة — إذا كانت غازية أو سائلة أو مواد صلبة محماة إلى درجة الإنارة — أضواء إذا حللت بمبين الأطياف تكونت لها أطياف تتميز بها العناصر بعضها عن بعض . و يمكن للعالم أن يعرف هل الأشعة التى يمررها من الآلة المذكورة خارجة من عنصر الحديد أو الإيدروجين أو الصوديوم .

ولدى اختبار الطيف الشمسى وجد أن أضواء الطيف تتخللها خطوط مظلمة رأسية كثيرة العدد موزعة فى الطيف فى مواضع معينة منه ، وتعرف هذه الخطوط بخطوط « فرنهوفر » .

وقد يعجب القارىء إذا علم أنه أُستُدِلّ بهذه الخطوط على وجود مواد فى الشمس لم تكن معروفة على سطح الأرض كغاز الهيليوم .

ولقد وضع العلم للحصول على أطياف العناصر المختلفة طرقاً وقواعد ، و يمكن لمن يرغب الاستزادة من هذه البحوث الطريفة أن يرجع إلى الكتاب النفيس القيم الذى وضعه الأستاذ نظيف

عن البصريات . ومن هذه الأطياف وتلك الخطوط عرفنا المواد التى يتركب منها جو الشمس ، وعرفنا أن الإيدروجين والهيليوم والكربون والصوديوم والكلسيوم والحديد والنحاس والكبريت والنيكل موجودة بكثرة فى جو الشمس ، وأن أكثر العناصر المعروفة على أرضنا موجودة فيها أيضاً . وعرفنا أيضا أن ثلاثة وعشرين عنصراً من عناصر المادة التى كان يظن أنها خاصة بالأرض وجدت حديثاً فى الشمس ، وأن جميع العناصر موجودة فيها بالنسبة التى توجد بها على الأرض .

أليس فى هذا الدليل القاطع على النظرية القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها فى الأزمان السحيقة ؟ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عرفنا بوساطة هذه الآلة الشىء الكثير عن حرارة الشمس وقوانين دورانها وحركاتها وضغط جوها . واستطاع الفلكى فوق ذلك أن يعرف المواد التى تتركب منها النجوم التى يصل نورها إلينا ، وأن يقف على كثير من خواصها وسرعتها وحركاتها ، وهل تتجه نحو الأرض أو تبتعد عنها ؟

بعد هذا . . . ألا يوافقنى القارىء على تسمية آلة « مبين الأطياف » أو « المطياف » بالآلة الفاضحة العجيبة ؟! . .

جاذبية الشمس :

كل ما فى الكون يسير على نظام الجاذبية ، فمن الشمس العظيمة إلى ما هو أعظم منها إلى أدق ذرة من التراب — كل هذه تتحرك ضمن هذا النظام . ولولاه لما سار القمر حول الأرض على الصورة التى نعرفها ، ولما كانت حركات السيارات فى أفلاكها ، ولما كان المد والجزر على الأرض ، وما نراه فى النجوم فهذه أيضاً بسياراتها وملحقاتها تتبعه ولا تخرج عليه ؛ بل هى دائماً وأبداً مطيعة له سائرة فى دائرة حدوده وأنظمته . وفوق ذلك استطاع العلماء بوساطته وباستغلال المعادلات الرياضية ، أن يحسبوا كتلة القمر والأرض وبقية الكواكب وتوابعها وغيرها من النجوم والأجرام السماوية . وتختلف قوة الجاذبية بين جسمين بحسب كتلتيهما والمسافة بينهما ، فهى تزداد تبعاً لازدياد الكتلتين أو نقص المسافة ، كما تنقص هذه القوة تبعاً لنقص الكتلتين أو زيادة المسافة .

وما ثقل الأجسام على الأرض إلا تعبير آخر عن قوة التجاذب بينها وبين الأرض ، فاذا قيل إن ثقل جسم هو

٥٠ كيلوجراما ، فهم من ذلك أن قوة جذب الأرض إليه تساوى ٥٠ كيلوجراما ، ولما كانت كتلة الشمس كبيرة جداً ، إذ تعدل (٣٣١٩٥) مرة قدر كتلة الأرض ، فالجاذبية عليها عظيمة كذلك ، وهى أكثر من جاذبية الأرض بسبع وعشرين مرة ، فما يزن على أرضنا رطلاً يزن على الشمس ٢٧ رطلاً . والجسم الذى يزن (٦٥) كيلوجراماً هنا يكون هناك أكثر من ١٧٠٠ كيلوجرام ! !

ولا بد لنا من القول بأن هذا الناموس أتى بالعجب العجاب ، إذ استطاع الفلكيون والرياضيون بوساطته التنبؤ عن حركات السيارات كما تمكنوا من كشف مواقع بعض السيارات وخصائصها قبل أن يروها بالعين والمكبرات .

ولا ندرى ، فقد يأتى هذا الناموس بما هو أعجب ! !

والشمس تجرى :

اختلف الناس منذ القدم فى حركة الشمس ، هل تجرى ؟ هل لها حركة كما للأرض والكواكب !

قال أناس إنها ثابتة . وقال آخرون إنها متحركة !

والواقع أن للشمس حركة حول محورها ، ولـكنْ ليس لها حركة فى الفضاء تشابه حركة الأرض ، فهى لا تدور حول نجم من النجوم مثلا ، بل إنها تتحرك كما تتحرك بقية النجوم ، وتسير فى الفضاء بسرعة (٧٥٠) ميلا فى الدقيقة ، أو ما يزيد على مليون ميل فى اليوم . ولا نعنى أن الشمس وحدها تسير بهذه السرعة ؛ فهناك سياراتها وتوابعها والنجيمات ، وكل ما فى النظام الشمسى يسير معها بهذه السرعة نحو كوكبة الشلياق التى فيها النسر الواقع .

وعلى هذا فالأسرة الشمسية ، بما فيها الأرض لا تزال (كما كانت) سائرة فى الفضاء وهى فى كل يوم فى موضع من الكون يختلف عن الموضع الذى كانت فيه فى اليوم السابق .

وهكذا ، فكل ما فى الوجود فى حركة دائمة لا يعلم منتهاها ومصيرها إلا مبدع الـكائنات العليم القدير .

ورحم الله ابن الشبل الحكيم البغدادى الفيلسوف إذ يقول :

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرارُ

بربك قل لنا فى أى شأن ففى أفهامنا منك انبهارُ

(٤)

أخوات الأرض
أو
الـكواكب السيارة

١ ـــ خصائص الأسرة الشمسية

ليست الـكواكب أجراماً تضيء من نفسها كالنجوم ، بل هى أجرام عالة على غيرها فيما تقدمه لها من نور وحرارة . ولولا ذلك لما كان فى الإمكان رؤيتها ، ولما كان منظرها على ما هو عليه من بهاء وجمال . وما الأرض التى نعيش عليها إلا أحد هذه الـكواكب ، انبثقت من الشمس كما انبثقت منها (بفعل اقتراب نجم من الشمس) أجرام سماوية أخرى أطلق عليها وصف الـكواكب السيارة أو السيارات عرف منها :

عطارد ، الزهرة ، الأرض التى نعيش عليها ، المريخ ، المشترى ، زحل ، أورانوس ، نبتون ، و بلوتو .

وهذه كلها تستمد من أمها الشمس النور والحرارة وتدور حولها فى مدارات أو أفلاك خاصة . والسيارات وما بينها من نجيمات (أو سيارات صغيرة) وما يسبح فى فضائها من شهب ومذنبات تكون النظام الشمسى أو الأسرة الشمسية .

ولهذه الأسرة خصائص قد لا نجدها فى غيرها من المجموعات الـكونية . من هذه الخصائص أن السيارات كلها تدور حول الشمس من الغرب إلى الشرق فى مدارات مستديرة على بعد ملايين من الأميال عن الشمس ، كما أن كلاً منها يدور على محوره فى نفس الاتجاه الذى يدور فيه (ذلك الـكوكب) فى مداره حول الشمس . وفى الإمكان تكوين فكرة عن الأسرة الشمسية بعمل نموذج بسيط تمثل فيه الأرض بكرة قطرها ١٠ سم فيكون قطر الشمس على هـذه النسبة ١٠ م و ٨٠ سم ويكون قطر عطارد ٣،٩ سم والزهرة ٩،٧ سم والمريخ ٥،٣ سم والمشترى (وهو أكبر السيارات) ١٠٩،٥ سم وزحل ٩٠،٢ سم وأورانوس ٤٠ سم ونبتون ٣٩،٢ سم و بلوتو ٤،٥ سم . على أساس هذا القياس توضع الأرض على بعد ١١٥٢ م من الشمس ويوضع عطارد (وهو أقرب السيارات) على بعد ٤٤٥ م ويوضع

بلوتو (وهو أبعد السيارات المعروفة) على بعد ٤٦ كيلومترا و ٨٠ م . أما بقية السيارات فتكون بين البعدين ٤٤٥ م و ٤٦٫٠٨٠ كيلومترا . ومن هذا النموذج يتجلى أن الأسرة الشمسية ليس فيها ازدحام بل هى فى أساسها تتكون من فضاء واسع يجعل السيارات تظهر فيه صغيرة . ومع ذلك يقول جينز : « . . . على الرغم من هذا الخلاء الموجودة فيه السيارات فالأسرة الشمسية مزدحمة جداً إذا قارناها بمعظم الفضاء . . »

ومن الغريب فى الأسرة الشمسية أنها منعزلة انعزالاً تاماً عن النجوم والأنظمة الشمسية الأخرى . فبينما الأرض تبعد عن الشمس ٩٣ مليوناً من الأميال وبينما بلوتو يبعد ٣٧٢٠ مليون ميل نجد أن أقرب نجم يبعد عنها ما يزيد على ٢٦ مليون مليون ميل ! و إذا رجعنا إلى المقياس الذى اتبعناه فى عمل نموذج الأسرة الشمسية فإن هذا النجم يوضع بعيداً عن الشمس بمقدار (٢٧٦٠) كيلومتراً بينما لا يزيد بعد بلوتو عن ٤٦٫٠٨٠ كيلومتراً .

وهناك ظاهرة غريبة فى الأسرة الشمسية هى عدد الأقمار التى تدور حول بعض السيارات . فللأرض قمر واحد وللمريخ قمران

وللمشترى أحد عشر قمراً ولزحل تسعة أقمار ولأورانوس أربعة أقمار ولنبتون قمر واحد . أما عطارد والزهرة و بلوتو فلم يثبت أن لها أقمارا .

ولقد توصل العلماء إلى كشف القوانين التى تتعلق بدوران السيارات حول الشمس فوضعها (كيلر) على الصورة الآتية :

١ — يدور السيار حول الشمس فى فلك (اهليلجى الشكل) تقع الشمس فى إحدى بؤرتيه .

٢ — يتحرك كل سيار حول الشمس فى مداره بحيث أن الخط الواصل بينه (أى السيار) وبين الشمس يقطع مساحات تتناسب وزمن الانتقال .

٣ — يتناسب زمن دوران السيار حول الشمس مع البعد عن الشمس . أى أن هناك علاقة بين بعد السيار عن الشمس وزمن الدوران وتكون هذه العلاقة أدق إذا وضعت بالصيغة الرياضية وهى : إن مربع زمن دوران السيار يتناسب مع مكعب بعده عن الشمس .

وعلى هذا فدوران السيارات القريبة من الشمس أسرع من دوران السيارات البعيدة فعطارد (وهو أقرب السيارات) أسرعها

إذ يدور حول الشمس فى ٨٨ يوماً بينما بلوتو أبطؤها يتم دورته فى ٢٥٠ سنة .

ولهذه القوانين الثلاثة شأن عظيم فى علم الطبيعة والفلك والرياضيات ، ومنها استنتج نيوتن العالم الانكليزى الشهيرقوانينه فى الجاذبية التى أحدثت تغييراً خطيراً فى العلوم الطبيعية أدّى إلى تقدمها تقدماً مكّن الإنسان من تعليل كثير من الظواهر والوقوف على بعض النواميس الأساسية التى تسيطر على الأجرام السماوية .

ب — الكوكب السريع : عطارد Mercury

عطارد أقرب السيارات إلى الشمس فبعده عنها لا يزيد ٣٦ مليوناً من الأميال ، وعلى هذا فهو أسرع الكواكب ، تتراوح سرعته بين ٣٦ ميلا فى الثانية حينما يكون على أقرب قربه من الشمس ، و ٢٤ ميلا فى الثانية حينما يكون على أبعد بُعده عن الشمس . يتم دورته فى ٨٨ يوماً أى أن سنته تعدل ربع سنتنا تقريباً ، ويدور أربع دورات حول الشمس فى الوقت الذى تتمم فيه الأرض دورة واحدة فقط . وكذلك يدور على محوره فى

نفس المدة التى يدور فيها حول الشمس بينما تدور الأرض على محورها مرة فى كل يوم وليلة . وبناء على ذلك لا يحصل على وجه عطارد ما يحصل على الأرض من ليل ونهار ، فأحد وجهيه متجه دائماً إلى الشمس فهو فى نهار أبدى ، بينما الوجه الآخر يعانى ظلاماً مستمراً فهو بذلك فى ليل أبدى . وبهذه المناسبة نوجه نظر القارئ إلى أن كلمة اليوم لا تعنى الليل والنهار ، بل تعنى زمن دوران الكوكب على محوره .

ويرى عطارد فى بعض الأحيان متألقاً عند الأفق الغربى بعد الغروب مباشرة أو قبل الشروق مباشرة عند الأفق الشرقى . ومن الطبيعى أن لا نتمكن من رؤيته مع الشمس لأن نورها الوهاج يخفيه ويحول دون ظهوره للعيان .

وأثبت الرصد أن لعطارد أوجهاً كأوجه القمر ويتدرج من هلال دقيق إلى دائرة كاملة الإنارة . وحينما يتوسط بيننا وبين الشمس يكون وجهه المظلم إلى جهتنا وحينئذ لا نراه . وعطارد من الكواكب الصغيرة فقطره لا يزيد على (٣١٠٠) ميل وعلى هذا فحجمه يعدل ٦ ٪ من حجم الأرض ، أما كتلته فتعدل جزءاً واحداً من (٢٤) جزءاً من كتلة الأرض ، وهذا ما يجعل

الجاذبية على سطحه ضعيفة إلى درجة لا تستطيع معها ذرات الهواء البقاء عليه ، إذ ليس فى جاذبية عطارد من القوة ما يجذب الذرات إليه ويحفظها على سطحه . وعلى ذلك فلا جوّ حوله ولا هواء . وما دام الأمر كذلك فلا ماء أيضاً . وهنا يمكن القول إن عطارد جرم قاحل ميّت لا حياة فيه . ويُرجح أن فى سطحه كثيراً من البراكين الخامدة وأن المواد التى يتركب منها هى نفس المواد التى يتركب منها سطح القمر .

وبالنظر لقرب عطارد من الشمس فهو يستمد من نورها وحرارتها أكثر من أى كوكب آخر ، فيبلغ ما يصيب مساحة معينة من سطح (عطارد) من النور والحرارة سبعة أمثال ما يصيب نفس المساحة من سطح الأرض . وحرارة الوجه المتجه نحو الشمس تقرب من (٣٥٠) درجة سنتغراد — وهذه تصهر الرصاص — بينما يُرجح أن الوجه الآخر يتعرض لبرد شديد حيث تصل البرودة نحواً من (٢٥٠) درجة مئوية تحت الصفر . ولم يقف الفلكيون فى معلوماتهم عند هذا الحد ، بل واصلوا بحوثهم ورصدهم واستطاعوا بالاستعانة بالمعادلات الرياضية أن يتنبئوا عن حركاته وأوقات مروره بين الشمس والأرض. والآن

يمكن تلخيص المزايا التى يختص بها عطارد دون غيره فهو أقرب الكواكب إلى الشمس وأسرعها دوراناً وأكثرها استقبالا لحرارة الشمس ونورها وأقلها كتلة وأصغرها حجماً باستثناء بعض الأقمار طبعاً .

حـ — الكوكب المتألق : الزهرة Venus

الزهرة أكثر الكواكب تألقاً ولمعاناً وهو سيار يبدو إما كوكب مساء بعد الغروب و إما كوكب صباح قبل الشروق . وقد يرى له أحياناً وفى أثناء النهار أوجه كأوجه القمر . ويرجح أن أحد وجهيه يتجه دائماً نحو الشمس . يبلغ متوسط بعده عنها (٦٧١٧٠٠٠٠) ميل ، ويدور حول الشمس فى مدة (٢٢٥) يوماً أى أن سنته تزيد قليلا على ثلاثة أخماس سنتنا . وهو يستقبل من حرارة الشمس ومن نورها ضعف ما تستقبله الأرض . وقطره (٧٧٠٠) ميل أى ما يقرب من قطر الأرض وعلى هذا فحجمه ٩٢٪ من حجم الأرض ، أما كتلته فتبلغ ٨١ ٪ من كتلة الأرض ، والرجل الذى يزن ٦٠ كيلوجراماً هنا يزن على سطح الزهرة ٤٩ كيلوجراماً . ذلك لأن قوة الجاذبية عليه أقل من

جاذبية الأرض . وهذه الجاذبية هى من القوة بحيث أنها تحتفظ بجو حول الزهرة ألطف قليلا من الجو المحيط بالأرض . وقد أثبت الرصد أن جو الزهرة ملىء بالغيوم يصعب معها رؤية سطحها ومعرفة تفصيلات ذات شأن عنه كما أنهـا تحول دون الوقوف على العناصر التى يتركب منها الجو . ولا بد أن يكون عنصر الأوكسيجين موجوداً على الزهرة ولكن ليس بالكثرة التى نعرفها على سطح الأرض ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى التفاعل الكيميائى بين الأوكسيجين والمواد التى يتركب منها سطح الزهرة ، وكذلك إلى عدم وجود خضرة عليها . ولا يخفى أنه لولا الخضرة الموجودة على سطح الأرض لما وجد الأوكسيجين بالنسبة الكبيرة الموجود عليها الآن فى جو الأرض ، فهى (أى الخضرة) التى تعمل على تزويدنا به وامداد الأرض بمقادير كبيرة منه . وقد دلت البحوث الدقيقة والأرصاد المضنية عن طريق التصوير الشمسى بأساليبه المتنوعة — كل هذه دلت على أن جو الزهرة يحتوى على ثانى أوكسيد الكربون بكميات كبيرة تفوق الكميات الموجودة فى جو الأرض . والآن . . . . وقد تم الكلام بإيجاز عن الزهرة ، نأتى إلى المريخ تاركين الأرض التى

تلى عطارد والزهرة فى بعدها عن الشمس وقد سبق لنا البحث فيها .

٤ — حديث الناس : المريخ Mars

شغل المريخ الناس وأصبح حديثهم فى مجالسهم العلمية وغير العلمية ، وتحدثت عنه الجرائد السيارة والمجلات على أنواعها . قال أناس عن المريخ انه مسكون وعامر بالأحياء ، وتصور آخرون مدنية أهل المريخ وكيف أنها أرقى من مدنية أهل الأرض . ولعل هذا التصور هو السبب فى اهتمام الناس به وشغفهم الشديد بمعرفة حقيقته .

هل المريخ مسكون ؟

هل يمكن الاتصال بمن على المريخ ؟

ما مدى تقدم أهل المريخ وهل هم أرقى منا ؟

هذه أسئلة يحاول البعض الإجابة عليها بانين أجوبتهم على الوهم والخيال . . . ويرى الناس فى ذلك طرافة ومتاعاً فيقبلون عليها إقبالاً يجعل الجرائد والمجلات تكثر من الكتابة فيه والتحدث عن سكانه . ويختلف المريخ عن عطارد فى كون

مداره خارج عن مدار الأرض، فهو أبعد منها عن الشمس، ولذلك لا نرى له أوجهاً كأوجه الزهرة أو عطارد . وقد حسب الفلكيون بعده عن الشمس فتبينوا أن متوسط بعده (١٤١٥٠٠٠٠٠) ميل وأنه يتم دورته حولها فى ٦٨٧ يوماً ، وعلى هذا فسنته تعدل سنة وعشرة أشهر ونصف شهر . وهو يدور على نفسه ويتم دورته هـذه فى ٢٤ ساعة و٤٠ دقيقة . ويتعاقب عليه الليل والنهار كما تتعاقب عليـه الفصول التى تتعاقب على الأرض ويستقبل من نور الشمس وحرارتها نصف ما تستقبله الأرض ، وهذا ما يجعل سطحه أبرد من سطحها ، وقد استطاع العلماء أن يحسبوا درجة الحرارة على سطح المريخ فى أوقات مختلفة وتوصلوا إلى نتائج استطاعوا بها تعليل كثير من الظواهر التى لوحظت عليه أثناء الرصد .

والمريخ أصغر من الأرض فقطره يبلغ (٤٢١٥) ميلا وبذلك يكون حجمه ١٥ ٪ من حجم الأرض . أما كتلته فهى ١١ ٪ من كتلتها ، وهذا يعنى أن قوة الجاذبية عليه أقل من قوة جاذبية الأرض . والرجل الذى يزن هنا ٦٠ كيلوجراماً يزن على المريخ ٢٤ كيلو جراماً هناك ، والحركات الصعبة هنا تصبح سهلة هناك

فلا تعب معها ولا صعو بة في إنجازها . ولقد رصد العلماء المريخ واهتموا بدرس سطحه وما يجرى عليه من ظواهر ، فزعم بعضهم أن الأرصاد دلّتهم على وجود ترع على سطحه وأن عمق بعض هذه الترع يبلغ (٥٠٠) قدم بينما بعضها الآخر واسع جداً . ويرى الفلكيون فى هذه الترع وسائل لخزن القوة والطاقة إذ تتولد الطاقة الكهربائية من رفع المياه إلى أعالى الترع ثم من تدفقها فيها . ويقول أحد الفلكيين انه لا سبيل لسكان المريخ إلى توليد الطاقة الحرارية والكهربائية بانياً أقواله هذه على آراء وجيهة قد يكون فيها شيء من الصواب .

ولقد درس الأستاذ لول Lowell الفلكى الأمريكى الشهير المريخ دراسة مستفيضة وظل يرصده عشرين سنة خرج بنتائج جمعها فى ٢٩ مادة تدور حول يوم المريخ وميل محوره على سطح فلكه ، وفصوله وسنته وما يظهر عند قطبيه من بقع ثلجية وما يطرأ عليها من ذوبان . وخرج من هذا بوجود بخار الماء . ويقول إن هذه التغييرات تحصل فى أوقات معينة . ثم تناول بحثه أيضاً جو المريخ وسطحه وما ينمو عليه من نبات وأنه خال من الجبال العالية والبحور . وأن البقع التى تقطع سطح المريخ والمنتشرة فى

كل الجهات ليست إلا نباتاً يتغير لونه بتغير الفصول وأن وجود النبات يقضى بوجود الأوكسجين والحامض الكربونيك والنتروجين

ويرى الأستاذ بكرنج الفلكى أن ترع المريخ شيء حقيقى لا خداع فى البصر، ويقول إنها مناطق كبيرة تنمو فيها النباتات ولها ألوان تختلف عن الأرض المحيطة بها . وإذا كانت الترع صناعية فتكون قد حدثت من أن سكان المريخ استنزلوا المطر بوسائل كهربائية فروت الأرض فى تلك المناطق ونما النبات فيها

وقد يستغرب القارىء إذا علم أن كبار الفلكيين يرون أن هذه الأقوال عن المريخ وترعه من وحى الخيال وصنع الأوهام والتصورات . ولكن يكاد يتفق الجميع على وجود تغيرات فصولية خاصة وأن الماء يتجمد فى فصل الشتاء على القطب الشمالى . وعند حلول فصل الربيع وفصل الصيف يذوب ما يجمد من الماء ويجرىء ماء إلى أراضى المريخ وأن هذا يسبب تغيرات فى شكل الأراضى هناك . ويقول جينز إن بعض الفلكيين ينسب هذه التغيرات إلى نمو أعشاب خضراء بينما يرى آخرون غير هذا ، إذ يرجعون السبب إلى سقوط مطر يروى صحراء من رماد بركانى لا حياة فيها .

ويحيط بالمريخ جو لطيف جداً بالنسبة إلى جو الأرض ، تندر فيه الغيوم ولا تهب عليه العواصف كما لا تثور عليه الأعاصير . ولقد دل المطياف على أن جو المريخ يحتوي على الأوكسيجين وبخار الماء ولكن بنسبة ضئيلة جداً . أما نسبة العناصر الأخرى كالنتروجين وثانى أوكسيد الكربون وغيرهما فهذا ما لم يستطع أحد البت فيه على الرغم من الأرصاد العديدة والتجارب الكثيرة

أقمار المريخ

وللمريخ قمران صغيران أحدا فوبوس Phobos والآخر ديموس Deimos يبلغ قطر الأول حوالى عشرة أميال وقطر الثانى خمسة أميال وهما قريبان من المريخ إذ يبعد الأول ٥٨٠٠ ميل كما يبعد الثانى ١٤٦٠٠ ميل . ولقربهما من المريخ فإنهما يدوران حوله بسرعة كبيرة فيتم الأول دورته فى ٧ ساعات و ٤٠ دقيقة ويتمها الثانى فى ثلاثين ساعة و ٢٠ دقيقة . ويتبين من زمن دوران هذين القمرين أن فوبوس يدور حول المريخ ثلاث مرات فى اليوم بينما يدور ديموس مرة فى اليوم الواحد . وينتج من دوران فوبوس (الذى يزيد على دوران المريخ) ظواهر

غريبة منها أن فوبوس يظهر من المريخ أنه يطلع من الغرب ويغيب فى الشرق بينما ديموس (وهو القمر الخارجى) يبدو أنه يطلع من الشرق . ومن الطريف أن فوبوس يمرّ أثناء دورانه فى الأوجه التى يمر فيها القمر من هلال إلى بدر . ويظهر هذا مرتين فى ليلة المريخ .

وباستطاعة سكان المريخ (إن كان مسكونا) أن يعرفوا الوقت بالدقة من أوجه هذا التابع (فوبوس) . وعلى ذلك تكون الطبيعة قد أوجدت لهم ساعة سماوية جميلة يعرفون منها الوقت لا تقف ولا يتطرق إليها الخلل .

هـ — أطفال الشمس

لاحظ العلماء أن هناك شقة واسعة بين المريخ والمشترى وقالوا : من المحتمل أن يكون فيها سيار يدور حول الشمس . وقد حاولوا أن يكشفوه وأن يعرفوا شيئاً عنه عن طريق الرصد فلم يوفقوا إلى ذلك . وفى بداية القرن التاسع عشر للميلاد كشف بعض الفلكيين أجراماً صغيرة أطلقوا عليها (النجيمات) أو (الكويكبات) عرفوا منها ما يزيد على الألفين . وقد أطلقنا عليها « أطفال

الشمس» لأنها صغيرة جداً بالنسبة إلى السيارات . وقد ظن كثيرون أن هذه الكويكبات دليل الخلل والفوضى في النظام الشمسى وأن السيارات ستتقلّص وتصبح صغيرة يجرى عليها ما يجرى على الكويكبات التى بدورها ستؤول إلى شهب ونيازك ، وعلى هذا قالوا : إن بداية الكون فى السدم ونهايته فى الشهب والنيازك.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذه الآراء لا تستند إلى علم أو دراسة بل هى مجرد تخمين لا أكثر . وقد أثبت البحث العلمى بطلانها وعدم صحتها .

وتحقق لدى الفلكيين والطبيعيين أن لا خلل ولا فوضى فى الكون ، وأن ما يسيطر على أصغر موجوداته يسيطر على أكبرها ، وأن الإنسان كلما تقدم فى وسائل الرصد وتفتحت أمامه المغلقات تجلى له أن الكون بأجزائه المختلفة المتعددة لا يتعدى دائرة من القوانين والنواميس لا يتطرق إليها خلل أو فوضى ، وأن ما يظهر للانسان شذوذاً دليل على أنه لا يزال عند عتبة اليقظة العقلية وقد عجز عن إدراك كنه هذا الشذوذ وحقيقته .

إن من يحاول الوقوف على عجائب الكون ويسعى لتفهم ما يجرى فيه من مدهشات وغرائب ويعمل على الإحاطة بالقوى

الطبيعية المتحكمة فيه يتبين أن ما ظنه شذوذاً وفوضى وهو فى الواقع اطراد ونظام . . .

والآن . . . ما هى هذه الأطفال ؟ . . وما خصائصها ؟ . . وما مقامها فى النظام الشمسى؟ هذا ماسنحاول الإجابة عليه بإيجاز .

تسير هذه الكويكبات أو الأطفال حول الشمس فى نفس الاتجاه الذى تسير به الكواكب السيارة ، وقد حسب العلماء سعة أفلاكها وأقطارها ووقفوا على كثير من خصائصها فوجدوا أن أكبرها (سيرس) لا يزيد قطره على ٤٨٠ ميلا ويليه (بالاس) الذى يبلغ قطره ٣٠٦ أميال ثم (فِستا) ويقدر قطره بـ ٢٤١ ميلا . هناك من الكويكبات ما لا تزيد أقطارها على ميلين . ويتراوح زمن دورانها حول الشمس بين ٧٦و١ ، ٧و١٣ من السنين أى أن طول السنة عليها يختلف ، فبينما سنة أقرب كويكب (سيرس) تعدل ٧٦و١ سنة من سنينا نجد أن سنة أبعدها (هيدالاكو) تعدل ٧و١٣ من السنوات .

أما أيامها فقصيرة جداً حسب الفلكيون أطوالها فوجدوا أن يوم (إروس) لا يتجاوز ست ساعات و ١٢ دقيقة ويوم (أونوميا) لا يزيد على ٣ ساعات ودقيقتين ، ويوم (سيرمنا)

يبلغ تسع ساعات وأربعــين دقيقة .

وهناك مجموعة من ستة كويكبات تسير وتتحرك بطريقة غريبة بحيث تكوّن مع الشمس والمشترى مثلثا متساوى الأضلاع. والكويكبات صغيرة جداً حسب الرياضيون أوزانهـا كلها (المعروف منها) فتبين لهم أن الوزن الكلى لا يزيد على جزء واحد من ألف جزء من وزن الأرض .

وتدل الحسابات وحركات الكواكب فى أفلاكها على أنه لا يمكن أن يزيد المجموع الكلى للكويكبات — ما كشف منها وما لم يكشف بعد — على جزء واحد من خمسمائة جزء من وزن الأرض . ولو كان أكثر من ذلك لحدث اضطراب فى فلك المريخ ولما التزم طريقه الحالية ولأقصى عنها بعض الإقصاء .

ولقد كشف العالم (وِتْ) فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد كويكباً صغيراً اسمه (إروس) يقع فلكه ضمن فلك المريخ وفى بعض الأحيان يتخطاه ، يبلغ قطره خمسة عشر ميلاً ويتم دورته حول الشمس فى سنة وتسعة أشهر ، طول يومه خمس ساعات وست عشرة دقيقة . وهذا الكويكب يدنو أحياناً من الأرض حتى يصير على بعد (١٣٨٤٠٠٠٠) ميل . ولقد

ساعد هذا القرب الفلكيين على رصده واستطاعوا من ذلك حساب بُعد الشمس عن الأرض وكتلة الأرض بدقة متناهية .

واختلف الفلكيون فى منشأ هذه الكويكبات، فمنهم من ذهب إلا أنها تناثرت من صدام كوكبين ، ومنهم من قال بأن سياراً حلّ به القضاء أى التمزيق والتناثر عندما ما اقترب قليلا من المشترى . والحقيقة أن العلم لم يصل فى هذه النقطة إلى درجة يرضى عنها العلماء و يطمئنون إليها . وقد تبدو هذه الكويكبات لا شأن لها فى علم الفلك ، فهى ليست أكثر من أجسام صغيرة جداً تسير حول الشمس ، ولكنها فى الواقع ذات قيمة وشأن فى بحوث الفلك الرياضى.. فمن حركاتها واقتراب بعضها من الأرض ومن دراسة تأثير المريخ فى بعضها الآخر ، تتكون لدى الفلكى مادة يمكن بها تحقيق بعض القياسات المتعلقة بالأرض والشمس ، كما تتكون لدى الرياضى مسائل طريفة فى حلها شحذ للعقول ومتعة .

و ــ الكوكب الكبير ملك السيارات : المشترى Jupiter

إذا جمعت الكواكب كلها وحسب وزنها لما بلغ نصف وزن المشترى . وهذا ما جعلنا نطلق عليه اسم الكوكب الكبير

وما جعل بعض الفلكيين يطلق عليه ملك السيارات .

يبلغ وزن المشترى ٣١٧ مرة قدر وزن الأرض كما يبلغ حجمه ١٣١٢ مرة قدر حجمها ، ومتوسط بعده عن الشمس ٤٨٣و٢٠٠و٠٠٠ ميل . وعلى هذا فهو يتم دورته حول الشمس فى ١١ سنة و١١ شهراً تقريباً . أما يومه فقصير جداً وذلك لسرعة دورانه حول نفسه ويقدر بعشر ساعات .

ونظراً لكون المشترى أبعد من الأرض عن الشمس فهو أقل استقبالاً لنورها وحرارتها من الأرض ومعدل الحرارة التى تصيب مساحة معينة فى سطح المشترى تساوى $\frac{١}{٢٧}$ مما يصيب نفس المساحة من سطح الأرض .

وما دام الأمر كذلك فبماذا نعلل اللمعان الذى نراه فى مركز المشترى ؟ إن هذا اللمعان المركزى دليل الحرارة الشديدة الموجودة فيه ، وقد حسبت فكانت فوق الغليان ، على حين ما يتلقاه من الشمس يجعل حرارته تحت الصفر بعشرات الدرجات . ولقد درس العلماء هذه النقطة — الحرارة المركزة — واستنتجوا أن هناك حرارة منبعثة من الكوكب نفسه وصادرة عنه وأن المشترى (أرض) فى دور التكوين وأنه لا بد أن تبرد بعد

آلاف السنين حيث تصبح ذات قشرة صلبة .

هذا رأى بعض الفلكيين ولا يراه آخرون ولا يأخذون به ، ولسنا فى مجال عرض الآراء فى هذا البحث فلنتركه للمطوّلات . أما جو المشترى فهو كثير الغيوم يمتد إلى آلاف الأميال ، وهو يحدث من الضغط ما لا يستطيع العقل تصوّره إذ يبلغ آلاف الأطنان على البوصة المربّعة ، وهذا الضغط العظيم يميع بعض الغازات وقد يحدث من جرّاء ذلك بعض ظاهرات تثير الدهشة والاستغراب . فلو فرضنا أننا وضعنا الهيليوم والإيدروجين تحت هذا الضغط لتميّع الإيدروجين ولبقى الهيليوم غازاً مضغوطاً .

وهذا الغاز المضغوط أثقل من الإيدروجين المتميع ، ولهذا فهو يرسب ويبقى السائل طافياً . وهذه ظاهرة تبدو غريبة وهى الإيدروجين المتميع يطفو على غاز الهيليوم . ولا بدّ أن يكون على المشترى ظاهرات من هذا النوع وغيرها مما ينتج معها علائم خاصة تدل على نشاط أكيد فى جو هذا الكوكب . ودلّ الرصد على أن هناك مناطق عريضة ومناطق ضيقة على سطحه موازية لخط الاستواء وتظهر زمناً ثم تختفى . ويرجع الفلكيون سبب هذه الظواهر إلى السحب الكثيفة المحيطة بالمشترى وإلى

الشقوق الموجودة فيها هذه السحب و إلى خصائص بعض غازاتها.
ولوحظ أن بقعة حمراء تسير على سطح المشترى طولها حوالى ٣٠٠٠٠ ميل وعرضها ٧٠٠٠ ميل يتغير لونها تدريجيا كما يطرأ على شكلها تغيرات كثيرة . ويقول العالم الفلكى مورل (Morrel) إن هذه البقعة الحمراء تمثل حادثاً كونياً خطيراً أصاب المشترى فى زمن مضى قد يكون قبل ٢٠٠ أو ثلاثمائة سنة . وهو يرجح أن نشوء هذه البقعة هو من اصطدام إحدى النجيمات به (أى بالمشترى) . ومن الغريب أنها تدور حوله فى تسع ساعات و (٥٥) دقيقة و (١٩) ثانية ولا يعلم لحد الآن تعليل لذلك . ويظن بعض الفلكيين أن هذه البقعة ستتجاوز المراحل التى أدّت بالقمر إلى الانفصال عن الأرض ، وأنه لا بدّ أن يأتى يوم انفصالها ولو بعد آلاف السنين ، وعندئذ تكوّن لنفسها مداراً تدور فيه حول المشترى وتصبح قمراً من أقماره .

وشاهد الفلكيون فى سنة ١٨٩٠ بقعة سوداء على سطح المشترى تسير بسرعة نحو البقعة الحمراء وقد أدركتها ولكنها لم تقترن بها ثم حادت عنها وسارت فى حاشيتها الجنوبية . وللآن لم يستطع العلماء تعليل هذه الظاهرة ولا الوقوف على ماهيتها .

أقمار المشترى :

لعل أجمل ما يحيط بالمشترى أقمـاره التى تسبغ على منظره جمالاً وبهاء . وقد كشف غاليليو الأربعة الأولى بمنظاره الشهير وكان ذلك فى أوائل القرن السابع عشر للميلاد ، وتبين له أنها تدور حول (المشترى) بسرعة عظيمة وهى دائماً تعطيه وجهها وأن أوضاعها فيما بينها تختلف اختلافاً بيناً كل ليلة وهى قد تختفى وراءه وقد تدخل ظله فلا تبين .

وظلت أقمار المشترى المعروفة أربعة حتى كشف الأستاذ ادوارد بارنرد E. Barnard فى مرصد لك Lick Observatory الأمريكى القمر الخامس وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد . وفى أوائل القرن العشرين كشف بعض العلماء فى المرصد المذكور القمرين السادس والسابع . أما القمر الثامن فقد كشفه أحد علماء المرصد الملكى فى مرصد غرينتش بانجلترا ، ثم كشف «نيكلسن» فى مرصد لك القمر التاسع وكان ذلك فى سنة ١٩١٤

وفى سنة ١٩٣٤ م أعلنت الدوائر الفلكية أن الدكتور « جفرز » Jeffers كشف عن جسم على مقربة من المشترى

قد يثبت أنه قمر عاشر. وطلب مرصد هارڤرد حينئذ إلى المراصد أن تتعاون على تحقيق هذا الكشف ومعرفة هل هذا الجرم قمر عاشر أو نجم . وفى سنة ١٩٣٨ أعلن مغهد كرينجى أن نيكلسن قد كشف القمر العاشر وقمراً آخر هو الحادى عشر. ومن المحتمل أن يكون هناك أقمار أخرى غير هذه تدور حول المشترى

وأكبر هذه الأقمار هى الأقمار الأربعة التى كشفها غاليليو إذ تتفاوت أقطارها بين ٣٠٠٠ ميل و ١٤٠٠ ميل بينما أقطار الخمسة الأخرى التى تليها تتفاوت بين ١٠٠ ميل و ١٥ ميلا ولبعض هذه الأقمار شذوذ . فبينما جميعها تدور حول أمها « السيار » من الغرب إلى الشرق نجد أن الأقمار الثامن والتاسع والعاشر تخرج على الإجماع وتدور فى الجهة المعاكسة ، وتسمى هذه الدورة — بالدورة التقهقرية — ولهذا أسباب حاول العلماء الوقوف عليها لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة يصح أن يقال عنها إنها قاطعة أو نهائية

ولأقمار المشترى منزلة عالية عند علماء الطبيعة والفلك ، إذ عن طريق رصدها أثناء خسوف أحدها استطاع العالم الفلكى الدنماركى رومر (Roemer) فى سنة ١٨٧٦ م أن يستنبط أن للنور سرعة محدودة وأن يحسب الزمن الذى يستغرقه الضوء

فى الانتقال من مكان إلى مكان ، فتوصل إلى أن سرعة الضوء (١٩٢٠٠٠) ميل فى الثانية بينما هى طبقاً للأرصاد الحديثة تساوى (١٨٦٠٠٠) ميل فى الثانية .

ز — « أجمل الكواكب » : زحل (Saturn)

زحل أجمل الكواكب ، سحر الناس بمنظره وخلبهم بحلقاته ليس كمثله كوكب ، فريد فى شكله ، وحيد فى شذوذه . تحيط به ثلاث حلقات مستوية دائرية يختلف منظرها باختلاف موقعه فمن هالات بيضوية حوله . . . إلى خط منير يقطعه ويمتد على جانبيه ! . . ومن أغرب ما نرويه أن حقيقة هذه الحلقات عرفت من المعادلات الرياضية . فلقد بين العالم الشهير « ماكسويل » أن هذه الحلقات تتألف من أجسام صغيرة جداً كثيرة العدد ، تدور حول الكوكب فى أفلاك دائرية تقريباً . . . ولقد أثبت (مبين الأطياف) أن دوران أجزاء الحلقات البعيدة أبطأ من دوران القريبة ، كما يرجح البحث العلمى : أن تكوّن هذه الحلقات راجع إلى اقتراب أحد أقمار زحل فنشأ عنه تفتت ذلك القمر إلى قطع صغيرة تكونت منها هذه المجموعة من الحلقات الثلاث . . .

وهذا جزاء كل قمر يقترب كثيراً من أمه ! فلو اقترب قمرنا من الأرض — وهذا ما سيجرى بعد ملايين السنين — فلا بد أن يجرى عليه ما جرى على زحل ، فيتفتت إلى قطع صغيرة ينشأ عنها حلقات حول الأرض على الشكل الذى تراه فى زحل .

وزحل من الكواكب البعيدة عن الشمس بالنسبة إلى الأرض ، يبلغ بعده ٨٨٥ر٩٠٠ر٠٠٠ ميل وطول سنته ٢٩ ونصف سنة من سنينا ، أما معدل قطره فيقرب من ٧١ر٥٠٠ ميل ، وعلى هذا فحجمه يساوى ٧٣٤ مرة قدر حجم الأرض .

وقد حسب الفلكيون كتلته بطريقة رصد أقماره وما يحدثه من تأثير جذبى فى المشترى فكانت كتلتهُ ٩٥ ٪ من كتلة الأرض . وما دام الأمر كذلك ، وما دام حجمه أكبر من حجم الأرض مئات المرات فهو أقل الكواكب كثافة إذ لا تزيد كثافته على ٧٢٪ من كثافة الماء مما يدل على أن قسماً كبيراً منه لا يزال فى الحالة الغازية .

ويوم زحل قصير لا يزيد على ١٠ ساعات وربع ساعة ، ويحيط به جوّ ملبد بالغيوم يمتد إلى آلاف الأميال . وعلى كل حال يمكن القول بأن معلوماتنا عن سطحه وما يجرى

عليه من تغيرات لا تزال فى أولى درجاتها .

وهو غنىّ بالأقمار يحيط به تسعة أقمار تبعد كثيراً عن الحلقات ويشذ أحدها (كما يشذ اثنان من أقمار المشترى) فيسير من الشرق إلى الغرب بينما الأقمار الثمانية الباقية تسير من الغرب إلى الشرق .

ومما لا شك فيه أن هذه الأقمار بحجومها المتباينة وحركاتها المتنوعة ، والحلقات بأقواسها الفضية الجميلة من أبهى المناظر التى تقع عليها العين وأروع المشاهد التى يراها الإنسان .

ع — الكوكب السماوى : أورانس "Uranus"

زحل أبعد الكواكب ، ولا كوكب بعده . هـذا ما قاله الأقدمون . وقديماً قال الشاعر :

وإن علانى مَنْ دونى فلا عجب

لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

ثم هبط هذا الكوكب من عليائه فإذا هنالك من الكواكب ما هو أبعد وأعلى منه (على رأى العرب) فقد فاجأ العالم الفلكى هرشل فى أواخر القرن الثامن عشر باكتشاف كوكب جديد أطلق عليه الفلكيون اسم (أورانوس) أو الكوكب السماوى .

وفى كشف هذا الكوكب ثبت أن المجموعة الشمسية أكبر مما كان يظن وأن الإنسان كلما كثرت آلاته وأدواته ودقت وكلما تقدم فى البحث العلمى ازداد معرفة بما حوله وتفهماً له ووقوفاً على دقائقه ، وفتح ما كان مستغلقاً واستطاع أن يوضح ما كان غامضاً .

بلغ بُعد أورانوس عن الشمس ٢و١٩ مثل بعد الأرض عنها ، وظهر من حركات أقماره وما يحدثه من خلل فى حركة زحل أن كتلته تساوى ٧و١٤ مثل كتلة الأرض . أما قطره فيعادل ٤ أمثال قطرها . ويحيط بأورانوس جوّ ملىء بالغيوم الكثيفة ويصل إليه قليل من نور الشمس وحرارتها . وهو (أى أورانوس) يدور على محوره فى عشر ساعات و (٤٥) دقيقة، أما سنته فتساوى ٨٤ سنة من سنينا . له أربعة أقمار تقع أفلاكها فى مستو واحد ، يدور أولها (وهو الأقرب) حوله فى يومين و ١٢ ساعة والثانى فى ٤ أيام والثالث فى ٨ أيام و ١٨ ساعة والرابع فى ١٣ يوم و ١١ ساعة .

ط — انتصارات الجاذبية

ورأى بعض العلماء أن هنالك اضطراباً فى فلك أورانوس، وقالوا بقوة تقصيه عن الطريق التى تحددها الحسابات والأرصاد ، وأن

هذه القوة ليست إلا نتيجة لجذب كوكب آخر غير معروف .
وقام الفلكيان (أدمس) الإنجليزى و (لفرييه) الفرنسى ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد بالبحث فى هذه المسألة فاستطاعا بقوانين الجاذبيّة ومعادلاتها الرياضية الملتوية ، وحساباتها الشاقة العويصة ، أن يعينا مكان السيار المجهول وأن يحددا موقعه والطريق التى يسير عليها حول الشمس . وقد وجه الفلكيون فيما بعد مراقبهم إلى مكان السيار الجديد (نبتون) فوجدوه فى الموضع الذى تنبأت عنه رياضيات الفلكيين أدمس ولفرييه .

كان هذا الحادث من أجل الحوادث التى أقامت الدليل على صحّة القوانين الطبيعية والمعادلات الرياضية ، وكان هذا الاكتشاف من العوامل التى زادت ثقة العلماء بمقدرتهم على اكتناه أسرار الكون وروائع الوجود ، كما كان أيضاً من العوامل التى دفعت بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية خطوات واسعة إلى التقدم والابتكار.

والسيار نبتون يبدو صغيراً لبعده عنا البالغ ٣٠ مرة قدر بعد الأرض عن الشمس. وهو أكبر من الأرض وأصغر من أورانوس. ويقدر الفلكيون قطره بـ٣٥٠٠٠ ميل ، وأعظم المسافة بينه وبين الشمس فإنه يتم دورته حولها فى ١٦٥ سنة أى أن سنته طويلة جداً

وكلما مرت عليه سنة شمسية مرت على الأرض ١٦٥ سنة ! ! ! . . .

تحيط به غيوم كثيرة ولا يصله من نور الشمس وحرارتها إلا جزء واحد من ٩٠٠ جزء مما يصل إلى الأرض . له قمر واحد يدور حوله (حول نبتون) فى ٥ أيام و ٣١ ساعة ، ويمكن القول أن العلم لم يصل إلى تفصيلات أخرى ذات شأن تتعلق بهذا الكوكب وتابعه .

والآن . . . نأتى إلى العضو التاسع الذى كشف حديثاً فى العائلة الشمسية . فقصته أخاذة فيها انتصار آخر للجاذبية ورياضياتها .

لاحظ الفلكيون أن أورانوس لا يزال ينحرف بعض الانحراف عن المسار الذى حسب له على الرغم من مراعاة جذب نبتون له وقالوا لا بدّ أن يكون هناك كوكب آخر وراء نبتون يعمل عمله فى أورانوس فيخرجه عن هذا المسار . وهنا أخذ الأستاذ لوول "Lowell" هذه المسألة على عاتقه ، وبعد سنين عديدة قضاها فى الحسابات الدقيقة وبين المعادلات والأرقام ، استطاع أن يتنبأ عن موقع السيار الجديد وعن حركته ، ولكنه مات قبل أن يتمكن من تحقيق وجوده عن طريق الرصد

وفى مارس سنة ١٩٣٠ أعلن نبأ كشف سيار جديد أطلق عليه اسم « بلوتو Pluto » فى المكان الذى تنبأ عنه لوول . وكان

لهذا الإعلان هزة فى الدوائر العلمية فى سائر أنحاء العالم. وقد تضاعفت ثقة العلماء بأنفسهم للمرة الثانية وأثبتوا للعالم أن علم الفلك ليس من العلوم المبنية على التخمين والحدس كما يظن كثيرون؛ بل هو علم قائم على أدق الحسابات الرياضية، والنظريات الطبيعية؛ كما تبين لهم أن قوى الطبيعة واحدة فما يسيطر هنا من النواميس والأنظمة يسيطر على الأجرام السماوية الأخرى. وأن جميع أجزاء الكون خاضعة لقوانين مماثلة، وأن لا شذوذ ولا فوضى فى نظام هذا العالم العجيب

وقال الأستاذ الفلكى (شابلى) بشأن بلوتو: إن لكشفه أهمية خاصة لأمور ثلاثة جديرة بالاعتبار.

أولا: أن كشف بلوتو يدل على قيمة الطريقة العلمية، كما أنه دليل على صحة التنبؤات المبنية على العلوم الرياضية .

ثانياً: ظهر أن النظام الشمسى أوسع مما كنا نظن وأن حجمه تضاعف بكشف هذا السيار.

ثالثاً: قد يلقى كشفه بعض الضوء على أصل النظام الشمسى، مما قد يساعد على حل معضلة أصل نشوء الأرض.

وقد وجد العلماء أن حركة (بلوتو) قريبة جداً من التى قال عنها (لوول)، وأنه يمتاز على غيره من السيارات فى عظم المسافة بينه

وبين الشمس التى تزيد على أربعين مرة قدر بعد الأرض عن الشمس.

وبلوتو هذا يقضى فى دورانه حول الشمس ٢٤٨ سنة من سنينا ، ولبعده عن الشمس لا يصله من حرارتها ونورها إلا مقدار ضئيل يجعل درجة الحرارة على سطحه تقرب من ٢٣٠ درجة سنتغراد تحت الصفر ، كما تجعل لمعانه ضعيفاً جداً . ويظن أن سطحه مغطى بطبقة من الثلج وثانى أوكسيد الكربون والأمونيا والنيتروجين ومركبات أخرى .

وعلى كل حال فلا تزال تفصيلات كثيرة عنه فى حاجة إلى بحث ودرس ورصد . وقرأت حديثاً فى إحدى المجلات العلمية أنه من المحتمل أن يكون هنالك سيار عاشر . ويقول بهذا أحد علماء مرصد جبل ويلسون، معتمداً فى ذلك على مذنب (هالى) الذى تأخر ثلاثة أيام عن موعده فى مكان ما فى رحاب الفضاء ، وقد لجأ إلى الرياضيات وحساباتها الدقيقة ، وتبين أن وجود سيار عاشر كتلته مثل كتلة (بلوتو) تقريباً وأقرب قليلا إلى الشمس من بلوتو ، كاف لإحداث هذ التأخير فى المذنب هالى. ولا ندرى فقد تكون حساباته صحيحة ودقيقة . ألم يكشف العلماء (نبتون) و (بلوتو) كما مرّ، بالرياضيات ومعادلاتها قبل المراصد وآلاتها ؟!.

(٥)

الحياة على الكواكب

لقد خطا علم الفلك خطوات فسيحة أثارت ذهن الإنسان وأثارت دهشته وأذهلته وأصبح بفضل ما اخترعه من الآلات الدقيقة وما جمعه من مبادىء العلوم الطبيعية والكيميائية واستعانته بالرياضيات ومعادلاتها من معقدة وغير معقدة ، أقول بفضل هذا كله استطاع العلماء أن يحلوا بعض المشكلات وأن يتفهموا بعض أسرار الكون .

من كان يتصور أن الإنسان يستطيع أن يعرف شيئا عن تركيب الشمس والأجرام السماوية . حتى الفيلسوف (كنت) وهو العالم ذو النظر الواسع والبصيرة النافذة لم يخطر على باله أن الإنسان سيصل إلى ما وصل إليه فى علم الفلك فقال : « سيبقى الإنسان جاهلا حقيقة تركيب الشموس ومعرفة عناصرها . » أما الآن فبفضل المختبرات والمراصد وما تحويه من آلات ومعدات عرف الإنسان بعض الشيء عن النجوم والكواكب

والعناصر التى تتألف منها ووقف على خصائصها وقاس حرارتها .

لقد ثبت للعلماء من دراساتهم للأجرام السماوية أنه ما من عنصر موجود فى تركيب هذه الأجرام إلا وفى الأرض مايقابله، وأن الذرة بكهاربها وبروتوناتها وما يجرى عليها من حركات تشبه النظام الشمسى والنظم الشمسية الأخرى ، أى أن الكون الأعظم يتألف من أكوان أخرى متشابهة فى التركيب والبناء ، وأن هناك تناسقاً ووحدة مادية كونية ، فالنجوم والجزر الكونية والشهب والنيازك والمذنبات وغيرها ـ كل هذه تتركب من العناصر الكيميائية التى نعرفها، وأن هناك قوانين تسودها ونواميس تسيطر عليها وعلى حركاتها ، وأنه ما من شىء إلا ويسير فى دائرة من الأنظمة لا يتعداها ولا يشذ عنها ؛ ولكن على الرغم من هذا كله ومن وقوف الإنسان على بعض الحقائق عن الكون لايزال هناك أبواب مغلقة يحتاج فتحها إلى تعمق وجهود متواصلة . ومن الغريب أن الإنسان كلما تقدم فى البحث انفتحت أمامه أبواب جديدة من المعرفة وزاد اعتقاداً بضآلته وإيماناً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية .

وهناك أسئلة لم يستطع أحد الإجابة عليها ، ويظهر أن أمام

هذه الأسئلة صعوبات وعقبات لا يزال العلماء يجاهدون للتغلب عليها واقتحامها بما يكتشفونه من قوانين ونواميس وبما يخترعونه من آلات وأدوات . وقد يكون السؤال الآتى من أكثر الأسئلة التى شغلت الناس وعلماء الفلك على السواء . هل يوجد فى الأجرام السماوية أو فى بعضها حياة كحياتنا ؟ أو هل فى الكون عوالم مسكونة غير الأرض ؟ وعلى الرغم من معرفة الإنسان كثيراً عن خصائص الكواكب والنجوم فانه لم يستطع أن يصل فى مسألة سكنى الكواكب إلى نتيجة قاطعة . ويعود السبب فى ذلك إلى عوامل عديدة أهمها : عدم تمكن الإنسان من اختراع آلات يستطيع أن يعرف بوساطتها وجود حياة على الأجرام السماوية . فقد يكون فى بعض الأجرام حياة ، وقد لا يكون ، وقد تكون الحياة عليها من نوع لا نعرف كنهه أو ندرك حقيقته . وبحثنا الآن يدور حول الحياة على الكواكب التابعة للنظام الشمسى ؛ ونعنى بالحياة الحياة التى تماثل الحياة على سطح الأرض ولا شأن لنا بغيرها إن كان فى الوجود أحياء أو حياة من طراز آخر . فالأرض كما لا يخفى هى بنت الشمس وهى أحد أفراد الأسرة الشمسية تدور حول

أمها الشمس كما تدور أيضا بقية السيارات .

وهذه السيارات . بما فيها الأرض ، انفصلت عن الشمس ثم كون كل واحد منها فلكاً يدور عليه . وقد مرت ملايين السنين قبل أن أصبحت الأرض فى حالة صالحة لظهور الحياة عليها . ولا بد أن التطورات التى مرت عليها الأرض مرت (وتمر) على سيارات أخرى ، وقد أدت (وتؤدى) إلى نفس النتيجة على غيرها من الأجرام ، ولـكن باستطاعة العلم من دراسة بعض السيارات أن يجزم بأن التطورات عليها لم تصل إلى درجة يصلح معها ظهور حياة أو أحياء .

فإذا أخذنا عطارد وهو أقرب السيارات إلى الشمس نجد أنه لا يحيط به جو ، وكذلك السيار بلوتو — وهو أبعد السيارات المعروفة عن الشمس — لا يحيط به جو ، وهذان السياران صغيرا الجرم إلى درجة أن جاذبيتهما لا تستطيع أن تحتفظ بالذرات الهوائية التى تفلت وتخرج إلى حيث الجاذبية أقوى . وينتج عن هذا عدم وجود أجواء على الأجرام الصغيرة .

أما المشترى وزحل فحول كل منهما غلاف جوى يمتد إلى آلاف الأميال ؛ ويحدث هذا الغلاف ضغطاً عظيما إلى درجة

أن الغازات لاتستطيع تحت تأثيره أن تبقى فى حالة غازية بل لا بد لها من أن تتميع .

ويرجع السبب فى وجود هذا الغلاف الجوى حول هذين الكوكبين وحول أورانوس ونبتون أيضاً إلى كبر أجرامهما، فكلما كان جرم الكوكب كبيراً استطاع (بفضل قوة جاذبيته) أن يحتفظ بالغازات حوله ويمنعها من الانفلات .

وعلى ذكر أورانوس ونبتون نقول إن البرودة عليهما أشد من البرودة على زحل والمشترى ، ويحتوى غلافهما الخارجى على غاز المستنقعات أكثر مما يحتوى على غاز النوشادر . ويعلل العلماء ذلك بأن النوشادر لا يبقى فى حالة غازية فى برودة كالبرودة الموجودة على أورانوس ونبتون .

يتبين مما مر أنه لا يمكن أن تكون بيئة هذه الكواكب الستة صالحة لظهور الحياة عليها . إذ كيف يمكن أن تكون صالحة وبعضها خال من الهواء والبعض الآخر محاط بالأجواء التى تمتد إلى آلاف الأميال محدثة من الضغط ما يستحيل معه وجود أحياء أو حياة مماثلة لحياتنا . بقى علينا أن نبحث عن الزهرة والمريخ وهما الكوكبان اللذان نجد فيهما بيئة أصلح من غيرهما.

لظهور الحياة أو لسكنى الأحياء على سطحهما . فالزهرة يحيط بها جو ملىء بالغيوم حتى يصعب رؤية سطحها من ورائه ، ولم يستطع العلماء أن يستوثقوا من وجود أوكسجين أو بخار ما ؟ ولكن ثبت لديهم وجود ثانى أوكسيد الكربون بمقادير كبيرة تفوق المقادير الموجودة فى جو الأرض . وثبت للفلكيين من دراسة هذا الكوكب أنه أصلح من غيره من حيث إمكان ظهور حياة عليه ، فليس هناك من العوامل الطبيعية والجوية ما يجعل معها الحياة عليه مستحيلة .

وأما المريخ فقد شغل الناس وشغل علماء الفلك أكثر من أى جرم سماوى آخر ، واختلفت الأقوال فيه وفى خصائصه ومميزاته ، وكثر التحدث عن هذه الأقوال ، وراحت الصحف والمجلات تكتب عنه كأنه مسكون ، وراحت تصف سكانه وأحوال معيشتهم ، فقال بعضهم إن سكانه احتفروا ترعاً لرى مزروعاتهم ، ترعاً هى فى الإتقان غاية وفى البناء آية يعجز أهل الأرض عن محاكاتها وعن الإتيان بمثلها ولو اجتمعوا لذلك .

والمريخ أكبر من القمر وأصغر من الأرض ، تشرق عليه الشمس كما تشرق على الأرض وتعطيه نوراً وحرارة . ويقول

السر روبرت بول : « إن صغر كوكب المريخ يزيد صلاحيته لإقامة الأحياء التي لها حركات مستقلة ؛ فثقل الأجسام على سطح المريخ أقل من ثقلها على الأرض حتى إذا أردت الطيران مثلا لم تجد فيه من الصعوبة ما تجده فوق سطح الأرض » وهو الذي يقول أيضاً : « والمريخ من حيث جرمه ليس فيه ما يمنع كونه داراً للأحياء . . . » وعلل البعض الظواهر التي تحدث في فصل الشتاء بأن بقعاً بيضاء تتكون على كل من قطبيه ثم تضيق هذه البقع بالتدريج حينما يقرب فصل الصيف . وقال آخرون إن في المريخ ماء ، وإن هذا الماء يتجمد ويصير ثلجاً عند القطبين . وهناك من العلماء من ينفي هذه الأقوال ويقول إنها من وحي الخيال .

وليس في المريخ بحور واسعة كبحور الأرض ، فسطحه بر لا بحر فيه ، يتعاقب عليه الليل والنهار كما يتعاقبان على الأرض ؛ ويومه أطول قليلاً من يوم الأرض ، وله غلاف من الهواء يحيط به ، ولكنه لطيف جداً بالنسبة إلى هواء الأرض ، وهو يتركب من الأوكسجين وبخار الماء . ولا شك أن مقدار الأوكسجين الموجود في جو المريخ أقل بكثير من المقدار الموجود في جو

الأرض . وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أنه ما دام الأمر كذلك (أى قلة الأوكسجين) فلا مجال لظهور الحياة عليه ، ولكننا نقابل ما تبادر إلى الذهن بالقول إن الأحياء الأرضية وجدت الأوكسجين فاستخلصته بالانتخاب الطبيعى لأنه أصلح من غيره لتوليد القوة باتحاده مع السكربون ، أى أن الأحياء تهيىء نفسها للأحوال التى توجد فيها ، وعلى هذا فلسنا فى وضع نستطيع معه الجزم بأن مقداراً معيناً من الأوكسجين ، أو أن الأوكسجين على إطلاقه ، ضرورى للحياة لا غنى لها عنه . فقد تكيف هذه الأحياء نفسها لتوافق الوضع الذى توجد فيه وتستخدمه لما فيه نفعها واستمرار حياتها .

ويقول الأستاذ (لوول) وهو الذى درس المريخ أكثر من غيره وإليه يرجع أكثر معلوماتنا عنه — يقول إن سكان المريخ أرقى من سكان الأرض ، ويستدل على ذلك بهندسة القنوات العجيبة الموجودة على المريخ ويجد فى صنعها المثير للاعجاب مايؤيد رأيه وأقواله .

وعلى فرض وجود أحياء على سطح المريخ فصغر جرمه وما ينتج عن ذلك من ضعف للجاذبية — كل هذا يقضى بأن تكون

تلك الأحياء كبيرة الحجم بالنسبة إلى الأحياء الموجودة على سطح الأرض ، كما أن كبر جرم الكواكب يقضى بوجود أحياء (إن كان ثمة حياة) صغيرة الجرم . . .

وعلى العموم فالزهرة والمريخ أصلح الكواكب لسكنى الأحياء عليهما ، وليس هناك من العوامل ما يمنع وجود حياة كحياتنا على سطحهما ؛ وحالة الزهرة الآن هى الحالة التى كانت عليها الأرض قبل ملايين السنين ، كما أن حالة الأرض بعد ملايين السنين ستكون مشابهة لحالة المريخ الآن ؛ إذ يقل الأوكسجين وتقل الحرارة التى تأتيها من الشمس . وقد يكون هذا هو السبب فى تعليل تفوق سكان المريخ (إن كان فى المريخ حياة) على سكان الأرض ، وقد يكون أيضاً هذا هو السبب الذى دفع بعض العلماء إلى تعليل تقدم سكان المريخ فى الحضارة والمهارة فى البناء والانشاء .

والآن . . . وقد أنهينا الكلام عن الكواكب التابعة للنظام الشمسى نقول إن فى الكون نجوما وشموساً لا عد لها . ولهذه كواكبها وما يتبعها من مذنبات وشهب ونيازك . ولقد دلت المراصد على وجود ٧٥ مليونا من العوالم التى تشبه عالمنا . والآلاف

الملايين من النجوم ، وكلما تقدم العقل البشرى وارتقت آلات الرصد تجلى للإنسان اتساع الكون بصورة أوضح وأجلى ، وثبت له أن ما كشفه من الكون إن هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع اكتشافه بعد . فكونٌ هذه حالته وهذا اتساعه من الطبيعى أن يكون فيه من الكواكب ما اجتاز (ويجتاز) الأدوار التى مرت (وتمر) على الأرض . ومن المحتمل جداً أن تكون بيئة بعض هذه الكواكب صالحة لسكنى أحياء أو ظهور حياة عليها

وأخيراً إذا سُئلت عن رأيى فى مسألة الحياة على الكواكب اكتفيت بالجواب التالى :

ليس الغريب أن تكون بعض الأجرام السماوية مسكونة وعامرة بالأحياء ، بل الغريب ألا تكون كذلك .

(٦)

آيتان من آيات الله

« إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلّوا حتى تنجلى »

(حديث نبوى شريف)

الخوف والقلوب :

كل ما فى الكون من ظواهر طبيعية وفلكية عجيب غريب يسير بحسب نظام خاص ، يسعى الإنسان إلى كشفه وتسيّره قوّة خارقة مبدعة منظّمة يعمل العلماء على الاقتراب منها والوقوف على حقيقتها . ولا يخفى أنّ من هذه الظواهر مايقع دائماً وبانتظام فى أوقات معلومة ، فلا نرى فى ذلك ما يثير الدهشة . ومنها مايقع نادراً ، وهذا هو الذى يحدث الخوف ويدخل القلق فى النفوس

أليس ظهور القمر فى أوجُه مختلفة من أعجب ما يراه الإنسان؟ وأىّ حدثٍ أعظم شأناً من ظهور الشمس يومياً من المشرق ثم فى اختفائها مساء فى الأفق الغربىّ ؟

ولكن تكرار حدوثهما بانتظام ودون انقطاع أزال الغرابة ، وجعل ذلك من الأمور العاديّة لا يقف عندها الإنسان وجلاً أو مكترثاً . وفى هذا العالم الملىء بالعجائب ظواهر طبيعية نادرة الوقوع يحدث بعضها مرة واحدة أو مرتين فى كل عام. و بعضها قد لا يحدث إلاّ مرّة فى كل خمسين سنة أو مائة سنة . ومن الطبيعى أن تظهر هذه للناس غير عاديّة فيحسبوا لها ألف حساب و يهتموا بها و يستولى عليهم الفزع إلى درجة تجعلهم يعدّون ذلك غضباً من الله أنزله عليهم .

وكان الناس ينتحلون لهذه الظواهر أسباباً ، منها ما هو معقول ومنها ما هو غير معقول . فقد زعموا أنّ تنيناً يبتلع الشمس والقمر ثم يذعر بالصياح فيتقيأهما . وكان الصينيون يتشاءمون من الكسوف . و يقال إنه وقع من قديم الأزمان كسوفٌ خاف الناس منه كثيراً ، مما جعل بعض الشعراء يذكرونه شعراً فقد جاء فى إحدى القصائد لشاعر صينىّ بمناسبة كسوف حصل للشمس ما معناه :

« كسفت الشمس وذلك شؤم كبير

« ثم صغر القمر وصغرت الشمس

« ولذلك ستسوء حالة الناس على الأرض

« وهذا إنذار سوء من الشمس والقمر

« ساءت الأحكام فى البلاد كلها

« لأن السيادة ليست فى يد الصالحين

« خسوف القمر أمرٌ عادى

« وأما كسوف الشمس فما أشأمه .. »

وفاة ابن الرسول الأعظم :

جاء فى البخارى «عن . . عن مغيرة بن شعبة قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله عليه السلام يوم مات ابراهيم (ابن رسول الله) فقال الناس: كسفت الشمس لموت ابراهيم، فقال رسول الله (ص): « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى تنجلى . . »

وبذلك يكون الرسول الأعظم صلوات الله عليه قد وضع حداً لسخافات المنجمين وأقوالهم . ولاعتقادات العامة فى أسباب الكسوف وغيرها . وبيّن أن الظواهر الطبيعية والكونية لا تحدث لموت أحد ولا لحياته ، بل إنها تسير بحسب نظام

أبدعه مبدع الـكائنات ، تشهد على عظمته وحكمته و بديع أمره فى خلقه وتنطق بكمال علمه ونفاذ مشيئته وتدل على قدرته وجلاله .

الكسوف والخسوف :

والآن . . . ما الـكسوف ؟ وما الخسوف ؟ وما أسبابهما ؟

إن الأجرام السماوية ليست متساوية الأبعاد عن الأرض ، ومن هذا يصدف أن يمر جرم أمام جرم آخر بيننا و بينه فينتج عن ذلك حجب الجرم الثانى عن نظرنا ، فنى الـكسوف يتفق أن يمر القمر بين الأرض والشمس بالتمام فيحجب نورها عنا . وهنا يخطر للقارىء أن يسأل : كيف يمكن للقمر أن يحجب نور الشمس وهى أكبر منه بكثير ؟ والجواب هو أن الشمس والقمر يظهران كأنهما متساويا السعة لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس . وتـكاد تـكون النسبة بين بعد الجرمين المذكورين عن الأرض تساوى النسبة بين سعتهما ، وحينئذ يتفق مرور القمر بيننا و بين الشمس تماماً . فالذين فى المـكان المقابل لمركزها يرون القمر عند تـكامل الـكسوف قد غطى وجه الشمس كله . وهذا ما نطلق عليه الـكسوف الـكلى . و إذا

كانت الشمس فى أقرب بعدها عنا فإن وجهها يكون أوسع من وجه القمر ويرى أنه غطى وجهها كله وترك حلقة ضيقة حوله ، وهذا ما يسميه الفلكيون بالكسوف الحلق . وإذا مر قرص القمر أمام جانب من قرص الشمس فإن الكسوف يكون جزئياً ، وقبل تكامل الكسوف الكلى أو الحلق يمر القمر على وجه الشمس ، وعند تكامله (تكامل الكسوف) يأخذ القمر فى الانجلاء عن وجه الشمس تدريجياً وببطء إلى أن يتم الانجلاء وترجع إلى حالتها الأولى فى البهاء والسناء . وأكثر ما يحدث فى السنة خمسة كسوفات ، وأقل ما يحدث كسوفان !

أما الخسوف فيختلف عن الكسوف ، فليس بيننا وبين القمر أجرام يمكن أن ينتج عن مرورها حجب ضيائه ، وإذن فكيف يحصل الخسوف ؟ وهو أمر شاهده الناس وتحدثوا عما يحدثه من رهبة وجلال .

للأرض ظل يمتد وراءها إلى مسافة تقرب من ٩٠٠ ألف ميل ، فإذا اتفق ووقع القمر — وهو الجرم الوحيد الواقع ضمن هذه المسافة — فى هذا الظل أثناء سيره فى فلكه حول الأرض حصل خسوف ، فإذا صدف ووقع كله فى الظل شمله خسوف

لذلك الجزء يطلق عليه خسوف جزئي . وقد استطاع الفلكيون أن يحسبوا أوقات الكسوف والخسوف ، وأن يتنبأوا عن حدوثهما وقد جاءت حساباتهم دقيقة إلى درجة تثير الدهشة والإعجاب !

وقد لا يحدث فى العام خسوف ما وقد يحدث كسوفان وثلاثة خسوفات ، وأكثر ما يحدث خمسة كسوفات وخسوفات ، وفى غالب الأحيان لا يزيد عدد الكسوفات والخسوفات على أربعة

المناظر الجذابة :

قد يكون منظر الكسوف ولا سيما الكلى من أبهج المناظر وأكثرها وقعاً فى النفوس ، فعند الكسوف الكلى ترى المشاعل وهى نتوآت تندلع فوق سطح الشمس إلى مئات الألوف من الأميال من بخار الايدروجين والجير ، وقد أسبغت الحرارة الشديدة على الأشعة الصادرة منها لوناً أحمر . ويرى أيضاً ألسنة تنبعث منها نار حمراء كما يرى الإكليل — وهو أشعة محيطة بالشمس ذات لون أخضر ونور لؤلؤى ، ففى كسوف أواخر مايو سنة ١٩٠٠ قال أحد العلماء الذين رصدوهُ من بلاد الجزائر

إن الإكليل المحيط بقرص الشمس كان كبيراً جداً ومشرقاً يبلغ عرض هالته قدر قطر الشمس، وقد نتأ عنه لسانان كبيران أحدهما إلى أعلى والآخر إلى أسفل . ولما تم الكسوف برد الهواء وأظلم وجه الأرض وشعر الناس كأن زوبعة دنت منهم، وقد بقى الاكليل منظوراً دقيقة ونصف دقيقة بعد تمام الكسوف . وظهر عطارد والزهرة كما ظهر معهما نجمان آخران، وتغير لون السماء من أزرق إلى رمادى، ولون الأشجار من أخضر إلى قرمزى . ويقال إنه عند حدوث الكسوف فى ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ ظهر الاكليل بشكل جذاب مبهج زاد فى بهائه الألوان البديعة التى رؤيت فيه من أبيض وبرتقالى وأصفر وأحمر وبنفسجى . وفى كسوف مايو سنة ١٩١٥ ظهرت نجوم كثيرة وكان الاكليل واضحاً جداً . ويقول جينز : «إنه عند كسوف ١٩١٩ ظهر نتوء بدا للعالم على صورة آكل ضخم من آكلة النمل يبلغ البعد بين خرطومه وذيله ٣٥٠ ألف ميل وهو حجم لو تيسر لحيوان لابتلع الأرض كلها كما تبتلع الحبة . ثم رفع ذلك المخلوق خرطومه وذيله على سطح الشمس . . وزاد فى عدد أرجله وأخذ يقفز إلى أعلى فوصل إلى علو ٤٧٥٠٠٠ ميل وعندئذ حال غروب الشمس دون الاستمرار

في مراقبة ما كان بعد ذلك من غريب أحواله »

وعند الكسوف يستعد العلماء فى كل الأقطار لرصد الشمس ودرس أحوالها وسطحها ، ويذهبون إلى الأماكن التى يُرى فيها الكسوف كليًّا ويستعملون كل ما لديهم من الوسائل وآلات الرصد لزيادة معلوماتهم عن الشمس وللوقوف على التغيرات التى تحصل على سطحها ، وعن العلاقة بينها وبين ما يحصل من الظواهر الجوية على الأرض .

وأخيراً وقبل الختام أوجّه نظر الصيادين إلى كثرة السمك الذى يخرج إلى الشاطىء عندما يظلم وجه الأرض عند الكسوف الكلى — وهذه فرصة سانحة لهم . فما عليهم إلا أن يلقوا شباكهم وأنا الكفيل بأن يسحبوها إلى الشاطىء مثقلة بأنواع الأسماك .

(٧)

الأحجار السماوية

النجوم المتساقطة :

كثيراً ما يرى الناس فى الليل أجساماً تنقض من السماء ولها ذنبٌ من شرر ! وكثيراً ما يسمعون عن أجسام سماوية سقطت إلى الأرض ! . . .

ما هذه الأجسام ذات الذنب النارى ؟

وما تلك الأجسام التى تظهر كالنجوم المتساقطة ؟

من أين أتت وما حقيقتها ؟

هل لها تأثير فى الأرض أو فى سكانها ؟

ومن الطبيعى أن تكون هذه الأسئلة حديث الناس ، ومحل استغرابهم ، وموضع دهشتهم ، ومن الطبيعى أيضاً أن يسيطر خوف على بعض الناس عند ما يرونها ، أو يحيطهم فزع عند سقوطها إلى الأرض

ومن الغريب أن العلماء قبل القرن التاسع عشر للميلاد

لم يعتقدوا بروايات التاريخ التى تتعلق بهذه الأجسام ، وكانوا يعدون الكلام عنها نوعا من الخرافة أحدثه الخيال وأوجدته رغبة الإنسان فى التحدث عن الخوارق !

ولكن حدث فى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد أن انقض جسم كبير من السماء فى إحدى مدن فرنسا ، فأثار سقوطه مجمعها العلمى فى باريس ، ودفعه إلى البحث فى هذه الأجسام وحقيقتها ، ومنذ ذلك الحين بدأ العلماء يوجهون عنايتهم إليها ، ووصلوا إلى نتائج يجدر بالمتعلمين والمثقفين أن يلموا بها ولو باختصار ، ففى ذلك متاع عقلى ولذة فكرية .

والآن . . . نأتى إلى هذه الأجسام فنجد أنها ليست إلا كتلا من المادة كانت تسير حول الشمس بسرعة معلومة ثم اقتربت من فلك الأرض فجذبتها ودخلت بذلك فى جوها ، ونظراً للسرعة العظيمة التى تدخل بهـا الجو (وتقدر بأكثر من ٢٥ ميلا فى الثانية ! !) فانه يحدث احتكاك شديد تتولد منه حرارة عظيمة تحرق الجسم الساقط . فاذا كانت هذه الكتل صغيرة فانها (أى الحرارة) تبددها تبدد البخار قبل الوصول إلى الأرض ، وتعرف هذه بالشهب ومفردها شهاب . وإذا كانت كبيرة فقد لا تستطيع

الحرارة أن تبددها ، وحينئذ تسقط إلى الأرض وتعرف (بالنيازك) ومفردها (نيزك) ويطلق عليها بعض الفلكيين الأحجار الجوية . أما الحرارة التى تتولد من احتكاك الشهاب أو النيزك بالهواء فعظيمة جداً إلى درجة أنها تصهر قسما من سطح ذلك الجسم الجوى، وكلما اقتربت من الأرض ازدادت كثافة الهواء وارتفعت الحرارة فيكثر القسم المصهور الذى يمسحه الهواء عند السقوط ، فيظهر كأنه ذنب من شرر نارى على النحو الذى يراه أكثر الناس. ولم يستطع العلماء معرفة السبب فى بقاء ضوء الشرر بضع دقائق بعد احتراق الجمر النيزكى ، وكذلك لم يتحقق بعد ما ادعاه بعض العلماء من أن السبب يرجع إلى وجود الفوسفور فى الأحجار . وقد وجد أن سطح النيازك عند سقوطها يكون دائما ساخناً وداخلها بارداً . وفى بعض الحالات يحدث عند الاحتكاك انفجار ، وهذا يضعف قوة الجسم فيسقط قطعاً صغيرة ملتهبة ، وعند عدم حصول شىء من هذا يغوز الجسم الساقط فى الأرض .

أصل النيازك :

لقد تضاربت الآراء واختلفت الأقوال فى أصل الشهب والنيازك : فمن قائل إن الشهب تصعد من الأرض كما يصعد

البخار من الماء وتنتشر فى أعالى الجو ، ثم تأتى عليها أحوال معينة فتحولها إلى شهب فتجذبها الأرض وبعد ذلك تنزل إليها . ومن قائل إن الشهب تنقذف من براكين القمر بسرعة تزيد على قوة جذب الأرض فتفلت منه وتدخل ضمن جاذبية الأرض فتجذبها . وقد فند الفلكيون هذه الأقوال وتبين لهم أنها ضرب من التخمين لا ترتكز على براهين علمية ولا تساير كثيراً من القوانين والنواميس الطبيعية .

وعلى هذا فليست الشهب والنيازك أجساما أرضية أو قمرية ، ولكنها على الأرجح آتيـة من الفضاء ، انقذفت فى الأصل من جوف السيارات العظام ، كما تنقـذف المواد من الشمس فى هذه الأيام .

وقد تكون من بقايا السديم الأصلى الذى تكونت منه الشمس والسيارات . ولقد حللت أكثر النيازك التى نزلت إلى الأرض فوجد أنها تحتوى على أكثر من ثلاثين نوعاً من المواد المعروفة على الأرض ، كالحديد ، والأوكسجين ، والنيكل والسيليكون والمغنسيوم والقصدير والنحاس والكوبلت والكلسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والكبريت .

ويقال إن بعض هذه المواد تكون نوعا من المركبات غير الموجودة على الأرض وهى من خصائص النيازك . وقد أحميت هذه الأحجار فوجد أنها تخرج أنواعاً من الغاز كالايدروجين والنيتروجين والهيدروكربون وأول أكسيد الكربون ،

ومن طريف ما يروى بصدد المعادن والعناصر التى تتألف منها النيازك أنه سقط فى سنة ١٦٢٠ م فى البنجاب حجر جوى عمل من حديده ومواده الامبراطور (جها نكير) سيفاً كانت العامة تدعوه بسيف الصاعقة ! .

الوقت والأحجار :

يحتك بجونا عدد كبير جداً من الشهب ، ويقدر بأكثر من ٢٠ مليونا ، عدا الشهب التى لا يمكن رؤيتها إلا بالتلسكوب ، وعدد هذه يفوق العدد الذى نراه بالعين المجردة أربعين مرة . ويكثر وجود الشهب بعد منتصف الليل ، إذ يكون العدد الذى يمكن رؤيته فى الساعة ضعف العدد الذى نراه بعد الغروب . ويتراوح وزن الشهاب بين جرام ومائة جرام ،أما النيازك فهى أجسام صغيرة جداً بالنسبة إلى الأرض ؟ منها ذلك النيزك

الموجود فى المتحف الأمريكى بنيويورك ، والذى يزن (٣٦) طناً ونصف طن ، وحجمه (٣٨٥) قدماً مكعبة . ولعل النيزك الذى سقط ، عام ١٩٠٨ م فى جهات سيبريا قرب (فنوفارا) أكبر نيزك عرف حتى الآن و يقدر وزنه بأكثر من ١٣٦ طناً !

و يبلغ ما ينزل من رماد وحجارة النيازك على الأرض أكثر من ٤٠ ألف طن فى كل يوم !

وهنا لابد من أسئلة ترد من القارىء حول هذه الأطنان :

أليس لها تأثير فى حركة الأرض ؟

ألم تحدث هذه أضراراً

لقد حسب الفلكيون التأثير الذى تحدثه هذه الأطنان فى الأرض فوجدوا أنه يلزم ألف مليون سنة لتكتسى الأرض منها ، طبقة سمكها ٥و٢ سم . ومن الطبيعى أنه سيكون لهذه الطبقة تأثير فى الأرض فتقلل طول السنة جزءاً واحداً من ألف جزء من الثانية بعد مرور مليون سنة

ومن هنا يتبين القارىء الأثر البسيط الذى تحدثه النيازك فى الأرض وحركتها ، وعلى هذا فلا خوف منها على الأرض ، ولا من احتمال إبطاء حركتها

التاريخ والأحجار :

إن للظواهر الفلكية والجوية تأثيراً فى النفوس ، فحوادث الكسوف والخسوف وذوات الأذناب وغيرها لها روعة هى أفعل عند الناس من أى روعة تحدثها ظواهر أخرى ، وقد يحدث انقضاض الشهب بكثرة خوفاً وفزعاً عند العامة ، فيتذكرون الحشر وأهواله ، وقد يأخذون من ذلك علامة على غضب الله عليهم . ولقد ذكر لنا التاريخ حوادث كثيرة عن الشهب والنيازك وما أحدثته من خوف فى النفوس وأضرار على الناس ؛ من ذلك ما جاء فى تاريخ الصين أنه كان فى كانون الثانى (يناير) من سنة ٦١٦ قبل الميلاد فسقط حجر جوى قتل عشرة أشخاص وحطم بعض العربات ، وأنه فى القرن العاشر سقطت أحجار جوية نارية أحرقت عدة بيوت ، وأنه فى القرن التاسع عشر للميلاد فى شهر تشرين الثانى (أكتوبر) سقط حجر جوى انفجر عند قلعة (لوزير) أحرق حاصل قمح وأهلك بعض الأغنام

وروى بعض المؤرخين الفرنسيين أن شهب السماء انقضت انقضاضاً عظيما فى الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) عام ١٩٠٥

كان منظرها يوحى إلى المشاهدين منظر انهمال المطر الغزير أو تناثر البرد ؛ وقد أوجد هذا الانقضاض تشاؤماً فى النفوس وخاف الناس من انقلاب عظيم فى المسيحية . ويقال إنه فى آب (أغسطس) سنة ١٨٦٠ م انقض نيزك ، واستمر فى انقضاضه ثمانى ثوان قطع فيها ٢٤٠ ميلا ، وشاهده سكان كثيرون فى المدن الأمريكية . وانقض فى آب (أغسطس) سنة ١٧٨٢م نيزك فى إيطاليا ، وبدا للناظرين كالمشعل الموقد فى السماء . ويقال إنه فى سنة ١٨٤٦م سقط حجر جوى فى المقاطعة الفرنسية (هوت غارون) أحدث دوياً كالرعد وأحرق عدة محاصيل وقتل بعض الأغنام . ولعل النيزك الكبير الذى سقط عام ١٩٠٨ فى سيبريا من أكثر النيازك أثراً ، فقد كان له دوى هائل وصوت يصم الآذان استمر عدة دقائق ، وقد أحدث عطباً فى الأبنية والمساكن الموجودة بجوار مكان السقوط حتى الأماكن التى تبعد أكثر من ١٠٠ ميل قد تأثرت به وحدثت فيها أضرار جمة . وعلاوة على ذلك فقد أثرت حرارة هذا النيزك فى الهواء فارتفعت حرارته ، وحصل فيه من ذلك تمدد مما أدى إلى وقوع حرائق عديدة فى الأشجار القريبة ؛ وسجلت آلات الزلازل الهزات التى أحدثها النيزك المذكور ، وكانت بعض هذه

الآلات تبعد عن مكان الهزة نحو ٣٠٠٠ ميل

وجاء أيضاً أنه بينما كان بعض العمال يضعون أساس جسر على نهر فى فرنسا فى عام ١٨٣٢ م إذ رأوا الشهب تنقض لامعة، فأعجبهم المنظر فى بادىء الأمر، ولكن لم يكد يمضى بعض الوقت حتى تكاثر انقضاضها لدرجة استنار الأفق بلمعانهـا، فخافوا واستولى عليهم الرعب وتركوا الجسر فزعين من هول الحادث ، يقول بعضهم لبعض إن الساعة دنت، ويقول آخرون إن السماء انشقت وها هى ذى تقذف بالنيران الزرقاء أنهاراً . ووصف بعضهم هذا المنظر فقال إنه رأى حديداً أحمر مشتبكا فى الجو، وقال آخر لرفيقه يحدثه عن هذه الظواهر : إن السماء كانت ترمى الأرض بسهام من نار !

ومن غريب الصدف أنه فى ليلة وفاة الخليفة ابراهيم بن محمد (وكان ذلك فى شوال عام ٢٨٩ هـ) انقضت الشهب انقضاضا كبيراً لدرجة استنار بها الفضاء، وخيل لبعض الناس أن عيون السماء تبكى نجوما على الخليفة الراحل .

(٨)

ذوات الأذناب

أبو تمام والمذنبات :

كان الناس فى القرون الوسطى يخافون من أكثر الظواهر الطبيعية ولا سيما المذنبات ، وكان الملوك والأمراء وذوو النفوذ يأخذون برأى المنجمين قبل الشروع فى أى عمل من أعمالهم . ويروى أن المنجمين كانوا حذروا المعتصم بالله من فتح عمورية عندما عزم على الاستيلاء عليها ، وقالوا له : إنا نجد فى الكتب أنها لا تفتح وقت نضج التين والعنب !

ولكن الخليفة الحازم العاقل لم يسمع لأقوالهم وسار بجيشه وفتح عمورية وكان انتصاره مبيناً . وهنا يأتى دور أبى تمام حبيب بن أوس فيمدح الخليفة المنتصر ويذكر له فتح عمورية فى قصيدة خالدة يحمل فيها على المنجمين ويكذبهم فى تنبؤاتهم واختلاقاتهم ويقول لهم : إن العلم الحق إنما هو فى السيوف وليس فى النجوم ، وإن أحاديثهم كذب لا أصل لها :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية ، بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقــــة
ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ويظهر أن المنجمين كانوا خوفوا الناس عند ظهور المذنب سنة ٨٣٧ م — ٢٢٢ هـ أى قبل فتح عمورية بسنة واحدة فتراه يقول فى ذلك :

وخوفوا النـاس من دهياء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

وهذا المذنب هو مذنب « هالى » ، وقد قال عنه ابن الأثير: « . . . . وفى هذه السنة ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقى يرى نحواً من أربعين ليلة وله شبه الذنب ، وكان طويلاً جداً فهال الناس ذلك وعظم عليهم . . . . »

وبينما نرى أبا تمـام لا يعبأ بالمذنبات ولا يعتقد بما نسج المنجمون حولها من خرافات وتنبؤات ويضرب بأقوالهم عرض

الحائط نجد أن ملك فرنسا لويس الأول بن شارلمان قد استولى
عليه الخوف من ظهور المذنب الذى ظهر أيام المعتصم ، وقلق
لذلك أشد القلق ، و بلغ به الفزع درجة جعلته يدعو المنجمين
ليقولوا شيئاً عن هذا النجم [فى رأيه] وليتنبؤوا له عن خبره .
فقالوا له : إن النجم المشار إليه نذير من الله ينذر باقتراب أيام
السوء لكثرة المعاصى التى يقترفها الإنسان . ويقال إن الملك
منذ ذلك الحين أصلح حاله ورجع إلى الله فبنى الكنائس وشجع
الأديرة .

وقد ظهر أيضاً مذنب (هالى) سنة ١٤٥٦ م ومر على مقربة
من الأرض وامتد ذيله كالسيف المسلول ، وكان ظهوره بعد
فتح القسطنطينية و إيغال السلطان محمد الفاتح فى أوربا ، فتشاءم
منه أهل أوربا ، واتخذوا من ظهوره علامة سماوية على غضب
الله تعالى ! لاسيما وقد دخل العثمانيون القسطنطينية ، وفر أهلها
منها وامتد الفتح العثمانى إلى البلاد الأوربية . وقد نسبوا
كل ذلك إلى المذنبات كما نسبوا إليها كل ما يصيبهم من رزايا
وفتن وقتل وخسف وغير ذلك .

المذنبات وأقسامها :

والآن ... نأتى إلى هذه الظواهر التى تظهر فى أوقات مختلفة وفترات متباعدة فى الفضاء وهى أجرام فى أفلاك أهليليجية حول الشمس تقترب منها ثم تبتعد عنها كثيراً ، وهذه الأفلاك غير ثابتة بل تتغير من وقت لآخر . وهناك عوامل عديدة تؤثر فى سيرها وفى موقعها، ولعل جذب السيارات لها من أهم تلك العوامل.

ولهذه الأجرام ذنب طويل هو السبب فى تسميتها (بالمذنبات) أو (ذوات الأذناب) يتكون من مادة لطيفة جداً لا تحجب رؤية النجوم الصغيرة التى وراءها (ولا يسرى هذا القول على النواة) وهى ألطف من الهواء المحيط بالأرض ألف مرة . وتتألف أجسام المذنبات من رأس ونواة وذنب . فالرأس يختلف بحسب المذنب ، فقد يكون صغيراً جداً حتى يرى كالنجم وقد يكون كبيراً جداً حتى يرى كالقمر . أما النواة فلا ترى دائماً فى المذنبات ، ويرجح أنها مؤلفة من أجسام نيزكية صغيرة وقد تكون (كما فى بعض المذنبات) لامعة جداً تضاهى لمعان الزهرة. وأما الذنب فهو مادة لطيفة على هيئة مروحة كبيرة تتجه نحو الجهة

المقابلة للشمس ، ويختلف طولهُ فقد يملأ الشقة بين الشمس والأرض . ويقول بعض علماء الفلك إن المذنب هو مجموع أجرام نيزكية يحيط بها ويتخللها جو غازى يجعلها منيرة وظاهرة «للعين» بسبب المجازى الكهربائية .

ويرجح بعض الباحثين أن نواة المذنب تتألف من أجسام نيزكية صغيرة ؛ فاذا دنت من الشمس ارتفعت حرارتها كثيراً وخرجت منها غازات تدفعها أشعة الشمس بما فيها من قوة الدفع فتظهر وراء النواة مثل ذنب لها وتكون منيرة بنور الشمس . ويقول آخرون إن أذناب المذنبات تتولد من كهربائية تتكهرب بها دقائق المادة المنتشرة فى الفضاء وتظهر كأذناب من نور وراء المذنبات . وهناك رأى ثالث يقول بأن هذه الأذناب ليست إلا ظواهر بصرية أى أن نور الشمس يخترق رأس المذنب ويظهر وراءه كذنب من نور .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه المذنبات وزن ولـكنه صغير جداً بالنسبة إلى الأرض أو السيارات إذ لا يزيد على جزء من مليون جزء من وزن أحدها .

أشهر المذنبات :

تظهر المذنبات فى أوقات مختلفة رصد العلماء منها حتى الآن أكثر من خمسمائة كلها تابعة للنظام الشمسى . وقد ظهر مذنب كبير فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قيل إن طول ذنبه كان كبيراً جداً . وكذلك فى سنة ١٣٣٧ م ظهر مذنب كبير ، ومذنب سنة ١٦٧٩ م أفزع العالم و بقى ظاهراً أكثر من خمسة أشهر وكان قريباً من الأرض . ويقال إنه فى سنة ١٧٧٠ م ظهر مذنب شديد اللمعان اقترب من الأرض . وكان له ذنب طويل جداً امتد فى عرض السماء لمسافة ٣٦٥ مليوناً من الأميال . وظهر فى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد مذنب عظيم جداً حسب (هرشل) الفلكى الشهير طول ذنبه فوجده أكثر من ١٠٠ مليون ميل وعرضه أكثر من ١٥ مليون ميل ، وكذلك مذنب (إنكى) من أشهر المذنبات وهو يدور فى فلكه كل ثلاث سنوات وثلث سنة . وقيل إنه فى سنة ١٨٣٦ م كشف ضابط نمسوى مذنباً أطلقوا عليه اسم (مذنب بيلا) وقد فزع منه الناس واهتموا به ، ووجد أنه يدور دورة كل ست سنوات

و ٣٨ أسبوعاً وقد ظهر عدة مرات بعد كشفه . وفى سنة ١٦٨٢ شهد (ادموند هالى) ظهور مذنب كبير وقد سماه العلماء «مذنب هالى » نظراً لاعتناء هالى بدراسته ، وقد استنتج من حساباته أن هذا المذنب يظهر كل ٧٥ سنة وتنبأ بظهوره سنة ١٧٥٧ م وقد حدث فعلاً ما تنبأ به . وفى سنة ١٨٥٨ ظهر مذنب كشفه العالم (دوناتى) ودرس حركاته وطبائعه وكان شديد اللمعان وقد قيس ذيله فوجد أن طوله بلغ ٤٠ مليوناً من الأميال وكان على وشك الاصطدام بالزهرة . وظهر سنة ١٨٦١ م مذنب هائل كشفه (تبوت) فى سدنى باستراليا وقاس قطر نواته فكان ٤٠٠ ميل وذنبه مستعرض على غير نظام بلغت سرعته (١٠) ملايين من الأميال فى اليوم . ويقال إنه فى يونيو تلك السنة مرت الأرض فى طرف ذنبه وشعر الناس بأشعة فصفورية . وهذا المذنب هو الذى أحدث خوفاً وجزعاً فى لبنان فكانت العجائز يضرعن إلى الله ويسألنه العفو والمغفرة ويتوسلن إليه أن يرفع عن الناس مقته وغضبه .

الاصطدام بالأرض :

قد يقترب مذنب من أحد السيارات وقد ينتج انحراف فى

فلك المذنب ، ولكن لحد الآن لم يثبت تأثير ما للمذنبات فى السيارات أو فى الأرض . ولا عجب فكتلة المذنب إذا قورنت بكتلة أى كوكب كان ، كانت صغيرة جداً . ولقد سبق أن مرت الأرض فى ذنب مذنب سنة ١٨١٩ م وسنة ١٨٦١ م ولم يقع عليها ما يؤثر فى حركتها أو يزعج سكانها حتى إنهم لم يشعروا بهما . فلولا الحسابات الرياضية والفلكية لما عرفنا شيئاً عن مرورهما واصطدامهما بكرتنا . و إذا اتفق واصطدمت الأرض بنواة أحد المذنبات العظيمة كنواة المذنب الذى ظهر سنة ١٨٥٨م فقد تحترق الأرض من جراء ذلك ولكن هذا بعيد الوقوع لأسباب ليس هنا محل ذكرها أو شرحها .

واستولى على الناس خوف عظيم فى سنة ١٩١٠ م عند ما اقترب مذنب (هالى) من الأرض وكان من المحتمل جداً أن يصطدم بها ، وذهب بعض الفلكيين إلى أن هذا الاصطدام قد يكون بلاء على الأرض ليس من ناحية تأثيره فى حركتها بل من الغاز السام (السيانوجين) الموجود بكثرة فى المذنبات . لكن مر المذنب ولم يحدث بحمد الله ما يفسد هواء الأرض أو يسمم جوها .

وثبت من الرصد أن المذنبات التى كشفها الفلكيون ووقفوا على بعض تفصيلات تتعلق بحركاتها وأفلاكها وأقسامها — تابعة للنظام الشمسى متحركة فى أفلاك حول الشمس ، وكذلك وجدوا أن بعضها لا يستطيع التماسك بل يتحطم ويتناثر إلى قطع كثيرة ومن ذلك تتكون طوائف تسير حول الشمس فى اتجاه المذنب .

(٩)

أكوان فى كون

١ — المسافات بالسنين

الشموس نجوم ، والنجوم شموس ، نورها وحرارتها من نفسها تشعهما إلى الفضاء فى جميع جهاته وبهما تمد الكواكب القريبة بالطاقة والجمال . تزين السماء وتغدق عليها الروعة والجلال . يرى فيها الناظر آيات المصور البارئ ناطقة بعظمته وقدرته دالة على الابداع فى أبلغ صوره وأسماها . وما شمسنا — وهى مصدر الحياة والجمال على الأرض — إلا نجم من هذه النجوم المنتشرة فى الكون ، فهى متوسطة الجرم على الرغم من كونها تبدو كبيرة بالنسبة إلى سائر النجوم . وبين هذه ما هو أكبر منها كما أن بينها ما هو أصغر منها . وهى (أى النجوم) ليست قريبة بعضها إلى بعض كما نراها ، بل موزعة فى الفضاء ومتفرقة على أبعاد شاسعة بلغت من الكبر درجة تتضاءل أمامها أقيستنا التى نستعملها كالكيلومتر والميل ، وقد أصبحت غير صالحة كوحدات لقياس المسافات بين

الأجرام السماوية . لهذا لم ير الفلكيون مناصاً من الاستعانة بسرعة النور الذى يسير فى الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل !! . . . فإذا ضربت هذه السرعة فى (٦٠) ثم فى (٦٠) ينتج مايقطعه النور فى الساعة الواحدة . وإذا ضربت الناتج الأخير فى (٢٤) ثم فى (٣٦٠) ينتج ما يقطعه النور فى سنة واحدة وهو حوالى ٦ ملايين مليون ميل ! ! ! . . . هذا العدد الضخم يستعمل كوحدة فى قياس المسافات بين النجوم ويُطلق عليه اسم (السنة الضوئية) . .

إن أقرب نجم إلينا بعد الشمس هو (الفاقنطورس) يصل نوره إلى الأرض فى أربع سنوات ونصف سنة ، أى أن بعده عنا يزيد على ٢٥ مليون مليون ميل ! . . وبتعبير آخر إن النور الذى نرى به قنطورس الآن خرج قبل أربع سنوات وربع ، فلو تلاشى النجم لسبب ما فاننا نبقى متمتعين بنوره فى المحل الذى كان فيه مدة أربع سنوات وربع سنة غير شاعرين بما حدث له . وكذلك يصل نور النجم المسمى بالنسر الطائر فى ١٤ سنة ونصف سنة ، وذلك لأن بعده عنا يبلغ (٨٧) مليون مليون ميـل . أما نور نجم السماك الرامح فيصل فى مدة خمسين سنة أى أن

بعده عنا يبلغ (٣٠٠) مليون مليون ميل !! . . .

ومن النجوم ما هو أبعد من النسر الطائر والسماك الرامح بكثير . وقد يذهل القارىء إذا علم أن نور بعض المجموعات النجومية والسدائم الكونية قد خرج منها منذ ألوف السنين فنور سديم الدجاجة الذى نراه بها الآن خرج منها منذ (٥٠٠٠) سنة ، ونور سديم العقاب خرج قبل (١٧٠٠٠) سنة وكذلك بعد السديم فى المرأة المسلسلة يزيد على (٦٠٠) ألف سنة ضوئية !! . . . ويقول جينز Jeans : « ... إن أبعد ما كشفت عنه التلسكوبات من السدائم هو من البعد بحيث يستغرق الضوء فى الوصول إلينا منه نحو ١٤٠ مليون سنة !!! . . . »

وقد يرى بعض القراء أن فى هذه الأرقام المخيفة خيالا رائعاً أنتجته قريحة الفلكيين الخصبة .

للفلكى أن يقول ما يشاء . قد يكون هذا لسان حال بعض الذين يطلعون على هذا الكتاب . ومن يستطيع أن يحاسب الفلكى على أقواله ؟ بل من الذى يجهد نفسه ويحملها عناء وتعباً ليتحقق من هذه الأقوال ؟ وهل فى الإمكان التحقق من ذلك إذا أراد ؟

ألا يقضى تمحيص هذه الأقوال وتدقيق تلك الأرقام درس علم الفلك وأصوله ؟

قلنا إن بين النجوم والسدائم ما تقاس أبعادها بألوف من سنى الضوء وملايينها ، ولا بد أن يكون هناك طرق لحساب هذه الأبعاد استطاع الفلكى أن يصل بها إلى ما وصل إليه من نتائج رائعة فى اتساع الكون وحجمه . ولدى الفلكى أربع طرق لقياس المسافات العظيمة بين أجزاء الكون :

أولاها — طريقة لقياس زاوية الاختلاف وهى تستعمل للنجوم القريبة

وثانيتها — قياس أبعاد مجاميع النجوم بسير النظام الشمسى فى الفضاء

وثالثتها — قياس البعد من مقابلة نور النجوم المجهول بُعدها بنور النجوم المعلوم بُعدها من حيث تأثيره فى ألواح التصوير الشمسى

ورابعتها — بوساطة آلة مبين الأطياف (المطياف) .

وعلى الرغم من هذه الطرق لا يزال هناك نجوم وسدائم عجز العلم عن قياس أبعادها والوصول إليها حتى عن طريق تلسكوب

جبل ويلسون ، وهو من أكبر تلسكوبات العالم إذ يبلغ قطر عدسته العاكسة مترين ونصف متر . ومن يدرى ؟ فلعل التلسكوب الجديد الذى قطر عدسته خمسة أمتار يكشف لنا عن أجرام أخرى ، لا سيما وأن مدى النظر سيكون فى هـذا العمل الهندسى العظيم ثلاثة أضعاف ما هو عليه الآن . ومع ذلك فمجال النظر قصير جداً والأقسام التى أصبحت معروفة من الكون ليست شيئاً بالنسبة إلى ما لا يزال مجهولاً .

ويهتم الفلكى بحساب الأبعاد ويصرف لها أكثر جهوده وعنايته ، وفيها يرى بعض خاصيات النجوم وما يساعده على التفريق بين اللمعان وقوة الإنارة وعدم الخلط بينهما .

لماذا يبدو أحد النجوم ألمع من الآخر ؟ وهل شدة اللمعان دليل على القرب ؟ وهل ضعف لمعان نجم ما دليل على بعده أم على مقدار قوة إنارته ؟

هذه أسئلة استطاع الفلكى من خلال حسابات الأبعاد أن يجد لها أجوبة شافية ، كما أنه تمكن من هذه الحسابات أن يزيل بعض التعقيد والغموض المحيطين ببحوث اللمعان وقوة الإنارة .

والنجوم فى حركة دائمة ، ولم يكشف العلم ذلك إلا فى أوائل

القرن الثامن عشر للميلاد ، فلقد كانت الفكرة السائدة أن النجوم ثابتة لا حركة لها . والثابت أن حركة النجوم لا تظهر للعين لبعدها الشاسع عنا ، وقد نحتاج إلى أجيال وعصور ليُعرف هل هناك تغيير فى مواقع بعضها . وقد وجد الفلكيون أن معدل حركة النجوم تقدر بمئات الملايين من الأميال فى السنة ، وأن هناك اختلافاً كبيراً وتغييراً بعيد المدى فى حركاتها ، فمنها السريع ومنها البطئ .

ب - الأقزام والمردة

تختلف ألوان النجوم بحسب درجات حرارتها ، فمنها الحمراء ومنها الصفراء ومنها البيضاء . وثبت لدى الفلكى أن الحمراء هى أقل النجوم حرارة تبلغ درجة حرارة سطحها ١٤٠٠ درجة مئوية بينما حرارة الصفراء فى حدود ٣٠٠٠° مئوية . أما البيضاء فدرجة حرارة سطحها تزيد على ٣٩٠٠٠° مئوية .

ولقد تبين كذلك أنه يمكن من هذه الألوان وعوامل أخرى الاستنتاج بأن أقدار النجوم تختلف أيضاً ، فالنجوم الحمراء هى الكبيرة يسع بعضها مليون شمس من شمسنا أو عدة ملايين منها ،

فمنكب الجوزاء مثلاً نجم كبير يسع ٢٥ مليون شمس . ونجم (الميرة) يسع أكثر من ٣٠ مليون شمس . وقد أطلق الفلكيون على هذا الصنف من النجوم «المردة» الحمراء — مردة لأنها كبيرة وحمراء لأن لونها أحمر أو ما يقرب من ذلك .

أما البيضاء فهى النجوم من الأصناف الصغيرة . وأصغر نجم كشف فى هذه هو نجم (فان مانن) لايزيد قدره على الأرض إلا قليلاً . وقد سمى الفلكيون هذا النوع « الأقزام » البيضاء — أقزام لأنها صغيرة نسبياً و بيضاء لأن حرارتها الشديدة جعلتها بيضاء .

وتمتاز هذه النجوم على غيرها بأن موادها تكون فى حالة تكديس ، أى أن مواد النجوم الصغيرة هى فى حالة تكديس ومحشودة فى حيز صغير جداً جداً . ولعل أروع ما جاء فى هذا الصدد ما كتبه الفلكى الشهير جينز فى كتابه النجوم فى مسالكها ترجمة الأستاذ الكردانى . قال : « . . . . وهذه الطريقة فى تكديس مادة النجم تعطينا أصغر أصناف النجوم ، ذلك الصنف الذى يصفه الفلكيون (بالأقزام البيضاء) . ومن الأمثلة المتطرفة لهم نجم فان مانن الذى ليس بأكبر من الأرض . ومثل أقل

تطرفاً رفيق الشعرى الخفى . إنه قدر الأرض نحو ثلاثين مرة .
لكن لما كان يحتوى من المادة قدر ما تحتويه الأرض (٣٠٠٠٠)
مرة فلا بد أن يكون تكديسه أبلغ من تكديس الأرض (١٠٠٠٠)
مرة . ومن ذلك يتبين أن الفطرة لا تزال قادرة على أن تعلمنا
شيئاً فى فن التكديس . فلو استطعنا أن نكدس بضائعنا
الأرضية تكديساً يقرب من تكديس تلك النجوم عند مراكزها
لأمكننا أن نحمل مائة طن من التبغ فى كيس التبغ العادى وعدة
أطنان من الفحم فى كل جيب من جيوب الصدار . فإذا قارنا
المادة الصلبة التى على الأرض بالذرات المسحوقة التى تتكون
منها تلك النجوم كانت مادة الأرض كأرفع خيوط العنكبوت
وما هى إلا نوع من بيوت العنكبوت تسبح فى الفضاء . . . »

وعلى ذكر أقدار النجوم نقول إن الشمس من القدر المتوسط
المعروف (بنجوم التتابع الرئيسى) Main Sequence Stars
وهذا النوع هو الصنف الغالب فى السماء إذ يشمل ٨٠ ٪
من نجومها .

ولا يتسع المجال للتفصيل فى هذه البحوث . فمن يرغب
فى الاستزادة فليرجع إلى كتب الفلك العالية وكتب الأستاذ جينز .

حـ — نجوم لا عديد لها

لا يعرف الفلكى المبالغة ، وهو صادق فى أرقامه وحساباته ، دقيق فى قياساته ، استغل المعادلات والنواميس فى الكشف عن مجاهل هذا الكون ، فوقف على ما هو أعجب من السحر ، ورأى ما لا يخطر على قلب بشر .

قال الشاعر العربى : « وفى السماء نجوم لا عديد لها » فظن الناس أن هذا هو نسج الخيال ومبالغات الشعراء ، و بقى هذا الظن سائداً إلى أن تقدم الفلك ، وارتقت وسائل الرصد فيه ، فثبت أن الكون يحتوى من النجوم ما لا قِبَل لنا بعدها أو حصرها ، وأن عددها فى الواقع كبير إلى درجة يعجز الإدراك عن تصورها .

أليس دليلا على عظمة الكون أن الفلكيين لم يستطيعوا أن يعرفوا عدد النجوم الموجودة فى هذا الفضاء الواسع ؟ لقد ثبت لهم أنه كلما كبر قطر العدسة العاكسة وكلما ارتقت وسائل التصوير الفوتوغرافى زادت معلوماتهم عن النجوم وخصائصها ، وظهر لهم أنّ الفضاء أوسع مما يتصور الإنسان ، مهما شط به الفكر وحلق به الخيال .

لقد تقدمت وسائل الرصد تقدماً مكنت الفلكى أن يرى

أكثر من (١٥٠٠) مليون نجم ؛ وهناك من العوامل والأسباب ما يجعل الفلكيين يقدرون العدد الحقيقى بأكثر من هذا ، ويحملهم على القول بأن المرصد سيريهم أضعاف هذا العدد الضخم.. وأن فى هـذا العالم من السدائم ما يحتوى على نجوم تم تكوينها ونجوم فى دور التكوين ، وأن السديم الواحد يحتوى على أكثر من ألفى مليون نجم !! . . . وأن عدد هذه السدائم كبير جداً يزيد على المليونين .

ومن أغرب ما يقرؤه الناس أن الفلكيين يرون أن معلوماتهم عن الفضاء ليست شيئاً بالنسبة إلى الأجزاء المجهولة ، وأن الأقسام المعروفة منه ليست إلا جزءاً زهيداً بالمقابلة إلى اتساع الكون وعظمته !

ألا تدل هذه الملايين وألوفها من النجوم والسدم على أن الفضاء مزدحم ؟ . . ألا تذهب معى إلى أن هذا الازدحام قد يؤدى إلى تصادم بين الأجزاء ، قد ينتج عنه فوضى واختلال فى مناطق الاصطدام ؟ ؟ . .

إن البحوث الطبيعية بمساعدة قوانين الرياضيات العالية تنفى الازدحام ، وتنبىء بأن الاصطدام نادر الوقوع ؛ فالفضاء واسع

جداً ، وهو أوسع مما يتصور أكثر الناس خيالاً . وقد تعجب إذ ترى أن هذه الملايين من ملايين النجوم والسدم لا تشغل إلا حيزاً صغيراً من الفضاء ، وأن معدل المسافة التى تفصل أى نجم عن آخر تقدر بثلاثمائة مليون مليون ميل ! . . .

هذه المسافة تجعل الاصطدام بعيد الوقوع غير محتمل ؛ فلو أطرنا فى جواء القارات الخمس عشر نحلات لكان احتمال تصادم اثنتين منها أقرب من احتمال تصادم نجمين فى الفضاء . . ولكان جو الأرض أكثر ازدحاما بالنحل من ازدحام الفضاء بالنجوم ! ! . . . وعلى الرغم من الفراغ العظيم الموجود بين النجوم ، فإن مجموعها الكلى كبير جداً يستحيل تصوره . يقول جينز فى كتابه «النجوم فى مسالكها» ترجمة الأستاذ الكردانى :

« . . . ولكى نتخيل المجموع الكلى لنجوم السماء — عدا السدائم الخارجة عن المجرة — يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب كل منها مثل هذا الكتاب (أى كتاب النجوم فى مسالكها) فجميع حروف الطبع فى جميع صحف كل كتب المكتبة عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى اليوم

فلا بد لنا من (٧٠٠) سنة لقراءة هذه المكتبة عن آخرها .
كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة (١٥٠٠) نجم فى الدقيقة
لاستغرق عدّنا النجوم كلها ٧٠٠ سنة . . . » .

المجتمعات النجمية :

وتجتمع النجوم فى أشكال كروية تعرف بالعناقيد أو (المجتمعات النجمية) و يختلف عدد النجوم فيها ، فبينما يحتوى مجتمع (الجاثى) على أكثر من (٥٠٠٠) نجم ، نجد أن مجتمع (هرقل) يحتوى على (١٠٠) ألف نجم . وتدور نجوم كل مجتمع بعضها حول بعض خاضعة لنظام الجاذبية العام .

وهذه المجتمعات على أبعاد شاسعة عنا تتراوح بين (١٨٠٠٠) سنة ضوئية و (١٨٠٠٠٠) سنة ضوئية ، فمجتمع الجاثى (مثلاً) يصل نوره إلينا فى (٣٣٠٠٠) سنة ، وهو يبعث من الضوء مليونين ونصف مليون مرة قدر ما تبعثه الشمس ، ومع ذلك لا يرى إلا بصعوبة . فلا عجب إذن إذا ظهرت المجتمعات الأخرى — التى أبعادها تزيد على (٣٣) سنة ضوئية — كلطخ سحابية فى السماء .

وهنا قد يتبادر إلى ذهن القارئ :

إذا كان فى المجتمع ألف من النجوم فى حركة دائمة ، فلماذا لا يقع اصطدام بينها ؟

من المحتمل أن يقع اصطدام ، ولكن هذا نادر جداً . ويعود السبب إلى الحجم الكبير الذى يشغله المجتمع ، فلقد دلت الأرقام على أن قطر بعض المجتمعات يزيد على ألف سنة ضوئية ، وأن معدل المسافة بين نجم وآخر فى أى مجتمع لا يقل عن عشرة ملايين مليون ميل .

ومن هنا نتبين السبب فى عدم احتمال وقوع أى اصطدام بين النجوم فى هذه المجتمعات .

المجرة :

نجوم كثيرة مبعثرة فى السماء ومتوزعة فى مختلف نواحيها ، بينا تراها مزدحمة فى محل تراها قليلة متفرقة فى آخر .

هل من نظام يسيطر على ترتيبها وتوزعها ؟

هل من قانون يسير عليه انتشارها وتوزعها ؟

يظن كثيرون أن ترتيب النجوم لا يشمله نظام ولا يحيطه

قانون ، وأنها منتشرة دون قاعدة . والواقع غير هذا ، فلقد تحقق لدى الفلكيين أن النجوم تشغل فراغاً ذا أشكال خاصة . ففى السماء لطخ سحابية وأقواس من النور الضعيف تمتد فى طولها وعرضها ؛ منها (من هذه الأقواس) مايمتد من الأفق إلى الأفق ، مكوناً شريطاً من نور يحيط بالدنيا ويقسمها إلى قسمين متساويين يطلق عليها اسم (المجرة) أو (درب التبانة) أو (الطريق اللبنى) .

ما هذه القوس؟ وهل هى سحابة نور ضعيف كما يبدو للناظرين؟

قال الأقدمون إن هذه القوس ، ليست إلا طريقاً تمر عليه الأرواح التى انتقلت إلى العالم الثانى . وقال آخرون غير هذا القول ، فظنوا أنها من نوع قوس قزح . وقد بقى أمر هذه القوس خافياً على الناس غير معروف لدى العلماء ، إلى أن اخترع التلسكوب فظهر منه أن المجرة ليست إلا مجموعة من نجوم متنوعة ، ومجتمعات نجمية متعددة وغيوم شمسية ، وما شمسنا إلا عضو من أعضاء أحد المجتمعات النجمية لهذه المجرة . ويقدر العلماء عدد نجوم المجرة بأكثر من (٣٠٠٠٠٠) مليون نجم ، تتحرك فى جهات مختلفة ، وتتبع نظاماً خاصاً سائرة فى أحد مجريين عظيمين مما يدل على أن المجرة سديم لولبي فى حركة دائمة . وقد قرر الفلكيون

المعدل السنوى لسير النجوم فيه بستمائة مليون ميل !! . . .

أما حجم المجرة فكبير جداً وفوق التصور ، وقد استطاع العلماء أن يحسبوا قطرها ، فوجدوه فى حدود الـ (١٥٠٠٠٠) سنة ضوئية !! . .

ولكى يدرك القارئ عظم المجرة واتساعها ليفرض أن قطر المجرة يساوى (٨٠٠٠) ميل ، وهو طول قطر الأرض ؛ فحينئذ (وجريا على هذه النسبة) لا تزيد المسافة بين الشمس والأرض عن جزء واحد من عشرين جزءاً من البوصة ، وتكون الشمس بمثابة هباءة من التراب لا ترى إلا بالمجهر ، وإذا لجأنا إلى شعاع النور وجدنا أنه يصل إلينا من الشمس فى ثمانى دقائق .

ويحتاج إلى إحدى عشرة ساعة ليقطع النظام الشمسى .

ويصل إلى أقرب نجم فى أربع سنوات ونصف سنة ، كما يقطع المسافة بين الشمس ومركز المجرة فى (٣٢٠٠٠) سنة .

أما المجرة كلها فان الشعاع يقطعها فى (١٥٠٠٠٠) سنة ! . .

والحقيقة أننا ما عرفنا اتساع المجرة إلا عن طريق القوانين الطبيعية بمساعدة العلوم الرياضية . ولم يقف العلماء بها عند حد ، بل سخروها لحساب كتلة (المجرة) فكانت النتيجة

أن كتلة المجرة تبلغ (١٦٠٠٠٠) مليون مرة قدر كتلة الشمس. و إذا علمنا أن كتلة الشمس هى (٢) متبوعاً بسبعة وعشرين صفراً من الأطنان تبين لنا أن كتلة المجرة هى العدد (٣٢) يتبعه (٣٢) صفراً من الأطنان !!..

ولا شك أن كتلة كهذه تدل على الاتساع العظيم الذى عليه المجرة بحيث يندر أن يقع فيها اصطدام بين أى نجمين، على الرغم من دوران نجومها وحركاتها. و إذا حدث اقتراب نجمين أحدهما من الآخر، فإن هذا الاقتراب يسبب اندلاع اللهب وخروج المواد النارية إلى مئات الألوف من الأميال. فإذا ما ازداد الاقتراب نتج عنه تمزيق لبعض مواد النجمين التى تتجمع على كر العصور، وتكون سيارات تدور حول أحد هذين النجمين؛ وبذلك ينشأ نظام شمسى جديد يبقى سائراً فى الكون إلى أن يقع له اصطدام آخر. وهكذا ...

ولعل فى قصة تكوين نظامنا الشمسى أروع القصص، يحسن بنا أن نأتى عليها، لما لها من وثيق الاتصال بوجود كرتنا وشقيقاتها السيارات. ولقد أتى (جينز) فى كتابه «النجوم فى مسالكها» على هذه القصة (ترجمة الأستاذ الكردانى) فكان

موفقاً فى سردها؛ ونحن هنا نرجع إليها :

« يقترب من شمسنا نجم اقتراباً لم يسبق لأى نجم آخر قط أن اقتربه، فينشىء فيها مدوداً أعلى من أى مد أنشىء فيها من قبل — مدوداً كجبال عظيمة من غاز نارى تسير فوق سطح الشمس . وأخيراً يزداد اقتراب النجم الثانى من الشمس ، بحيث لو كان شخص واقفاً على سطحها لبدا له ذلك النجم مالئاً جزءاً كبيراً من السماء ؛ وفيما هو يقترب هكذا تصير قوة جاذبيته من العظم بحيث تنتزع قمة الموجة المدية من الشمس ، وتتكاثف ذاتها قطرات؛ هذه القطرات هى السيارات ، والأرض واحد من أصغرها ؛ وهى فى أول الأمر تكون كتلة فوضى من غاز نارى ، لكنها تأخذ تبرد فيستحيل وسطها إلى سائل ، ثم تصير بمرور الزمن إلى درجة من البرودة تتكون معها قشرة صلبة على سطحها ، ثم بعد ذلك إذا ما ازدادت برودتها يبدو على هذه القشرة الصلبة ظاهرة جديدة عجيبة ، تأخذ طوائف من الذرات تتحد فتكون هيئات منظمة متماسكة من النوع الذى لما نعرف شيئاً عن طبيعته ولا عن الطريق التى ظهر بها أول الأمر فى الوجود ، سميناه بالحياة ... »

أما متى يحدث لنظامنا الشمسى اصطدام آخر فهذا مخبوء فى القدر ، والحسابات الرياضية تدل على أن معدل الوقت الذى يقترب فيه نجم من شمسنا ثانية يزيد على ألف مليون مليون سنة ! !

أماماذا يحدث بعد هذه الملايين من السنين؟ فهذا مالانستطيع التكهن فيه أو التنبؤ عنه .

ى — كون محدود بلا حدود

ظن العلماء أن المجرة هى أقصى الحدود الكونية ، وقالوا بأن الفلك يقف عند هذا الحد ؛ ولـكن فى هذا القرن ثبت للفلكيين بأن هنالك سدماً أخرى شبيهة بكوننا النجمى (أى المجرة) تقع خارجه وتبدو كأنها سحب ضعيفة النور ، أطلقوا عليها السدائم أو (الجزر الكونية) .

وليست هذه الجزر على شكل واحد أو بحجم واحد ، فمنها اللولبى ، ومنها الحلقى ، ومنها المستدير ، ومنها غير المنتظم .

وتختلف أبعادها عنا ، فمنها مايصل نوره الينا فى (٩٠٠٠٠٠) سنة ، ومنها ما يحتاج نوره إلى أكثر من هذا ليصل إلى الأرض.
وقد وجد الفلكيون أن أقصى الجزر الكونية التى استطاع

المراقب كشفه يبعد عنا نحو (١٤٠ مليون سنة ضوئية)

ومن هذه الجزر ما هو أصغر من المجرة ، ومنها ما هو أكبر منها ، ومنها ما هو مساو لها ، ويقدر العلماء العدد الذى كشفه أقوى المراقب من هذه الجزر بمليونين

واستطاع العلماء أن يحسبوا وزن هذه السدائم (أو الجزر الكونية) ، فتبين لهم أن متوسط وزن الواحد منها يتراوح بين (٢٠٠٠) مليون و (٣٥٠٠) مليون مرة قدر وزن الشمس .

ومن هذه السحب ما تكاثفت مادته وتكون منها العدد المذكور من النجوم ، كما أن منها ما لا يزال سحباً غازية « من المقدر لها أن تكون نجوماً فى الوقت المناسب » أى أن نجومها فى دور التكوين

ولا شك أن المرقب الجديد سينفذ إلى سدائم أبعد من هذه ويرينا ما هو أعجب !! . . وفوق ذلك فقد دلت الحسابات الفلكية ، على أن قدر الكون عظيم جداً جداً . ويقول جينز فى كتابه «النجوم فى مسالكها» ترجمة الأستاذ الكردانى، مايلى: « . . . ومهما يكن ما ستثبته الأيام من تغير صحيح للحركات الظاهرة للسدائم ، فإن الراجح أن يقع محيط الكون بين (٨٠٠٠)

مليون و (٥٠٠٠٠٠) مليون سنة ضوئية ، وهذا مدى واسع . ومع كل فإن الرقم الحقيقى لا يهمنا من وجه إلا قليلا ، إذ حتى أصغر الأرقام المحتملة واقع وراء أقصى حدود تصورنا . ومهما يكن قدره فإن أبعد مسافة فى الفضاء أمكن مراقبنا أن تنفذ إليها للآن وهى (١٤٠) مليون سنة ضوئية ليست إلا كسراً صغيراً جداً من الطريق حول الكون كله . . . »

وقد علل جينز نشوء السدائم ومولدها تعليلا لم يسبق إليه ، وقد رجع إلى (تعليله) فلكيو العالم واعتمدوا عليه فى بحوثهم ، وركب منه قصة ممتعة سماها « قصة نشوء الكون » وهى كما يلى:

« . . . سنبدأ عند مبدأ الزمن حين كانت جميع الذرات المقدر لها أن تكوّن الشمس والنجوم والأرض والسيارات وأجسامكم وجسمى ، وأيضاً جميع الشعاع الذى انصب من الشمس والنجوم منذ ذلك الحين . نبدأ حين كان ذلك كله مختلطاً بعضه ببعض ، ومكونا كتلة من الغاز فوضى تملأ الفضاء كله . ولما كانت جاذبية كل قطعة صغيرة من الغاز تؤثر فى جميع القطع الأخرى ، فإن تيارات تنشأ بالتدريج . وأينما أحدثت هذه التيارات تجمعا طفيفاً من الغاز ، ازدادت قوة الجاذبية عنده

فأخذ كل من هذه المجتمعات الصغيرة يجذب نحوه مقداراً آخر من الغاز . إن الطبيعة تتصرف طبقاً لقانون « من كان يملك شيئاً أُعطِيَ زيادة » ، فالقطع الناجحة من الغاز تنمو إلى تكاثفات ضخمة تزداد باستمرار على حساب القطع الخائبة حتى تبتلعها فى النهاية . وكما اتخذت الأرض والشمس والسيارات أشكالاً منظمة تحت تأثير الجاذبية ، فإن هذه التكاثفات تبدأ الآن تتخذ أشكالاً منتظمة ، فتكون ما قد سميناه سدائم منتظمة الشكل ، وتأتى التيارات الغازية التى بدأت وجود هذه السدائم فتحملها الآن على الدوران ، فلا تكون كرية الشكل تماماً ، بل يكون شكلها فى مبدأ الأمر كالبرتقالة ، مثل أرضنا الدوارة ، وكلما ضمرت تغيرت أشكالها باستمرار وازداد تفرطحها ازدياداً مطرداً . ثم نعود فنرى الغاز الذى عند حافاتها الخارجية يتكاثف كتلا متحيزة ، فإذا بالنجوم تولد ، و إذا بالسدائم التى لا شكل لها تتحول إلى مدائن نجومية تكون عند ولادتها مفرطحة وتظل مفرطحة بسبب دورانها ... »

ثم يأتى إلى قصة تكوين النظام الشمسى ، وقد سبق ذكرها

وقد يتبادر إلى ذهن القارىء بعض أسئلة بشأن العناصر التى تتألف منها النجوم :

هل هى من العناصر التى يكثر وجودها فى الأرض ؟

هل هى فى النجوم على نسبة تغاير النسبة التى نعرفها فى كرتنا ؟

لقد أجابت آلة مبين الأطياف على ذلك ، فأبانت أن النجوم والسدائم فى سائر أنحاء الكون تتألف من العناصر التى نعرفها فى أرضنا ، وأن العناصر التى يكثر وجودها فى الأرض يكثر وجودها فى النجوم ؛ ويمكن القول إن أكثر العناصر موجودة فى النجوم بنسبة تقرب من النسبة الموجودة فيها هنا . وفوق ذلك فقد أعطتنا آلة مبين الأطياف بعض التفصيلات عن حرارة النجوم وحركاتها ، وقوى إنارتها مما لا نرى ضرورة للاتيان عليه

والآن .. يمكن إجمال ما ثبت للفلكيين والعلماء بشأن الكون : وهو أن المادة تتركب من وحدات صغيرة وهذه بدورها تتركب من وحدات أصغر هى الدقائق . وتحقق لدى علماء الطبيعة أن هذه الدقائق تتكون من الكهارب على نوعيها السالبة والموجبة ، وأن كل ما فى الكون يتألف من المادة على الترتيب الآتى :

الأرض تتألف من الدقائق والمركبات .

ومن الشمس والأرض وشقيقاتها وملحقات هذه من نجيمات ومذنبات وشهب ونيازك ، يتكون النظام الشمسى .

ومن النظام الشمسى وملايين النجوم بأنواعها ومجموعاتها وغيرها من الأجرام تتكون المجرة .

وهناك ملايين من المجرات والجزر الكونية منتشرة فى الفضاء ومبعثرة فى مختلف أنحائه ، وهذه الجزر يبتعد بعضها عن بعض ، وسرعة ابتعادها تزداد بازدياد المسافة التى بيننا و بينها . وهذه الزيادة عظيمة جداً وفوق التصور ؛ فهناك من الجزر ما يبتعد عنا بألوف الأميال فى الثانية ! . . . و بمئات الألوف من الأميال فى الثانية أيضاً !!!

هذا آخر ما استطاعت المراصد والبحوث الفلكية المرهقة أن تصل إليه .

فهل هناك ملايين أخرى من الجزر الكونية ؟

وهل هذه الجزر الكونية تكون مجموعات أعظم ؟

الجواب : لا ندرى .

لقد كشفت لنــــا أقوى المراقب عن سدائم تبعد عنا

(١٤٠) مليون سنة ضوئية ، وسيكشف لنا المرقب الجديد عن سدائم أبعد ، وقد ينبئنا عن الكون بآفاق أوسع .

هل لهذا الكون نهاية ؟

أو هذا الكون محدود أو غير محدود ؟

شغلت هذه الأسئلة العلماء ؛ فقال فريق : يحتمل جداً أن يكون هناك وحدات كونية أعظم من الجزر الكونية التى هى أبعد ما وصل إليه الفلك الحديث ، وأن فوق هذه الوحدات وحدات أعظم ؛ وهكذا يمتد الكون إلى ما لا نهاية . ويقول الدكتور (هبل) : « ... إننا لا نستطيع أن ننفى وجود كائنات (أى أجرام) وراء حدود الكون المنظورة ؛ ومن المحتمل كثيراً أن تكون ثمة سدائم وأجرام موزعة فى فضاء الكون إلى مسافات أبعد كثيراً من أقصى الحدود التى يصل إليها أكبر تلسكوب فى هذا العصر ... »

وقال آخرون إن الكون محدود ، ولكنه بدون حدود ، (space is finite and yet unbounded) وأنه من المستحيل أن يمتد الفضاء إلى ما لا نهاية .

ولإيضاح هذا نأتى على التمهيد الآتى :

إن المنضدة جسم له حدود ، وإذا سرت عليها فى أىّ اتجاه فلا بد وأن تصل إلى حد إذا تخطيته فقد تخطيت المنضدة وأصبحت فى مكان حيث لا منضدة . والمنضدة جسم محدود لأنها تحتوى على عدد معين من السنتيمترات المربعة . أما الكرة فانها جسم بلا حدود ، فكيفما سرت عليها فلن تأتى إلى حد ، ويمكنك من أى نقطة وفى أى اتجاه أن تسير عليها ، وتبقى كذلك بدون أن تصل إلى حد كحد المنضدة . ولا بد أن تعود إلى نفس النقطة التى ابتدأت منها . وبنفس الوقت فالكرة سطح محدود يحتوى على عدد معين من السنتيمترات المربعة . وعلى هذا فالكرة جسم محدود ، ولكنه بلا حدود .

ولقد دلت نظرية (اينشتاين) على أن الفضاء كالكرة ولا يمتد إلى ما لا نهاية ، وأنه ينثنى على نفسه . وكما أنك إذا سرت على سطح الأرض فلا يمكن أن تأتى إلى ما ليس بسطح الأرض ، فكذلك الفضاء إذا سرت فيه من أى نقطة وبقيت سائراً ، فلا يمكن أن تأتى إلى ما ليس بفضاء أو أن تخرج من الفضاء إلى حيث لا فضاء . وعلى هذا فالفضاء شبيه بسطح الأرض .

وهناك فريق من العلماء (وعلى رأسهم العالم الرياضى البلجيكى

لمِتْر) كشف خواصّ لهذا الكون وأنه آخذ فى التمدد ، ولابد وأن يستمر فى ذلك إلى ما شاء الله .

ويقول هذا الفريق أيضاً : وكلما زاد حجم الكون ازدادت المسافة بين الأجرام السماوية . ويقول جينز :

« ... والعالم الذى يتمدد لا يزداد حجمه فحسب ، بل تزداد سرعة تمدده على الدوام . . . وإذاً فلا بد أن يأتى عليه وقت يتمدد فيه بسرعة هى من العظم بحيث لا يمكن لشعاع من الضوء قط أن يتم الدورة حول العالم أبداً ، فان الضوء حين يكون قد قطع مليون ميل يكون محيط الكون قد تمدد بقدر مليونى ميل ، وبذا يكون ما على الضوء أن يقطعه بُعْدٌ أطول مما كان عليه أن يقطعه من قبل ؛ وعندئذ تكون محاولة اكتناف الكون بالأبصار كمحاولة اللحاق بقطار قد صارت سرعته أكبر من السرعة التى نستطيع أن نجرى بها .

« قلت إن مثل هذا الوقت لا بد آت ، وينبغى أن أضيف أنه إذا كان لنا أن نثق بحسابات الرياضيين ، فهذا الوقت قد حل بالفعل ، أى أننا قد ولجنا الكون بعد أن ولّى زمن اكتنافه بالأبصار » .

والآن ... وبعد أن اطلعت على عظمة هذا الفضاء بشموسه وسياراته ومجراته وجزره الكونية ، ألا ترى معى أن وحدة النواميس والأنظمة الكونية مما يزيدك حيرة ويحيطك بذهول ما بعده ذهول ؟

أليس عجيباً أن ما يسيطر على الذرات الكهربائية يسيطر على السيارات والشموس وعلى المجرات والجزر الكونية ؟

أليس مدهشاً أن النظام الذى تراه فى صغار الأشياء تراه فى كبارها ؟ فلا فوضى فى القوانين الطبيعية ولا شذوذ فى حركات الأجرام ، ولا خروج على النظام المسيطر على مختلف أجزاء الكون .

لا إله إلا أنت ما أعظمك !

لقد حارت العقول ، وضلت بين صغار مخلوقاتك وكبارها !

لا إله إلا أنت ما أحكمك !

لقد خلقت الإنسان وسطاً بين هذه المخلوقات ليستطيع إدراك صغار الأشياء من جهة وكبارها من جهة أخرى .

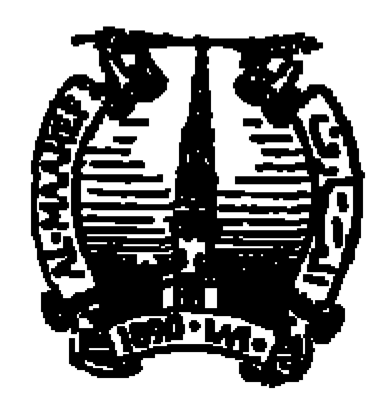
إن فى نواميسك وقوانينك التى تسير بها الكون دليلا على إرادتك وقوتك المبدعة .

فهرست

١٩٤٣/١١/١١٢٦

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



الكتاب التالى يظهر فى ديسمبر ١٩٤٣

اقرأ

محمد عوض محمد

سِنُوحي

دار المعارف بمصر

سُوحي

قصة مصرية

محمد عوض محمد

سِنُوحي

اقرأ
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٢ – الطبعة الثانية ١٩٥٥



سنوحى

١

أنا سنوحى بن سنوحى ، أمير الدولة ، ووزير الملك ، ومدير ممتلكات العرش فى آسيا ؛ إلى غير هذا من الألقاب الباهرة ، التى لا أريد أن أثبتها كلها ، لكيلا أضيع الوقت والمداد فيما لا غناء فيه .

إننى لم أكن — فى أى وقت من حياتى — مغرماً بالألقاب الفارغة ؛ بتلك الألفاظ الجوفاء ، التى ترن كالطبل ، فإذا فتشتها لم تصب فيها شيئاً . وعندى أن لقباً صغيراً ، يجر وراءه ضيعة صغيرة بمزارعها وحدائقها ، وماشيتها ودواجنها ، وغابها وصيدها وبركتها وأسماكها ، أفضل وأجدى من ألقاب فخمة ضخمة ، توقع بصاحبها غرماً ، وتحمله همًّا ، ويضيع وسطها اسمه الصحيح ، ووظيفته فى الدولة .

أنا إذن — سنوحى ! وحسبى أن يذكرنى الناس بهذا الاسم ، دون أن يضيفوا إليه شيئاً آخر .

والذى أخشاه أن كثيرين سيضيفون إليه — إذا خلا بعضهم إلى بعض — ألقاباً وسِباباً، وعَبَثاً مستطابا، وهذا أمر لا مناص منه. وإلا فما فائدتنا — نحن الطبقة الحاكمة — إذا لم تجد الطبقات المحكومة فينا مكاناً للتسلية والدعابة ؟

وبعد : فإنى اليوم أتفيأ ظلال الوطن العزيز ، وقد ألقيت العصا واستقرت بى النوى ، بعد أن طوفت فى الآفاق ، وسعيت وراء الشمس ، أتبعها إلى مغربها تارة ، وإلى مشرقها تارة أخرى. وقد أتاح لى كرم الإله المحبوب سينوسرت أن أرجع إلى الوطن . وأن أنزل فى رحاب قصره العظيم ، ورأى جلالته أن يوفر لى أسباب الرخاء، فخصص لى جراية قدرها ألف رغيف، ومائة جرة من الجعة ، ومائة حزمة من الكراث ، ذى اللحية الكثة ، وثور أكحل الطرف أسيل الخد . . .

وأريد — وقد أتيح لى هذا الرخاء والهدوء — أن أجلس القرفصاء كما يجلس كتابنا ، وأخط على هذه الصحائف سيرة حياتى وأعمالى ، وما قد شهدت أو سمعت ، مما يستحق أن يكتب ويسطر .

ومن الناس من يأبى فضوله إلا أن يسأل : « لماذا تكتب

وتخط سيرتك ، وقد أراحنا الله منك ومن سيرتك » ؟ والرد على هذا السؤال الوجيه أنى لا أريد أن يستريح الناس من سيرتى ، بل أريد أن تصاحبهم هذه السيرة أينما ذهبوا ، وأن تطالعهم وجه النهار إذا أصبحوا ، وتواجههم وقت المساء إذا أمسوا . فإن فينا نحن معشر الكتاب روحاً لا يهدأ ، أو ينغص على تلك الطائفة حياتها فى غدوها ورواحها ، ويقظتها ورقادها .

وفوق هذا ، فإنى حين أكتب هذا الحديث لا أفكر فى أبناء عصرى وحدهم ؛ بل يتجاوزهم بصرى إلى الأجيال التى لم تولد . وإلى الأحفاد الذين أرجو أن يكونوا حريصين على معرفة سير أجدادهم ، لكى يقتفوا آثارهم حيناً ، ولكى يخالفوا تلك الآثار حيناً آخر .

وفى وسعنا — نحن سكان مصر — أن نخاطب الأجيال البعيدة ، بفضل هذا الاختراع الطريف ، وهو الكتابة ، وقد امتزنا بها على سائر الشعوب البربرية التى تحيط بنا ، واستطعنا بفضلها أن نسجل أعمالنا وأخبارنا ، وما قد يخطر لنا من فكر ، وما يعرض لنا من رأى . . . .

وليس هذا كله مما يستحق التسجيل والإثبات ؛ بل الكثير

منه خليق بأن يمُحى ، وبأن يستر بحيث لا تقع عليه العيون . . .
ولقد طالما أتعب كتابنا أنفسهم . فى تسجيل الآراء التافهة ، والأفكار الفجة . ثم بالغوا فى تحسين الخط ، وتزويق السطور وإبداع النقوش ؛ فإذا تفاهة تلك الآراء تتغلب على كل نقش وتزويق ، وإذا الأفكار الفاترة ، لا يجدي معها تجويد الخط ولا إبداع النقش .

ولكنى يخيل لى أن الزمان كفيل بإبقاء الصالح ، واستئصال التافه ، ومع هذا فإنى يحق لى أن أتساءل : لماذا نستر عن أحفادنا تفاهة أجدادهم ، ولماذا نخدعهم عن حقيقتنا . ولهم الحق كل الحق أن يعرفوا أن السخف ليس بالشيء المقصور على عصر من العصور ، وأن للسلف الصالح منه نصيباً ليس بالضئيل .

والآن لا بد لى أن أبادر بسرد هذا الحديث ، الذى أقص فيه قصة العصر الذى عشت فيه . وأريد أن أؤكد لمن يطلع على هذه الصفحات أنى سأبذل جهداً عنيفاً كيلا أحيد عن الحقيقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، إن أصحابى قد أفرطوا فى اتهامى بأن الصدق ليس من أخص صفاتى . يقولون هذا مازحين تارة ، ومازجين الهزل بالجد تارة أخرى . حتى اشتهرت بين الناس بأنى

أوثر القصة المتقنة على الحقيقة الناصعة . ولا شك أن فى عشرة الأصدقاء مجالا للخيال وللدعابة ، تكون الحقيقة فيه أمراً غير مستساغ ، أما اليوم فإنى أقص قصة عصر ، وأسطر حوادث عهد ، ولا بد لى أن أحرص على ألا يزل القلم أو يجمح الخيال كثيرا .

أبدأ حديثى بذكر والدى سنوحى الكبير ، أرجو أن ترعاه الآلهة برحمتها ، وتشمله بعنايتها ، وعسى أن تكون قد تجاوزت عن زلاته برغم كثرتها وضخامتها ؛ لأنى أعتمد عليه — وهو اليوم يجرى مع الشمس فى السماء — أن يكون واسطة لى عندها ، أبتغى به الوسيلة إليها ، ومع ذلك فقد تكرم الإله المحبوب سيبوسرت فغفر لى ذنوبى كلها : ما تقدم منها وما تأخر ، وما ظهر منها وما بطن . ولهذا فإنى إلى حد بعيد مستريح الخاطر هادئ البال .

كان سنوحى الكبير من رجال طيبة الكرام ، ومن نبلائها العظام ؛ ولكنه كان يمشى فى مناكبها ، لا حول له ولا نفوذ ، بعد أن جردت الأسرة من ضياعها ، ولم يترك لها من مصادر الرزق سوى ما تسد به الرمق . ولو أن رمق أسرة سنوحى من الضخامة ، بحيث يحتاج سده إلى مقدار غير قليل من الطعام والشراب . ومهما يكن من الأمر ، فلقد كان سنوحى الأكبر

ساخطاً أشد السخط على الفوضى السائدة فى عصره ، وهى التى أنزلته من قمة اليسار إلى سفحه . وأرغمته على أن يلزم التقتير والتدبير ، وهو الذى نشأ وسط النعيم الكثير .

وفى مذكراته التى أوصانى بحفظها يقول : « إن شر الدواب فى هذا العالم النبيل الشريف ، الذى أخنى الدهر عليه ، وسلبه أسباب نعمته ، وهى الدعائم التى بنى عليها نبله وشرفه . هذه هى الحقيقة حلوة كانت أو مرة . . . فلا تحسبن يا سنوحى الصغير أن النبل والشرف خلق يورث ، أو طبع يمتاز به أناس على أناس . ولا هو دم زكى يجرى فى عروق دون عروق ؛ بل الشرف فى كل عصر وفى كل بلد يتألف من أرض ومن طين ، ومن بقرٍ وغنم وحمير ، وما يتبع ذلك من مواد وغلات وبيوت ومنشآت ، ولقد نظرت عندما عمت الفوضى ، واختل كل شىء فى القطر ، إلى من حولى ؛ وجعلت أزن رجال عصرى ، فوجدتهم خفافاً ضعافا ؛ صغار الأحلام لا يستطيعون النهوض بعبء ، ولا إصابة هدف بعيد . آمالهم محدودة ، وشوطهم قصير . وإدراكهم لا يتجاوز اليوم الذى يعيشون فيه ، وبصرهم لا ينفذ إلى ما وراء البقعة التى يحيون فيها .

« ثم تأملت فيهم وأطلت التأمل . فلم أجد بينهم سوى رجل واحد ، طويل الباع ، بعيد الهمة ، جريء لا يعرف الهيبة ولا التردد .. أعجبنى منه أنه يسعى إلى غرضه فى وضح النهار ، ولا يحاول أن يستر الغرض الذى يرومه . لأنه قوى ، ولأنه يجرى على سنة العدل . وبغيته الأولى أن يرى بلاده يسودها الرضى والرخاء . »

هذا ما خطته يد الوالد العزيز . وأنا فى غنى عن أن أذكر للقارئ أن هذا الرجل العظيم ، الذى يسبح بحمده هو أمنمحت الأول . وسأتحدث عنه بعد قليل بما فيه الشفاء والغناء . ولكنى أشك كثيراً فى أن سنوحى الأكبر — عند ما التف هو وأقرانه حول الأمير الناشئ — كان يعرف فيه كل هذا الخلق المتين والمزايا المدهشة . بل إن التفافه حول الأمير كان لا يخلو من شبهة المقامرة . فلقد كانت المقامرة من صميم طبع أبى . وكم من مرة سمعته يخاطبنى ، وقد أسند ظهره إلى جميزة ضخمة فيقول :

« قامر يا سنوحى الصغير قامر ! من لم يقامر فى الحياة اضطر لأن يقنع بالقشور دون اللباب ، وبالورق دون الثمر ، وبالأكواخ دون القصور . انظر إلىّ كيف قامرت بكل شيء حينما اتبعت « أمينى » ونصرته وأيدته ، فلما فاز واستقام له الأمر غمرنى بهذه

الخيرات التى ترتع اليوم فى ظلها » .

كان أبى لا يدعو الملك المحبوب إلا بلقب المودة « أمينى » ولا شك فى أنه قد جنى خيراً عظيماً من تأييده للأمير. ولكنه ينسى ، حين يقص على هذه القصة المرة بعد المرة ، أنه فى حقيقة الأمر لم يقامر بالشىء الكثير ؛ كان أمامه ربح عظيم ذات اليمين ، وخسارة تافهة ذات اليسار . فلما رجحت كفة الأمير ، وارتفعت بذلك منزلة سنوحى الكبير ، وقَرَ فى نفسه أن هذا الفوز مرجعه إلى صدق فراسته ، وسداد رأيه ، ونفاذ بصره ، وصفاء بصيرته. وليس ببعيد أن يكون أبى على شىء من الصواب.

كانت المقامرة فى عرف والدى عبارة عن لعبة سياسية يلعبها من يطمع فى الرقى والتقدم والضياع والماشية . وهى لعبة لاتجوز فى كل عصر وفى كل عهد. ولكن لا شك فى أن عصر أبى كان من أصلح العصور لممارستها . وتشتمل هذه اللعبة على أن يزن المرء ، بإمعان شديد ، وتدبير حازم ، وتقدير لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وبميزان دقيق إلى أبعد حدود الدقة ، جميع رجال العصر الطامعين فى السيادة العليا ؛ وذلك فى عهود الانقسام واضطراب الأمور . يزن المقامرُ إذن كل

مرشح ، ويقدر احتمال فوزه أدق التقدير . حتى إذا وضح له الأمر ، وانجلت سحب الشك ، وخيل له أن زعيماً من الزعماء سيكتب له الفوز لا محالة ، بادر بالانضواء تحت لوائه ، والالتصاق به والتعصب له ، وبذل كل مجهود لنصرته وتأييده.

وفى زعم أبى أن المقامر البارع فى هذا الميدان لا يمكن أن يخسر . وقد نظر إلىّ مرة نظرة طويلة عميقة ، وهو مستند إلى نفس شجرة الجميز . وقال : « إنى لأ شك يا سنوحى فى أن مثلك يحسن المقامرة ، إن الذكاء لا ينقصك . فقد ضمنت منه نصيباً وافراً يوم تقرر أن تكون ولدى . فأنت ذكى القلب ، سريع الفهم . ليس فى هذا شك . ولكنى أخشى أنك ممن تحركهم العاطفة ويميلون مع الهوى. فإذا عرض لك أمر ، تريد أن تقطع فيه برأى ، لم تترك عقلك وحده يزن كل اعتبار ، ويقدر كل احتمال . بل أشركت معه ميولك ونزعات قلبك ، فالتبس الأمر عليك وضللت السبيل .

« ومن حسن حظك أنى ضمنت لك مقاماً كريماً ومركزاً ممتازاً ، بخدماتى الجليلة لأمينى وسيغفر لك كثيراً من أعمال الطيش والرعونة ، ولكنى ما زلت أرجو أنك لن تفعل ما يتطلب

العفو والمغفرة . »

أظن القارئ قد أخذ يدرك أننى لم أكن شديد الاقتناع بآراء والدي ، مع أنى كنت أصغى إليه . باهتمام وتلهف ، لأنى كنت أحبه أشد الحب ، وأحب الإنصات لحديثه ، ولكن قلبى كان يبتسم من حكمته العجيبة ، وآرائه الطريفة ، وأكبر ظنى أنه هو أيضاً لم يكن يلقى بتلك الآراء عن اقتناع تام . بل عن اقتناع متوسط يخالطه شيء من الشك .

ومع ذلك فإن نبوءته العجيبة بأنى سأغلب الهوى على العقل ، وأخلط التفكير بالعاطفة ، قد تحققت ويا للأسف فيما بعد ، وسببت لى هماً غير قليل .

ولابد لى قبل أن أختم هذا الحديث عن والدى العزيز ، أن أذكر للقارئ أنه لم يلبث أن استرد ضياعه جميعاً ، وتولى إدارة المقاطعة الجنوبية ، وأراد منه الملك أمينى أن يصاحبه إلى عاصمته الجديدة فى الشمال ، ولكنه آثر أن يظل فى الجنوب واعتذر إلى الملك الإله ، بأن جو الشمال يؤثر فى مفاصله ، وفى فقرات عنقه ، وأن ليس له عنق سواه ، وأن أمه العجوز (وكانت جدتى لا تزال على قيد الحياة) تريد منه أن يظل بجانبها

لكى تحس قربه فى اللحظات الأخيرة من عمرها المديد .

وقال سنوحى الكبير فى مذكراته عن هذا الموضوع : « لم أتردد فى أن أعتذر إلى أمينى — فى لباقة وكياسة — عن تخلفى فى الجنوب ، بعد أن انتقل القصر والحاشية إلى الشمال . وبرغم ما سمعته عن العاصمة الجديدة ، وما فيها من روعة البناء وجمال المتنزهات ، وأسباب اللهو والترف ، فإنى ظللت فى مقاطعتى الجنوبية ، أديرها بحزم يمازجه اللين ، وبعدل تشوبه الرحمة . وطالما زارنى الملك الإله أو نجله « سينو » ، وحاشيتهما ، فى أثناء حملاتهما على « واوات » . أو عودتهما منها . فنعمت بقربهما فترات متقطعة من الزمن ، دون أن أقترب من العاصمة والقصر . وهكذا ظللت إلى آخر لحظة صديقاً مخلصاً وفيًّا للعرش ، مبتعداً عن ذلك المحتشد العظيم الذى تدب فيه عقارب الغيرة والحسد ، وتغشاه سحب النميمة والدسيسة » .

إذن ظل أبى فى الجنوب ، حيث قضى البقية الباقية من عمره ناعماً بما كانت تصبو إليه نفسه من الهدوء . ما بين أسرته وعشيرته ، ولكنه اختارنى من بين سائر إخوتى ، لكى ألتحق بحاشية الملك الإله الطيب « أمينى » ، ولكى أشق طريقى فى

الحياة . فقد كان يزعم أنه يتوسم فىّ استعداداً للمجد، وللمناصب العالية ، ولم أكن أنا أحس فى نفسى شيئاً من هذا ، وعلى كل حال لقد شاءت المقادير أن يقذف بى فى حومة هذا الميدان العظيم ، وأنا فتى غر لم أكد أتجاوز خمسة وعشرين ربيعاً ، جاهل ، برغم نصائح والدى — أو بسبب هذه النصائح — بتلك التيارات العجيبة التى تضطرب بها الحياة عامة وحياة القصور خاصة.

وهكذا رست بى السفينة فى مستهل أشهر الحصاد ، فى العام العشرين من حكم الإله الطيب أمنمحت باعث مصر وموحدها ، ومؤسس نهضتها الجديدة . أقول رست بى سفينتى على الشاطئ أمام العاصمة الجديدة إثتوى : قاهرة القطرين ، حيث لم ألبث فى ذلك العام أن ألحقت بحاشية الأمير « آنى » ؛ ثم نقلت بعد زمن وجيز إلى حاشية الابن الأكبر سينو ولى العهد .

٢

لقد زعم والدى العزيز أن الملك المحبوب أمينى تردد قبل أن يقرر تغيير حاضرة ملكه . فإن طيبة هى بلدته التى أنشأته وغذته ، وفيها قومه وعشيرته الأقربون ، ومنها انتشر سلطانه ، وحلق

نجمه ؛ فهل ينتقل عنها إلى أرض لم ينشأ فيها ، بين قوم امتزج حبهم له بالرهبة والخوف من سلطانه . ؟

على أن هذا التردد لم يلبث أن زال . فقد كان من البديهى أن الذى يحكم مصر يجب أن يقيم فى قلب الوادي ؛ فى مصر الوسطى . وقد أصبح الجنوب آمناً هادئاً ، يدير مقاطعته أمناء مخلصون ، ورجال لا يتطرق إليهم الشك . والأخطار التى تهدد البلاد من آسيا وليبيا أجل وأعظم من خطر الواوات على الحدود الجنوبية ، وللملك فى إخلاص سكان الجنوب ثقة لا تتزعزع . أما سكان الشمال فربما كانوا بعد فى حاجة لأن يشعرهم قربه ، وأن يُشْرِ بَهم حبه . ولذلك بادر إلى مصاهرتهم والتودد إليهم . واتخذ منهم وزراء وحجابا .

ثم أنشأ حاضرة ملكه الجديدة فى الشمال ، وسماها ، « قاهرة القطرين ، » واست فى حاجة لأن أذكر القارىء بأنها سميت قاهرة القطرين » إبقاء على تلك الخرافة القديمة التى تقسم القطر إلى صعيد ودلتا . وقد مضت القرون منذ كان هذا الانقسام حقيقة ماثلة ، وكان القطر يتألف من مملكتين : واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب . وبرغم زوال ذلك العهد واتحاد القطر كله

لا نزال نبقى على هذه الخرافة ، ونحتفظ بشارات المملكتين ، وبتاجي المملكتين . لكى نتيح فرصة للملوك بأن يلبسوا تاج الشمال تارة ، وتاج الجنوب تارة أخرى . وأحياناً يحاول الواحد منهم أن يلبس شيئاً عجيباً يمثل مزيجاً من التاجين .

كذلك تتيح هذه الحالة فرصة ثمينة للشعراء أن ينشدوا بين أيدي الملوك قصائدهم مشيرين إلى التاجين والعرشين :

يا جامع العرشين فى واحد ولابس التاجين فى المحفل !

ومع أن لبس التاجين فى وقت واحد أمر لا يحتمله الرأس عادة . فإن من الممكن أن نستثنى رأس أمنمحت الأول . فقد كان رأساً فخماً ضخماً . قائماً على عنق متين ، فوق جسد جبار .

ولأعد إلى ذكر عاصمة « القطرين » . فأقول إنه لابد لى من الاعتراف بأنى قد بهرنى تنسيقها ، وسحرتنى روعة منشآتها . التى جمعت بين جمال الصناعة ، ومتانة البناء. ومن عادة أمنمحت أن يفخر بأنه قد بنى. قصوراً تقارع الدهر وأحداثه . وهذا الفخر وإن لم يكن دقيقاً كل الدقة . فإن من السهل أن نغفر للملك الذى من صنعه القصر العظيم « ذو البابين » ما شاء من الإسراف فى العجب والافتخار .

سمى القصر بذى « البابين » . لأن له بابين متجاورين أحدهما للدخول والآخر للخروج. وكلاهما آية فى جمال التنسيق، وروعة البناء . ولقد ترددت على القصر كأنى أحد سكانه ، بضعة أعوام ، فألفت منظره ومنظر حجراته وأعمدته وحدائقه وأفنيته ، ولكن منظر « البابين » لم يفقد روعته عندى على مضى السنين . وحينما حكمت على ظروف الحياة بالاغتراب ، وقضيت السنين الطوال فى أرض « الرطين » كان الشوق يمثل لعينى صوراً من الوطن ، أتأملها وأنا بين الحلم واليقظة . فكان أكثر هذه الصور تردداً أمام عينى صورة البابين والتماثيل المحيطة بهما.

أما القصر الذى بناه أمنمحت لكى يقارع به الدهر، فهو عبارة عن بناءٍ عظيم وجهه إلى الغرب ، وظهره على النيل إلى الشرق ، بينه وبين النيل مسافة مائتى ذراع ، قد انبسط فيها النبت، وحلق فيها الدوح، وهكذا كانت للقصر حديقتان ، واحدة للأمام من الناحية الغربية ، حيث البابان العظيمان ، والأخرى من خلف ، بين القصر والنيل ، ومن الممكن بالطبع أن يدخل المرء القصر من ناحية النيل بواسطة أبواب خلفية ، ولكن هذا الحق كان مقصوراً على الأسرة الملكية ، وعدد قليل

من المقربين من الملك وأهله ، أو وزير الدولة الذى يقوم على خدمة الحريم .

أما جميع الناس ، ورجال القصر أنفسهم ، بل وجلالة الملك نفسه إذا خرج لشأن من شئون الدولة ، فإنه يخرج من «البابين» من الناحية الغربية ، فى موكب عظيم من الجند والحشم .

يشتمل القصر الملكى على ثلاثة أجزاء : قلب وجناحين كأنه أنشئ فى صورة النسر الذى بسط جناحيه إلى أقصى امتدادهما . فأما القلب فهو الديوان الملكى ، تدنو إليه وسط أساطين وعمد عالية تمثل صورة النخيل ، وقد نحتت من الحجر الصقيل . وفى نهايتها تصعد الدرج إلى ردهة القصر حيث الحرس قيام بالليل والنهار ، وعن اليمين والشمال حجرات جلس فيها رجال الديوان يتلقون الرسائل ويدبرون شئون المملكة .

وفى صدر الردهة حجرة عظيمة ، قد زينت بالذهب ، ونقشت جدرانها بالميناء . وهنا يجد المرء حجّاب الملك ورجال حاشيته المقربين . ومن ورائها حجرة العرش ، وهى من الروعة والجمال بحيث يعجز عنها الوصف . ويتوسطها العرش الملكى . حيث يجلس الإله المحبوب فى الصباح الباكر ، وفى المساء ،

يدبر الملك ، ويملى الرسائل ، ويوجه الرسل ، ويستقبل الأمراء والأشراف ، وحكام المقاطعات ، ويزودهم بأوامره ، وينفث فيهم من روحه ، ويسأل كلا منهم عن شئون رعيته ، وهل أقام فيها العدل ، ورفع عنها الجور ، ووفر لها القوت . وهل ينفذ ما يأمر به الملك ، من رفع الضرائب أو تخفيفها ، أم يجمعها ويودعها فى خزائنه الخاصة .

لقد كان أمنمحت يسأل كل حاكم عن عمله ، وهو على علم تام بالذى يسأل فيه ، فلا يزال يجادل الوالى ويستجوبه حتى يوشك أن يدركه الإغماء ، ولا يخرج المسكين من بين يديه إلا وقد نقص وزنه عدة أرطال . .

وإلى جانب الملك وزيره الأول « هامان » وساعده الأيمن ، ولكنه كان يقف صامتاً مطرقاً ، حتى يسأله الملك عن أمر فيرد بأدق وأبلغ ما يمكن أن يرد به .

هذه الحجرة التى لا تزيد على بضع عشرة ذراعاً فى الطول والعرض ، هى قلب الدولة النابض ، الذى يبعث القوة والحياة فى أركانها وأرجائها . وفى طرفيها بابان عن اليمين وعن الشمال يفضيان إلى جناحى القصر ، حيث تقيم الملكة والأنجال

والجوارى وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وما يلحق بهم من خدم وأتباع وحراس وعبيد .

ذلك هو القصر ذو البابين ، الذى طبق صيته الآفاق ، وهو بمثابة الواسطة الكبرى من العقد الذى انتثرت حباته ذات اليمين وذات الشمال من قصور صغيرة وكبيرة ، مربعة ومستطيلة ومستديرة . بعضها قريب من القصر الملكى ، والبعض أقل قرباً منه . ويسكنها جميعاً رجال الدولة ، وأسرهم العديدة ، باركت الآلهة فيهم وسددت خطاهم .

والآن أرانى قد وصلت إلى ذلك المكان من قصتى الذى لا بد لى أن أتحدث فيه عن « أمينى » العظيم نفسه . والكلام عن أمينى ليس بالشيء السهل ، فقد امتزجت الحقيقة فى أخباره بالخيال ، والإسراف بالاعتدال ، وعلى قرب عهدنا به قد أحيط اسمه بألوان من الخرافات والمعجزات ، حتى ليوشك الخبير أن يضل وهو يبحث عن التبر الصريح وسط أكداس من التراب . ومن عادة النفس أن تعشق الإسراف وتهواه ، لأن الحقيقة المجردة لا تشفى الغليل ، ولا تروى الظمأ . وأكبر ظنى أن الملك نفسه كان يشجع الناس على أن ترى فيه كائناً فوق كل كائن ،

وأن تنسب إليه المعجزات التى تحير الألباب . وكان غرامه بالمدح والتمجيد يغريه بأن يغض النظر عن الغلو الشنيع الذى امتلأت به قصائد الشعراء . وتتداول العامة تلك المنظومات البديعة ، فيخيل إلى عقولهم الساذجة أن ما فيها هو الحق الصريح الذى لا يخالطه مين ولا غلو .

ومع ذلك فليس من الصعب لمن يفند الأقوال أن يستبعد كثيراً من هذا الإسراف . فلقد طال مدح الشعراء للملك بأنه يعلم الغيب ، ويعرف المستقبل ، حتى كاد هذا الأمر أن يكون من الأمور الثابتة التى لا تقبل الجدل . وفى وسط هذا الضلال المنتشر ، ما على المرء إلا أن يذكر أن الملك لو كان يعلم الغيب لما داهمه المتآمرون ، وهو راقد فى قصره ، وليس حوله من الأتباع إلا القليل ، ولو كان « أمينى » يعلم الغيب لما أسرف فى إساءة الظن بكثير من ولاته المخلصين الذين لم يقترفوا إثماً ، ولم تخطر الخيانة فى فؤادهم .

وبعد . فإن « أمنمحت » بعد أن تجرده من كل غلو وإسراف ، وتنتزع سيرته من بين الخرافات والأقاصيص ، يظل بعد هذا كله عظيماً لا يدانيه فى عظمته أحد ، صانع

للمعجزات ، وإن لم تكن من تلك المعجزات السخيفة التي يلهج بها الشعراء . وهل أبلغ في العظمة من أن ينشأ إنسان وسط الفوضى التي تشمل القطر من أطرافه . وقد اغتالت أرض الوطن غول الفتنة من الداخل ، وغول العدوان من الخارج ، والولاة جميعاً في تطاحن وتشاحن ، يعتدي بعضهم على بعض ، ويجور الجار على الجار ، وقد تقهقر الحق في كل مكان أمام القوة الغاشمة ، وتمزقت البلاد أسوأ تمزيق .

وفي وسط هذه الكوارث ينهض شاب يوشك ألا يعرفه خارج بلدته أحد ، فيجمع حوله عصابة من الرفقاء ، فينتزع الحكم من أيدي ولاة طيبة ؛ في مثل لمحة الطرف ، ثم لا تمضي بضعة أشهر ، حتى يكون القطر كله خاضعاً لحكم عادل يسوده الأمن والسلم . ولا يقف الأمر عند هذا بل نرى الأعداء من آسيا قد نكصوا على أعقابهم ، وشعب « الطحين » في ليبيا يرسل الهدايا ويبدي المودة . والواوات في الجنوب يقسمون أنهم ما عرفوا غير الولاء لمصر ، والحب المفرط لملكها الشاب ، وأنهم مستعدون لأن يسفكوا دماءهم فداء له ودفاعاً عن عرشه .

ولقد كانت مصر دائماً مقسمة إلى مقاطعات ، حدودها

معروفة مقدسة . لا يعتدى حاكم على أرض جاره ، ولا يبدل من تلك الحدود قيد أنملة . فزالت معالم هذه الحدود فى عهد الفوضى ، حين كانت القوة وحدها هى التى تقرر اتساع كل إقليم ومقاطعة . ومن أجل أعمال « أمنمحت » — وهو أول أمر نهض به بعد استتباب الأمن — أن تولى بنفسه إعادة الحدود بين المقاطعات إلى ما كانت عليه ، وثبتها تثبيتاً لا يقبل التغيير والتبديل ، وجازى المحسن على إحسانه ؛ وأما الذين أساءوا واعتدوا ، فقد جازاهم بقدر جرمهم .

ولم تقف جهوده عند هذا ، بل تجاوزته إلى تشييد عاصمة تجمع بين الجمال والجلال ، وإلى نشر الرخاء فى أنحاء الدولة ، بل وإلى تشجيع الآداب والفنون . .

إن من السهل على إنسان ورث ملكاً ثابت الدعائم ، راسخ القواعد ، وشعباً متحداً خاضعاً مطيعاً ، ودولة منظمة وخداماً مخلصين ، أن يكون ملكاً عظيما ، وأن يحكم حكماً سعيداً ؛ من السهل على خوفو ، وأمثال خوفو أن يشيدوا الأهرام ، ويجمعوا المال من جميع الأقطار ، ويرسلوا البعثات إلى البلاد البعيدة . ما داموا قد ورثوا ملكا مستقراً تعب فى تشييده مثل

صنفرو والذين كانوا من قبله . . وليس من العظمة الضخمة فى شيء أن يسير خوفو سيرة أبيه وجده ، وأن ينسج البرد الذى نصبوا له منواله ، وركبوا فيه خيوطه ، ونظموا لحمته وسداه .

وإنما العظمة التى تفوق كل تقدير أن ينهض إنسان لم يرث من أسلافه غير الفوضى والاختلال والتفكك ؛ فيخلق من وسط هذا كله دولة يسودها الرخاء ويعمها النظام فى الداخل والخارج .

هذه خلاصة الوصف الصحيح لأمنمحت الملك الجبار ، وهى صورة جليلة فى ذاتها ، وليست فى حاجة لما يحيطه بها المداحون والمتملقون من التنميق والتزويق . ولا ينقص من جمال هذه الصورة أن يقول إنسان إن البلاد قبله كانت قد سئمت الفوضى فلم تكد أن تجد هذا القبس من الضياء حتى التفت حوله ، وبذلت له كل معونة فأتاحت له هذا النجاح العظيم . لقد سئمت البلاد الفوضى منذ أجيال عديدة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها إلا حينما جاء « أمينى » لإنقاذها .

تلك — إذن — أعمال مليكنا العظيم ، أما الشخص الذى صدرت عنه هذه الأعمال فإنه بطل قد جمع فى جسده وفى روحه صفات البطولة كلها أو جلها . إن كثيراً من الرجال المشهورين

يسرك أن تسمع بهم ويسوءك أن تراهم . ولكن أمنمحت كان يروعك منظره ، كما تسرك أخباره ، فقد كان طويل القامة . قوى الجسد قوة لن تجد لها نظيراً بين معاصريه ، سريع الحركة جداً لا يستطيع أحد أن يعدو كما يعدو ، أو يثب كما يثب . ولقد رأيته بعيني يعدو خلف الوعل وسط جبال الصحراء ، فلا يلبث حتى يعود به حياً وله — كما للأبطال العظام فى القصص — قوس هائلة قد صنعها بيديه ، وليس بين معاصريه من يستطيع أن يحنيها أو يرسل السهم عنها . ولقد اشتهرت بين لداتى وأقرانى بقوة الساق والساعد ، وبالرماية المحكمة ؛ ولقد ناولنى الملك قوسه مرة على سبيل الدعابة فما استطعت أن أشد وترها شيراً . فتناولها منى ضاحكاً ، ثم أرسل سهماً فى الفضاء وإذا بطائر من الغر يسقط بين أيدينا . وما كنا نرى فى الجو شيئاً .

وهذا الحادث يكشف عن ناحية من خلقه لا سبيل إلى إنكارها وهى اعتداده بنفسه ، وتيهه وغروره . وحبه للإطراء وإيمانه بأن رأيه مثل سهمه صائب أبداً . والذى علمته من أبى أن هذه الصفات لم تكن ظاهرة فى مسلكه أول الأمر . ولكن اطراد النجاح من غير شك قد أظهر منها ما بطن .

٣

قلت إن أميني كان يحلو له أن يجلس على عرشه ، وسط وزرائه وحاشيته ، ينصت إلى بعض الشعراء، وهو ينشد منظومة طويلة يتناوله فيها بالمدح والتمجيد ، وبالتعظيم والتفخيم . وإنى ، مع قلة اكتراثى بطائفة الشعراء ، التى كانت تتردد على القصر فى ذلك الوقت ، لا بد لى أن أستثنى منها ، على الأقل ، واحداً . لم يكن شاعراً عظيماً فحسب بل صديقاً كريماً ، ورجلا كامل الرجولة.

ذلك الرجل هو يونس ، الشاعر الأكبر ، الذى كنت أتلهف شوقاً لرؤيته . وقد أوصانى أبى أن أخطب وده ، وأكتسب صداقته لا لأنه كريم الطبع ، جميل المعاشرة ؛ فهذه صفات لم يكن يعبأ بها أبى . بل لأنه مطلع على أسرار القصر ، عليم بما يجرى بين الجدران . ولا بد من التسليم بأن الوالد كان مصيباً فى هذا الوصف .

كان من حسن حظى أنى عندما مثلت بين يدى الملك وهو فى حجرة عرشه كان يتأهب للإنصات إلى منظومة من شعر يونس ، فسألنى بسرعة عن أبى وعن أسرتى . ثم أمرنى أن أقف

فى جملة الحاشية ، لكى أنصت إلى الشاعر العظيم .

وبعد لحظة دخل يونس ؛ فإذا رجل وسيم الطلعة لا يزال فى مرحلة الشباب ، وأظنه — برغم جلال الموقف — قد لاحظ وجهى الغريب بين الوجوه المألوفة . ثم لم يلبث أن وقف ينشد الملك ، فى صوت يجمع بين العذوبة والقوة ، قصيدة من طراز جديد . لم يشأ أن يمدح الملك العظيم بأن يمطر عليه ألفاظ الثناء العاطر ، بطريق الخطاب المباشر ، فيصفه بأنه قوي وجميل ، وعظيم وجليل ، وأنه علام الغيوب ، والإله المحبوب ، وفعال المعجزات وصاحب الكرامات .

ابتكر طريقة جديدة وهى أنه أخذ يصف لنا بلاط ملك من الملوك الغابرين ، وقد جلس على عرشه وأحاط به وزراؤه وأتباعه ، ثم يجيء رئيس الكهنة فيدلى أمام الملك بنبوءة عظيمة عن ملك من ملوك مصر العظام ، ينقذ البلاد من الفوضى والاضطراب .

وأظنك أيها القارئ تعرف هذه القصيدة . فقد وصف شاعرنا فيها بلاط الملك صنفرو ، وهو من أعظم ملوكنا الأقدمين ! وقد وقف بين يديه فى أدب وخشوع كاهن يسمى الروح الجميل فقال له الملك : حدثنا أيها الكائن حديثاً يسلينا ، ويذهب عنا

الضجر . فيقول الكاهن : أيريد الملك المحبوب أن أحدثه عن العهود الغابرة أم العصور القادمة ؟ فيقول صنفرو : بل حدثنا عن المستقبل وارفع عن الأعين الحجب لكى تنفذ إلى السنين والقرون البعيدة .

هنالك يطرق « الروح الجميل » مليًّا ، وهو يلتمس النور وسط الغياهب ، ثم يتناول قرطاساً وقلما ، ويخط السطور الآتية

« أيها القلب الجريح ! اندب هذه الأرض التى عليها : درجت وفيها كنت تغدو وتروح ! اندب أرض (بسطة) التى عشت فيها ، وعين شمس التى ولدت بها .. اندب هذه الرياض الفيحاء ، يوم تهب عليها ريح السموم ، تحمل أجلاف الأسيويين ؛ فينقضون على كل قرية آمنة فينتزعون أمنها ورخاءها . ويسطون على الفلاح فى مزرعته ، فيختطفون منه ماشيته ، وهو يحرث بها أرضه .

« أيها القلب لا تهدأ ولا تسكن ، بل قم فاندب هذا المنظر المفجع ، الذى يطالعك أينما نظرت . إن البلاد قد شاع فيها الخراب والدمار .. كأن العمران لم يقم بها يوماً . وكأن رع لم يخلق فيها شيئاً . بل كأنه لم يبدأ أعماله فيها بعد !

« لقد عم الهلاك الأرض كلها ، فلم يبق فيها شيء قائم .
وليس هنالك من يعنى بأمرها ، أو يتحدث ، أو يرثى لها ،
حتى الدموع قد جفت فلم يعد أحد يسكب قطرة منها .

« عجباً لهذه الأرض كيف حالت عما عهدناه !

« والشمس كيف احتجبت خلف ستار كثيف من
التراب والرماد !

« لقد جف الزرع فأصبح هشيماً تذروه الرياح .

« وتطاير التراب حتى ملأ الفضاء كله . وأرسلت الشمس شعاعها
الذهبى ، فحالت دونه حجب التراب والغبار المتطاير فى السماء .

« حدقى يا عين فى المستقبل ، واخترقى حجب الغيب ،
لكى أتحدث بوضوح وجلاء عما ستأتى به الأيام !

« نهر مصر العظيم ما خطبه ؟ لقد غاض ماؤه ، وجف
مجراه ! فالناس تعبره سعياً على القدم .

« عبثاً يبحثون عن ماء يسيرون فيه سفنهم أو زوارقهم .

« لقد اختلطت الأرض ومجارى الأنهار والقنوات ؛ فلا تعرف
أيها النهر ، وأيها الحقل ، وأيها الشاطئ .

« وأقبلت من الجنوب ريح الدبور ، فطاردت ريح الشمال ،

حتى أزالتها من الوجود . طردتها من الأرض ، وطردتها من السماء . فوا أسفى على ريح الشمال ، العليلة المنعشة ، التى تنشر الحياة ، وتبعث القوة .

« والطير قد هربت من الدلتا ، وغادرت أرض المستنقعات ، وهى وطنها الذى تضع فيها بيضها ، وتربى فيه صغارها . اضطرت لأن تنزل فى مساكن الناس ، فآوت إلى غير مأوى ، ولجأت إلى غير مأمن .

« وقد خربت البرك ودمرت البطائح ، التى كانت تصاد فيها الأسماك ، والطيور البرية ، وخربت من حولها الديار التى كانت تجفف فيها وتهيأ ، وتعد لتغذية الناس .

« ضاعت خيرات الأرض ، وحل بها الخوف والجوع ، لكى تمتلىء بطون أولئك البدو الصعاليك ، الذين يجوسون خلال الديار .

« سطا الأسيويون الأجلاف من الشرق على أرض مصر ، وهى آمنة مطمئنة ؛ لا تخشى شراً ، ولا تتوقع أذى . فإذا الويل ينزل بساحتها فجأة ، والعذاب يغشى أولئك الآمنين الوادعين . وإذا منازلهم يسطى عليها إذا جن الليل ، ويختطف ما بهـا ، فكانت العيون لا تعرف للنعاس طعماً ، لأنها تنتظر الويل أن

يحل بها فى أى لحظة .

« لكأنى أرى وحوش الصحراء أولئك ، وقد أكبوا على الأنهار يكرعون ، ويوشك ماؤها أن يغيض تحت أفواههم . . . ثم أراهم بعد ذلك يترامون على الشواطئ ، دون أن يكون هنالك من يدفعهم أو يذودهم .

« شاع الاضطراب فى القرى والدساكر ، وتهدمت الحدود بين المقاطعات . وكثر السلب ، وانتشر النهب والعدوان ، واغتصبت الحقول من أصحابها ، واعتدى القوى على حق الضعيف وامتلأت القلوب غيظاً وكمدا . وما يستطيع أحد أن يعرف ما خبئ له فى ثنايا الغيب .

« ألا إنى أرى الأرض الآن ماثلة أمامى تصيح بالويل والثبور ، وتندب أبناءها البررة ؛ لقد أحالهم الشقاء إلى وحوش ضارية . ها هم قد تقلدوا أسلحتهم لكى يكتسبوا قوتهم بالقتال والنضال ، واصطنعوا السهام من النحاس لكى يشتروا خبزهم بدمائهم .

« ولقد ترى أفواههم مفتوحة كأنهم يضحكون ، وما هو إلا ضحك المريض الذى برح به الداء ، وأعوزه الدواء .

« أما الدموع فلم تلبث أن جمدت فى العيون ، والمآقى جفت ، وجل الخطب عن أن يكون الدمع فيه مسعفاً أو مخففا . لقد أصبح الموت نفسه شيئاً مألوفاً . وأينما نظرت أو توجهت ألفيته قائما بين يديك ، يحدق فى وجهك ، ويكشر عن أنيابه المستطيلة الزرقاء .

« والقتل الغادر الخانث ، كامن فى كل ركن وتحت كل حجر ، ووراء كل جدار . وكأنى أرى الصديق يغتال صديقه ، والأخ يفتك بأخيه ، والابن — يا رباه ! — بأبيه . . .

« فظائع لم يعرف القطر لها شبيهاً فى أى زمان !

« ولقد احتشدت البلاد بجموع من الشحاذين فى أسمال بالية ، ووجوه جافة شاحبة ، كأنما انشقت عنهم المقابر . وماذا يشحذون ، وممن يسألون ، وقد أصبح الغنى ذو الجاه فقيراً معدماً . بعد أن سلبوه ماله ومتاعه ، وأعطوها بحلف من أولئك الأغراب ، النازحين ، وأينما ذهبت ترى صاحب الثروة يتضور جوعاً ، والغريب يعيش وسط النعيم واليسار .

وامتلأت الصدور حقداً وضغناً ، واشتد بالناس الضجر والغيظ المكبوت . حتى ما يطيق إنسان أن يسمع صوتاً ، ولا يحتمل أن توجه إليه كلمة . فلا يكاد اللفظ أن يغادر الشفتين

حتى تُرفع العصى ، وتستل المدى . وتشتعل الحفائظ .

« ومن العجائب أن ترى الحكام وأولى الأمر قد ازداد عددهم أضعافاً مضاعفة ، بينما تتضاءل الأرض ، وتقل مساحة النزع منها . الحقل فقير النبات ، والضرائب كبيرة ضخمة . الحب قليل ، ولكن مكيال الجباة عظيم . وهم يملأونه حتى يفيض ويطفح .

« حيل بين الناس وبين الشمس المشرقة ، فهى فى عالم وهم فى عالم آخر . وبينهما التراب الكثيف ، تثيره العواصف من الأرض الجافة ، قد زال عنها النبت والشجر ، وما يقدر الناس أن يميزوا ظهراً من عصر لأن الأجسام ليس لها ظل . والأشعة الباهرة لا تقع على جسم . على أن الشمس ما برحت فى جو السماء ، تشرق كما كانت من قبل ، وتجرى فى السماء كما كانت تجري . ولكن دونها كل هذه الطبقات الكثيفة من الغبار والتراب . .

« أجل أيها الملك العادل صنفرو ، إن القطر سيغمره الشقاء من جميع أطرافه . والبلاد يشملها الحزن ، وتضنيها الآلام . وقد ساد الاضطراب ، وعمت الفوضى . . وقد أصبح العزيز ذليلا ، والوضيع كريماً . وطورد الموسرون من قصورهم حتى

اعتصموا بالمقابر . وعينُ شمسٍ وطني ، ومسقط رأسي قد زايلها العمران ، وباتت قفراً بلقعاً . .

فسبحانك اللهم ! كيف جاز للدمار أن يغتال أرضاً هي مهد الآلهة جميعاً ؟

« ما هذا الذي أراه ؟ إن الغمة تنجلى ، والغبار ينجاب . والشمس تشرق . وهذا ملك عظيم مقبل من الجنوب ، إنه أميني ، ولدته فى مصر العليا أم من بلاد النوبة .

« إنى لأراه يلبس التاج الأحمر ، ويستلم التاج الأبيض . ثم لايبرح حتى يلبس التاجين ، ويجلس على العرشين . وقد أظله علم الإلهين .

« فانعموا يا بنى عصره بهذه السعادة التى أتيحت لكم ! إن رجلا عظيماً سليل بيت كريم ، قد نقش اسمه فى سجل الخلود . انظروا إلى الشريرين كيف يتوارون عن الأنظار ، وإلى الجبارين المعتدين كيف ذلت أعناقهم ، وخفتت أصواتهم ؛ وإلى الأسيويين الأجلاف كيف يقتلون ويمزقون ! وإلى الليبيين اللؤماء كيف تذهب دورهم وأجسادهم طعاماً للنيران . .

« يا له من ملك عظيم استطاع أن يكر على الأعداء بيمينه :

ويخضع الثوار بيساره . وقد أجلى الأعداء عن أرض الوطن بسطوه وبأسه. وجمع حوله القلوب النافرة بهيبته وعدله . وعلى جبينه اللامع ثعبان الملك . لا تكاد تبصره العيون حتى تستشعر الهيبة والتقوى .

« ولكنه لا يكتفى بقهر الأعداء وتمزيقهم ، بل يقيم فى شرق الدلتا أسواراً وحصوناً ، لكى يرد بها وحوش الصحراء إذا حدثتهم أنفسهم مرة أخرى بأن ينقضوا على هذا البلد الآمن . فانظر إليه كيف يخدم عصره، والعصور التى بعده . فإذا أراد الأسيويون بعد اليوم ماء يسقون به ماشيتهم ، فليلتمسوه التماساً ، فى ذلة وخضوع كما كان دأبهم من قبل .

« وهكذا يعود الحق إلى نصابه، ويزهق الباطل ، ويمحى من الأرض . إن الذين يشهدون هذا كله ، ستمتلىء نفوسهم سروراً وغبطة، وسيقبلون على مليكهم العظيم لينالوا شرف خدمته ، والائتمار بأمره .

« ولعلى — فى ذلك الزمن البعيد — أن يذكرنى ولى من الأولياء ، فيلقى على جدثى سجلا من الماء، ويلتمس الرحمة لروحى ، حين يرى أنى ما قلت إلا الحق ، ولم أنطق بغير الصدق» .

* * *

فرغ يونس من إنشاده ، وانحنى راكعاً أمام الملك . فقال له أمينى : « أحسنت يا يونس ، إن هذا شعر جديد مبتكر » .

ــ ما أتيت بشىء من عندى يا صاحب الجلالة ، إنما هذه نبوءة الكاهن ، الروح الجميل ، ما زدت على أن نقلتها عن قرطاس قديم عثرت عليه فى مكتبة قديمة .

قال الملك : دع عنك هذا التلفيق ، وسيكون عطائى جيداً جودة قصيدتك . ما رأيك يا سنوحى الصغير فى هذا الشعر؟ — هل سمعت من قبل بقصيدة محبوكة البناء ، رصينة اللفظ ، دقيقة المعنى ، مستقيمة الوزن كهذه القصيدة ؟

فأجبت : إنه لشعر بديع ، وما كنت أتوهم من قبل أن نظم الشعر قد ارتقى ، حتى بلغ هذا الشأو البعيد . ولولاى الفضل الأكبر فى أن شخصه الكريم ، وأعماله المجيدة ، قد أوحت إلى شعرائنا بمثل هذا الشعر واضطرتهم لأن يحلّقوا فيبلغوا هذا السمو الهائل .

ذلك ما أجبت به الملك على الفور والبديهة . وهكذا ألفيت نفسى مندفعاً إلى مخاطبته بعبارات الملق ، التى كنت أظن أنى أنفر منها . فإذا هى تخرج من بين شفتى من غير تكلف .

وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ وصايا الوالد العزيز .

فنظر إلى الملك وقال : « إنك تحسن الكلام . فلعلك أن تحسن الرماية أيضاً . فى موعد غير بعيد سيعقد حفل عظيم يتبارى فيه الرماة . وهم واقفون على هذا الجانب من النهر . أما الهدف فإنه سيكون فى الضفة الشرقية . هذا أمر لم تسمع به من قبل . فإن الناس من قبلى قلما كانت تصل بسهامها إلى أبعد من مائة ذراع . أما اليوم فلا بد لهم أن يبلغوا بسهامهم خمسمائة ذراع . وسنضحك كثيراً عندما نرى سهامهم تتساقط فى الماء ، فلا تنس أن تعد نفسك لذلك اليوم . فما يجدر بابن سنوحى الكبير أن يقصر فى هذا المضمار ! وكثير منهم سيؤوب من المضمار بذراع يتصبب منها الدم . لأنى لن أسمح لأحد من المتسابقين بأن يلبس وقاء على ذراعه اليسرى .

« إن الرماية يا سنوحى الصغير ، ليست مجرد عمل هين يسير . بل هى صناعة من أجل الصناعات وأدقها ؛ إن كل صعلوك يستطيع أن يرمى سهما عن قوس . وكثير من الرماة يظن أن القوس يجب أن تكون طويلة والوتر رنانا لكى يصيبوا الهدف البعيد . وإنما القوس الباهرة هى القوية فى مرونتها ، التى لا تنحنى

إلا بضغط مركز متصل ؛ فإذا أطلقتها ارتدت فى سرعة البرق الخاطف ، ودفعت بالسهم مئات من الأذرع .

« والآن انطلق أنت أيضاً كالسهم ، والحق بالأمير آنى . فإنه يتوقع رؤيتك » .

ركعت بين يدى جلالة الملك ، عندما ألقى إلى أمره هذا ؛ ثم تراجعت متقهقراً — وأنا أختلس نظرة إلى الشاعر البارع — حتى وصلت إلى خارج الغرفة الملكية . فوجدت على بابها رجلا من حاشية الأمير « آنى » ينتظرنى ، فصاحبته إلى قصر الأمير ، الملاصق للسراي الملكية .

ولا بد لى قبل أن أنتقل إلى حديث آخر أن أذكر القارئ بما جاء فى القصيدة التى أنشدها يونس ، من وصفه الملك بأنه ابن امرأة من النوبة . إن لهذا الأمر شأناً عظيماً فى الحوادث التى ستجتازها مصر بعد قليل . لقد كان أمينى يفخر بأنه ابن نوبية . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى عهد نشأته ، وأنه كان يُعَيَّر بأن قد ولدته امرأة من النوبة . فأراد أن يخرس الألسن الشريرة . فجاهر بالفخر بأنه من أبناء الجنوب ، وأن التى ولدته نوبية صميمة .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الصلة النوبية قد ثبتت فوق أنفه الملكي الكريم ، إذ أكسبته هذا الفطس اليسير ، الذى نراه فى تماثيله واضحاً كل الوضوح . ولقد أراد المثالون أن يلطفوا من أمر هذا الفطس ، وأن يرتقوا بالأنف الملكي إلى العلياء قليلا . . . فزجرهم « أمينى » أشد زجر ، وأمرهم أن يزيدوا أنفه فطسا ، فإنه بهذا جد فخور .

إن لهذا الأنف والدم النوبى علاقة وثيقة بالحادث الهائل الذى سيحل بالقصر بعد قليل. وسنأتى على ذكر هذا الحادث فى وقته المناسب . ولكنى أردت منذ الآن ألا تفوت القارئ ملاحظة هذه الأمور التى تبدو تافهة فى مظهرها وهى جليلة فى خطرها .

٤

مضيت إلى قصر الأمير « آنى » فلم ألبث طويلا حتى أذن لى بالدخول إلى حجرته الخاصة . كان جالساً هناك على أريكة زرقاء تضاهى بزرقتها لون الخوان الذى بين يديه ، ولون جدران الحجرة ؛ وإلى جانبه زوجه ، ولم أجرؤ أول الأمر على النظر إلى وجهها . ولكنى استرقت النظر إليها فيما بعد ، فألفيتها

بيضاء البشرة فى شعرها صهوبة غريبة ، وفى وجهها شدة وصرامة ، وقد أطبقت شفتاها إطباقاً ينم عن الإرادة ، والعزم النافذ . تقاطيعها مليحة من غير شك ، ولكن ملاحتها كادت أن تخفى حين طغت عليها مظاهر القوة ، التى تنطق بها كل جارحة من جوارحها .

تلك هى « نورا » التى اختارها الأمير العزيز زوجاً من دون النساء ، بل لعلها هى التى اختارته ، فلم يستطع عنها مصرفا .

أما الأمير فكان البشاشة المجسمة ، وعلى وجهه الأسمر خطوط طويلة ، مستقيمة أو مستديرة ، حول الفم ، والجفون .

ولم أكد أقف بين يديه حتى بادر بتحيتى :

ــ عم صباحا يا سنوحى العزيز ، لقد سمعت من جلالة الملك أطيب الحديث عن أبيك ، ولا أشك فى أنك ستثبت أنك أهل لهذه الأبوة العظيمة . لم يحضر أبوك معك . وقد كنت أود أن أراه .

ــ إنه يزعم يا مولاى أن شئون الأسرة والزراعة تقيده بسلاسل من نحاس فلا يستطيع عنها انفكاكا .

ــ أحسبه يفضل رعاية البقر السمين والضأن الوديع ،

والماعز ذى القرون الهيفاء ، وأن يخرج إلى البركة ، فيرى آلاف الأوز سابحة فى الماء ، فلا تكاد تراه ، حتى ترفع أعناقها إلى السماء وهى تصيح كلها فى نغمة واحدة ، تحييه بلحنها الشجى ، الخالى من كل تكلف . ثم ينصرف إلى جزء آخر من البركة ، فإذا البط ذو الأصابع المشبكة ، يدفع الماء برجليه ، ويزاحم بعضه بعضا ، لكى يلتقط فتات الخبز ، التى يلقيها إليه سنوحى الكبير .

ثم يترك البركة ، عائداً إلى منزله وسط حقول الحنطة ، فإذا هى قد علته ، وارتفعت رؤوسها ، ويوشك هو أن يختفى وسطها ، حتى إذا اقترب من داره أقبل ثوره المحبوب ، لكى يتلقى من سيده ما اعتاده من الملاطفة والمداعبة . هذه هى الحياة ياسنوحى لا حياة القصور والحاشيات والبطانات . . .

كان الأمير يلقى هذا الوصف للريف ، ووجهه ضاحك مستبشر ، حتى إذا وصل إلى ذكر القصور أخذ وجهه يتجهم ، وعلته سحابة كآبة . ونظر إلى الأميرة كأنه يخشى أن تقول شيئاً . فلم تكذب نظرته لأن الأميرة بادرت فقالت وكأنها تكظم ما فى نفسها :

« ما ينبغى لنا ، وسنوحى لم يكد يستقر به المقام بيننا ، أن

نتفره من رجالنا ، وحاشيتنا ، والحياة التي نحياها . ولست أشك في أنه سيجد بيننا مقاماً طيباً ، ولدينا من وسائل اللهو والتسلية ، مالا سبيل إليه في الريف . ولكل حياة ميزاتها . .

هذه شقيقتي « بتسي » قد أقبلت وأريد أن يكون لسنوحي شرف مقابلتها ، فلابد له أن يحس أنه حين نزل بيننا قد استبدل أهلا بأهل ، وعشيرة بعشيرة » .

في تلك اللحظة دخلت « بتسي » وفي تلك اللحظة تحولت تلك الحجرة إلى غرفة من غرف السماء ، وكأن جميع الآلهة والآلهات قد أطلت عليها مرة واحدة . ومن الخطأ أن يقال : دخلت بتسي ، بل هبطت علينا من وسط النجوم ، لأن هذا النور الذي بهرنا وغمرنا ، ليس فيه من هذه الأرض شيء . ولقد قابلت بتسي بعد ذلك مراراً . فكان هذا الشعور يعاودني في كل مرة . فأحس، إحساساً لا سبيل إلى الخلاص منه ، أنها لم تقبل علي ، بل نزلت إلي .

إن بتسي شقيقة الأميرة . ولكن شتان بين الأخت وأختها فقد تشابهتا في الملامح والتقاطيع وفي بياض البشرة . وطول القامة والشقرة الممزوجة بالصهوبة ، وبالعيون الشديدة الزرقة . التي

لم أتبينها إلا بعد مقابلات عديدة . . ولكن هذا التشابه على قربه سطحى ، فإنك تقرأ فى وجه الأميرة ، الصرامة والقسوة ؛ وفى وجه بتسى — إذا استطعت أن تطيل النظر إليه — تقرأ الهدوء والعطف والحنان . وتقرأ فيه شيئاً آخر لا سبيل لأن تراه فى محيا الأميرة : وهو الحب . كان وجه بتسى يفيض حباً . وكانت كل حركة أو نظرة أو ابتسامة منها تشع بالحب ، فتملأ الجو صفاء وطهراً . . . إن الذين يعيشون تحت ظل هاتين العينين لا يمكن أن يجد الشر سبيلا إلى قلوبهم . فما أسعدنى بهذا الجوار ، وما أجدرنى أن أجد فيه سعادة العمر ، ونعيم الحياة !

بهذا حدثتنى نفسى ، وهى نفس عجول ولم تلبث الحوادث أن بدلت من هذا الحكم ، وألزمتنى بالاعتراف بأن الشوك قد ينبت مع الورد . وأن الشهد الجنى قد يكون إلى جانبه السم الزعاف . ولكن بتسى برغم هذا كله لم تزل هى الشعاع المشرق وسط غياهب الحياة ، والأمل الباسم حين يعبس وجه الزمان .

جلست على كرسى بجانب شقيقتها بعد أن حيتنا جميعاً بتحية الصباح . وقد عرفوها من القادم الجديد ، فنظرت إلى باسمة بثغر قد أطبق ورده على لؤلؤ مكنون . وقد اضطررت لأن

أستجمع إرادتى كلها وإرادة أسلافى من السنوحيين جميعاً ، لكى أحول بصرى عنها ، وأنظر إلى وجه مولاى الأمير . انتظاراً لأمره أو إشارته .

ولم يلبث أن نظر إلى وقال : « تستطيع الآن أن تنطلق إلى دارك يا سنوحى ، وستجد بالباب خادماً يصاحبك إليها . وأريد منك أن تستريح يومك هذا ثم تغدو على صباح غد ، فإنى أريد أن أخرج إلى الصيد ، إذ لا بد أن تجدد علمك بالرماية ، استعداداً لليوم العظيم الذى ينتظره الجميع بذاهب الصبر . والويل لك إن لم تبرز فى هذا الميدان فإن أبى لا يرحم ولا يغفر الذنب .

إنى أتمنى لك ناجاحاً باهراً . وسأحاول بجهدى ألا تفوتك فرصة الاستعداد والمران ، ولكنى على ذلك أخشى تفوقك وانتصارك لأنى أحببتك وأريد أن تظل فى خدمتى ، وألا تبرح حاشيتى ، وأكبر الظن أنك إن فزت ، فإن صاحب الجلالة لن يلبث أن يصطفيك لنفسه ، أو لنجله المفضل « سينو » .

ولست أريد أن أقف فى سبيلك . ونحن على كل حال قد غدونا أصدقاء أوفياء . أتعاهدنى على هذا ؟ .

لم يكن من الصعب على أن أعاهد الأمير على الوفاء ، بعد أن غمرنى هذا البحر المتدفق من فضله . وبعد الذى بلوته من رقته ونبله ، ثم ركعت بين يديه محيياً ، واختطفت لمحة سريعة من محيا بتسى . ثم انطلقت إلى دارى يتبعنى خادمى .

* * *

إن القارئ لا بد مدرك أننى فى ذلك اليوم — ظهره وعصره ومسائه — لم يبرح خاطرى خيال « بتسى » ، فقد احتل ذكرها قلبى كله ، وطرد منه كل ذكر وكل حس آخر . وبلغ من شدة أثر هذا اللقاء فى نفسى أنى لم يخطر ببالى أن أتساءل عن السر فى أن وجهها لا يشبه وجوه بنات مصر ، وأنها لا بد أن تكون من جنس غير جنسنا . لقد كنت فى شغل بها عن التفكير فى أمرها ، وأذهلنى حبها عن السؤال عنها ، حتى أتيحت لى الفرصة مساء ذلك اليوم ، بأن قابلت يونس الشاعر .

فى ذلك المساء خرجت من دارى أتمشى وأنا أعلم أنى إن آويت إلى مضجعى فلا أمل فى أن يزور الرقاد جفنى . مشيت على النيل حتى وصلت إلى نهاية المدينة ووليت وجهى إلى الناحية التى قيل لى إن فيها دار يونس ، وهى منعزلة عن سائر الدور .

فلم ألبث أن سمعت عن كثب نشيداً يرتفع فى الفضاء يصاحبه عزف على طنبور ، وكأن المنشد جالس على باب داره ، فاقتربت فما شككت فى أنى أسمع صوت يونس ؛ وأصغيت إلى كلامه فسمعته يغنى :

أيا منزلا بالرغم منى نزلته ،
وبالرغم منى عنه سوف أزول . . .
إذا لم تطب فيك الإقامة ساعةً
فما جزعى من أن يحين رحيلُ ؟

فانتظرت ريثما وقف الإنشاد مليا ، ثم بادرت فاقتربت منه وصحت : « ويحك يا يونس ! هل سئمت الحياة ، وما زلت فى ريعان الشباب ؟ » .

— حييت يا سنوحى . لقد كنت أرجو ألا ينقضى اليوم حتى أراك فإذا رجائى يتحقق . تعال واشرب معى قدحا من الجعة ، أما إيثارى الشعر الحزين ، فإنى وجدت فى الحزن من الطرب ما ليس فى الدعابة والمجون .

— لقد أبدعت كل الإبداع ، فى قصيدتك التى أنشدتها

بين يدى الملك اليوم ، وقد أعجبنى منك هذه الطريقة البارعة فى مدح مليكنا ، دون أن تخاطبه بكلمة . وكأنه لم يخلق بعد ..

— ماذا أصنع وقد تهافت شعراؤنا على المدح المباشر ، بعبارات يوشك ألا يكون بينها اختلاف ، ومعان يرددها الواحد بعد الآخر ، من غير ملل أو سأم . . .

والآن دعنا من ذكر الشعراء ، وهلم هذا القدح من جعتى التى صُنِعت على عينى . وأنا بها جد فخور .

رحبت بهذه الدعوة وجلست إلى جانبه على أريكة فى شرفة المنزل وبين يديه خوان قد وضعت عليه الباطية والأقداح .

— إنها جعة عظيمة . وإنك لمبدع فى كل ما تصنع . ومع هذا ، وبرغم جودة الجعة ، فانى أريد أن أعود بك إلى حديث الشعر . وأن أستطلع رأيك فى الطور الجديد الذى انتقل إليه . وهذه القيود الجديدة التى يتقيد بها من أوزان وأحكام وقواف . ألم يكن الأمر أيسر والشعر فى جملته أروع ، فى عهد الدولة القديمة حين كان الشعراء غير مكترثين بالوزن ، ولا

يلتزمون قافية ، ولا يخضعون لحكم أو قانون ؟

« ألم تنصت إلى شعرهم الحر الجرىء ، يتدفق من غير كلفة أو قيد ، كما تمليه السليقة ، ويلقى به الجنان الثائر ، الذى امتلأ عاطفة ففاض شعراً ؟ »

قال يونس : « لا أشك فى أن الذى تقوله يشتمل على صواب كثير. لقد كان القدماء لا يعرفون الوزن ولا القافية كما نعرفهما اليوم ، وكانوا يعتمدون على طبع وحشى ، لم يهذبه التعليم ، ولم ترق به الصناعة . فكان جل اعتمادهم على التدفق والانسجام ؛ ومع هذا فقد كانوا يراعون فى شعرهم ضرباً من الرنين والائتلاف هو فى الحقيقة عبارة عن الوزن والقافية فى حالة النشوء وبداية التكوين »

— أليس له تأثير يضارع تأثير الوزن والقافية ، وهو بعد هذا برىء من وصمة التكلف ؟

— إن شعر القدماء قد ضاع أكثره ، وتكفل الزمن بالقضاء على الغث ، واستئصال الفاسد . فبات الذى بين أيدينا وكله من عيون القريض ، فمن الظلم لشعرنا الحديث أن نقارنه فى جملته بشعر القدماء فى جملته . بل الأوفق أن نقارن أحسن

وأروع ما أنتجه عصرنا ، بأجمل وأروع ما خلفه الأوائل . وظنى أن هذه المقارنة ستثبت لنا أن إنتاج عصرنا أبهى وأبهر .

« إن القدماء فوق هذا قلما عالجوا من الموضوعات إلا القليل ، وقلما نجد من الشعر الرائع إلا ما وصفوا به شيث الجبار ، حين يقبل فى ظلام الليل وعيناه تتأججان حقداً وضغنا فيطعن عزيراً بخنجره طعنة نجلاء ... وبعد أن يصرعه ويروى الثرى من دمه ، يأخذ فى تقطيع رأسه وأوصاله وأعضائه عضواً فعضوا ؛ ثم يتناولها بيديه الدمويتين ، فيرمى بها فى طول البلاد وعرضها ... ثم تجىء إيزيس الزوجة الوفية ، والأخت الطاهرة ، فلا تزال تبحث فى أرجاء القطر ، حتى تلتقط الأعضاء والأشلاء وتجمعها ، وتنفخ فيها من روحها ، حتى تعود إليها الحياة لحظة . وفى تلك اللحظة ينبت فى بطنها الطاهر ذلك الجنين العظيم هورس ، ولا تمضى الأشهر المعلومة حتى يولد لها ذلك الطفل الإله ، الذى لا يلبث أن ينمو ويكبر ثم يمضى لأخذ الثأر من المجرم الأثيم الذى سفك دم أبيه ؛ وهكذا إلى آخر الرواية .

« إن مثل هذه القصة التى يرويها الناس بإيمان وحماس، لا بد لها بعد أن يتداولها الشعراء ، أن تكتسب صيغة ذات تأثير شديد ، مهما كانت تلك الصيغة وحشية بدائية لم تهذبها الصنعة ، ولم تصقلها البراعة ، والمهارة الفنية ... »

– ولم يدخلها التكلف والقيود المفتعلة

– لقد كانت من غير شك أدنى إلى الفطرة . كما كانت الحال فى جميع الفنون ... ولكن من الظلم والتعسف أن نزعم أن الصنعة ، ودقة النسج ، وإحكام النظم قد أنقصت من تأثير الشعر . وهذه الأشياء التى تصفها أنت بأنها تكلف وتقييد ، لا تكاد أن تحسها فى أيدى الشاعر البارع . والسر العظيم الذى ينطوى عليه الشعر الجيد ، هو أنه يشتمل على كل هذه القيود: من وزن وقافية وموسيقى ولفظ منتخب ، ثم تنصت إليه ، فلا تكاد تحس من هذه القيود شيئاً ..

– ويحك يايونس ! إنك قد جمعت بين الشعر والحكمة ، وأنت أحدث ميلاداً من أن تحشر فى زمرة الحكماء .

— إننى لم أتجاوز الثلاثين ربيعاً بعد . ولكن الجعة الطبية توحى بالحكمة أحياناً ....

وعلى ذكر الحكمة والحكماء . يسرنى أن ننتقل من حديث الشعر ، إلى حديث الحياة ، لقد بحثت عنك اليوم لأدعوك إلى منزلى . فقيل إنك فى دار الأمير آنى . ومن حسن التوفيق أن ساقتك رجلاك إلى

— وما علاقة رِجْلَىَّ بالحكمة والحكماء

— ذلك أنى أصبحت ولى صدق فراسة الحكماء . وقد رأيتك اليوم ، فأبصرت السذاجة والطيش مكتوبين على جبينك بأقلام من النحاس .

— سامحتك الآلهة . وما أظنها تفعل .

— وستسامحنى أنت أيضاً . حين أطلعك على ما حولك من مزالق الأقدام ، فتشكر اليد التى أمسكتك فى الوقت المناسب ، قبل أن تزل رجلك السريعة الزلل .

« إنك يا سنوحى مخلوق عجيب ! ها أنت ذا تنزل عاصمة الدولة ، وأنت غريب الدار لا تعرف من سكانها أحداً . ولا تدرى من شئونها إلا القليل ، ثم تسوقك المقادير إلى دار

رجل مثلى له قليل من الاطلاع على ما يدور سرًّا وعلانية،
وقضى أعواماً طوالا يتقلب فى أفنية القصر الملكى وقصور الأمراء
والوزراء . فجلست تتحدث إليه ، فلم يكن سؤالك عن المملكة
أو القصر ، أو الأمير أو بتسى ؛ بل كان كلامك عن الشعر قديمه
وحديثه ، وقيوده وأوابده . حقًّا إنك لصعيدى من أكلة الجرذان »

ـ إنكم معشر الشعراء قوم ذوو ألسنة حداد .

ـ أنصت إلى ، واستعن على الإنصات بهذا القدح ؛ ...

« إن هذه العاصمة الباهرة قد أنشئت إلى الجنوب من
منف المقدسة ؛ لكى تجمع القلوب المتنافرة ، وتؤلف بين
أجزاء المملكة التى طال بينها الشقاق ، ومزقها التحاسد
والتنافس . ولقد رأى أميى فى جملة ما رأى من وسائل التوفيق
والتأليف بين القلوب أن يتقرب إلى ذوى الجاه والسلطان ، من
حكام المقاطعات ، فملأ حاشيته بأبنائهم وقصره ببناتهم ،
واتخذ منهن زوجات ووصيفات . وبذل جهده فى إكرامهم
والإحسان إليهم جميعاً . وبات القصر مزدحماً بما فيه من نساء
مختلفات المشارب والمذاهب ، والمصادر والموارد . وزاد فى هذا

الخليط العجيب أن عاد الملك من إحدى غزواته ، بهؤلاء الليبيين ، وبأولئك الليبيات ذوات الشعر الأصفر والجلد المقشّر .

« ولكن أمراً واحداً ، أقدم عليه أميني دون أن يبالى بالتقاليد والأوضاع والسنن الشرعية . فإنه بدلا من الزواج من أخته وشقيقته ، رأى أن يتبع هواه فى زواجه ، وأن يزوج أخته من أحد أمراء الشمال ، فأنجبت الأخت الأمير آنى ، وانجب الملك الأمير سينوسرت . وزادت المقادير المشكلة تعقيداً بأن ولد الغلامان فى يوم واحد . فأيهما يرث العرش ؟ ابن الأخت كما تقضى بذلك الشرائع المقدسة ، أم ابن الملك كما تشير بذلك عاطفة الأبوة ، التى لا تقل حرمة وتقديساً ؟ وقد نما الغلامان وترعرعا فإذا هما خير من أنجبت الأمهات . قد كملا خلقاً وخُلُقاً ؛ وضربا بسهم فى ميادين العلم والعمل . وفى وسع الملك أن يرسل كلا منهما على رأس جيش ضخم ، وهو واثق أنه سيضطلع بالعبء بما يبعث الفخار ، ويحقق الرجاء .

« وليس مما ينقص من شأنهما أن أقول إن بينهما اختلافاً قليلا . فإن آنى أكثر رزانة وهدوءاً ، وأكثر ميلا إلى الدعة

ويحب اللهو والحياة المرحة . وبرغم قيامه بما يأمره به أبوه من محاربة الأسيويين ، فإنه يرى السعادة الحقيقية فى الحياة الهادئة فى المنزل وفى الريف . أما سينوفليس أحب إليه من الحرب والقتال ، وقيادة الجيوش ، واقتحام الأخطار . وأشهى شىء إلى نفسه أن يقود الغارة إذا طلع الفجر ، فينقض على العدو ، كأنما نزل من السماء ، أو انشقت عنه الأرض .

« وخلاصة الحديث أن مصر لو كانت تبغى ملكاً للسلم وملكاً للحرب فإنها أسعد بلاد العالم بأميريها ، ولكن مصر تبغى ملكاً واحداً . وليس فى العرش مكان إلا لجالس واحد . بالرغم من زعمنا المتكرر بأن القطر قطران ، والعرش عرشان ، والتاج تاجان . ولم يكن بد بعد أن كبر الأميران وارتفع صيتهما فى البلاد من أن يتساءل الناس : « أيهما سوف يلى الملك ؟ » ... لقد عاش رجال القصر زمناً ، وهم فرحون بأن للملك ولدين ، كأنهما نجمان ساطعان ، حتى إذا ما كبرا وترعرعا ، أخذ الناس يدركون أن لهذه النعمة الجليلة ناحية أخرى تبعث القلق ، وتثير الخوف . فلقد تألف حول كل من الأميرين ، عصابة من الخلان والأصدقاء ، تؤيده وتتملقه ، ولكل منهما

أنصار تعمل سرًّا أو جهراً لكى يفوز صاحبها بحق الوراثة، لعلهم أن يبلغوا بذلك ما تطمح إليه أبصارهم من الرفعة والمكانة .

« ولم يلبث القصر الملكى أن أصبح مسرحاً للدسائس ، تحاك فيه خيوطها المعقدة ، بمهارة وإتقان ، ووجدت الفتنة فى هذا الجو المكفهر فرصة نادرة ، فجعلت تنفث سمها ، وتمد جذورها ، وإذا غاب الملك فى حرب أو غزو رفعت رأسها جهاراً ، وإذا عاد إلى قصره خفضت رأسها وعادت إلى العمل فى الخفاء »

ـ ألم يفعل الملك شيئاً لوقف هذه الدسائس ؟

ـ إن الملك الذى لم يعرف فى حياته إلا الفوز الباهر ، والانتصار السهل ، هو آخر من يسىء الظن أو يحسب للدسائس حساباً . . أو يفكر فى العواقب ، وكأنما يظن أن بينه وبين الدهر عهداً ألا تجرى الأيام إلا بما يريده ويشتهى .

« وقد بلغ الأمر أن بات مغمض العينين على الحقيقة التى تطالعك أينما سرت فى طريق أو دخلت منزلا من منازل هذه العاصمة الجميلة « قاهرة القطرين » ، حيث الناس جميعاً قد

انقسموا حزبين : حزب الأمير آنى ، وحزب الأمير سينو .
والأول يناصره أهل الشمال ، والثانى حزبه أهل الجنوب ذوو
البأس والخطر ، كأنما عدنا مرة أخرى إلى عصر «عزير» وأخيه
« شيث »

« ثم لم تلبث الأمور أن ازدادت تعقيداً بزواج الأميرين .
فأما سينو فتزوج من ابنة « أميني » كما تقضى بذلك التقاليد
المقدسة . وأما آنى فقد جن غراماً بالأميرة الليبية (نوراً) التى
نزلت القصر كإحدى السبايا ، فلم تلبث أن أصبحت لها فيه
مكانة هائلة ، لقوة شكيمتها وشده بأسها . وكان فى طبعها
وأخلاقها ذلك الجانب الوعر الذى لا تجده فى طبع الأمير آنى .

ـ أهذا هو سر ذلك الغرام الذى استحوذ على قلبه ، ودفعه
إلى الإصرار على الزواج بها ، أم تراه قد عشق منها هذه البشرة
البيضاء الشاحبة ، والشعر الذهبي ، والعيون الزرقاء ، التى لا نجد
لها نظيراً فى ديارنا ؟

ـ إنه على كل حال ، قد أصر على الزواج منها ، وهو
يعلم أن الأمراء ليسوا أحراراً فى اختيار زوجاتهم . وأن أمر
زواجهم ليس شأنا من شئونهم ؛ بل هو من أخص شئون

الدولة ، وليس للعاطفة البشرية فيه مكان ، وليس له أن يفكر في اتخاذ أبيه قدوة ؛ لأن ظروف زواج أميني تختلف عن ظروف آني ، وقد تزوج أميني أميرة مصرية ، لا أسيرة ليبية ، ولست أشك في أن الأمير آني كان يعلم ما هو مقدم عليه ، ويدرك أنه بخروجه على تقاليد القصر ، يضحي بحقه في العرش ، وأكبر الظن أنه لم يكن يكترث للعرش أو للوراثة .

ولا شك في أن خصاماً شديداً قد جرى بينه وبين الملك من أجل هذا الزواج ؛ فإن الملك شديد الرغبة في أن يكون زواج كل من أبنائه وسيلة لتثبيت قواعد الملك ، وتقوية دعائم العرش ، وربما لم يكن يرى بأساً في أن يتخذ آني هذه المرأة وصيفة أو جارية . ولكنه كان ينفر أشد النفور من أن يتزوج ابن أخته ووريثه من هذه السبية .

— ولماذا لم يقبل الأمير أن يتخذها جارية ؟

سألت هذا السؤال وأنا متردد ، لأني في تلك اللحظة تمثلت أمام عيني « بتسي » فسخرت من الفكرة التي تجعل من هذه الفاتنة جارية من جملة الجواري .

فقال يونس : « أتراك لا تعرف من هي نوراً » ؟ أتجهل

أنها أميرة ابنة أمير ؟ وهى فوق هذا كله امرأة قوية الشكيمة، جبارة العزم . فأنى لمثلها أن تقنع بمكان الجارية ، وهى التى تطمح ببصرها إلى أسمى المراتب ؟ »

— صدقت . لقد رأيتها ساعة من الزمن فما شككت فى أننى فى حضرة شخص ذى قوة وعزم ، وإدراك تام لما يروم ، وللطريق التى تؤدى إليه .

— إن الطريق لم تعد سهلة ميسورة : فإن « أمينى » وإن أبدى الرضى عن زواج « آنى » ، فإنه لم يلبث أن أسر إلى وزرائه أن ابنه الأكبر هو الأمير سينو الذى ولد — فى زعمه — قبل آنى ببضع ساعات . ومن عجب أن قد ظلت هذه الحقيقة الخطيرة مجهولة تماماً ، فلم تظهر إلا بعد ذلك الزواج . ومهما يكن من الأمر ، فقد أصبح مسجلا فى وثائق الدولة الرسمية ، وإن لم يعلن بعد للناس ، أن أمر ولى العهد قد بات من الأمور المقررة ، التى لا سبيل إلى الرجوع فيها ، وارتفع مكان الأمير بين الناس ؛ لأن للناس إحساساً بما سيحدث ، فانضوى تحت لوائه عدد كبير من أولئك الذين لم يذهبوا إلى المعسكر الآخر عن إخلاص وتحمس . ولكن

مع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، لا يزال هناك عصابة قوية تعمل فى الخفاء لكى يخذل ولى العهد ، وينتصر الأمير « آنى » . والأمير نفسه أزهد الناس كما قلت لك فى الملك والعرش . ولكن رفيقته فى الحياة ترى فى الأمر رأياً آخر . والآن يا سنوحى ، أترى أن عقلك الصعيدى قد ألم بحقيقة الموقف فى عاصمتنا السعيدة ؛ أم ترانى مضطراً لأن أطعمك الجرذان لكى يتفتق ذهنك ويستنير عقلك ؟

ـــ لقد فهمت الموقف ، ولا حاجة بى إلى طعامك ، ولا أظننى سعيداً بما فهمت .

ـــ أجل إنك لست سعيداً بهذه الحال ، إنك توشك أن تصبح من عصابة الأميرة « نورا » إن صدق ظنى . .

اضطربت عند ما ألقى علىّ هذه العبارة ، وصحت دون أن أفكر : « كلا إننى لست من أفراد هذه العصابة أو تلك . »

ـــ إنك تخطىء كثيراً إذا كنت تترك نفسك تنزلق وأنت لا تدرى ، فلا تلبث أن ترى نفسك قد تورطت فى إحدى الناحيتين فجأة ، دون أن تحسب لذلك حساباً . إن للأميرة « نوراً » شقيقة فتانة الجمال . حتى ليقال إن رع الإله الخالق

لم يصنع بيديه شيئاً أجمل ولا أروع منها ، هذا على فرض أن رع قد خلق الليبيين كما خلق المصريين .

— وما خطب هذه الأميرة ؟

— إن اسمها بتسى

— وماذا علينا أن يكون اسمها بتسى ، وأن يكون لها كل هذا الجمال ؟

— إن هذا أهم شيء أريد أن أقوله لك . إن الأميرة نورا ذات قدرة عجيبة ، وبراعة مدهشة ، ولقد أرادت أن تضمن العرش لزوجها وإلا فلزوج أختها ، فأرادت أن يكون سينوفى مثل جرأة أخيه فيتزوج من « بتسى » البارعة الجمال . فإن فاتها أن تغدو ملكة ، فلن يفوتها أن تكون الشقيقة الكبرى للملكة .

« ومن العجيب أن سينوسرت الجاف الخشن الفظ مغرم بالأميرة بتسى . ولكنه مغرم بها غرام المحاربين ذوى الجانب الخشن ، يريد أن يتخذها جارية ومتعة ، لا ملكة وزوجاً . وهو لا يزال يطمع نفسه بأن يتحقق هذا الأمر فى يوم من الأيام ..

« ولكن هيهات أن ترضى الشقيقة الكبرى بمثل هذا المصير لأختها الحسناء . وأكبر ظنى أنها اليوم — وقد يئست من

أن تكون أختها زوجاً للأمير سينو ، تريد أن تكرس جهودها فى أن يصبح آنى ولى العهد ، أراد ذلك أم لم يرد . وتريد أن تفتش لأختها الحسناء عن زوج يعاونها ويشد أزرها فى نيل مرامها .. وقد سمعت بشاب من نبلاء الصعيد ، قد أقبل من الجنوب ، اشتهر بالقوة والنجدة ، وبشىء غير قليل من السذاجة . ويدعى سنوحى . فقدرت أنه أصلح الناس لأن يُمنىَّ بزواج الأميرة الصغيرة . وقدرت الثمن الذى لا بد له أن يدفعه لهذا الزواج ، وأظنك تستطيع أن تدرك هذا الثمن ، فهو أن تضع جسدك وروحك ، وعدتك وقوتك ، وسرك وجهرك تحت تصرف الأميرة الليبية زوجة الأمير آنى . ولو أفضى الأمر لأن تناصب الأمير سينوسرت العداء ؛

« إن سينو بعيد عن العاصمة الآن . وهذا هو السبب الأول فى إلحاقك بحاشية الأمير آنى . والسبب الثانى أن الملك واثق من إخلاص سنوحى بن سنوحى . ويهمه أن يكون فى قصر الأمير أحد المخلصين .

« ذلك هو الموقف ، الذى أردت منك أن تلم به ، وأن تجعله موضع تفكيرك فى الأيام المقبلة .. فإذا كان فى هذا

ما يؤرق طرفك الصعيدى، فإن السهاد أقل ما يصيبك من حياة القصور .....

« لقد صدق القدماء حين قالوا : فتش عن المرأة . »

ـ وأنت يا يونس أما تخشى شيئاً ؟

ـ لقد استترت وراء الشعر ، واتخذته ردءاً ووقاية ، أبصر من ورائه كل شيء دون أن أثير ريبة أو أغضب أحداً ...

« اغد علىّ مرة أخرى بعد أن تعود من صيدك ، غداً أو بعد غد ، فربما كان لدى حديث آخر أدلى به إليك . إنى إأحس كأن فى الجو حادثاً تحاك خيوطه الليلة . وهو من الأحداث الجليلة ... »

٥

لم أنم ليلتى تلك إلا غراراً . وكان السهد يطول أحياناً حتى أضطر إلى النهوض من مضجعى والتمشى فى فناء الدار قليلا ثم أعود إلى مضجعى أستعطف النعاس . إن هذا الانتقال

الفجائى ، من سذاجة الريف ، إلى سفسطة المدن ، ومن بساطة القرويين ، إلى خبث المدنيين . ومن الحياة السهلة الهادئة إلى هذا العيش المعقد — الذى لا تستطيع أن تخطو فيه بخطوة وأنت آمن مطمئن — كان شديد الواقع على النفس . فأين أبى الشيخ الجليل ونصائحه التى كان يظن أنها تفتح أمامى كل مغلق؟ لكى يرى قلة غنائها فى هذه العاصمة العجيبة . فشتان بين طيبة عاصمة الجنوب وبين قاهرة القطرين . إن طيبة لم يكن فيها غير الجنوبيين . ولم يكن بها من الشرور إلا شرورهم . وهى كجرائم الأطفال خالية من كل تعقيد والتواء ... هنا العاصمة العظيمة التى اجتمع فيها الناس من جميع الأقطار . واحتوت جميع الشرور على اختلاف ضروبها وأشكالها .

ألعلى أخطأت إذ تركت أهلى وعشيرتى ، وغادرت عيش الهدوء والدعة ، إلى هذه الحياة التى امتلأت صخباً وضجيجاً ، والتى لا تجرى فيها الأمور إلا معقدة ملتوية ؟ إن النكوص على الأعقاب الآن ضرب من المحال . فهل ترانى على مدى الأيام أستطيع أن أسير فى هذه المسالك الوعرة ، وأن أجتنب ما يعترضنى من الأشواك ، والشراك المنصوبة ؟ لعلى أستطيع

ذلك لو أن ظروف الحياة سارت على مهل ، ومكنتنى بالتدريج من أن أعتاد هذا العيش شيئاً فشيئاً ، وأنال بالتجربة من العلم ما يمكننى من أن أخترق الحجب ببصرى ، وأعرف ما قد كمن وراء الظواهر الخلابة والابتسامات العريضة . ولكن الحوادث لم تمهلنى . بل تتابعت فى سرعة واطراد ومفاجأة ، لم يكن بد من أن تجرفنى وأن تقذف بى بعيداً .

لقد أرادت المقادير بى خيراً إذ أتاحت لى صداقة هذا الشاعر العجيب يونس . لم تكد عينى أن تقع عليه ، وهو قائم بين يدى الملك ينشده من شعره العذب الجميل،حتى أحسست بعطف شديد يجذبنى إليه . ومن حسن حظى أن توطدت بيننا المودة بهذه السرعة . وما زادنى مضى الأيام إلا إعجاباً بهذا الرجل ، وعجباً من قدرته الغريبة على الإحاطة بما يجرى فى القصور ، وما يدبر فى الخفاء ... كان يعيش منفرداً فى داره المنفردة ليس معه سوى عدد يسير من الخدم . وهو يزعم أن هذه الوحدة لازمة أشد اللزوم للشاعر المبتكر،فإذا جاءه الإلهام ليلا أو نهاراً كان قادراً على استقباله وإكرام وفادته والاحتفاظ به . لا يشغله عن ذلك أهل ولا ولد ... تلك دعواه ، ولكنه على

هذا كله، كثير الاتصال بعدد غير قليل من الناس، ولا يكاد ركن فى قصر من القصور أن يخلو من صديق له يثق به ويأتمنه على سره.

ولكنى رغم صداقتى ليونس ، التى ازدادت على الأيام قوة ومتانة ، لم أكن لأركن إليه فى كل أمر . وأن أستشيره فى كل ما يعرض لى من شئون الحياة ... إن قلبى هو الذى يحس ويخفق ، ووجدانى هو الذى يثور ويضطرب، فكيف أستطيع أن ألجأ إلى شخص آخر . لكى يمسك بيدى ، ويهدينى السبيل ، وقلبه لا يحس كما أحس، ولا يضطرب كما أضطرب؟ وفوق هذا كله لا بد لى من الاعتراف بأنى ألفت الاعتداد بنفسى . وهى نفس لم تكن تخلو من الزهو والغرور .

وهكذا ترانى أيها القارئ ، لم أنتفع بصداقة يونس الانتفاع الكامل . ولم أتحدث إليه عن شغفى « ببتسى » ولعله كان مدركاً لحقيقة حالى . ولكن كان من اللباقة بحيث لم يحاول أن يهتك الستر عن هيكل قلبى لكى يعرف الإله المعبود الذى تبوأ عرشه فيه

* * *

لقد طلع الفجر ، ولم أصب من النوم فى ليلتى هذه إلا

حظاً يسيراً . ولكن الشباب والفتوة فى غنى عن النوم الكثير . ولهذا نهضت من مرقدى فى غير قليل من النشاط ، وارتديت ثيابى ، وأخذت فى إعداد قوسى وملأت كنانتى بالسهام ... وجاء الخادم فقدم لى طعام الإفطار . فتناولته . ولم أكد أفرغ منه حتى حضر رسول الأمير يدعونى إلى لقائه .

فى تلك اللحظة كان ظلام الليل قد انهزم تماماً . وقد احمر وجه الأفق الشرقى . وأخذت المدينة تتحرك ، وتدب فيها الحياة. ووصلت إلى قصر الأمير آنى . فوجدته واقفاً بالباب ومعه طائفة من أتباعه وحاشيته ؛ فلم يكد يرانى حتى أخذ يلاطفنى .

— أترى ليل الشمال أهدأ وأعذب أم ليل الجنوب ؟

— كل الليالى فى جوار الأمير طيبة

— ليس هذا بجواب صريح على سؤالى.. ولكنى أعفيك من بقية الرد : إنك ستصحبنى الآن إلى المستنقعات ، فإن هناك طائفة عظيمة من البط تناشدنا أن نذهب لصيدها ، إن هذا الطراز من الصيد هو أحب الأشياء إلى نفسى . وأخشى أن والدى العزيز وشقيقى « سينو » ينظران إلى هذه الرياضة كأنها ضرب من عبث الصبيان . إن أمينى لا يرضيه إلا أن يخرج إلى

الفلاة ، ويفتش فيها عن أسد من أضرى الأسود ؛ ثم لا يزال ينازله ويواثبه ، حتى تنفد قوى الأسد ، ويزأر بشدة احتجاجاً على هذه المبارزة التى لا تنطبق على الأصول المعروفة ، والأوضاع التقليدية . وكثيراً ما عاد أميني من صيده ، يقود أسده حياً .

« وليس بإنسان فى نظر جلالته من لم يصد أسداً واحداً على الأقل . ولهذا تراه لا يستطيع أن يغفر لابن أخته آنى هذه الرياضات السهلة اليسيرة ... والآن هلم بنا إلى الترعة فإن الزورق ينتظرنا هناك . »

سرنا إلى الطرف الغربى من المدينة حتى بلغنا الترعة ... فوجدنا الزورق والملاحين . وجلس الأمير فى مؤخرة الزورق ، وجلسنا كلنا من حوله . وأمسك الرجال بالمجاذيف العشرة ، فانطلق الزورق بسرعة يشق سطح الماء ..

وقال الأمير : « كنت أود أن تكون الأميرة معنا ، ولكنى أخشى أن « نورا » لا تجد لذة فى هذه الساعات التى نقضيها وسط المستنقعات . ولا ترى معنى فى أن نصيد عدداً قليلاً من البط بالسهام أو بالنيازك . مع أن رجال القصر يصيدون منه

المئات بشباكهم وأساليبهم الخاصة . ويحضرونه إلى المنزل دون أن نسعى إليه ! »

ــ لعل الأميرة تنزع إلى الوجهة العملية فى كل شىء .

ــ إن الصيد والرياضة عندها ضرب من العبث ؛ وهى تفضل أن تقضى الوقت فى قصرها ، تستطلع الأنباء وتتحدث إلى الوصيفات . وتشرف على تجميل الحجر وزينتها . وفى هذا كله ما يشغل المرأة . ولكن نحن أبناء الأمراء والنبلاء ، ما الذى يشغلنا إذا لم يكن هناك حرب أو غزو ؟ لولا الرياضة والصيد لكانت حياتنا ثقيلة المحمل ، قائمة على السأم ... ولكن ما هذا ؟ ... إن فى قاع الترعة شيئاً يتحرك . أوقفوا المجاذيف .

وقف التجذيف فجأة ... وأخذ الزورق ينزلق بخرير هادئ على صفحة الماء . لقد صدق ظن الأمير ، إن الحيوان الذى كان يسبح تحت الماء ، قد اقترب من السطح . وها هى جثته الضخمة تبدو فى الماء . إنه عجل البحر ، وقد امتد رأسه الطويل فوق السطح ، وأما أكثر الجثة فلايزال مغموراً بالماء. فى تلك اللحظة انطلقت من يد الأمير فجأة حربة ذات نصل غليظ ، فاستقرت بين كتفى العجل . فلم يلبث أن غاص تحت

سطح الماء ، واندفع يسبح البقية الباقية من عمره . وهو يجتذب الحبل المعلق فى آخر الحربة ... وكان حبلا من الكتان المتين ، طوله مائه ذراع . ولم يزل يجذبه فى اندفاعه بعنف ، حتى لم يكد يبقى من الحبل شىء وأمسك أحد الغلمان بطرف الحبل لكى يقذف بنفسه فى الماء ، وراء الفريسة . ولكن لم يكن هنالك داع لهذا . فإن الجذب قد انقطع وصار من الواضح أن البهيمة باتت لا حراك بها . فأخذ الغلمان يجتذبونها شيئاً فشيئاً ، وبعد قليل ظهرت الجثة إلى جوار القارب ، والنصل مثبت فى جسدها . ثم لم تلبث أن رفعت إلى سطح الزورق .

فاتجهت ورجال الحاشية إلى الأمير بالتهنئة ، على هذه الإصابة المدهشة ؛ وقد كان بيننا وبين العجل عشرون ذراعاً . ولكن الأمير لم يجد فى هذا ما يبعث على الفخر . واكتفى بأن قال : « من حسن الحظ أننى كافر بالشؤم والتشاؤم . وإلا لأحزننى أن يكون أول صيد أصيده هذا العجل . وكيف يعد من الشؤم أن يكون أول رزقك كبيراً ضخماً ؟ إن المتشائمين قوم ضعاف الحجة أبداً . »

ابتسمنا كلنا من تفاؤل الأمير ، ووددت أنا بعد ذلك لو

أنه انتبه لصوت النذير ، ولكن فى تلك الساعة الجميلة لم يكن على ظهر الزورق من يريد أن يفكر فى المستقبل ، أو يفسد جمال اليوم بتوقع الشر .

لم نلبث أن بلغ بنا الزورق إلى موضع ، انتقلنا فيه من الترعة الكبيرة إلى قناة صغيرة ، عرضها لا يزيد على عشرة أذرع . ويوشك أن لا يكون فيها متسع إلا للزورق والمجاذيف التى تتحرك عن جانبيه . وكثيراً ما اشتبك المجداف بأغصان الصفصاف المتدلية على صفحة الماء . أو بأصول شجرة من الطلح ، قد مدت جذورها الملتوية إلى داخل القناة . وفى أثناء انزلاقنا على سطح القناة الناعم الأملس ، ارتج بنا الزورق فجأة ، واختل توازننا قليلا . فبهتنا لحظة ، ثم ضحكنا ، لأننا رأينا المخلوق الذى سبب صدمتنا يزحف إلى الشاطئ يكسوه الخزى المخزى ، والخجل المخجل . لا أظن أن فى الكائنات جميعاً أبلد من التمساح ولا فى تماسيح الأرض أبلد من تماسيح قطرنا العزيز . ولا شك أن تمساح اليوم من أبلدها جميعاً . فلقد كان قابعاً فى طريقنا ، تأبى عليه بلادته أن يتحرك ذات اليمين أو ذات الشمال .. حتى صدمه زورقنا صدمة أطارت صوابه ، إن كان له صواب .

ومضينا دون أن نحفل به ، فلم نلبث أن وصلنا إلى المستنقعات ؛ فإذا أمامنا مساحة عظيمة من الماء لا يبلغ البصرُ مداها . وإذا قلت مساحة من الماء ، فليس معنى ذلك أننا نرى الماء فيها دائماً . بل الحقيقة أن أقل شيء تقع عليه العين منها هو الماء : فبرغم وجوده فى كل مكان ، فإن صفحته مغطاة — عدا قليلا من المسالك والمسارب — يكسوها ورق النيلوفر ، ويخرج منها زهر البشنين الجميل ، كأنه نجم يضيء ، وقد نبت وسط الماء حشد هائل من البردى ، قد ارتفع ساقه ورأسه فوق سطح الماء ، وغابت أصوله فى القاع . وهو يبدو مجتمعاً ملتفاً فى صورة جزر صغيرة ، ويحتل من المستنقعات معظمها ، تاركاً مساحات قليلة من الماء تجرى فيها الزوارق . وأخرى يرتفع فيها الثرى قليلا عن سطح الماء ، فتنمو فوقها طائفة من السنط والطلح والنخيل .وهذه بمثابة جزر حقيقية ، قد انحسر عنها الماء تماماً . ومن الممكن أن تنزل بها لتستريح وتتناول طعام الغداء .

ولم يمض وقت طويل حتى بلغنا جزيرة من هذا الطراز ، فألقينا المراسى هناك . إذ كان من المتعذر على الزورق الكبير

أن يجرى وسط المستنقعات ، حيث الماء ضحل ، والمسالك ضيقة . ولقد نظرت من الزورق إلى هذه الجزيرة ؛ فإذا هى ليست كسائر الجزر ؛ بل كانت عبارة عن بستان صغير ، تتوسطه خميلة ظليلة ، وبها مقاعد ومتكآت .

هنا ركب الأمير زورقاً صغيراً جداً لا يكاد يتسع لأكثر من اثنين ؛ ودعانى لأن أركب معه ، وتركنا سائر الحاشية وراءنا ، فلم نصطحب غير كلب سلوقى . وكان بالجزيرة عدد من تلك الزوارق الصغيرة جداً المصنوعة من شجر البردى ، التى تستخدم فى الشمال كثيراً ، وهى لا تتسع إلا لشخص واحد . ولكن الأمير لا يحب استخدامها ، لأنها كثيراً ما تضطرب براكبها لأتفه الأسباب . أما الزورق الصغير الذى ركبناه فمصنوع من جذع طلحة غليظة بعد تجويفه وتقويره وهوكسائر الزوارق الصغيرة ، لا يدفع بالمجاذيف الأفقية ، التى لا تتسع لها المستنقعات ، بل يدفع بمجداف واحد رأسى ، يمسكه المرء وهو جالس فى مؤخرة الزورق ، وهو يؤدى به عمل المجذاف والدفة فى آن واحد .

وقد جلست فى المؤخرة ، وتوليت إدارة الزورق وتوجيهه .

ووقف الأمير فى الوسط ومعه عدته من السهام والنيازك . وأقعى السلوقى أمامه فى مقدمة الزورق . وهو منتبه للصيد ولما يسقطه الأمير منه .

ونظر الأمير إلىّ وقال : « إن للمستنقعات فى إقليمنا هذا سحراً وجمالا لا تجد له نظيراً إلا فى الفيوم أو النواحى المتطرفة من مصر السفلى . »

قلت : « إن البرك قليلة جداً عندنا . وهذه أول مرة أنعم فيها بهذه الرياضة المنعشة فى هذه المساحة الهائلة من الماء والنبات . »

ــ إننى أفضل هذه الرياضة على صيد الصحراء . وأسعد أوقاتى الساعات التى أقضيها هنا وسط المستنقعات ؟

ــ إنى أرى جموعاً عظيمة من الطير فى أحجام وألوان وأشكال متعددة فهل يفضل الأمير بعضها على بعض .

ــ أكره أن أصيد الطير النادر ؛ وأبغض أن أكون سبباً فى فناء طير يمتاز برونقه أو جمال ريشه ، أو حسن صوته . اللهم إلا أن يكون عددها كبيراً جداً ، ولهذا ترانى أفضل فى الصيد النيازك على السهام .. إن هذه النيازك التى تراها قد صنعت

بإتقان عظيم ، فكل منها مصنوع من الخشب النادر ، وقد قطعت بدقة وإحكام في الطول والعرض والسمك ، ثم صهرت على النار لكي تجف ، ولكي يتسنى للصانع أن يلوى يدها بالقدر الضرورى تماماً .

« وأنا أفضل النيازك الخفيفة لأنها قلما تقتل الطير ، بل تصيبه فيقع حياً ، ثم يرتد النيزك فيقع تحت أقدام الرامى ، هل تعرف رمى النيزك ؟ » ...

ـ لم تتح لى فرصة للرماية بهذه الآلة .

ـ لا بد من أن تتعلم هذا الفن . فهو تسلية جميلة . إننى أستطيع أن أصيب بها على بعد الخمسين أو الستين ذراعاً . بل بل قد أبلغ المائة أحياناً .

فى تلك اللحظة لاح البط من كل جانب ، وانطلقت نيازك الأمير يميناً وشمالا . فلم تخب له رمية واحدة . وانطلق السلوقى والأمير يدعوه خوفو ـ وراء كل رمية ، فيعود بالبطة ، فيتناولها منه الأمير ، ثم يناولنى إياها ، فإذا كانت فيها بقية من الحياة ربطتها فى الحبل إلى جانب أخواتها . وإن كانت ميتة ألقيت بها وسط الزورق .

بلغت الشمس وسط السماء ، ثم أخذت تنحدر نحو الغرب . وقد امتلأ الزورق صيداً . فأمر الأمير بأن نعود إلى الجزيرة ؛ فالتمست قطعة من المستنقع قد اتسعت فيها رقعة الماء ، واستطعت أن أدير الزورق فيها نحو الشرق . وأخذت أجذف والجوع يحرك ذراعي ، فانطلق الزورق كالسهم. فلم نلبث أن بلغنا الجزيرة واتخذنا مكاننا من الخميلة .. ولم يمض وقت طويل حتى كنت ألتهم غداء شهياً يتألف من شواء عجل البحر ، وسمك طرى ، وبط محشو . وقد استعنت على التهام هذا كله بأقداح من النبيذ الفاخر ، لا أظن أنى ذقت له نظيراً فى حياتى .. لقد أخطأ يونس فان حياة القصور لا تخلو من الطيبات .. ولئن كانت طيباتها من هذا الطراز فإنى مستعد لأن أحتمل منغصاتها ، كائنة ما كانت ... فما أجمل الحياة ، وما أبدع الكون ، وما أعذب نغمات الطير الذى لم ينقطع تغريده كأنه شرب مما شربنا ، وطرب كما طربنا . فى تلك الساعة الرائعة من ذا الذى يبلغ به الحمق أن يفكر فى منغصات الحياة ؛ أو مفاجآت الأقدار ؟

فى تلك الساعة سمعت أصواتاً تشق سكون المستنقع ، ولم

تمض لحظة حتى بدأ زورق فخم يقل الأميرة « نورا » وعدداً من وصيفاتها . لا أظن أن الأمير كان يتوقع هذه الزيارة . ولكنه لم يبد دهشة أو حيرة . بل نهض ، وأخذ بيد زوجه ، وهى تنزل من الزورق ، فسارت إلى جانبه ، وحيتنا بتحية جامدة ، ووجهها شاحب كعادته ، وعيناها تلتهبان كعادتهما .

ولم تكد تستقر على الأريكة حتى أمرتنا جميعاً أن نعود إلى الزوارق وأن نبتعد عن الجزيرة . فأطعنا الأمر فوراً . ولا شك أن الأميرة تريد أن تسر إلى زوجها حديثاً خطيراً . ولم تطق الانتظار ريثما يعود . فأقبلت إلينا فى سرعة هائلة لأنى رأيت رجال زورقها فى حالة إعياء ظاهر .

ابتعدنا جميعاً عن الجزيرة ، لكى تستطيع الأميرة وزوجها أن يتهامسا كما يشاءان ، ولم يبق معهما فى الجزيرة من الأحياء شئ سوى « خوفو » السلوقى ، والبط الذى اصطاده الأمير حياً . ومع هذا فإن للبط أحياناً آذاناً تعى وتفهم ! وقد علمنا من سياق الحوادث التالية فحوى الحديث الذى دار بين الزوجين .

إن الملك « أمينى » قد أعلن للناس جميعاً أن ولى عهده هو الأمير « سينو » وبعث الرسل إلى جميع البلاد لكى تدعو الحكام

والنبلاء إلى احتفال عظيم لتكريم الأمير ؛ وأرسلت بعثة خاصة إلى الجنوب لاستدعاء الأمير من أرض « واوات » ... وغير ذلك من الأنباء التى أقضت مضجع الأميرة وعصابتها . وقد رأت آمالها توشك أن تنهار فأسرعت تسر الحديث إلى زوجها ، ولا شك أنها لم تكن أفضل الساعات لمفاتحة الأمير فى مثل هذا الأمر الخطير . فإن هذا هو اليوم الذى يبدو فيه له أن السعادة كل السعادة فى البعد عن الملك ، وعن العرش ، وعن التاج الشمالى والجنوبى على السواء .

ولكنى لا أشك فى أنه بذل جهداً كبيراً لكى يجارى الأميرة ويلاطفها ..وقد مرت ساعات ونحن ننتظر بعيداً عن الجزيرة ، ثم نودى علينا أن نقترب ، فاقتربنا ، فدعانى الأمير إلى الجزيرة . فنزلت وحدى . وابتعد الزورق مرة أخرى .

وهناك فى وسط تلك الخميلة ، وسط حفيف الشجر ، وتغريد الطيور ، جعلتنى الأميرة أقسم بالآلهة جميعاً على الوفاء لها ، ولزوجها ، وأن أأتمر بأمرهما ، وأن أنصرهما وأن أكون لهما فى السراء والضراء خادماً أميناً وصديقاً مخلصاً ... »

٦

انقضت بعد ذلك ثلاثة أيام ، لم تهدأ العاصمة فيها لحظة ، وكان القصر الملكى بوجه خاص فى حركة لا تنقطع ، وكنت تلك الأيام فى معية الأمير ، أصاحبه أينما ذهب ، ولم ألاحظ فى سلوكه أو مظهره شيئاً يلفت النظر ، اللهم إلا اليوم الثالث ؛ فلقد صاحبته إلى القصر ، حيث دار بينه و بين الملك حديث طويل . ثم خرج بعد ذلك ، وفى وجهه شحوب ووجوم لم أكن أعهدهما فيه ..

وتاقت نفسى لأن أدرك شيئاً مما يدور خلف تلك الجدران والأستار ، وأنا أعلم أن كثيراً مما يجرى معروف لطائفة غير قليلة من رجال القصر ونسائه . ولكن أنى لمثلى — وأنا الحديث العهد بالدار وسكانها — أن يكون لى سبيل إلى تلك الأسرار ؟ ثم فكرت فى يونس ، وأنا عائد إلى دارى قبيل الغروب . فلم أكد أبلغها حتى ألفيته لدى الباب ، ومعه شخص أسمر اللون ، قصير القامة ، تبدو فى عضلات جسمة قوة غير عادية .

— هذا صديقى « صعب » وهو صاحب نجواى . وقد

رآك منذ ثلاثة أيام وأنت تذهب إلى الصيد مع الأمير ، وأنت ضاحك مستبشر ، ثم تعود وأنت ساكت واجم .

— إنك من غير شك قد علمته الفضول ، واستراق السمع ، فويل لكما من إله السموات !

— على ذكر السموات ، أريد أن تصاحبنا إلى الضفة الشرقية ، فإن لى هناك كوخاً صغيراً يطل على النيل من فوق مرتفع من الأرض . ومن هناك ننظر إلى السماء جهة الغرب لكى نرى اقتراب الزهرة من الهلال . إن هذا أجمل منظر فى السماء . وهو أجمل ما يكون حين تنظر إليه من الضفة الشرقية ، ودونه النيل يجرى فى هدوء وسكون . وقد بسط أمامك صفحة ملساء ، يبدو فيها الهلال مقلوباً والزهرة من تحته . هلم قبل أن تغرب الشمس ، فالزورق فى انتظارنا .

لم نلبث أن بلغنا الضفة الشرقية ، وتسلقنا قليلا حتى وصلنا إلى ما سماه يونس « كوخا » ، وهو دار صغيرة جميلة ، ذات شرفة وعمد ، إذا جلست فيها استطعت أن تقرأ الجو والمغرب والنيل ، كأنها صفحات من سفر جليل .

كان المساء عذباً والجو شفافاً ، وقد ازدادت السماء زرقة

باقتراب الغروب . ولم تلبث الشمس أن دنت من الأفق دنواً شديداً ، وارتفع الاحمرار فى السماء وانعكس على وجه الماء .

ولكن الذى بهرنا لم يكن منظر الشمس الغاربة ، ولا النيل الهادىء الوادع ، ولا الكروان يملأ السماء تغريداً وإطراباً ، ولا الهواء المعطر بأريج الزهر . بل منظر الهلال وقد استقل وسط سماء المغرب كأنه زورق يسبح ، وقاعدته نحو الأرض ، ورأسه وذنبه مرتفعان ، كأنه قوس عظيم من الفضة مفتوح إلى أعلى ، ومن فوقه الزهرة على مسافة تقرب من الذراع ، تلمع وتتوهج ، وترقص وترتعد ، كأنها أكرة من الزئبق .

ثم غابت الشمس وأظلم الكون ، واسودت السماء قليلا ، فازداد الهلال لمعاناً ، وازدادت الزهرة توهجاً وخفقاناً . واستبد الهلال والكوكب بملك السماء ، حتى تخال أنهما يتزعمان الكون كله . فليس لنجم آخــر ضياء يرى ، ولا للأجرام وجود يحس . فى تلك الساعة رُكزت العيون فى ذلك الركن الغربى من السماء ، تحدق فى الزورق الفضى اللامع ، وفى الكوكب الدرى الذى يبدو كأنه يريد أن ينقض إلى قاع الزورق ، فتمسكه يد خفية .

مضى وقت طويل ونحن الثلاثة نتأمل هذا المنظر ، ونشربه بأعيننا وأرواحنا ، حتى ارتوينا أو كدنا أن نرتوى . عند ذلك انحلت عقدة لساننا وأخذنا نتساءل عن السر فيما انطوى عليه هذا المنظر السماوى من سحر وجاذبية وشعر ! إن الهلال يلمع فى الغروب دائماً فى الأيام الأولى من كل شهر . وهو هو دائماً الزورق الفضى السابح فى السماء ، والزهرة رقاصة الفلك ، تبدو تارة فى الفجر وطوراً فى المساء . فليس ببدع أن أن نرى الهلال والزهرة معاً يسبحان فى سماء المغرب . فما الذى بهرنا فى منظر هذا المساء ؟

قال صعب : « إن سحر هذا المنظر يرجع إلى الاقتراب الشديد بين جرمين لامعين ، حتى ليوشكا أن يتعانقا ، وهما لو تعانقا لبطل سحرهما ، وضاعت روعتهما . لأن اختفاء الزهرة وراء القمر يسلب هذا المنظر نصف بهجته ، وكل روعته .

« فسر الفتنة التى نشاهدها إذن ، هو الاقتراب ، دون الاقتران ... وما أشبه هذا بسحر منظر الخطيبين الجميلين ، قبل أن يفسده القرآن . »

ضحكنا من هذا التشبيه . وتساءلنا إذا حدث القران بين

الزوجين فأيهما يختفي : الرجل أم المرأة : الهلال أم الزهرة ؟

قال يونس : « لا أظن أن مجرد اقتراب الهلال من الزهرة هو روعة هـــذا المنظر . بل إن السر يرجع إلى التناسب العجيب بين موضع كل منهما وحجم كل منهما بالنسبة للآخر . فإن زورق الهلال منبسط إنبساطاً أفقياً ، كأنه يسبح حقيقة فوق سطح أزرق أملس . والزهرة منه فى مكان الوسط تماماً . ولكنها تبعد عنه قدر ذراع . وهذا البعد القليل هو أيضاً سر من أسرار جمال هذا المنظر . فلو أنها ابتعدت عن الهلال أكثر من هذا لفقد المنظر وحدته وإنسجامه ، ولو أنها اقتربت أكثر من هذا ، لفقد كل من الاثنين وحدته ، وأوشك أن يندمج فى الآخر . . . وفوق هذا فأنتما أدري بالخطر العظيم فى أن يقترب كائن شرير مثل الهلال بمن كان مثل الزهرة على جانب غير كبير من الذمة وكرم الأخلاق » . . . .

وهكذا لم يكن بد من أن ينتهى الشرح الفنى الدقيق بنكتة على مألوف عادة يونس. أما أنا فقد خالفتهما فى رأيهما . وقلت : « إن الذى يسحرنا فى هذا المنظر ، هو ما يثيره فى نفوسنا من الدهشة لغرابته، وندرته. وفى السماء — بل وفى الأرض أيضاً —

(هنا تمثلت بتسى) ما هو أجمل من هذا المنظر وأروع ، فالبدر وقت تمامه ، ونهر المجرة تكرع فيه النجوم ، والشمس حين تبدو سافرة أو مقنعة وقت الغروب . هذا كله أروع من اجتماع الهلال والزهرة . ولكنها أشياء قد ألفناها وتعودناها . وهى تحدث فى كل حين .. أما هذا المنظر فإنه نادر جداً . وكل شىء نادر يثير الدهشة وإن لم يزد إعجازاً أو روعة عما هو مألوف معروف . .

« ولست أنسى الضجة الهائلة التى أثارها رجال الدين ، وقت ظهور النجم ذى الذنب وكيف استغلت تلك الفرصة الفلكية العجيبة لاقتناص الثروة وابتزاز المال . » .

قال صعب : « كأنما أخذوا على النجوم عهداً ألا تتخذ ذنباً مدى الدهر . وإذا كانت الدابة تتمتع بذنب طويل مجثل فما أجدر النجوم أن يكون لها مطلق الحرية فى أن تتقلدما شاءت من الأذناب » .

قال يونس : « إنى كلما تذكرت الضجة العظيمة التى أثارها الكهنة فى ذلك الوقت ، والمغانم الكثيرة التى غنموها يخيل إلى أنهم قد تسلقوا السماء فى جنح الليل وركبوا بأيديهم ذنباً لبعض النجوم

قال صعب : « إن رجال الدين خير من ينتهز الفرص ، وهم ليسوا من الغفلة بحيث يدعون ذلك الحادث الغريب يمر دون أن يملأوا خزائنهم ، ويوسعوا ضياعهم ... »

قال يونس : « كان الملك أميني فى ذلك الوقت غائباً يحارب (الماثوى) . أما اليوم فهو من حسن الحظ بين أظهرنا ، وهو أعلم بالنجوم من كهنة رع . وقد بلغنى أنه اتفق وإياهم على أن يذيعوا بين الناس أن اجتماع الهلال والزهرة هذا فاتحة خير ، وفأل سعادة ، وأن البركات والنعم ستحل بأرضنا ولن تبرحها ما دمنا مقيمين على الإخلاص للعرش ، والإحسان للجار ...

« وعلى ذكر الإحسان للجار ، أظن أن داخل الدار أدفأ من هذه الشرفة ، وقد أعددت لكم فى الحجرة قليلاً من الزاد ، فهلم بنا إليه . وهناك نستطيع أن نتابع حديثنا فى هدوء وسكون ، فإن لدى حديثاً أريد أن أسره إليكما ... »

لم تكن بى حاجة شديدة إلى الطعام . ولكنى أصبت من الجعة حظاً وافراً . ونظرت إلى يونس نظرة المتلهف المتعطش . ولم أستطع أن أخفى ضجرى ففطن لما يجول بنفسى ، وقال :

« تكلم يا سنوحي أمام صديقنا « صعب » فهو خير من تفتح لديه قلوب الأصدقاء . ويدلّي عنده بالأسرار . »

قلت : « ليس لدى سر أدلى به ، ولكنى فى حيرة من أمرى ومما يجري حولي . فهل من المألوف أن تكون القصور الملكية فى هرج ومرج ، وحركة لا تنقطع ليلا أو نهاراً . ولقد دهشت اليوم حين دعانى الأمير آنى وأسر إلى حديثا عجيباً . سأكتمه عن جميع الناس . ولكنى سأفضى به إليكما . وهو أنه ربما غادر العاصمة فجأة ، وآوى إلى مكان مجهول ، وطلب إلى أن أبقى فى المدينة لكى أسهر على خدمة زوجه وحريمه . فما عسى أن يكون وراء هذا كله من الأسرار ؟ أو لعل الأمور يسيرة سهلة ، وأنا الذى يخيل لى الوهم أنها تنطوى على سر غامض ومعنى خفى . »

قال يونس : « كلا إن الأمور لا تجرى فى سهولة ويسر . ونحن جميعاً فى أشد الحاجة ، لأن نأخذ حذرنا ، وأنت بوجه خاص يا سنوحي أجدرنا بأن تخطو بتؤدة ؛ فإن بلاط القصر ناعم أملس ، ولكن سرعان ما تنزلق عليه الأقدام ... إننى لا علم لى بكل ما يجرى اليوم . ولكنى أقص عليكما ما بلغنى

بالأمس . منذ ثلاثة أيام كما تعلمان أفشى الملك أمراً كان يعرفه الجميع ، وهو أن «سينو» نجله الأكبر سيرث العرش من بعده.

« ولو وقف الأمر عند هذا لما كان هنالك شيء جديد ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا . فإن الملك فى مساء ذلك اليوم اجتمع ووزيره « هامان » اجتماعاً غير قصير ودار بين الاثنين حديث خطير ، أنقل إليكما ما بلغ مسامعى منه .

« قال الملك لهامان إنه لا يريد أن يكتفى بأن يعلن أن ابنه سينو هو ولى عهده ، دون سواه من أبنائه . بل يريد أن يخطو خطوة أبعد مدى . فإن الدولة ما برحت فى حالة من التزعزع الخفى ، برغم ما يبدو فى ظاهر الأمور من الرسوخ والاطمئنان . ولا يزال بين الناس من يرى أنى أحق بولاية الملك ، ولا بد من اتخاذ خطوة حاسمة ، تقطع حبل الإرجاف وتقضى على كل اختلاف .

« وقال الملك : إنى قضيت زهرة العمر أحارب العدوان من الخارج ، والفتنة فى الداخل ، فلم أفز فى كلا الميدانين بنصر حاسم فها هو ولدى سينو لا يزال يشن على « واوات » حرباً لاهوادة فيها . وما أظن أجلاف الأسيويين إلا منتظرين ريثما تضمد جراحهم ثم يعاودون الكرة ، ويلجأون إلى العدوان

مرة أخرى . إن هؤلاء البدو لا سبيل إلى مسالمتهم ومهادنتهم . ولا يعرفون إلا أحد أمرين : إما أن تقهرهم أو يقهروك .. وإنى بعون الإله قاهرهم ما حييت ! وسأضمن لهم أن يكون على عرش مصر من يقهرهم دائماً .

« ولكى أصل إلى بغيتى هذه ، لا بد لى أن أركن إلى نظام داخلى مستتب ، وإلى حكام فى مقاطعاتنا الأربعين ، يلبون ندائى إذا ناديت ، وينجدوننى فى كل وقت ... فهل حكام المقاطعات جميعاً من هذا الطراز ! إنك تعلم يا هامان أن بينهم عدداً غير قليل ممن لا يكفهم عن العدوان إلا خوف السلطان . ولهذا اضطررت لأن أشعرهم هذا الخوف دائما ، لأن قلوبهم لا يستميلها الحب ، ولا يصلحها الإحسان ... والعدل بين الناس — تلك النعمة الجليلة التى تنعم فى ظلها الأمم بالسعادة والرخاء — شيء يؤذيهم ويضرهم ، لأنه يقص جناح أطماعهم ، ويكفكف غرب شهواتهم ..

« إن هذه الطائفة لا تلبث — إذا ما أزمة أزمت — أن تلقى بالحطب اليابس وسط اللهيب لكى تزيد النار اشتعالا واضطراما . لهذا لا بد لى أن أتخذ إجراء حاسما ،

يضمن استقرار الأمور بعد أن أنتقل من هذا العالم »

قال هامان : « طال عمر جلالتكم . فإن أمامكم السنين الطوال لكى تتمموا ما بدأ تم وتتركوا لولدكم سينو دولة راسخة القواعد ثابتة العمد . »

قال الملك : « لا خير فى جيل لا يعيش إلا لنفسه ، ولا يفكر إلا فى يومه ؛ إن أبناء الجيل الواحد قد يبلغون أسمى الدرجات فى العلم ، والفن ، والسياسة ، والحرب ، ويسوسون بلادهم بالحكمة والعدل ، والبراعة النادرة . ولكن أنهما كهم فى الحكم والإصلاح ، قد يلهيهم عن إعداد الجيل الذى يخلفهم ؛ وكأنما بهرتهم آثار أيديهم ، وثمار عقولهم ، والشعلة الهائلة التى أوقدوها ورفعوها إلى السماء ، حتى غفلوا عن أكبر الواجبات ، وأجلها خطراً ، فلم يعنوا بالذين سيخلفونهم ، وينهضون بالعبء من بعدهم ، فإذا البناء الضخم ينهار ، وليس هنالك من يمسكه . وإذا الشعلة العظيمة تخمد فلا تجد من يوقد جذوتها . وإذا المنشآت الجميلة تتهدم ، وليس من يقيم أركانها ، ويدعم بنيانها .

« إن الأفراد تغتالها المنون ، بعد عمر طال أو قصر. ولكن

الأمة يجب أن تعيش وتخلد . وما أشد عذابنا نحن ، يوم نغدو فى عالم الأرواح ، محلقين مع الشمس فى السماء ثم ننظر إلى البناء الذى شيدناه فى عمرنا ، فنراه قد أسرع إليه الخراب والدمار ، لأننا عجزنا أو سهونا عن خلق جيل يخلفنا ، وينهض بالأمر من بعدنا .

« فدع المجاملة أيها الوزير ، إنك تدرك — كما أدرك — أننا لا نستطيع أن نقامر بهذه الشئون الجليلة . ونعرضها للخطر الجسيم . بأن ندع الأمور تجرى ، من غير رقابة أو عناية . حتى يدركنا الموت ، ولم نعد العدة لتأمين مصير هذه الأمة.»

قال الوزير : « الأمة بخير يا صاحب الجلالة ، فهى اليوم ترفل فى الرخاء والنعيم ؛ بفضل ما بذلته من جهود جبارة فى بسط العدل ورفع الظلم والضرب على أيدى العابثين . » .

أراد هامان بالضرب على هذه النغمة ، التى يعرف أن الملك يحبها ، أن يلطف من حدة الموقف . لأنه كان يخشى أن يبادر الملك باتخاذ قرار عجل ، أو خطوة لم تنل حظها من التدبير والتفكير ، فهامان قبل كل شىء رجل الحيطة والتؤدة ، والنظر ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى أعلى وإلى أسفل ؛ وإلى الأمام والخلف ، قبل أن يخطو خطوة واحدة .

ولكن الملك فى ذلك اليوم كان فى شغل عن المدح والإطراء، وعن التقدير والتدبير : فقال : « لا تخدع نفسك يا هامان ، ولا تحاول أن تخدعنى . فإنك تعلم ، كما أعلم ، أننا لم نقض على قوى الشر ، بل ألزمناها أن تستتر وتتوارى . وهى جديرة أن تظهر ، وأن ترفع رأسها مرة أخرى ، إننا لم نخمد نيران الفتنة ، بل ألقينا عليها رماداً كثيراً ، وهى خليقة أن تعود إلى الالتهاب والاشتعال . إننا لم نمح الظالمين من الأرض . بل أكرهناهم على الاختفاء والانزواء . وهم حقيقون بأن يظلوا فى اختفائهم حتى تحين الفرصة المؤاتية ...

« واليوم أريد أن أتخذ قرارين خطيرين ، ولا بد لنا أن نمضى فى تنفيذهما فوراً . أولهما : أنى أريد منك أن تختار عدداً من أبناء حكام الأقاليم ، ممن تجاوزوا سن الطفولة ، وأشرفوا على طور الرجولة . أريد أن ينزلوا جميعاً فى القصور الملكية وأن يتلقوا العلم مع أبنائى وأبناء وزرائى وأعوانى . وعليك أن تصطفيهم وتختارهم ممن تتوسم فيهم النجابة والذكاء . فإنى أريد أن أعدهم ، لمناصب الحجابة والوزارة ، وقياده الجيش ، وتولى الحكم فى المقاطعات بعد آبائهم ... فما قولك فى هذا ؟ »

قال هامان : « رأى سديد أيها الملك . فإننا بهذا الإجراء، نستطيع أن نولى شئون الدولة والأقاليم رجالا قد بلوناهم ووثقنا بهم .»

قال الملك : « حسنا . أما الأمر الثانى ، فإنك تعلم أن فى كل من آنى وسينو عيوباً خطيرة ؛ فأما الأولى فقد استبعدناه عن الدولة وسنقطعه ضيعة عظيمة ذات مستنقعات وجزر لكى ينعم فيها وزوجه الليبية الشقراء ... أما سينو فملك ابن ملك ، ولكنه شديد الضجر ، سريع الالتجاء إلى القوة ، والاحتكام إلى السلاح . ولا شىء يصلح هذا العيب ، إلا أن أشركه معى فى الحكم بقية عمرى ، وأن أوليه الملك معى ؛ وأدربه على السياسة كما دربته على الحرب والقتال .

« هذه سنة جديدة ، أريد أن أسنها ، وسيدهش لها الناس أول الأمر ، ويعجبون من أن لهم ملكين ، لا ملكاً واحداً . يدينون لهما جميعاً بالولاء والطاعة ....

« لقد فكرت فى هذا الأمر طويلا ، حين رأيت أن السنة القديمة التى كنا نسير عليها ، تعرض العرش والدولة لأزمات وشدائد ، من الممكن اتقاؤها ، فإن الفتنة النائمة سرعان ما ترفع رأسها ، حين ترى الصولجان ينتقل من يد إلى يد ، والتاج

يزول عن رأس إلى رأس . وكثيراً ما انتهز المرجفون فرصة الانتقال هذه ، لإثارة الشغب ، وإيقاد النيران ؛ والسنة الجديدة التى أريد أن أسنها كفيلة بأن تقضى على الإرجاف . وأن تقطع حبل الفتن ... لأن وفاة الملك لن تترك العرش خالياً . ولن تكون هنالك فترة يتولى فيها ملك جديد عرش بلاده ، لأن الملك موجود ، والدولة قائمة دائمة ... فماذاترى ؟ »

أنصت الوزير إلى مولاه . وهو يدلى إليه بهذا الرأى الجديد ، ويشرح له هذه السنة المبتكرة . ولا شك أن الفكرة قد بهرت هامان بقوتها ، وأدهشته ببراعتها ... إن الملك بعد هذا العمر الطويل ، والجهاد العنيف المضنى ، لا يزال قوى العقل ، حاضر الذهن ؛ وما برح كما كان دائماً يرى الغرض الذى ينشده فى جلاء ووضوح ، ويتخذ إليه أقوم السبل وأنجع الوسائل . دون أن يبالى بالسنن القديمة ، والتقاليد الموروثة .

– وأطرق الوزير لحظة يفكر ثم قال : « إن للملك الرأى الأعلى ، والنظر الثاقب دائماً . وأنا فى حاجة إلى التروى والتدبر قبل أن أدلى لمولاى برأى فى هذا الانقلاب الخطير . »

قال الملك : « إن آفتك يا هامانت هى هذا الإفراط فى

التروى والتفكير . فأنت مثل البقرة تطيل المضغ ساعات ، ثم تعود فتلوك ما مضغت . ما الذى تخشاه ؟ »

قال : « أليس هنالك من خطر ، فى أن نجابه الناس بأمر فيه خروج على ما اعتادوا ، وثورة على ما ألفوا . بعد أن جابهناهم بتنحية آنى ، وتولية سينوسرت ؟ »

قال الملك : « إن الناس لن تجد بأساً فى أن يتولى ابنى الملك ، وأنا بعد على قيد الحياة ، أهديه السبيل ، وأعرفه بالناس ، وأقيم بينه وبينهم أواصر الحب والولاء . أما حرمان آنى وراثة العرش ، فإن المخلصين من النبلاء والحكام ، سيغتبطون لهذا ، وسيرون فيه الخير ، وإذا كانت العناصر الشريرة تحس من خيبة الأمل ما يدفعها إلى ركوب الفتنة . وإثارة الشعب ، فما أخلقنا أن ننتهز الفرصة ، ونحطم رأس الأفعى ونقضى على الشر القضاء الأخير .

« إنى لا أريد أن أسرف فى إساءة الظن بالناس ، ولا أريد أن أتكلف الكشف عما تكن فى الضمائر . وما دام الناس يظهرون الولاء ، ويبدون المودة ! فإنى سأجزيهم الخير على ولائهم ، وأبدى لهم السرور والرضى . وعلى الرغم من يقينى أن

كثيراً منهم يضمر غير الذى يظهر ، ويطوى خلاف الذى ينشر ، فإنى لن أتعمد نكأ الجرح أو كشف الغطاء عما فى الضمائر . لعل تكلف الولاء أن ينقلب مع الزمن ولاء ، ولعل التطبع أن يستحيل مع الأيام طبعاً .

« ولكن الويل كل الويل لمن يدبر الدسائس فى الخفاء ، ويطبخ الجرائم فى غسق الليل لكى يعاجلنا بها على غفلة منا ، ويسلب البلاد أمنها وراحتها . أولئك الذين لن تأخذنى فيهم رأفة ولا رحمة ، وأولئك الذين أحمد لهم فتنتهم ، لأنها مكنتنى من رقابهم ، وساعدتنى على أن أتقرب إلى الآلهة بسفك دمائهم ...

« إنك تعلم يا هامان أنى منذ استقرت أمور هذه البلاد ، وسادها الأمن والهدوء أوثر اللين على العنف ، وأفضل أن تكون الطاعة والإخلاص عن حب ومودة ، بعد أن أحرزتهما عن خوف ورهبة . ويخيل لى أنى بهذه الوسيلة قد اكتسبت ولاء العدد الأكبر من الأشراف والنبلاء فى طول البلاد وعرضها . فهل تظن حقيقة أنه لا يزال بينهم من يسارع بالكيد لى ولأسرتى »؟

قال الوزير : « إنى واثق يامولاى أن الأشراف وحكام الأقاليم جميعاً ، لا تحدثهم اليوم نفسهم بشر يقومون به من

تلقاء أنفسهم ، ولكن قد يكون بينهم من يساعد الشر إذا كان البادئ به شخصاً سواه .

قال الملك : « كأنك ترى أن هنالك عصابة أخرى ، قد تكون هى البادئة بالشر ! »

قال : « أجل . إنى إذا ضمنت لجلالتكم حكام الأقاليم ، فإنى لا أستطيع أن أضمن إخلاص من فى القصر ، ولدى ما يحملنى على الظن بأن الأميرة الليبية من أبرع النساء فى حياكة الدسائس . وهى فوق هذا امرأة بعيدة الأطماع ، لا تريد أن تنسى أنها من سلالة عريقة فى الملك . »

قطب الملك جبينه ، وضغط بيمناه على صوبجانه ضغطاً شديداً ، واتسعت حدقتاه حتى صارتا فى ضعف حجمهما . ثم قال وهو يعض على نواجذه : « أذكرتنى نساء القصر ولم أنسهن ؛ إن كيدهن عظيم .. لأهون على الملك الجبار أن يحكم القطر من أقصاه إلى أقصاه ، فيدين له الناس جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، بل ويخضع الوحش والطير والدواب .. كل هذا أيسر وأهون عليه من أن يسوس القصر الذى يعيش فيه ، والأشخاص العديدين ، الذين يستظلون بظله ، ويأكلون من فيض يديه .

« وهذه الأميرة الليبية ذات الوجه المقَشَّر ، ما مُلْكها هذا وما قومها ؟ إنْ هم إلا رعاة أجلاف ، يطعمون اليربوع ويشربون الماء الآسن ، وقد جعلها حمق آنى وسذاجته أميرة بعد أن كانت أمة ذليلة . إن زواجها من « آنى » قربها منى ، ولكن لتحترس هى ومن معها . فإنى بعد خليق أن ألقى بها إلى السباع .

« لقد شغلنى يا هامان حكم القطر عن حكم القصر . وهى جريمة كثيراً ما ارتكبها الملوك من قبلى . ومع هذا ، فإنك تستطيع أن تترك أمر القصر لى ... أما أنت فإنى أريد منك أن تستعد لحفلة التتويج ، أريد منك أن تبعث الرسل إلى حكام الأقاليم ، وتدعوهم إلى أن يحضروا هنا بعد خمسين يوماً ، وابعث رسولا إلى ميدان الحرب ، بأن يعجل ولدى سينو بالعودة . إنى أريد أن أرى حكام الأقاليم تركع بين يديه ، وهو جالس بجانبي على العرش . »

* * *

قال يونس : « ذلك أيها الإخوان الحادث الجليل ، الذى يشغل العقول ، ويقض المضاجع ، ويملأ المدينة حركة

ونشاطاً ...

قلت : « أواثق أنت أن هذا كله قد حدث . »

ــ لقد يكون هنالك اختلاف يسير فى الألفاظ ، أما الحقائق التى تعبر عنها تلك الألفاظ ، فليس لدى ذرة من الشك فى أمرها .

ــ ولكن أتظن الأمير آنى يخرج على إرادة والده ، ويشترك فى تدبير مكيدة أو دسيسة ؟

ــ كلا . وهذا ما أريد أن أؤكده لك أنت ياسنوحى بوجه خاص ، إن آنى أزهد الناس فى الملك والوراثة ، وإذا كان هنالك دسيسة تدبر ، فإنه لن يسمح له بأن يطلع عليها . ولهذا السبب يريدون منه أن يسافر إلى إحدى الضياع البعيدة . وقد طلبوا منك أن تسهر على حماية زوجه . فاحذر يا سنوحى ، ولا تقامر على الجهة الخاسرة ، واذكر أن ولاءك للعرش مقدم على كل ولاء !

فى تلك اللحظة تذكرت اليمين التى أقسمتها فى المستنقعات. وأنها لم تكن يراد بها مجرد واجب يؤدى . فعجبت من أمرى ، وأخذت أفكر كيف يكون شأنى إذا تعارض ولائى للعرش

ولأسرة الأمير ! إنى لم أقسم يمين الولاء للملك ، ولكن هذا أمر مفروغ منه ، والولاء للملك فرض لا يحتاج إلى قسم ...

أخذت الهواجس تتلاعب بى. وأحس رفيقاى بأنى وجمت وجوماً شديداً . يوشك أن ينقلب إلى كآبة . فقدم لى صعب قدحاً من الجعة . وناول يونس طنبوره واستحلفه أن ينْشدنا آخر شعر ألفه ، على ألا يكون مدحاً فى ملك أو أمير ، أو عشقاً فى جارية ..

قال يونس: « ويحك إذا لم نمدح أو نعشق ، فماذا نفعل؟»

— تستطيع أن تتفلسف . أو تصف النيل ، أو الخمر ،أو هذه السماء التى شاهدناها . ومثلك لا يُعييه الموضوع ..

— إنّ الإبداع فى موضوع جديد ليس من البراعة فى شيء وإنما البراعة أن تغنى لحنا جديداً فى موضوع قديم . ولكنى لا أريد أن يختم حديثنا هذا المساء بالغناء . وأظنك يا صعب تريد أن تلتمس تسلية لصديقنا سنوحى . غير أنى لا أريد منه أن يتسلى أو ينسى ، بل أريد أن يتذكر ويهتم .

وساد الصمت بعد ذلك ساعة . ثم قلت : « لنعد إلى الضفة الغربية . »

فنهضنا جميعاً . وأخذنا ننحدر فى بطء إلى حافة النهر ، وركبنا زورقنا ، وقد برد المساء . فلم نلبث أن بلغنا الشاطىء الغربى ..

وانطلق كل من يونس وصعب إلى داره ؛ وعدت إلى منزلى ، لأقضى ليلة أخرى فى هم وسهاد ....

فى تلك الليلة وضعت على الوسادة رأساً تتنازعه العواصف الهوجاء .. ولم يكن الخاطر المفظع ، الذى أخذ يلدغنى كالحية الرقطاء ، فيطرد عنى النوم والأمن ، هو الأميرة وما قد تفعل أولا تفعل ؛ بل شقيقتها بتسى ؛ وما قد يكون من أمرها وأمرى يوم يصبح سينو ملكا مطاعاً .

إن هذا هو الخاطر الذى سهد جفنى الليالى الطوال ...

– ٧ –

حل موسم الحصاد ، فحيثما سرت فى الريف ، ترى القمح يقطع بالمناجل ، ويكدس فى الحقول ، ويرسل الزراع إلى الملاك حزمة منه ، لكى يطلعوا على الغلة الطيبة التى جادت بها

أرضهم . وقد اكتظت طرقات الريف بالحمير ، تحمل الأكداس العظيمة من القمح ، فتنقله من الحقول إلى البيادر المنتشرة حول القرى ، وهناك تشهد أجمل مناظر الريف جميعاً . إذ ترى الثيرة الحمراء ذات القرون المليحة منهمكة دائبة تدوس القمح بأقدامها المتينة ، فتفرق بين القمح والتبن ، وهى تسعى ذهاباً وإياباً ، ورأسها الجميل يهتز من أعلى إلى أسفل ، ثم من أسفل إلى أعلى.

كانت سنة حصاد ضخم وغلة وافرة . وقد امتلأ الريف بشراً وتفاؤلا ، وازداد الزراع سروراً عند ما أصدر أميني أمراً إلى الحكام بأن ينقصوا من الضرائب هذا العام . لكى يهيء لتتويج الأمير سينو جواً من الرضى والارتياح يعم جميع أنحاء القطر.

ونال العاصمة قسط من هذا المرح المنتشر فى البلاد ، وكان من جملة الحفلات التى أقيمت مسابقة الرماية التى كنت أتوقعها منذ حللت العاصمة . والتى لم أهمل الاستعداد لها يوماً واحداً . وقد نادانى الملك قبيل المسابقة وتلطف إلى وقال لى : « ويحك يا ابن سنوحى ، إن يوم الحساب قد حل . فأثبت لهؤلاء الشماليين أن الجنوب ينبت السواعد المتينة ، والبصر الثاقب . »

ولقد صاحبنى فى ذلك اليوم توفيق لم أكن أتوقعه كله : فلقد رميت عشرة أسهم كما فعل جميع المتسابقين . وكان الهدف

منصوباً على الضفة الشرقية ، وإلى جانبه شخص يراقب السهام ويعد الإصابات ، وهو مستتر وراء جدار يقيه من الرميات الطائشة — وما أكثرها !

في ذلك السباق وصلت جميع سهامى إلى الضفة الشرقية . وسبعة منها أصابت الهدف المنصوب . فكان فوزاً لم يوفق أحد إلى خير منه ، اللهم إلا جلالة الملك نفسه. فإنه وإن لم يكن من المتسابقين وقف فى النهاية وأمسك بقوسه الهائلة ، ورمى العشرة الأسهم بسرعة ، فوقعت كلها فى وسط الهدف ، لم تشذ منها واحدة .

تلطف جلالته ودعانى إلى مقصورته ، وهنأنى بنجاحى ، ومنحنى على سبيل المكافأة ، سهماً صغيراً من الذهب الخالص. وقال لى إنه مسرور لفوزى وإن من الواجب على أن ألتحق بخدمة الأمير « سينو » فإن مواهبى ضائعة فى معية الأمير آنى ، الذى لا يعرف إلا صيد البط ، ورمى النيازك وأولى بهذه المقدرة الفائقة أن تجرب فى صيد الأُسد ومنازلة السباع . « إن ولدى سينو سيعود إلى العاصمة قريباً . وسألحقك بحاشيته بمجرد عودته . »

وبعد فإن من الأيام ما هو شؤم كله ، منذ تطلع شمسه فى الشرق ، حتى انحدارها فى الغرب ، ومنها ما هو يمن وبركة فى أوله ونهايته ، وفى كل ساعة من ساعاته . وفى كلا الحالين تمارس

النفس لوناً واحداً تألفه . خيراً كان أو شراً . ولكن هنالك أيام مختلطة مختلف آخرها عن أولها . تطالعك فى الصباح بوجه عابس متجهم . ثم تنبسط أساريرها فجأة وتأخذ فى الابتسام ، ثم تضحك حتى تبدو نواجذها : ثم تقهقه حتى تملأ الفضاء مرحاً صاخباً .

هذه ثلاثة أنواع من الأيام . أما الرابع فإنه كيومنا هذا الذى بدأ باسماً ضاحكاً . وانتهى فى ظلام حالك . تحتله مأساة مفظعة مفجعة : ليس لها فى حياة مصر نظير . وذلك أسوأ الأيام جميعاً ...

إن ذلك اليوم الذى كانت المدينة فيه يغمرها الفرح ، ويشملها العبث والمرح : واحتشدت فيه الجموع لتشهد تسابق الرماة . ذلك اليوم نفسه قد تلته ليلة ليلاء هب فيها الملك أمينى من نومه منزعجاً ، لأن عصبة من الخونة اقتحمت داره لكى تفتك بشخصه المقدس .

إن كثيراً من الناس يعلم أن للملك أمينى أسْداً تحرسه إذا نام . فلا يستطيع أحد أن يدنو من حجرته وأن هذه الأُسد تطلق فى الليل ، فلا يدنو من القصر شخص غريب إلا تعرض للموت المحقق . ولكن الناس تنسى أن المكلفين برياضة هذه الوحوش هم عبيد من الليبيين ، وأن كثيراً من حراس القصر عبيد من الليبيين أيضاً . إن هذا الاطمئنان العجيب إلى الغرباء ، كاد أن يكلف الملك حياته ، ويفقد الأمة المصرية أثمن شىء لديها .

لقد رأينا الملك فى حديثه مع وزيره هامان ، غير مطمئن لما يبدو فى ملكه من الهدوء الظاهر ويخشى أن يكون تحت الرماد جمر يشتعل ورأينا الوزير فى أدب ولباقة يحذره القصر ونساء القصر . ولكن الملك الذى لم يصادف فى حياته غير النجاح المطرد ، ولم تعترضه عقبة إلا أزالها فى مثل لمح الطرف ، لم يكن يتوهم أن دسيسة لاغتياله تدبر فى قصره . وأن الشر قد يتفاقم حتى يضطر لأن يدافع الموت بيديه . لذلك لم يسىء الظن فى حراسه وأتباعه ، بل كان يظن أن هيبته كفيلة بأن تشل من خوفها الأيدى . وتجف من خشيتها الأذرع ... ولست أشك فى أن للمليك نظرات تبعث الرعب فى قلوب الجناة ، وتقلم أظفار البغى ، فى أكثر الأحيان ، ولكن قد يكون البغاة قوماً غلبت عليهم الرعونة ؛ أو كانوا ممن طاشت أحلامهم . أو لعبت بألبابهم أطماع شريرة . أو كانوا ممن تصرفهم وتعبث بهم إرادة عنيدة ، قد امتلأت حقداً وضغناً . فمن الجائز فى مثل هذه الحال ، أن يصاب الإله الطيب بأذى شديد . إن الدابة الحمقاء قد تفتك مع أنها لا تعقل ، بل هى تفتك لأنها لا تعقل ... وما كان أولئك الشريرون الذين اجترأوا على الاعتداء على شخص الملك المقدس ، إلا

دواب لا تعقل : تسيرها يد آثمة وإرادة شريرة .

في تلك الليلة الليلاء كان الملك متعباً بعد مجهود يوم طويل : ولكنه برغم ذلك دعا وزيره هامان ، وتحدث إليه في أمور رأى أنها لا تحتمل الإرجاء إلى الغد ؛ ثم أوى إلى فراشه متعباً ، واستسلم لنوم هادئ ولكنه نوم خفيف جداً .

وانتصف الليل ، والسكون يشمل كل مكان ، والهدوء باسط جناحيه على كل ركن وكل حجرة في القصر الملكي . ثم انقطع السكون فجأة ، وارتفعت في وسط الليل صرخة مزقت الفضاء . فنهض الملك منزعجاً ، ورأى على ضوء المصباح حاجبه الأكبر المصري يدخل من الباب مترنحاً ، ثم يخر مضرجاً بدمه ، ومن ورائه وجوه شريرة تبدو في ضوء المصابيح الضئيل وهي تعدو نحو حجرة الملك .

لست بحاجة لأن أسهب هنا في وصف ذلك الحادث العجيب ،فإن الناس جميعاً لا تزال تذكره وتتحدث به . . والكل يعرف كيف رد الملك البغاة على أعقابهم بأن ألقى عليهم تمثالا من الرخام ، ثم أعقبه بتمثال من النحاس ، ثم تناول فأسه وانقض على المعتدين يضربهم يميناً وشمالا . وقد مات منهم من الرعب أكثر ممن قضى نحبه قتيلا بضربة فأس أو خنجر .

وقد تحمل الملك العبء الأكبر فى هذا القتال ، ولكنه لم يكن يقاتل منفرداً ، بل كانت هنالك أيضاً عصبة صغيرة من أبناء طيبة ، أبلت فى هذه المعركة الغريبة أحسن البلاء ، وأمكن بمساعدتهم تطهير القصر من أجساد القتلى ، ودمائهم وأشلائهم .

وأنا ما الذى كنت أصنع فى تلك الليلة ؟ هل كان لى علم بهذه الفتنة المنكرة ؟ لقد اتهمنى تجار الشر فيما بعد بأنى كنت ملماً بكل شىء ؛ وأنى من المتآمرين مع الأميرة الليبية وعصبتها؟ وإلا فكيف استطاعت المصادفة المحضة أن تسوقنى إلى قصر الأميرة فى تلك الليلة ، وأن تدفعنى إلى مصاحبتها هى وحاشيتها من العاصمة إلى الحدود الغربية ، وبذلك ساعدت العصابة على الهرب والإفلات من القصاص ؛ واللحاق بالقبائل الليبية ؟

إننى لست أملك أمام هذه التهمة القاسية سوى أن أقسم بالآلهة جميعاً أننى برىء نقى الصحيفة ، طاهر الذيل . ولئن كانت ظواهر الأمور قد تألبت على لكى تجعل طريق البراءة والنجاة ضيقاً عسيراً ، فلست أول متهم اتفقت ظواهـــر الأمور على أن تخدع أبصار العدل عنه ، وتضلل سبل الحكم عليه .

لقد كنت تلك الليلة فى دارى نائماً وكانت من الليالى القلائل التى أمكننى فيها أن أغمض جفنى على نعاس هادئ

عميق ..فأيقظني من النوم قبيل الفجر رسل الأميرة نورا ، فخرجت فألفيت قافلة تتقدمها الأميرتان ، ومن خلفهما عدد كبير من الأتباع . كلهم من الليبيين . كانت كل من الأميرتين راكبة على مقعد وثير . مثبت على ظهر حمارين ، حسب الطريقة المألوفة . وكان هنالك دواب كثيرة أخرى تحمل الزاد والمؤونة . كأن الركب مزمع سفراً طويلا . والنهر قليل الماء فى ذلك الوقت ، والقنوات جافة تماماً ؛ فلم يكن بد من أن يستخدم الركب الحمير . وكان الرجال يمشون على الأقدام ، وقد لاحظت فى سواد الليل أنهم جميعاً مدججون بالسلاح .

لم أستطع أن أفهم من هذا كله شيئا . فلم يسعني إلا أن انحنيت محيياً أمام الأميرتين ؛ ووقفت أنتظر ، لعل كلمة تقال فتكشف القناع عن هذا المظهر الغريب . ولكن الأميره لم تزد على أن قالت : « إننا ذاهبون فى رحلة قصيرة نحو الغرب ، ونريد أن تصحبنا ... ولست بحاجة لأن تستحضر شيئاً . »

ولكني برغم هذا أسرعت باستحضار قوسى ونصالى، وفأسى ورمحى ، واستكملت عدتى ؛ ومشيت إلى جانب الأميرة . واتخذنا طريقنا نحو الغرب كأننا نسعى إلى الصحراء من أقصر سبيل .

كان الليل يظلنا ونحن نبتعد عن العاصمة، وقد غادرناها

دون أن يعترض طريقنا أحد ؛ ولو أننا صادفنا أحدا لما كان فى مظهرنا ما يدعو إلى الريبة ، فليس بمستغرب أن تخرج الأميرة وحاشيتها قبيل الفجر ؛ للتنزه على حافة الصحراء ، ثم تعودقبل أن ينتصف النهار . ولم يكن فى كل هذا ما يقلقنى غير أمر واحد . وهو أن الأمير آنىلم يكن معنا ، وقد أجهدت فكرى ، أحاول أن ألتمس سببا لغيابه . فلم أهتد إلى سبب مقبول ، وتوهمت آخر الأمر أن الأمير قد سبقنا ، وأنا لاحقون به . فزال عنى القلق عندما خطر هذا الوهم ببالى . . .

لم يلبث الفجر أن طلع ، وكنا نسير نحو الغرب ، مع انعطاف يسير إلى الشمال ، وقد لاحت لنا أصنام منف وتماثيلها من بعيد ، يحيط بها ضباب شاحب اللون ، فتبدو من ورائه كأنها أشباح ضخمة مبهمة ، فإذا أطلت النظر إليها ، خيل إليك أنها تتحرك نحوك، وذلك حين ينجاب الضباب عنها قليلا .

وبعد سويعات قلائل ، طلعت الشمس من ورائنا ، فأشرقت على قطار غريب مريب ، يتجه نحو الغرب . كأنه يهرب منها ، ومن ضيائها، وقد جعلنا ظلنا أمامنا، وأخذنا نتبعه ونقتفيه . واختلست النظر إلى وجه الأميرة نورا ، فإذا هويكسوه الشحوب . وقد هبط الحدان ، ونتأ عظمهما واتسعت العينان

فوق اتساعهما المألوف . وكان يحيط بكل عين دائرة سوداء ، وغضون لم أكن ألحظها من قبل . . . إن أمراً خطيراً قد حدث من غير شك ، فقد وثبت سن الأميرة أعواماً طوالا منذ رأيتها بالأمس . وبتسى ما خطبها ؟ إنها تخفى وجهها عنى كلما حاولت أن ألقى عليها نظرة خاطفة . وكأنى أرى عينيها محمرتين من أثر البكاء . فما أشد تلهفى لأن أرى اللثام يرفع عن هذا كله! ولكن أحداً من الركب لم ينبس بكلمة ، والكل يمشى مطرقا صامتا.

وفى وسط الضحى ، بلغنا حافة الصحراء ، وأبصرنا الهرم المدرج عن يميننا ، ثم لم نلبث أن هبطنا مع الظهر واديا مطمئناً وسط هضاب الصحراء . فلم نقم فيه لحظة . حتى برزت إلينا — من حيث لا أدرى — عصابة أخرى من الناس . لم أكد أراهم حتى انبريت لهم ورمحى فى يدى إذ ما شككت أنهم من قطاع الطريق . ولكن الأميرة صاحت بى أن تمهل فهؤلاء أصدقاؤنا .

وتقدم هؤلاء الأصدقاء فركعوا بين يدى الأميرة وخيل لى أنهم يتجاوزون المائة عدًّا ونظرتْ إلى الأميرة وقالت : «ياسنوحى لقد أبلغتنا مأمننا ، وتستطيع الآن أن تعود أدراجك ! إن فى وسعى كما ترى أن أسوقك معى إلى قومى ، عبداً رقيقاً ذليلا ؟ كما ساقنا رجالكم من قبل عبيداً وإماء! فإنكم يا أبناء الطين

لا ترعون الحرمات ، ولا تعرفون لامرئ كرامته . ونتزوج من أمرائكم ، وهو شرف نوليه إياكم وإياهم . فيحرمهم ملككم وراثة العرش لزواجهم منا . أقول إن بوسعى أن أسوقك معى . ولكنى لا أجازي الإحسان بالإساءة ، ولقد كنت لنا خادماً أميناً ، وفوق ذلك فإنى أريد منك أن تبلغ مليكك رسالتى الأخيرة : قل له إنى سأعود قريباً ، ولن أكون هذه المرة أسيرة ذليلة ، بل أميرة نبيلة تتقدمنى آلاف الرماح ، تكتسح السهول والبطاح ، قل له إنى فى ذلك اليوم لن أخطئ كما أخطأت بالأمس . »

هذه هى الكلمات العجيبة التى طرقت مسامعى ، فتصاعد الدم إلى وجهى ورأسى ، وتملكتنى دهشة هائلة ، كادت أن تفقدنى الرشاد .

وغودرت وحدى وسط هذا الوادى ، وقد ملكنى الوجوم بحيث لم يستطع جسدى ولا بصرى ولا عقلى حراكا . . ولعلى قد مرت بى ساعة وأنا فى هذه الحال ، ثم عدت متثاقلا موليا وجهى نحو الشرق ، وكنت أتعثر فى مشيتى كأنى أسير على غير هدى .

ولم يزايلنى الوجوم ، حتى اقتربت من العاصمة ، فإذا يونس يسير للقائى فقص على وقصصت عليه كل شىء .

٨

الآن وقد أشرفتُ على الشطر الأخير من قصة عمرى المضطرب فإنى أريد أن أمسك بيدك ، وأعرض أمامك الصور الأخيرة ، لكى تراها وهى تمر بين يديك مر السحاب .

انقضت شهور طويلة على الحوادث التى سردتها من قبل ؛ وألفيت نفسى فى مكان آخر على حافة الصحراء ، جالساً فى خيمتى ، وقد أظلم الليل ، ولمعت النجوم فى السماء ، وقد أخذت أستذكر الماضى ، وأصور لعينى الأحداث الجسام ، التى مرت برأسى .

كاد لى الدهر فأجاد الكيد ؛ ونصب من الوهم شراكا متينة لصيدى ، لولا رحمة الآلهة وعطف الملك ، لأطبقت على ، وأوردتنى موارد الهلاك ، ولكن أمينى أبى أن يصدق أنى ارتكبت خيانة أو إثما . وقد أصغى إلى حديثى بانتباه واهتمام ، وأنا أفضى إليه بكل شىء جرى ، دون أن أحذف حادثاً أو أنقص كلمة . فلم يتسرب عنده الشك فى لفظ نطقت به . إنه يعرف فى أسرة سنوحى النجدة والولاء ؛ وما كان لأحد أبنائها

أن يتخلف حين تقصده أميرته ، التى كلف رعايتها وطاعتها ، فى أى أمر من الأمور ، التى تفرضها الخدمة والإخلاص . ولم يكن فيما طلبته الأميرة شىء يثير الريبة . ولئن كان فى عملها ما يبعث الشك ، فما ينبغى لحاجبها وحارسها أن يأذن لمثل هذا الشك أن يخامره أو يجد إلى خاطره سبيلا .

أجل . إن أمينى كان بى برآ رحيما ؛ ولكنى — ويا للأسف — لا أستطيع أن أقول هذا عن الأمير سينو ، الذى لم يلبث أن هبط العاصمة ، وأقيمت له الحفلات الضخمة . وعقد التاج المزدوج على مفرقه . وسجدت بين يديه وفود البلاد المصرية من أقصى القطر إلى أدناه . فأصبح سينوسرت ملكا جباراً إلى جانب أبيه الملك الكريم . . . حاولت بجهدى أن أكسب رضى الملك الشاب ، فكانت محاولاتى ترتد كالسهام الطائشة ، وظل نافراً منى ، مزوراً عنى ، وأعيتنى الحيل ؛ وأوشك حبل الأمل أن يتمزق .

ثم ابتهجت سروراً — وإن لم يكن فى الأمر ما يبعث السرور — حينما سرنا معاً لمحاربة الليبيين ، لعل الفرصة أن تتاح لى فى ميدان القتال ، فأكتسب إعجاب الملك الشاب .

وحسن تقديره ، إن كان قد قدر لى ألا أفوز بعطفه وحبه . ولكنى هنا أيضاً لم أكن أكثر حظاً منى هناك . . . ولماذا أبغضنى سينو كل هذا البغض ؟ أتراه ما برح يظن أن لى يداً فى هرب الأمير آنى . وهو يعلم الآن أنه لم يهرب ، بل التحق بأمه فى الشمال ، ويعلم أيضاً أن الأمير كان يجهل الدسائس التى تدبرها زوجته الليبية ؟ أم تراه يحقد علىّ لأنى سمحت للأميرة الفاتنة بتسى بأن تغادر أرض مصر فى صحبة أختها وقد كان يمنى النفس برؤيتها بعد عودته من أرض واوات ؟ . . أم تراه قد أسر إليه الوشاة أمر حبى لها ، وشغفى بها ؟ إن كان هذا هو الخطب ، فإن الداء عضال ، ولا يشفى منه غير مر السنين .

وعندما خطر لى هذا الخاطر ، أدركت أن أيامى فى خدمة البلاط مرهونة ببقاء أمينى على العرش . وستكون الحياة بعده جحيما ، وعذاباً أليما .

لم يعد أمامى بعد هذا مخرج إلا أن أبذل دمى بإسراف وتبذير فى هذه الحرب الليبية الشعواء ، لعل سهماً من سهام « الطحين » المسددة أن يكون فيه الشفاء من هذا البلاء .

إن الأميرة الليبية لم تقصر فى تنفيذ وعيدها ، فلم يمض على

فرارها بضعة أشهر ، حتى وردت الأنباء بأن الصحراء الغربية باتت كعش الزنابير دوياً وهرجاً ومرجاً ونشاطاً ، وأن لا بد من المبادرة بإرسال جيش كبير على الحدود الغربية . .

ويتألف الليبيون — كما هو معروف — من شعوب وقبائل شتى ، أكبرهم عدداً وأعظمهم جاهاً من غير شك هم الطحين قوم الأميرة الشاردة . يليهم فى القوة والبأس الطميح ، ثم الريبيون ، ثم المشواش، ثم العمنت ، ثم قبائل أخرى أضعف شأناً وأقل خطراً . هذه الجماعات كانت تشن الغارات على تخوم مصر الغربية منفردة فى الغالب . وكان من السهل الميسور ردها على أعقابها ؛ ولكنها فى هذه المرة استطاعت أن تأتمر وتتفق على مهاجمة مصر مرة واحدة . وهو أمر يشهد لهذه الليبية بالبراعة ، المثيرة للدهشة والإعجاب .

ولكن أمينى أيضاً لم يهدأ ولم تغمض له جفن ؛ بل تملكه غضب سماوى مقدس ، لم يلبث أن استحال إلى قوة شامخة وعزم جبار . فإذا هو يصل الليل بالنهار ، لكى يجند جيشاً ضخماً ، لم تشهد ربوع النيل له نظيراً . . .

وتولى الملك الشاب قيادة هذا الجيش العظيم ، وقلده أمينى

لواء القيادة فى حفل هائل جمع الآلاف من الجند ورجال الدولة . وفى ساعة الرحيل صاحبنا الملك مودعاً بضعة أميال ؛ ثم منحنا بركته : وبركة الآلهة جميعاً ! ووقف ينظر إلينا ونحن نبتعد شيئاً فشيئاً نحو الشمال قبل أن نميل إلى الغرب . . .

ولم يكتف الملك الجليل بهذا التوديع ؛ بل أرسل بعد بضعة أيام رسولاً يحمل إلى ولده الملك الشاب ، رسالة تتضمن تلك الوصية الشهيرة ، التى يزوده فيها بنصائحه الغالية . والذى أخشاه أن هذه الوصية تحمل فى ثناياها طابع الغيظ والكمد . والنقمة على الذين ارتكبوا تلك الخيانة المزرية . فهى متأثرة بظروف الزمن الذى كتبت فيه .

كتب الملك إلى ولده يقول : « اليوم قد غدوت ملكا وإلها . فأنصت إلى كلامى ، وألق إلىّ انتباهك ؛ حتى تصبح أهلا لأن تحكم الأرض ومن عليها ، والأنهار وشواطئها ، وما يجرى فيها من ماء وما يسبح فيها من حيوان .

« احذر الأتباع والخدم ، ولا تجعلهم يقتربون منك بحيث تزول الفروق ، وتنمحى الكلفة ؛ بل أقم بينك وبينهم الحجب حتى يعرفوا قدرهم ، ويلزموا مكانهم ، أولِ ثقتك بنى مصر

عامة ، وأبناء الصعيد خاصة ، ولا تسلم أمرك إلى أجنبي لم يشرب من مائنا ؛ ولم يرع فى مرعانا . . . احفظ الشطر الأكبر من نفسك لنفسك ؛ ولا تبذلها للأخ وإن بدا لك أنه معدن الإخلاص . ولا للصديق ، وإن ثبت لك أنه آية الوفاء ؛ وأقلل ما استطعت من الخلطاء ؛ فإن مقام الملك أسمى من أن يتعرض للابتذال ، أو يستهدف للاستهتار .

« إذا غفت عينك ، فلا تدع روحك تغفو ؛ وليكن من نفسك حارس على نفسك ، وأقم من قلبك اليقظ راعياً يسهر عليك . فى يوم البلاء تقل الأنصار وتتضاءل الأعوان .

« لقد طالما أطعمت اليتيم ، وأجزلت الهبات للفقير ، وكسوت العارى ، وأغثت الملهوف ، وانتقمت للمحروم ممن كان سبب حرمانه ، وأمسكت بيد الضعيف المسكين حتى بلغ مأربه ، ونال أمانيه فى الحياة . والأسير الذليل أطعمته وآويته ، وقربته وأدنيته ، وكنت أستطيع أن أطعمه المنون وأسقيه الهلاك ، وليتنى فعلت !

« إن ما لقيت من النكران والعقوق ، وما جوزيت به من الكفر والجحود لجدير بأن يصم بنى الإنسان جميعاً بعار لا يغسل

وتدنيس لا يمحى . إن الأفواه التى أطعمتها عضتنى بأنيابها الحادة ، وأضراسها السامة . والأرجل التى انتعلت بإحسانى ، سعت فى هلاكى ودمارى. والأجسام التى كسوتها الكتان الناصع الجميل، انقضت على للفتك بى ، وأنا الذى منحتهم العيش والحياة.

« إنهم لم يرعوا حرمتى ، وأنا رب العرشين ، وحاكم البر والبحر ؛ تماثلى منصوب فى كل دار ، تقرب إليه القرابين ، وترفع إليه الدعوات . والعيون جميعاً تتطلع إلىّ لأنها تعلم أنى محيي القطر ، ومطهره من الفوضى ، وموطد أركان العدل والإنصاف فيه . . ومع هذا كله — ومع مكانتى الكريمة فى نفوس شعبى — قد اجترأ اللئام على أن يتآمروا فى الخفاء على قتلى ، دون أن يسمع أحد أو يبصر شيئا .

« دبروا جريمتهم، لكى يرتكبوها ، مستترين بظلام الليل، ومتدرعين بدرع الغدر والخيانة . . ومن قبل كانوا يبدون الابتسام والذل والخضوع ، فى تلك الليلة السوداء كنت متعباً فتناولت طعام العشاء ، ورقدت على فراشى ألتمس الراحة والنعاس فلم يكد الكرى أن يمس جفونى ، حتى سمعت صوتاً كأنه قعقعة السلاح ، وشخصاً يستصرخنى ، فانتبهت منتصباً كأنى حية

الصحراء . . وأدركت فى مثل لمحة العين أن الفتنة قد رفعت رأسها البشع ؛ وأن الشر أقبل لاغتيال شخص ، من حقه أن يقدس ويكرم .

« لم يكن هناك مكان للأسى والأسف ؛ بل تناولت فى سرعة البرق سلاحى ، وقاتلت اللئام منفرداً . فجرى دمهم الدنس فى الحجرات ، وتساقطت أشلاؤهم على البسط ، ولاذ من استطاع منهم بالفرار . ولولا ظلام الليل ، الذى لا تجدى فيه المصابيح الضئيلة ، لما استطاع هارب أن ينجو من يدى تلك الليلة .

« إنهم قد أقدموا على عملهم المنكر ، قبل أن أجمع البلاط والنبلاء والأشراف ، وأجلسك معى على العرش . اقترفوا جريمتهم وأنا أعزل من السلاح ، وأعزل لبعدك عنى . ولو أنك كنت إلى جانبى تشاطرنى العرشين والتاجين ، لما اجترأ الأنذال على ارتكاب عدوانهم الشنيع .

« إن النساء قد دبرن هذا الكيد ، وأشرفن على تنفيذه ، وشر الدسائس ما نبت فى دارك ، تحت سمعك وبصرك ، وأقتل السهام سهم جاءك من الجهة التى حسبتها أمناً وسلاما .

« وشاءت الآلهة أن تحفظنى وترعانى كما حفظتنى من قبل .

وما كانت الآلهة التي سدّدت خطاى وأمسكت بيدى ثلاثين عاماً : لتذرنى فريسة لحقد الأوغاد وكيد النساء . . . وأنا الذى بسطت يدى على الحدود الجنوبية؛ ثم انثنيت فاستوليت على الدلتا ؛ ووحدت القطر تحت لوائى ، وأجريت فيه العدل والأمن بسطوتى وبأسى ، وبكرمى وحسن رعايتى .

« أنا الذى أنبت القمح والشعير ، حتى أحبنى إله الزرع والشجر . وحيانى النيل حيثما ذهبت ، وأينما نزلت ؛ فى عهدى وتحت حكمى لم يعرف الناس جوعا ولا عطشاً . وقد سهرت لكى يناموا ، ونصبت ليستريحوا ، وحاربت ليأمنوا .

« لقد رضت السباع الضارية ، وفتكت بوحوش البر والبحر ، ونهضت إلى بلاد النوبة ، فأخضعت واوات ، وهزمت ماتوى ، وألزمت أجلاف البدو أن تسعى كالكلاب ، مطأطئة رءوسها ، مغمضة جفونها

« وكما شيدت للحرب صرحاً عاليا ، بنيت للسلم بناء مشمخراً فشيدت قاهرة القطرين ، وحصنتها بالقلاع المنيعة . وشيدت فيها قصرا ، يُبلى الزمان ، وتفرق منه الخطوب . ولم يكفنى أن جعلته ضخما فخما ؛ بل جملته وزينته ، وحليته بالذهب ، وجعلت سقفه من اللازورد ، وأرضه من الرخام البديع . وأبوابه

من النحاس ، ومغاليقها من البرنز . بناء يبقى على الدهر ، ويسخر من الحدثان .

« وأنا اليوم أعلى شأناً ، وأعظم جاها ، بأن أصبحت شريكي فى الملك وقرينى فى العرش . فالزم سيرتى . واتبع سنتى ، فإن عينى ترعاك أينما سرت ، وقلبى يتبعك حيثما نزلت .

« شن على الغربيين حرباً لا هوادة فيها ، ولا ترحم من لم يرحم ، واسق الصحراء الظامئة من دمهم . ولا تأخذك فيهم رأفة أو شفقة . فإنك إن لا تقهرهم يقهروك ، وإن لم تذلهم أذلوك ، ولهم أفواه لا تنطق بحمدك حتى تحس طعم المنون ، فتدرك أنه مر المذاق . ففيم الحرص على حياة قوم لا يعرفون للحياة تقديساً أو كرامة ؟

« إنى أعرفك جباراً لا ترحم نفسك فى الحرب . وتكلفها فوق طاقتها ، ولكن حياتك اليوم حياة أمة ، فلا توردها موارد التهلكة من غير طائل ؛ واعتمد على أعوانك وأنصارك ، فإن فيهم القائد المدرب ، والبطل المجرب . وإن كنت لازلت فى شك من أمر سنوحى ، فقلده قيادة الغارات الشاقة ، وجربه فى المواقف الرهيبة ، فإن حمدت له بلاءه فأكرمه . وإلا فرده

إلينا ؛ فإن لأبيه علينا ديناً لا نستطيع وفاءه مهما أكرمنا أسرته وأحسنا إلى ذريته .

« والآلهة ترعاك ، وتسدد خطاك . »

* * *

وهكذا بدأت الحروب الليبية الطاحنة ، فكانت شغلنا الشاغل فى السنين الأخيرة من حياة أمينى .. وكانت خطتنا فى الحرب أن نحشد جيوشنا الجرارة ، بعد أوان الحصاد . فنى ذلك الوقت يكثر الزاد ، ويقل العمل فى الحقول . ثم تجىء أشهر الفيضان ، والعمل فيها معطل أيضاً ، فنستطيع أن نتفرغ للغارة . والتنكيل بتلك الوحوش الضارية ، فإذا اقترب الشتاء لم يكن بد من تسريح معظم الجيش ، فلا يبقى سوى قوة متوسطة تحرس التخوم وتدفع العدوان . ولكنها لا تقدم على هجوم عظيم أو غارة بعيدة المدى .

وفى مواسم الهدوء النسبي هذه ، كان الملك الشاب يعود إلى العاصمة ، يسوق الغنائم والأسلاب ؛ ويخلفنى لأتولى القيادة فى تلك الأشهر ، التى ندعوها أشهر الدفاع . كما ندعو الأخرى أشهر الهجوم .

ولقد بلانى الملك سينو فى هذه الحرب ، وامتحننى أقسى امتحان . فإن وصية والده قد صادفت هوىً فى فؤاده . فلم يكن هنالك خطر داهم أو مرام وعر إلا دعيت أن أقود كتيبتى إليه ، ويخيل لى أنى استطعت أن أكتسب استحسانه ، وإن لم أوفق لاكتساب عطفه ورضاه . . . إلى أن حل الشتاء الرابع والأخير من هذه الحرب الضروس فارتكبت عن نية وعمد ذلك الذنب ، الذى أحفظ الملك الشاب وأغضبه ، واضطرنى لأن أغادر مصر إلى أرض (الرطين) .

فى الشتاء الرابع كان العدو فى حالة من التضعضع والإعياء بحيث لم يكن يجرؤ على الاقتراب منا ، والدنو من معسكرنا . وكانت طلائع الأمور تشير إلى أنه قد يعود قريباً إلى خيامه فى قلب الصحراء . وضجرت أنا وأفراد الكتيبة من هذا المجهود الذى اضطررنا إليه . وحان الوقت الذى يجىء فيه الجيش الكامل ، وعلى رأسه الملك الشاب ؛ ولم أرد أن يجىء فيرانا لم نفعل شيئاً . فجمعت حولى رؤساء الكتيبة ، وقلت لهم : «هذا الربيع قد أظلنا ولم نفعل شيئاً نحمد عليه ، أيرضيكم حين يأتى الملك ، أن نقول له إننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ؟ . فقال

الجميع إن هذا لا يرضيهم ، فسألتهم : ماذا تقولون فى غارة شعواء نسطو بها على الأوطان البعيدة للطحين ، ولا نعود إلا ومعنا أدلة تنطق بأننا لم نقض الشتاء عبثاً ؟ . وكأنى بهذا الاقتراح قد أزحت عن أفئدتهم هماً وكربا . وبعثت فيهم مرحاً ونشاطاً عجيبا.

فى ذلك الربيع شننا على الليبيين غارات سيتحدث بهولها أبناؤهم وأحفادهم على مدى السنين . وقد جمعنا من أسلابهم ما يزيد على ما جمعه الجيش بكامل عدده وكتائبه . وبينما نحن فى أوج النصر ، وقد جلست فى خيمتى أشرب قدحا من الجعة وقت المساء إذا غبار يتطاير ، ثم يبدو من تحته طائفة من رجالى ومعهم سبايا يتعثرون بأذيالهن ، فاشتد سخطى على قائد تلك الجماعة . لأنى قد أصدرت أمراً صريحا بألا يشغلوا أنفسهم بجمع السبايا . . وهممت أن أنزل العقاب بذلك القائد ، ولكنى نظرت فإذا فى مقدمة السبايا وجه أعرفه ؛ وهو وجه الأميرة بتسى ؛ لم تزده السنين إلا حسناً وفتنة . . .

٩

ثم انقضت أيام وليال عذبة . . مرت سراعاً فلا أعرف ما عدتها .

وأصبحت ذات يوم ، فإذا الأنباء تترامى إلىّ بأن الجيش الجرار يقترب ، وعلى رأسه الملك الجبار سينوسرت .

لا بد مما ليس منه بد ؛ وقد حلت الساعة التى لا مهرب منها ، ولا مندوحة من أن تعود بتسى إلى قومها ، جالباً على ذلك من سخط المليك ما كان جالباً .

فى الأيام الأخيرة كنت فى شغل عن التفكير فى الجيش ، وقائده ذى المقام الجليل . واليوم لا بد لى أن أبادر ، قبل فوات الوقت ، فأضع الأميرة حيث لا تصل إليها تلك الأيدى الملكية الجبارة .

ولم أرد أن أكل هذا الأمر إلى أحد . فنهضت فى جنح الليل ، وقد هدأ المعسكر ، ونامت الكتيبة إلا الحرس الساهر ، وقد تسللت والأميرة فى هدوء وخفاء ، وغادرت المعسكر دون أن يحس خروجنا أحد . وقطعنا الليل كله نسير سيراً حثيثاً ونحن نسعى مع النجوم نحو الغرب . حتى أبلغت الأميرة ووصيفاتها المكان الأمين . ورجعت أدراجى واجماً كيئباً . . .

لم نلبث أن أظلنا الجيش الأعظم ، واتخذت كتيبتى مكانها المختار . وكان مكانى غير بعيد من معسكر الملك سينو نفسه . . إنه من غير شك قد علم بما حدث . ولكنه أخفى ضميره عنى ،

فلم أحس منه شيئاً : سوى ما ألفته من فتور وازورار ، وتجهم وإعراض .

ولكنه لم يكد يقضى بضعة أيام ، حتى بادر بقيادة حملة قوية ؛ وسار على رأسها ، واتخذ رجالها من صفوة الجند . ولم يرض أن أصاحبه . بل طلب إلى أن أراقب المعسكر حتى يعود. كان هذا العمل حمقاً ينطوى على الرعونة والعبث ، وهو مخالف لأبسط مبادئ العقل ، ولوصية الملك الشيخ أمينى . إن حياة سينوسرت ليست ملكاً له حتى يعرضها لخطر غارة يشنها على عدو جرىء يائس من الحياة .

ولكن الملك عاد من حملته مظفراً ، يقود مئات الأسرى ، وهى تحمل أكداساً من الغنائم والأسلاب . ثم أعاد الكرة مراراً . وكان يرسل الطلائع يوماً للكشف عن مواقع العدو ، ويشن فى اليوم التالى غارة خاطفة ، فيعود بالأسرى وبالغنائم وسرت فى المعسكر أنباء بأن الملك الشاب يريد أن يفرغ من حرب الليبيين بسرعة لكى يعود إلى العاصمة ويبقى إلى جانب الملك الشيخ أمينى .

ثم لم تلبث سحب الشك أن انحسرت عن ضياء اليقين ،

إذ وصلت إلى يدى رقعة من صديقى يونس يقول فيها : « إن الملك أمينى قد ارتقى إلى السماء واتصل بالشمس، وذهبت روحه إلى باريها ، إن القصر يغشاه الصمت والوجوم . والقلوب مفعمة أسى وحزناً . وقد أغلق البابان الكبيران ، ورجال القصر جميعاً جلوس يظلهم الحزن العميق، ورءوسهم على ركبهم. فدبر أمرك، واكتسب رضى الإله الطبيب سينوسرت ، ولا تدع الأهواء تحملك على أن ترتكب حماقة من الحماقات . »

فواهاً ليونس ، ما أطيب نفسه ! إنه لا يدرى أى صدع كبير قد خيل لى فى تلك الساعة أنه بات يفصل بينى وبين مليكى . ولا يعلم أن مصر كلها ستكون منذ الساعة أضيق من أن تحتوينى ؛ وأن لا بد لى أن أجعل بينى وبين سينوسرت فيافى وأقطاراً وصخراً ورمالا ، حتى يأذن الإله فيصفو قلبه ، ويشملنى عفوه ، إن كان هذا ممكناً .

أجل فى تلك اللحظة ، التى طالعت فيها رسالة يونس ، صح عزمى على أن أغادر القطر المصرى كله ، وأن ألتمس فى الأرض الفسيحه مضطربا ومجالا . لقد ولّى الحب وغربت شمسه. وخلفتني فى حالك الظلام . وقضي الملك الجليل ، والعاهل الجبار

والركن الذى كنت آوى إليه . والسقف الذى كان يظلنى ، ذهب ذلك النسيم المنعش . وذلك الروح الذى كان يبعث فينا الأمن والطمأنينة . ففيم بقائى بعده ؟ فى ديار لا تلبث الوجوه فيها أن تتجهم لى ، أو تزور عنى ؛ والقلوب أن تمتلىء حقداً وموجدة ؟ . فيم بقاء الغصن بعد أن تحطم الجذع ، وما الخير فى صرح تهدم ركنه الركين وانهار عمده المتين ! لقد اندك صرح سعادتى فى مصر . ولم يبق إلا أن أتناول أنقاضه لأبنى بها صرحاً جديداً فى أرض غير الأرض ، وناس غير الناس .

وهكذا ألفيت نفسى أسعى متخفياً نحو الجنوب ، كأنى سائر على غير هدى ، فى ضوء قمر لم يطلع إلا متأخراً فى الأفق الشرقى كأنه قرص من النحاس يعلوه الصدأ .

هكذا بدأت رحلتى إلى بلاد الشام (أرض الرطين) . .

والذى أعرفه من نفسى أنى رجل لا أقدم على أمر إلا بعد روية وتفكير ، وتأمل وتدبر . ومع ذلك فإنى إذا حاولت الآن أن أسأل نفسى ، لماذا اتخذت هذا القرار الخطير — ولعله أخطر قرار اتخذته فى حياتى ، وهل صدرت فيه عن عقل وروية ؟ فإننى لا أستطيع أن أرد على سؤالى بنعم . ولعل حقيقة الأمر أنى

لم أتخذ قراراً. بل كنت أتحرك كأنى فى حلم ، وأسعى كما يسعى النائم ، تدفعه رؤيا قوية عنيفة . أو كأنى نفس من الريح يتحرك أو ماء يندفع ، وهو لا يدرى ماذا يحركه ويدفعه .

لقد حز فى نفسى بعد ذلك أن علمت أن الإله المحبوب سينوسرت ، لم يكن فى حقيقة الأمر حاقداً على ولا ناقماً ، ولم يكن يبغضنى ويحقرنى . ولكن الوهم سول لى هذا كله . وإنما الأمر الذى أحفظه منى حقاً هو هذا الهرب العجيب ، من غير سبب ، فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى خدمة المخلصين . . ذلك هو الأمر الذى أغضبه حقاً . والذى قضيت السنين الطوال أسعى فى الاعتذار منه ، وإزالة الآثار التى خلفها فى نفس مليكى الإله الطيب سينو ، حتى صفح عنى وأذن لى بالعودة إلى وطنى .

فاعجب معى أيها القارئ ، وتأمل كم نعانى من الخيال وكم تذهب سعادتنا ضحية الأوهام !

١٠

إن هذا الفصل الأخير من حياتى هو أقصرها وأطولها . فهو أقصرها لأنى أستطيع أن ألخصه فى كلمتين : هاجرت إلى الشام

ثم عدت إلى مصر . وهو أطولها : لأنى بين هاتين الجملتين قد قطعت مع الشمس خمساً وعشرين مرحلة كاملة .

وقصة هذه الهجرة معروفة للناس جميعاً ، فلا حاجة بى إلى الإطالة فى سردها . فالكل يعرف كيف انحدرت نحوالجنوب من الميدان الليبي : حتى وصلت إلى خير مكان يعبر منه النيل ، بالقرب من « الجميزة » ، حيث للنهر فرعان ، بينهما جزيرة « صنفرو » وكيف استطعت أن أعبر إلى الجزيرة ، حيث قضيت الليل فى مزرعة . ثم قمت مبكراً فعبرت الفرع الشرقى فى زورق محطم لا دفة له ولا شراع . ولكن ريحاً غربية دفعتنى حتى أبلغتنى الضفة الشرقية . ثم قصدت إلى الجبل الأحمر ، فجعلته عن يمينى ، وكيف انحدرت بعد ذلك إلى الشمال ماراً بعين شمس حتى بلغت السورالعظيم ، المسمى سور الأمير ، الذى أنشأه أمينى ليرد به البدو عن الوادى . وكيف انتظرت حتى أظلنى ظلام الليل قبل أن اجتزت هذا الحصن خوفاً من أن يرانى الحرس . . . وكيف قاسيت ألم الجوع وأنا إلى جانب البحيرات المرة ، حيث الماء الغزير ، الذى لا يشفى الأوام . وهنالك حدق الموت فى وجهى من غير أدنى شك ، لولا أن

أنجدنى شيخ من البدو أطعمنى وسقانى ، وأذهب عنى الوحشة.

وبعد ذلك مضت أيام وليالى طويت فيها الصحراء والفيافى ، حتى وصلت إلى أرض الشام . وهناك لقيت حفاوة وإكراما يعجز الوصف عن أن يحيط بهما .

إن أمراء الشام كثيراً ما كانوا يفدون إلى بلاط الملك أمينى ، يحملون الهدايا والهبات ، وكثيراً ما كنت أكلف بمصاحبتهم والسهر على راحتهم . لذلك كنت أؤمل أن يكرموا وفادتى ، وأن تطيب لى الإقامة فى ديارهم . ولكن الذى لقيته من برهم وعطفهم كان فوق كل وصف .

ولقد ظللت أنتقل فى ربوعهم حتى بلغت بيلوس ، وصعدت منها شرقاً وسط الجبال الشاهقة ، إلى أن بلغت القطر الشرقى ، ثم انحدرت مرة أخرى إلى الجنوب . وأنا أصادف فى كل مكان نزلته حفاوة وجودا ، وإلحاحا من كل أمير أن أنزل عنده . وأن أشاطره الملك ، وأتولى رئاسة مقاطعة عظيمة فى أرضه إلى أن نزلت أرض الشام الجنوبية وهى أقرب الأقطار إلى مصر . هناك تلقانى الأمير ننشى بن آمو ، وبالغ فى إكرامى والاحتفاء بى ، وقال لى : « إنك هنا فى خير مكان يلائمك فأقم معى ،

وشاطرنى الملك . ستجد فى هذه الأرض كثيراً من المصريين ، وستصغى إلى لغتك يتخاطب بها ، فتزول عنك وحشة الغربة ، ومن هذه الأرض يمر الرسل من غير انقطاع بين مصر وبلاد الشام ، فتحس الصلة الدائمة بينك وبين وطنك بالتحدث إلى أولئك الرسل ، وبتحميلهم ما شئت من الرسائل إلى قومك وأصدقائك . فهل اقتنعت . ؟ »

قلت : « كدت أن أقتنع . »

قال : « إذن سأقطعك ما تشاء من أرضى . وإن رغبت فلدونك هذه المقاطعة العظيمة (ياع) ليس فى القطر أحسن منها ، فى نجادها ما شئت من تين ومن كرم ، ووهادها تفيض ماء وخمرا . زيتها وافر ، وعسلها غزير ، وفيها من كل الثمار ، وبها من حقول البر والشعير مالا يبلغ مداه البصر . وماشيتها لا تعد ولا تحصى ، ففيم التردد ؟ » .

قلت : « قبلت هديتك مع جزيل الحمد ووافر الثناء ! »

وهكذا أصبحت أميراً من أمراء الشام ، وقد زوجنى ننشى من كبرى بناته ، وأنزلنى فى أحسن قصوره ، ثم ولانى قيادة جيشه ، واستطعت أن أنهض بهذا العبء بما فيه وفاء لما غمرنى

به من الهبات والنعم ، فلقد أخضعت عدداً كبيراً من قبائل البدو وأجليتهم عن مراعيهم ومياههم . واستوليت على ديارهم وربوعهم . وعرفنى القريب والبعيد منهم . فالتزموا الهدوء ، ورضوا بالانزواء فى فيافيهم .

وهكذا انقضت السنون تباعا . ولكن حنينى إلى مصر لا ينقضى . وكانت الرسل تفد من القطر الكريم إذا أقبل الربيع ، ثم تعود إلى مصر إذا ولى الخريف ، وكلما مر رسول أقام لدى أياما ، ونقل إلى الحديث عن أهلى وأصدقائى ، وعن الملك الكريم المتربع على عرش مصر ، والذى لا يزال ناقماً على هربى وكنت أحمل كل رسول تحيتى إلى أهلى وأصدقائى ، وأريه كيف أقضى حياتى فى الغربة فى رفع ذكر مصر ، وإعلاء كلمة مليكها الجليل. لعل شيئاً من هذا أن يصل إلى مسامع الإله الكريم سينوسرت ، فيرد الشريد إلى وطنه ، ويعيد الطائر إلى وكره.

وحدث مرة أن كان لدى عدد كبير من الرسل فى طريقهم إلى الشمال ، وفى مساء ذلك اليوم كنا جميعاً جلوسا فى صحبة الأمير ننشى ، وفى المجلس عصبة من الأعراب ، وبينهم فتى جرىء لم أكن أعرفه يسمى شهيب . لم يكد عقد المجلس أن

ينتظم ، والأقداح تدار على الحضور ، حتى أحسست من شهيب هذا ميلا لأن يتحداني ويستفزني . . وجرى الحديث عن مصر وملوكها ، فصاح شهيب : « لقد كان ملككم أمينى رجلاً عظيماً قوى الشكيمة شديدالبأس. أماخلفه فليس بكفء ! »

فقلت من فورى : « أجل كان أمينى رجلا عظيماً لأن سياطه قطعت جلدك وجلد الأجلاف من قومك . ولكن حذار فإن لسينوسرت أيضاً سوطاً أشد قطعاً للجلود ، وسهامه النافذة أسرع من الريح إلى اختراق قلوب الجاحدين الكافرين . . فهو البطل العديم النظير ، لا ساعد أشد من ساعده ، ولا سهم أنفذ من سهمه ؛ ولا رمح أشد بطشا من رمحه . سل عنه الغربيين كيف مزقهم وبدد شملهم ، وأطعمهم الصاب ، ودس أنوفهم فى التراب ، سل عنه الماتوى والواوات ، كيف استرقهم واستعبدهم فخروا له ساجدين . ثم سل عنه أيها الفتى النزق ، الذى لم يولد إلا أمس ، سل عنه أقاربك من الأعراب ، لتعلم أنه خلق لسحق سكان الرمال ، ولكى يجعلهم مثل الرمال ذلا وتبددا. سل عنه أيها المسكين لتعلم أنه البطل الذى لا يدركه التعب ، ولا يعرف طعم الغمض . . . هو النار المحرقة لأعدائه والظل الظليل لمن

جاءه خاضعاً مستكينا ، فاختر لنفسك أيها البدوي ما يحلو . . »

ذلك ما فهت به ؛ واستطعت أن أسكن به غضبي ، وأن أطرب الرسل الجالسين معي . أما البدوى وعصبته ، فلم يرق لهم كلامي ، وخرجوا جميعا مغضبين .

وفي صباح اليوم التالي أقبل علىّ فتى وسيم ، وقال : «إني رسول الأمير شهيب ، وهو زعيم قبيلة ، ورئيس عصبة . ولم ترقه العبارات التي فهت بها أمس ، وقد أرسلني لأدعوك إلى منازلته ، فاما أن تنتصر فتفوز بزعامة قبيلته ، وتستولى على أرضه ، وإما أن يفوز عليك فتفقد كل شيء . »

قلت : « حييت أيها الرسول . عد إلى أميرك هذا وقل له إني ما أردت به شراً ، ولم أقل له هجراً . ولكنه اعتدى على مليكي ، فلم يكن بد من أن أعرفه قدره ، مابي رغبة إلى القائه ومنازلته . ولكن إذا كان عزمه قد صح على القتال ، فليأت غداً في صحبه ، وسأقابله ومعي صحبي ، شهوداً عدولا ، على أني سأحاربه حرباً طاهرة خالية من كل غش وخداع . قل له يتدجج بالسلاح فإن سهامي تخترق كل درع . »

كان لشهيب في أرض (الرطين) شهرة واسعة . وكان

أصدقائى يخشون على من فتكه ، فدعوت إله الحرب أن يقف إلى جانبى . وقضيت شطراً من الليل أمتحن قوسى وأعجم سهامى ، ولقيته فى الصباح التالى ، فتركته يرمى سهامه ، سهماً سهماً ، فإذا كل سهم يحيد عنى دون أن يمسنى بسوء . فلما استنفد ما فى جعبته الأولى ، ومد يده إلى الثانية ، أرسلت إلى نحره سهماً نافذ النصل ، فخر صريعاً على وجهه . فتقدمت وأجهزت عليه بفأسه الذى أعدها لقتلى .

ثم ركعت على ركبتى ورفعت صلاتى إلى مُنْث إله الحرب . وارتفع عويل الأسيويين وصياحهم ، وأقبل ننشى بن آمو فعانقنى . . . ثم جمعت الأسلاب والغنائم ، وجاء رؤساء قبيلته فأبدوا خضوعهم ، ونادوا لى رئيساً عليهم . وبذلك اتسعت ضياعى ، وازدادت ممتلكاتى .

وكاد الرسل أن يطيروا سروراً بما شهدوا ، وما أشك فى أنهم نقلوا أنباء هذه الحادثة إلى مصر ، ولم تزل تتناقلها الأفواه حتى بلغت المسامع الملكية ، فأتاحت لصديقى يونس فرصة بأن يتقدم إلى الملك الجليل ، ويلتمس منه أن يصفح عنى ، وأن يردنى إلى الوطن ، لكى أرى البابين الكبيرين مرة أخرى ، وأمتع نظرى

برؤيته ، ورؤية سيدتى الجليلة كريمة أمينى ، وزوج الإله الكريم سينوسرت ، قبل أن تدركنى المنية وأوارى فى تراب غريب.

لم ألبث بعد ذلك طويلا ، حتى تسلمت الأمر الملكى التالى :

« من سينوسرت بن رع ، ملك مصر العليا والسفلى ، مجدد الحياة ، هورس ، تحرسه الإلهتان ربتا التاج ، واهب الحياة ، الخالد مدى الدهر .

«أمراً ملكياً إلى الوزير سنوحى ؛ انظر ويحك ، هذا أمر الملك إليك ، لكى تبادر بتنفيذه . إنك غادرت أرض مصر ، وسعيت بقدميك من الدلتا إلى أرض الشام ، ولم تزل تنتقل من أرض إلى أرض ، فعلت هذا بوحى رأيك ومحض إرادتك . ماذا ارتكبت من الإثم ، حتى تلوذ بالفرار ؟ إنك لم تطعن ولم تلعن ، ولم تنطق بفاحشة ، ولم تتهم بوشاية أو نميمة ، ولم ترفع صوتك فى مجلس الرؤساء بما يستدعى لومك ، وإنما هو الوهم الذى صور لك تلك الهجرة ، ودفعك إلى ذلك الفرار .

« إن الملكة الكريمة فى أوج سمائها لا تزال تزين القصر ، وترفل فى الصحة والسعادة . وتشاطرى ملك البلاد . وأطفالها قد كبروا واتخذوا مكانهم من حجرة الملك ، والملكة والأمراء

على استعداد أن يجزلوا لك الهدايا ، ويغدقوا عليك الهبات .
هلم . فعد إلى مصر ، لكى ترى البلاط الذى نشأت فيه ، وتقبل التراب بين البابين الكبيرين ، وتخالط الحجاب والوزراء مرة أخرى.

« أماترى أنك قد تقدمت بك السن ، وولى عنك الشباب ، وجدير بك أن تفكر فى اليوم الذى تستقبلك فيه الأرواح الكريمة ، وواجب أن تعد لهذا اليوم دفناً كريماً ، وحنوطاً طاهراً . يومئذ يعد لك الكتان من نسج تايت (إله النسيج) والزيت من شجر الأرز . وتدفن فى حفل عظيم ، وقد وضع جسدك فى تابوت من الذهب ورأسه من اللازورد . وقد صيغ غطاء التابوت فى صورة السماء . ثم تحمل على الدراجة إلى مثواك ، تجرك الثيرة ؛ والمنشدون يرتلون الأناشيد أمامك ، وعلى باب قبرك يرقصون رقصة الخلود ، ثم تذبح الذبائح ، وتقرب القرابين على مذبحك ؛ ولقبرك أعمدة من الرخام الأبيض ، قد أقيمت وسط المقابر الملكية . . . فعد إلى أرض الوطن ، ولا تسلم جسدك إلى أرض غريبة ، تواريك فيها أيد أسيوية . بعد أن تكفن فى غطاء من الأدم . فانهض إذن ويحك وبادر بالعودة إلينا . »

حمل إلى هذه الرسالة صديقى صعب بنفسه ، وحمل إلى من يونس تحية ونصيحة بأن أبادر بإطاعة أمر الملك . وما كنت فى حاجة إلى أن أستحث . إن قلبى كاد أن يشق صدرى ويطير فرحا .

ولكنى قبل أن أعد العدة إلى الرحيل . بادرت بإرسال أحد الرسل أمامى يحمل إلى السدة الملكية الكريمة خطاباً من هذا الخادم الخاطئ ، قلت فيه :

« إن خادم القصر سنوحى يبتهل إلى الآلهة جميعاً ، بأن تهب الحياة والسعادة للأنف الكريم . وأن تغمر الملك الجليل والإله الطيب بالهدايا والهبات . وبالدوام الذى لا آخر له ، والأبدية التى لا نهاية لها .

« إن خشية مولاى قد نزلت كل قلب ، وملأت السهل والجبل ؛ وكل ما تشرق عليه الشمس ، خاضع لسطوتك وبأسك . إنك أيها المولى الذى يعلم الغيب ، قد اطلعت على ما يجرى فى نفس هذا الخادم من الأمانى ، وما يتردد فى صدره من الرجاء . وقد عقد الخوف لسانه عن الطلب ، فإذا الإله الكريم يهب ويمنح ويجيب الرجاء الذى لم يجرؤ اللسان أن ينطق به .

« إننى يا مولاى برىء لم أرتكب إثماً . وإخلاصى وولائى تشهد بهما جميع هذه الشعوب والقبائل فى أرض الشام ، والأقطار المحيطة بها .

« وهذا الهرب ، الذى أقدمت عليه ، لم أدبره ولم أقدره . ولم يصدر عن رغبة ونية صادقة ، بل ولست أدرى أى قوة دفعتنى فأبعدتنى عن وطنى . فكنت كأنى فى حلم ؛ أو كأنى رجل من الدلتا يحس نفسه فجأة فى أسوان ، أو رجل من النوبة يرى نفسه وسط مستنقعات الشمال . وأشهد أنى ما هربت عن معصية ؛ وأنى منذ غادرت مصر . ونزلت ديار الغربة ، ما تركت لحظة تمر إلا قضيتها فى الإشادة بذكرك والتسبيح بحمدك. وها أنذا أسلم القيادة التى تقلدتها هنا بأمرك ، وأعود من ساعتى إلى مصر ... »

ذلك ما كتبته فى خطابى ، وختمته بالدعوات الطيبة . ثم قضيت بضعة أيام فى إقليم « ياع » . ووليت أكبر أبنائى شئون بلدى ، وقلدته رئاسة القبائل. وسلمته البساتين والرياض والمزارع والماشية ، وكل شجرة غرستها بيدى وتعهدتها مدى السنين.

ثم ودعت الأهل والأصدقاء ، ووليت وجهى نحو الجنوب ، وأخذت أجد السير ومعى حاشية ضخمة من البدو . فلم تمض

أيام حتى وصلنا « مسالك هورس » على حافة المصب الشرقى للنيل . فتلقانا مدير الإقليم واحتفى بنا . . ثم بادر بارسال نبأ إلى العاصمة بقدومنا ، وقضينا بضعة عشر يوما فى مسالك هورس . ثم جاء مندوب من قبل جلالة الملك ومعه السفن ، تحمل الهدايا للحاشية التى صحبتنى إلى مصر . فتسلم كل منهم هديته وعاد أدراجه . وأقلتنى السفينة حتى رست بى على الشاطئ الممهد فى عاصمة أمينى ، المدينة الخالدة قاهرة القطرين .

فهل حق ما أشاهده أم وهم ؟ . . . بل حق . فهؤلاء رسل الملك قد أقبلوا عند الفجر ، ودعونى إلى الحضرة الملكية الكريمة . سار معى منهم عشرة ، وسبقنا عشرة . وبعد لحظات رأيت التماثيل على البابين الكبيرين ، فركعت ووضعت جبينى على الرمل ، وخفقان قلبى يوشك أن يحطم صدرى . وجاء الحجاب فاقتادونى — وأنا أتعثر فى أذيالى — حتى بلغت البهو الكبير . ثم دفعونى دفعاً نحو الحجرة الملكية الخاصة . . وهنالك رأيت سينوسرت فوق عرشه العظيم ، وسط المحراب الذهبى . فخررت بين يديه ساجداً . ولم أستطع من شدة التأثر أن أنهض ؛ كأنى رجل قد غاب عنه رشده . فتلطف جلالته . وأمر الحاجب بأن ينهضنى ؛ ثم أخذ يغمرنى بعطفه ولطفه ، ويخاطبنى بأرق

لفظ وأعذبه ، فلا أحير جواباً من الدهشة . أجل كان سكوتى الآن دهشة لا عجزاً عن الكلام . فإنى رأيت أمامى سينو غير الذى كنت أعرفه . أبصرت أمامى الرحمة والحب والعطف ممثلة فى إنسان جالس على عرش مصر الخالد الأبدى .

قال جلالته : « ويحك يا سنوحى ؛ ها نحن ننتظر أوبتك هذه السنين الطوال ، ثم تقف بين أيدينا أخيراً فما تحير كلاماً»

ثم ضحك وقال : « لا بأس عليك . وأكبر ظنى أن هذا الطواف والضرب فى مناكب الأرض وسط الشعوب الغريبة ، قد أنساك الكلام المصرى . غير أننا لم نرد أن تطول غربتك حتى توارى تربة غير تربتك ، وتنام فى ثرى غير ثرى مصر . »

وعاد إلى جأشى تلك اللحظة . فقلت : « هيهات يامولاى لمثلى أن ينسى لسانه ، بل لقد نشرته فى ديار الغربة . حيث تعيش شعوب خاضعة لسلطانك ، مخلصة لعرشك . وإنما عقد لسانى هذا المقام الكريم . وهذا العطف الإلهى السامى . »

ولم يمض وقت قليل حتى دخلت الملكة ومعها الأمراء . فقال الإله الطيب مداعباً : « انظروا هذا سنوحى ، غادرنا مصرياً ، وعاد إلينا أسيوياً ؛ وفارقنا مدنياً ، وارتد إلينابدوياً» فضحكت الملكة وضحك معها الأمراء ... ونظروا إلى متظاهرين

بأنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم . فأكد لهم جلالته أنى سنوحى من غير شك . وعند ذلك وقف الأمراء صفاً ، وفى أيديهم آلات موسيقية . وأخذوا ينشدون نشيداً جميلا ، ما شككت فى أنه من تأليف صديقى يونس . وأنه أعده لهذا الموقف . . . وكانت عباراته كما يلى :

« حييت يا رب الجمال والجلال ، يا ذا العمر
الطويل الأبدى ! شملتك الآلهة بالرعاية ، وغمرتك
بالسعادة !
إن تاج مصر العليا ينحدر من الجنوب ،
وتاج مصر السفلى ، يصعد من الشمال ،
لكى يلتقيا على مفرقك ، فيسعد بعدلك وسلطانك
أنت الذى يلمع الثعبان المقدس على جبينك .
إن رع الإله الأكبر مسرور بك
لأنك أرضيته وشرحت صدره . يا رب القطرين .
مر أيها المولى بأن يرفع الضر عمن مسه ضرك !
وأن ينزع السهم ممن أصابه سهمك !
وانفخ فيه من روحك ، حتى تعود إليه الحياة

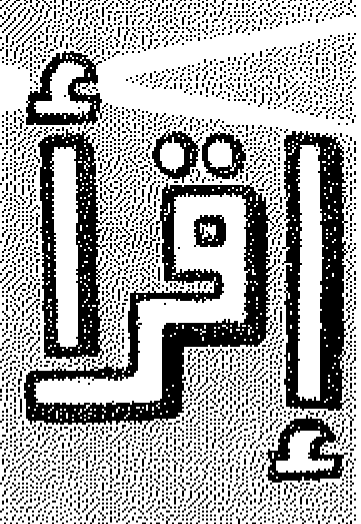
هب لنا فى عيدنا هذا روح هذا الأسيوى الشرير !
أجل الأسيوى الذى ولد فى مصر !
إنه ما فر إلا خشية من بأسك
وما غادر الأرض إلا هرباً من سطوتك . .
فأعد إليه المجد والحياة . .
يزل عنه الخوف ؛ ويعد إليه الأمن . »

وعلى أثر هذا النشيد المدهش . قال الجالس على العرش :
« إنه لن يخاف بعد اليوم شراً . ولن يناله مكروه . وسيرقى أسمى المراتب بين الحجاب والوزراء . والآن انطلق يا سنوحى عدواً إلى البيت الذى أعد لك . وعد إلينا نظيفاً نقياً »

وأنا فى غنى عن أن أسر إلى القارئ أنى كنت فى حاجة شديدة إلى إطاعة هذا الأمر الملكى الكريم . . .

* * *

وهكذا يا أبنائى على مدى السنين والحقب ، عاد جدكم سنوحى من غربته . وهذه قصة حياته بين أيديكم . فإذا ذكرتموه فى الزمن المبهم البعيد . فلا تنسوه من صلوات زكية ترفعونها باسمه إلى الآلهة . . .



عباس محمود العقاد

جميل بثينة

دار المعارف بمصر

جميل بثينة

عباس محمود العقاد

جميل بثينة

اقرأ ١٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣ – الطبعة الثالثة



تمهيد

كتبت هذه الرسالة عن جميل بن معمر الذى شهر بثينة بحبه حتى اشتهر بها فسمى جميل بثينة ، وكان فى زمانه إمام العشاق العذريين غير مدافع ، وأستاذ المدرسة الغزلية التى تجرى على طريقته فى النسيب والتشبيب ، وهى مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبوبة واحدة ، ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه فى غيرها ، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب .

وقد اعتمدنا فى أخباره على مصادر كثيرة ، لم نر بينها ما هو أولى بالرجوع إليه والاعتماد عليه من كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، لأنه أقرب إلى التمحيص والتثبت فيما يرويه ، فضلا عما تعودناه منه فى أمثال هذه السير من الجمع والاستيفاء

والذى يبدو لنا من مجمل أخباره التى راجعناها أنه « شخص طبيعى » تصدر منه الأقوال والأعمال التى يعقل أن تصدر عن كل موصوف بمثل صفاته ، وإن وقع فيها الخلط والاضطراب كما يقع فى أخبار جميع الأحياء الذين نراهم رأى العين

فهو سند صالح لمعظم أقواله وأعماله ، كما أن أقواله وأعماله مادة صالحة « لتكوين » شخص على مثاله ، والترجمة لحياة كحياته .

فإذا قرأنا شعره وحوادث غرامه فهمناه ، وإذا فهمناه سهل علينا أن نعود إلى ما قاله وما قيل فيه فنعرف منه الزيف والصحيح ، ولو على سبيل الترجيح .

وفحوى ذلك كله أن ما قالهُ وما قيل فيه لا ينجلي بعد الغربلة والمضاهاة عن شخص مستحيل ، ولا عن أجزاء مفرقة لجملة شخوص كأنها الأشلاء التى لا تكمل لها صورة ، وقد تتعدد فيها الجوارح والأعضاء فوق ما يراد للبنية الواحدة .

ونعتقد أن شعراء العشق جميعاً فى عصر جميل يصدق عليهم من هذه السمات ما يصدق عليه ، مع اختلاف يسير فى الوضوح والتحقيق .

فهم جميعاً ثمرة عهد لابد أن يثمرهم . وإنما وجه الغرابة أن تتهيأ أسباب ظهورهم ولا يظهروا ، وليس وجه الغرابة أنهم ظهروا فى تلك البيئة وفى ذلك الزمان .

وقد تهيأت تلك الأسباب كل التهيؤ كما لخصناها فى بعض فصول هذا الكتاب ، فهم إذن شخوص طبيعيون تحيط بهم أحوالهم الطبيعية ، ومن هذه الأحوال الطبيعية أن يتعرضوا

للخلط والتناقض أو للروايات المتشابهات عن هذا وذاك .

فمن الطبيعي أن تختلط أخبار بعضهم ببعض ؛ لأنهم جميعاً عشاق ، وجميعاً من أهل الحجاز وما حوله ، وجميعاً من أبناء عصر واحد ، ينظمون بلغة عصر واحد وينسجون على طريقة واحدة . فإذا تشابهت أقوالهم وأخبارهم حتى جاز الاختلاط بينها فلا غرابة فى ذلك ، بل لعل الغريب ألا يقع الاختلاط مع هذا التشابه الكثير .

ومن الطبيعى أن تحتمل أخبارهم المبالغة إلى أقصاها . لأن المبالغة مقرونة بشهرة كل « بطل » فى باب من الأبواب ، فلا يشتهر أحد بالشجاعة أو بالكرم أو بالمجون إلا أضاف إليه الناس كل ما يتصل بهذه الشهرة وتنافسوا فى التزيد عليها والتهويل فيها ، وما من بطل خرافى أضيف إليه من المبالغات فوق ما أضيف لعلى بن أبى طالب حتى حارب الجن ، ولحاتم الطائى حتى جاوز السفه ، ولأبى نواس حتى استنفد موبقات الناس وأفرغ جعبة الظرفاء أصحاب الملح والنوادر ، وكلهم مع هذا شخوص طبيعيون لا تمنعنا المبالغة أن نردهم إلى قرار .

ومن الطبيعى أن تتناقض أخبار أولئك الشعراء والعشاق ، لأنهم شخوص حقيقيون يتعدد الرواة عنهم والمتحدثون بأخبارهم ، وليسوا من اختراع مخترع واحد يصوغهم كلهم فى قالب واحد ،

ويعرضهم كلهم فى مخيلة واحدة

فهم شخوص طبيعيون

ولن يكونوا طبيعيين حتى يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له من التناقض والتشابه والمبالغة والإحالة

وأقربهم إلى الطبيعة فيما نرى جميل صاحبنا فى هذا الكتاب. فهو لا يتفق له وجود — حيث وُجد — إلا على الصورة التى تجملها لنا قصائده وأنباء رواته ، وعلاقته بمعشوقته بثينة مستقيمة على النهج الذى ينبغى أن تستقيم عليه ، وإخلاصه لها أو إخلاصها له هو الإخلاص الذى ينطوى عليه كل عاشقين مثلهما ، لا هو فى السماء ولا هو فى الخيال ولا هو فوق طاقة الناس . ولكنه الإنسان حيث كان واحد فى كل مكان وزمان

وقد عنانا فى هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية والعوامل الطبيعية فى سيرة هذين العاشقين ، وأن نفهم الأدب على مصباح من علم النفس ومن حقائق الطبيعة ، فلا نرجع به إلى لفظ تلوكه الأفواه ، بل نرجع به إلى وشائج طبع تمتزج بالأبدان والأذهان

عصر جميل

عاش جميل فى القرن الأول للهجرة .

وهو قرن حافل بأحداث السياسة : تحولت فيه الدولة الإسلامية من نظام إلى نظام ، ومن قطر إلى قطر ، ومن سيرة إلى سيرة . فخرجت من الخلافة إلى الملك الموروث ، ومن الحجاز إلى الشام ، ومن بساطة الحياة الدينية إلى بذخ المعيشة الحضرية التى جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم .

وليس بنا فى هذه العجالة أن نسجل حوادث العصر كله أو نتعقبها من بدايتها إلى نهايتها تعقب تفصيل أو تعقب إجمال ، فكل أولئك لا يعنينا فيما نحن فيه إلا من طرف واحد : وهو الطرف الذى يتصل بحياة شاعرنا جميل ، ومن شابهه من الشعراء فى بيئته وزمانه .

وأوجز ما يقال فى تلك البيئة أنها البيئة التى تخرج أمثال جميل من شعراء البادية المحيطين بالحضارة الحجازية ، والمتصلين بحواضر الإسلام فى مصر والشام .

فالعصر الذى عاش فيه جميل بالحجاز كان عصر

استئناف للحياة الحجازية قبل ظهور الدعوة الإسلامية ، ولكن على نحو جديد .

وكان المعول الأكبر في الحجاز على حياة المدن التي يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسك السنوية . وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واستقبال القصاد ، فاجتمع فيها الثراء بأيدى السراة وأصحاب القوافل والأموال الغادية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، واجتمع مع الثراء ما يتبعه أبداً من الترف واللهو والإباحة وإيثار الدعة والرخاء .

ثم ظهرت الدعوة الإسلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المسلمين والمشركين ، ثم علت كلمة الدين فى عهد النبي عليه السلام وفى عهد خلفائه الراشدين ، فعز على أصحاب اللهو والترف أن يتمادوا فيما كانوا فيه ، فاهتدى منهم من اهتدى واستتر منهم من بقى على ضلاله ، ووجد أكثرهم منصرفاً له عن معيشته الأولى فى هذه المعيشة الدينية الجديدة ، وفى شواغل السياسة والحرب التى كانت تزدحم بها عواصم الدولة الإسلامية ، وهى يومئذ عواصم الحجاز .

ثم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشدين عن تلك العواصم ، وتيسر للمترفين ما كان متعسراً قبل ذلك من ضروب اللهو والمتعة ، مع اختلاف محسوس تقضى به رعاية الدين .

وانتقلت الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام فتفرغ أولئك المترفون لحياة الفراغ التي لا رقابة عليها، وربما تجاوز الأمر قلة الرقابة إلى التشجيع على حياة المجون والبطالة. لأن أصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشون من أبناء الرؤساء في الحجاز أن ينصرفوا عن حياة الفراغ إلى حياة الجد والطموح. فليس في جدهم وطموحهم أمان للدولة الجديدة، وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعوا ويجتمعوا على اللغو والفضول وإيثار الدعة والرخاء

فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخاً قديماً طويلا في اللهو والمجون، وعادة «الظرف» المأثور في عرف أولى النعمة أن يصبحوا ويمسوا بين المنادمة والمسامرة، وأحبها وأشيعها حديث الغزل وشايات الغرام . . .

هذه الحياة عدوى لا يسلم منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجد والطموح، لأنها كالجو الذي يتنفس فيه كل متنفس يشاء أو لا يشاء، وغاية ما فيها من فروق أن البنية السليمة تقوى على أنفاس ذلك الجو من حيث تضعف البنية السقيمة. أما الهواء الذي يتنفسونه جميعاً فلا اختلاف فيه.

فمن أشجع الرجال الذين نشأوا في تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم في شمائل النبل والشمم والمضاء.

وكان له من الجد ما يشغله عن معيشة أهل البيئة التي نشأ فيها ، وينجيه من أوهاق[1] المتعة التي يتمرد عليها من طبع على غراره ، لو كانت هناك منجاة .

كان مع عمه عبد الله صاحبي ملك ينافس ملك بني أمية ، وتولى البصرة والكوفة والعراق فضبط أمورها واستبقاها زمناً على الولاء له ولأهل بيته . ونهض عبد الملك بن مر وان لقتاله بنفسه ، فأنفذ إليه الجيوش وراء الجيوش، فكان يبرز لها ويضربها ويفرق شملها . ثم أوفد إليه أخاه محمداً بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقين ما دام حيًّا وصلة من المال تبلغ ألفي درهم . فأبى مصعب إلا أن يقاتل حتى يغلب أو يموت دون التسليم . وخذله أصحابه طمعاً في هدايا بني أمية ، فما زال في البقية الباقية من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات .

قيل إن عبد الملك بن مروان جلس بعدها بين أصحابه يسألهم : من أشجع الناس ؟ وهم يروغون في الجواب ، فقال لهم : بل أشجع الناس مصعب بن الزبير ، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأباها وآثر الموت على التسليم

(١) الوهق : حبل يوضع في عنق الدابة له أنشوطة .

وتلك شهادة عدو لا ينفعه أن يكتمها ، لأنها أشهر من أن يحجبها الكتمان .

فالحق الذى يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصدقاؤه أنه شجاع وأنه نبيل وأنه لا يقرن بالجد والطموح لذة من لذات الدنيا .

ومع هذا حسبنا أن نذكر له حكايتين اثنتين لنذكر كيف شاع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به آدابها ودواعيها . فكل حديث عن الغزل والتهالك عليه مصدق إذا قوبل بهاتين الحكايتين من هذا الرجل الذى قل نظراؤه فى الجد والطموح .

إحداهما تتصل بشاعرنا جميل وتدور على بيتين قالهما فى صاحبته بثينه ، وهما :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظـــور
ولا انسلابتهـــا خرســـاً جبائرها
إلىّ من ساقط الأرواق مستور [1]

قيل إن مصعباً سمع البيتين فود لو يعرف كيف جلتها . فأنبأوه أن أم منظور التى أشار إليها الشاعر لا تزال بقيد

(١) الروق الفسطاط ، والجبائر الدمالج والأسورة ، والحجر اسم موضع .

الحياة . . . فكتب فى حملها إله مكرمة . وحملت إليه ، ووصفت له تلك الحلوة فقالت : « ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق — أى الطيب — ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنها .

فقال لها مصعب : فإنى أقسم عليك إلا جلوتُ عائشة بنت طلحة مثل ما جلوت بثينة . ففعلت . ثم ركب مصعب ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنها ، ثم رجع !

أما الحكاية الأخرى فتدور على بيتين لتلميذ جميل — ونعنى به كثيّر بن عبد الرحمن — وهما :

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربى
إلى اليوم أخــفى حبهــا وأداجن
وأحمل فى ليــلى لقوم ضغينةً
وتحمل فى ليلى على الضغائن

وخلاصتهما أن مصعباً أبصر الشعبي — الرواية المحدث المشهور — وهو فى المسجد فأمره أن يتبعه ، وتقدمه وهو لاحق به ، حتى دخل منزلا ثم دخل إلى حجلة فى المنزل ووقف

الشعبى ينتظر ، فإذا جارية قد خرجت تقول له : إن الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلس على وسادة وارتفع سجف الحجلة عن مصعب ابن الزبير ، ثم ارتفع السجف الآخر عن عائشة بنت طلحة

قال الشعبى : فلم أر زوجاً كان قط أجمل منهما ، ثم سألنى مصعب : هل تعرف هذه ؟

قلت : نعم !

قال : ومن هى ؟

قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

قال : لا . ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى . . . وأنشد البيتين

ثم قال : إذا شئت فقم !

فلما كان العشى دخل الشعبى المسجد فإذا الأمير جالس على سريره فيه ، فاستدناه وسأله : هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟

فقال الشعبى : لا والله

قال الأمير : أفتدرى لم أدخلناك ؟ . . لتتحدث بما رأيت

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى فروة فأمره أن يعطيه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً

قال الشعبى : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار[1] ثياباً ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة !

وكلام العالم المحدث هنا يتمم كلام الأمير المكافح المقدام : كلاهما شاهد على شأن الغزل فى ذلك الجيل ، حتى ليحسب العالم النظرة من الحسناء جائزة تقرن بعشرة آلاف درهم ، وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود أن يتحدث الناس بغرامه كما يتحدثون بغرام أولئك الشعراء .

ومتى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت فيمن هو أفرغ للمنادمة والسمر وأحاديث الحسان والعشاق : إنهم خلقاء ألا يفرغوا لحظة من هذه الأحاديث ، ولا يزالوا بحاجة إلى الشعراء المنشدين يرددونها نظماً وغناء ، وهى عندهم أحب ما يستحب فيه الترديد

* * *

ذلك شأن الحواضر الحجازية

وليست البادية من حولها بأقل غزلا أو نظماً فى الغزل من الحواضر على اختلافها ، وإن تباينت الأساليب والآداب .

فلا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالا من

---

(١) القصار : الذى يحور الثياب ، والكارة : ما يجمع فيه ثيابه .

الحاضرة ، على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطوة الأولى .

لأن البدوى والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من الملاهى الحضرية التى تدور عليه وتحوم حوله فى المدينة الكبيرة

وإن شئنا أن نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر أنواع الفنون التى يستغرقها الحضريون فى صدد العلاقات بين الرجل والمرأة ولا يتاح نظيرها لأبناء البادية .

فالمسارح ، والأندية ، ودور الصور المتحركة ، والقصص المطبوعة ، والمراقص ، والمنازه التى يشترك فيها الرجال والنساء ، والأغانى ، والقصائد ، وفروع كثيرة من التصوير والنحت والنقش والزينة — كلها معارض لتمثيل الغزل بأنواعه فى الحاضرة ، ولا يقابلها فى البادية إلا غزل الشاعر بالحسناء ، وما ينسج حوله من الأحاديث والدسائس والوشايات .

فالغزل وحده عند البدوى عوض عن هذه الأنواع المنوعة من أحاديث الرجل والمرأة فى المدينة العامرة ، وهذا مع كثرة الشواغل فى المدن وقلة الشواغل فى البوادى ، إلا ما كان من رعى أو سقى يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانهما إلى الغزل ولا يشغلانهما عنه ، فضلا عن معيشة الفطرة بين الأحياء التى لا تنقطع فيها صلات الذكور والإناث ، وليس الإنسان بدعاً بينها فى هذه الغريزة الفطرية .

فالبادية مهد الغزل قبل الحاضرة

وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلى من أن يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر فى كل حين

إلا أن البادية تتقيد ببعض القيود التى تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين .

لأن « المنعة » ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء ، وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح

وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة

فمن شرف « البدوى » أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير

وهذا هو القيد الذى يختلف به أهل البادية من أهل المدينة ولكنه قيد « سيىء الحظ » كجميع القيود التى تحيط بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى

فمنذ القدم والقيود التى تفرضها العادات تتولى على الرجال والنساء بما يطاق وما لا يطاق ، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى كثير من الإغضاء والتعامى عن تلك القيود . فهى موجودة ومفتاحها موجود ، ولا يزال القيد منها مقروناً بمفتاح

فإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسمحت

من ناحية أخرى . وقد يغض الرجل المتدين بصره إذا مرت به حسناء يخشى فتنتها ، ولكنه يسمع بيتاً فى الغزل وهو غاض عينيه فلا يغلق دونه أذنيه

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف وللرعاية والإهمال ، وللمحاباة والاحتيال

فقد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فتهدأ فيها سورة القتال وتضعف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسطوة ، وقد يطول بها عهد الفاقة فيترخص أبناؤها وبناتها فى الأمور التى كانوا يتشددون فيها ويستكينون للسبة التى كانوا يتذمرون منها ، وقد تجاوز قبيلة قبيلة أقوى منها فتنزل على حكمها وتصبر على نزوات أهلها ، وقد تجاور الحاضرة فتجرى على سنة الحضريين فى الرفق والدماثة ، وتنزل شيئاً فشيئاً عن الجفوة والخشونة

وكل أولئك كان يحدث فى القبائل الحجازية على عهد جميل كان منها من استغنى عن القتال بعد أن تكفلت الدولة القائمة بصيانة الحقوق ومنع العدوان وجزاء المعتدين

وكان منها من طال فيهم الغنى كآل جميل ، ومنها من قل غناهم وجاوروا من هم أقوى منهم كآل بثينة ، وكانوا جميعاً يختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الخشونة على البادية وأهلها

فاتسع ميدان الغزل حاضراً وبادياً ، وظهر شعراء النسيب بنوعيه ، تغنياً بامرأة واحدة كما يغلب على شعراء البادية ، أو تغنياً بالحسان جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة ، وتهيأ العصر لطائفة من شعراء المدرستين على رأسهم عمر بن أبى ربيعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها ، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها

* * *

وما فتئت البادية العربية منذ القدم ميداناً فسيحاً للقوالين والرواة ، لأنهم سلاح من أسلحتها ومصلحة من مصالحها وثقافة أدبية تعدل عندها ثقافة الفنون والآداب والتواريخ فى أمم الحضارة

ولها معهم عرف ذو وجهين يجرى على الرياء والمداراة ، ولا سيما فى الغزل والفخر الحماسى . وهما قوام الشعر البدوى أو قوام كل شعر على الفطرة عنيت بحفظه الجماعات الأولى

فهى تحرم الغزل ببناتها ولكنها تحفظ للأعقاب منظومات شعرائها ، ولو كان عرفها فى هذا الباب ذا وجه واحد لما بقيت لنا قصيدة من قصائد العشاق ولا خبر من أخبارهم ، ولا قصة من قصص الشعراء الواصفين والحسان الموصوفات . ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شاعر فى حسناء وبكل مساجلة

بين عاشقين كأنها من وثائق التاريخ التي لا تنسى ، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقصرون فى كراهة المحظورات ، فإنهم فى الواقع يبلغون من كراهتها أقصى ما فى وسعهم أن يبلغوه ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن بواعث الحب فى الفطرة الإنسانية أقوى من أن يكبحها العرف أو يقضي فيها بقضاء واحد ، فلا بد من التجوز والإغضاء، أو لا بد هنا من عرف ذى وجهين .

أما الفخر الحماسى فموضع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر ويفخرون بكلامه ، فربما ارتفعت قبيلة بكلام شاعر وهو بينهم فى مكان غير رفيع ، وربما كان تحريمهم زواج الفتاة بمن ينظم فيها الغزل ضرباً من ازدراء الشعراء كما كان ضرباً من حماية العرض ومنع الذمار . إلا أنهم فى الفخر كانوا أصرح منهم فى الغزل والنسيب . فربما اجتمعت القبائل علانية لسماع شاعرين يتراجزان ويتناجزان ، ويذكران الأعراق والأوطان ، ولم تأذن بإعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم إلا من وراء أذن السامع وعين المشيح

وقد كان بجميل حظه الوافى من الحالين فى الغزل والفخر على السواء ، فسارت الركبان بأحاديث هواه و « تجمعت الأعاريب أرسالا » لسماع أراجيزه فى الفخر بذويه ، وخرج

من حلبة الفن بنصيبين متناقضين : فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال بينه وبين غزله وبين صاحبته على ما كان له بين قومه من مكانة وثراء ، وأما شعره فقد ظفر بكل عناية فى وسع قبيلة بادية . ولا سيما الغزل الذى منعوه وأوشكوا من أجله أن يقتلوه

ومهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفاً يسمح بغزله ويستدعيه ويستبقيه ، أو كان عرفاً صالحاً لتشجيع العاشقين . وإن لم يكن صالحاً بينهما لوئام الزوجين

وتاريخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف ، ولكنه يجمع الشعر الذى قاله العاشق ولو جنى عليه ؛ وهكذا صنع بشعر جميل .

من هما ؟

جميل بن عبد الله بن معمر من بنى عذرة من قضاعة التى تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام ، وأمه من « جذام » وهى تسكن فى الجانب الشمالى من هذه الطريق

ويلتقى نسبه ونسب صاحبته بثينة عند جدهما حن بن ربيعة ، ثم يختلفان على ما بينهما من تقارب النسب فى قوة العشيرة وصلاح الحال

فكان قومه أعز من قومها ، وكان أبوه « ذا مال وفضل وقدر فى أهله » يلقب بصباح ويحسب له فى بطون قضاعة كلها حساب كبير

ومن هيبته بين هذه البطون أن السلطان أهدر دم جميل إن وجده أهل بثينة فى دورهم ، فوجدوه عندهم مرات ولم يجترئوا على قتله . بل جعلوا يعذرون إليه وإلى أبيه مرة بعد مرة مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين . إلى أن أغلظ له أبوه القول من تتابع الشكوى إليه ، فكف عنها ما استطاع ثم رجع إلى سيرته معها بعد حين

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاة والأمراء بالمديح

طلباً للجوائز والهبات ، حتى كان بعضهم يستدعيه إلى مدحه فيعدل عن ذاك إلى الفخر بقومه فى حضرته ، كما حدث بينه وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز مكين العذرى بالوليد قائلا :

يا بكر هل تعلم من علاكا   خليفـــة الله عـــلى ذراكا

فطمع الوليد أن يمدحه جميل ، ودعاه أن ينزل فيرجز ، فنزل فقال مفتخراً :

أنا جميل فى السنام من معد   فى الذروة العلياء والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد   ما يبتغى الأعداء منى ولقـــد
أضرى بالشتم لســانى ومرد   أقود من شئت وصعب لم أقد

فغضب الوليد وقال له : اركب لا حملك الله !

ومن جملة سيرته يظهر أنه كان كما قال صعباً لا يقاد ، أو كان على شىء من العناد والخيلاء . فكان يستعظم أن يجترئ عليه أحد بمناداته باسمه فى الطريق ، وحدث بعضهم أنه كان فى رهط من علية القوم عند شعب « سلع » بالمدينة . . . « إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين ، طوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة . . . فصاح به عبد الرحمن بن أزهر : هيا

جميل ! هيا جميل ! . . . فالتفت مستكبراً يسأل : من هذا ؟ فلما عرف عبد الرحمن قال : قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك ! . . ثم جلس فأنشدهم حتى بدا له أن يقوم « فاقتاد راحلته مولياً »

والبزة الحسنة — على ما يظهر من جملة سيرته أيضاً — كانت من لوازمه التي اشتهر بها ولا سيما في المحافل ، حتى لقد كان يحسب متنكراً إذا مشى في البادية بزي الرعاة ، وقال بعض أصحابه : « قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازني وكساني برداً كان أفضل جائزتي . فنزلت وادي القرى فوافقت الجمعة بها ، فاستخرجت بردي الذي من عند عبد الملك وقلت أصلي مع الناس . فلقيني جميل — وكان صديقاً لي — فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا . فلما أمسيت إذا هو قد أتاني في رحلي فقال : البرد الذي رأيته عليك تعيرينه حتى أتجمل به ، فإن بيني وبين جوّاس الشاعر مراجزة . . . قلت : لا . بل هو لك كسوة ، وكسوته إياه . . . فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون أرسالا حتى اجتمع منهم بشر كثير ، وحضرت وأصحابي ، فإذا بجميل قد جاء وعليه حلتان ما رأيت مثلهما على أحد قط . وإذا بردي الذي كسوته إياه قد جعله جلا لجمله . . »

. فالرجل الذى يتخذ خلعة من الخليفة يزهى بها صاحبها جلاً لجمله ويلبس خيراً منها ، رجل ولا شك مفرط الخيلاء معنى بحسن البزة وأناقة الكساء ، وقد ترجع هذه الخيلاء إلى النشأة العزيزة فى بيوت الرئاسة بالبادية ، فليس أقرب إلى الخيلاء من من أبناء هؤلاء الرؤساء . ولا سيما الذين رزقوا منها جمال السمت وروعة المظهر كما رزق جميل .

إلا أنها على هذا خليقة مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل والنشأة فى بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه . فقد ذكر صاحب له من أهل تيماء أنه كان معه يحدثه ويستمع له « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتى أنكره

فهذه الخليقة الجامحة التى لا يملكها صاحبها هى على التحقيق مرجع من مراجع تلك الخيلاء التى اشتهر بها جميل ، وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على الإملاء لصاحبنا فى خيلائه ، فغير عجيب مع هذا كله أن يتحامق ويحمق فلا يستتر حمقه حيث يريد وحيث لا يريد

وكيف يخفى حمق جميل وهو القائل :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت علىّ مواثقـــاً وعهودا

أيقول هذا البيت رجل رشيد كائناً ما كان قصده وذاهباً ما ذهب فى معناه ؟

إنه كان مضرب المثل بحق على حماقة « كاتم السر » الذى يقسم ألا يبوح به ، وهو فى قسمه على الكتمان قد باح !

* * *

فجملة المفهوم من أوصافه وأخباره أنه كان فتى من الفتيان الذين تكتب لهم — أو تكتب عليهم — حياة الغرام .

فكان وسيماً قسيماً طويل القامة عريض المنكبين مدللاً فى نشأته منظوراً إليه فى بزته وعزة قومه ، على ضعف فى الخلق والعقل يقعد به من عظائم الأمور ، ولا يكبح جماحه أن بدأت به غواية الهوى فتمادت به إلى منتهاها ، وكذلك رشحته النشأة والخلقة والخليقة ليكون جميل بثينة ، وجاء العصر والجوار فزكيا هذا الترشيح وأوسعا له عن مداه ، فهو فى دوره الذى تمثل لنا به فى عالم الشعر غير غريب .

* * *

أما صاحبته بثينة فقد وصفها جميل بعين المحب ووصفها غيره كما يراها كل من رآها ، فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت « أدماء طوالة » كما قال عمر بن أبى ربيعة ، وأنها تفرع النساء طولا كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل .

ومن كلام عمر وجميل معاً يبدو لنا أنها كانت على سنة البدويات فى التأبى والدلال الذى يشوبه الجفاء . فلما تصدى لها عمر بن أبى ربيعة خرجت له فى مباذلها لا تحفله وقالت له : « والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك ! » .

وقال جميل :

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتنى بالدلال وبالبخل

فهى معشوقة بدوية صالحة « لدورها » المشهور مع جميل ، وقد زادنا جميل معرفة بتفصيلات ملامحها فقال : « إنها لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل[1] » . . . وكرر هذا الوصف مرات فقال :

إلى رجح الأكفال هيف خصورها
عذاب الثنـــايا ريقهـــن طهور

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال :

مفلجة الأنياب لو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر

(١) الكشح الخصر إلى وسط الظهر ، والشوى الأطراف والخدل الممتلىء .

وعمم الوصف فذكر جيدها وعينها فى بيت يقول فيه :

وأحسن خلق الله جيداً ومقلة
تُشَبَّهُ فى النسوان بالشادن الطفل

وفى بيت آخر يقول فيه :

لها مقلتا ريم وجيد جداية
وكشح كطى السابرية أهيف[1]

فإذا أعطينا « الوصف التقليدى » حقه من هذه الأبيات بقى لنا منها أن بثينة كانت حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة ولم يعرقها شظف العيش ، فهى رشيقة معتدلة الخلق سامقة القوام مستحبة الملامح لمن يراها ، مفتوناً بها أو غير مفتون .

ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبثينة وفطنتها إلى معناها وردها عليها لساعتها ، يبدو لنا أنها كانت من الذكاء على نصيب يسعف الفتاة فى مواقف الغرام ، وهو نصيب غير نادر بين جميع الفتيات .

إلا أنها « شن وافق طبقه » فى علاقتها بجميل ، فكانت لا تخلو من حماقة وخفة يلاحظها من يحادثها ، وقيل إنها دخلت

---

(١) السابرية حرير ينسب إلى سابور والجداية ولد الظبى بلغ ستة أشهر .

على عبد الملك بن مروان « فرأى امرأة خلفاء — أى حمقاء — مولّية » ، فقال لها : ما الذى رأى فيك جميل ؟ قالت : الذى رأى فيك الناس حين استخلفوك .

ومثل هذه الحماقة لا تظهر فى الكهولة إلا كان لها أساس أصيل من بداءة العمر ، وبخاصة فى عهد الغواية والشباب .

* * *

وقد كان جميل يحاول أن يقتدى فى وصفها بابن أبى ربيعة فى وصفه لنسائه المترفات المنعمات فيقول عنها وعن أترابها :

إذا حميت شمس النهـــار اتقينها
بأكسية الديباج والخز ذى الخمل

ولكنها محاكاة لا تلبث أن تنكشف وينكشف باطلها كما ينكشف كل زيف وتلفيق . فبثينة هذه من بنات « بنى الأحبّ » الذين قال فيهم جميل حين غضب :

إن « أحبّ » سفلـــة أشرار حثالة عـــودهم خـــوّار
أذل قوم حين يدعى الجار

والذين قال فيهم حين توعدوه مشيراً إلى عجزهم عن قتله لأنهم لا يقدرون على الحرب ولا على الدية :

إذا ما رأونى طالعـــاً من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفـــونى
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبـــاً
ولو ظفروا بى خاليـــاً قتلونى
وكيف ولا توفى دمـــاؤهم دمى
ولا مالهم ذو ندهـــة فيـــدونى

وليست هى غضبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل ، لأنهم فى الواقع لم يجترئوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد أن أهدر السلطان دمه لهم إن رأوه فى بيوتهم ، وكان قصارى ما يصنعه زوجها أن يشكوه ويشكوها إلى أبيها وأخيها ، وقصارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشد عليهم جميل بالسيف فيهربا أو يشكواه إلى أبيه ويعذرا إليه ، وقد أربيا على حد الإعذار .

وكأنما كانت وسامة جميل مزية من مزايا كثيرة حببت إليها هواه ولم تكن هى المزية الأولى والأخيرة . كان ماله على ما يبدو من كلامه بعض هذه المزايا ، إذ لا محل لقوله إن لم يكن هذا كذلك :

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغى يمينى وقد عزت على يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينى مالى يا بثين فإنمـــا يبين عند المـــال كل ضنين

ولقد كان يرحل ويعود فيتهمها بصلة جديدة ثم لا تبالى هى أن تلمح إلى هذه الصلة فى بعض مناجاتها إياه .

وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروقها ولا تهابه ولا تشعر بحماه . فلولا أن « بنى الأحبّ » كانوا فى ذلك الحين كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه ، بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل .

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جميلا قد تزوج إلى أن مات ، وقد تكون أوفى النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى غيرها ، وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه ؛ ولكنها لم تكن من الوفاء بحيث يقدح الزواج وحده فى ذلك الوفاء ، ولعلها إحدى الكثيرات اللاتى يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة

إذا غمزوها بالأكف تلين

عشق جميل وبثينة

كل ما قرأناه عن جميل ، أو قرأناه من كلام جميل ، يدل على طبيعة العلاقة التى كانت بينهما ، وهى العلاقة التى تكون بين الرجل والمرأة وتتعطل فيها الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل ، أو هى العلاقة التى نسميها العشق والغرام .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئاً من تقييد الإرادة قل أو كثر . فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره ، والشريك لا يفارق شريكه وله مندوحة عن فراقه ، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق . ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد ، فالذى يتعاطى دواءً ينفعه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، والذى تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، ولكن الفرق بين تقييد الإرادة فى الحالتين واضح كل الوضوح .

ففى الحالة الأولى يفكر الإنسان فى العواقب وفى المنافع فلا يقدم على الامتناع .

وفى الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء .

بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلئ يقيناً بفائدة الامتناع ثم لا يمتنع ولا يفلح أحياناً لو حاول الامتناع .

وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها « الهوى » والقيود التى يفرضها الرأى أو المصلحة .

فالتدخين « هوى » من البداية إلى النهاية ، وعند ما يبدأ الإنسان فى تعود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد الهوى إن صح هذا التعبير ، وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول الطعام ، أو يتناول حتى اللون المحبوب لديه من ألوان الطعام .

وتعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ولا سيما الهوى الذى نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام .

لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بإرادة النوع كله أو بالإرادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيراً على إرادة العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على

وفاق الهوى أو لا تتاح .

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلا عن أن يعلمه ويعجز عنه ، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين ، ولا غنيمة لأحد منهما فى الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو فى الحالتين من خسار .

وينتهى به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناءة فيها ، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه ، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها .

ومثله فى ذلك مثل المدمن الذى يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها ، ولكنه يقلع عنها فلا يقر له قرار ، فيمضى فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة .

وقد قيل بجميل كل سبب يوجب عليه ، لو ملك اختياره ،

أن يسلو بثينة ويقلع عن هواها ، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع ؛ ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبة عنده للتفكير فى السلو والفراق .

قال له أبوه : « يا بنى ! حتى متى أنت عَمِهٌ فى ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلا ، وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة. . . إن هذا لذل وضيم. ! ما أعرف أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك . فأنشدك الله إلا ما كففت وتأملت أمرك . فإنك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدر له ، وفى النساء عوض » .

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر ، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه .

فإذا علم المرء هذا ولم يعمل به فليس لذلك إلا علة واحدة وهى شلل الإرادة ، وأنه فى حال كحال المريض الذى لا يملك الشفاء ، بل ربما كان شراً من هذا المريض فى استسلامه

لدائه ، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتوسل إليه بوسائله التى فى يديه ، ولكن العاشق الذى برح به العشق كما برح بجميل مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء .

وهكذا كان جواب جميل لنصيحة أبيه . فقال له : « إن الرأى ما رأيت والقول كما قلت » ثم قال : « ولكن هل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع قلبه هواه ؟ أو ملك أن يسلى نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمداً ، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ! »

وقال له ابن عمه روق مقالة الند للند الذى يفهمه ويستثير نخوته بالمناظرة فى الفتوة والمقاربة فى السن :

« إنك لعاجز ضعيف فى استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه ، أو ذل لا أحب ذلك ، أو كمد يؤدى إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك ، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها

وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها ، وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت ! » .

وهذا كلام كله حزم وسداد ، ولكن متى كان الهوى فى اشتداده إلا مخالفة للحزم والسداد ؟

فما نصح أب فتاه بأحكم ولا أصوب من النصيحة التى سمعها جميل من أبيه .

وما استثار ند نداً بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام الذى قاله له ابن عمه .

ولكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء ، وقال لابن عمه كما قال لأبيه : « يا أخى ! لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صواباً ، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ! »

أو كما قال فى شعره :

هى السحر إلا أن للسحر رقيـــة
وإنى لا ألقى لهـــا الدهر راقيا

وأكد ذلك أوثق التأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يقولون مسحـــور يجن بذكرها
وأقسم ما بى من جنون ولا سحـــر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين أردف هذا البيت ببيت تال يقول فيه :

وأقسم لا أنساك ما ذر شارق   وما هب آل فى معلمة قفر [١]

وإنما يقسم هذا القسم من هو مجنون ومسحور ، أو من سماهم الناس بالمجانين لأنهم لا يملكون ما يريدون ، ويوشك أن يكرهوا إرادة الخلاص لو ملكوه . فهم فى حبهم للمعشوقة التى هم مفتونون بها على حد قول المتنبى فى افتتان الأحياء عامة بالحياة :

وإذا الشيخ قال أفّ فما ملّ
حياة وإنما الضعف ملّا

لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه ، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن استطاعوه ، وإلا فالبقاء فيه مع ألمه حين لا يستطيعون .

* * *

وظاهر أننا — فى قصة جميل وبثينة — أمام عارض نادر من عوارض العلاقة العرامية ، لأن المشاهد المتواتر أن هذه

(١) ذر شارق : أى طلع نجم ، والآل هو السراب الذى يبدو فى المعلمة القفر أى الصحراء .

العلاقة تجرى فى مجراها بين كثير من الرجال والنساء ، دون أن تصل إلى هذه اللجاجة الموبقة التى وصل إليها جميل .

ولا شك أن الغرائز النوعية أقوى من إرادة الفرد إذا تحكم النزاع بينهما وبلغ مبلغ الصدام الذى لا محيص فيه من الغلبة لإحداهما . ولكن المسألة هى أن الغريزة النوعية والإرادة الفردية لا تبلغان هذا المبلغ من النزاع والصدام إلا لعارض طارى ليس بالمتكرر فى جميع الأحوال ، وهذه هى الندرة التى يدل وقوعها على شذوذ فى الفرد أو شذوذ فى الأحوال التى تعرضت لها علاقته الغرامية .

فالعشق أصيل فى طبائع الإنسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية ؛ بل هو أصيل فى طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث ، بغير تبديل إلى أمد طويل .

ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب ، ولا يلزم من خدمتها النوع أنها تمحق الفرد وتتقاضاه حقه من الهناءة والحرية فى جميع الأحوال . ولا سيما إذا تحققت مصلحة النوع بغير هذه التضحية التى لا توجبها خدمة فرد ولا خدمة نوع .

فإذا اصطدمت الغريزة والإرادة الإنسانية على اطراد دائم مدى الحياة فهنالك شذوذ لا محالة فى هذه الإرادة أو فى

الأحوال التى أحاطت بها ولابستها ، وذلك هو الشذوذ النادر الذى نشاهد مثلاً من أمثلته الواضحة فى قصة جميل .

والأغلب — فيما يبدو لنا — أن علة هذا الشذوذ راجعة إلى جميل نفسه قبل مرجعها إلى الأحوال التى أحاطت به وبمعشوقته بثينة .

فقد اصطلحت عليه أسباب كثيرة توهى من إرادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنة التى غلبته على رأيه .

فكان مدللا قليل التمرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين ، وكان وسيما تميل به وسامته إلى التصدى لهذه الأهواء والتفرغ لها والوقوف على طريقها ، وكان المزاج الفنى — أو مزاج الشاعرية — معواناً له على التمادى فى هذه الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها ، وبخاصة حين أغناه اليسار عن معالجة الشعر فى أبواب المديح والرحلة إلى الأمراء والرؤساء ، وكان فارغ الوقت لا تملأه الشواغل بما ينسيه أو يسليه أو يقسم وقته بين عمله وهواه ، وكان مع هذا ضعيف الرأى قليل الحزم كما ذكرنا فى فصل آخر من فصول هذه الرسالة ، وهى أسباب فى جملتها كافية لتعليل تلك الندرة التى جعلته من أبطال العشق المعدودين فى آداب اللغة العربية ، ويضاف إليها العصر وأثره والبيئة وحكمها ، وكلاهما كان مما يمد فى دواعى هذه الفتنة

وينحى بينه وبين وسائل الخلاص منها .

وقصة هواه لبثينة قصة من أراد الوقوع فى الهوى ، ثم وقع فيه ، وليست بقصة من أوقعته المصادفة وحاول الخلاص من البداية فامتنع عليه .

فكان فى أول عهده بالعشق يهوى « أم الجسير » أخت بثينة الكبيرة ، ثم لقى بثينة فشتمته واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن أختها إليها ، وذلك إذ يقول :

وأول ما قاد المودة بيننـــا
بوادى بغيض يا بثين سباب

وربما دل ذلك على خليقة من الخلائق التى نفهم بها لجاجته فى علاقته الغرامية على نحو يندر جداً بين الأقوياء ذوى الغلبة من الرجال .

فمن خلائق بعض الضعفاء أن تغريهم الإساءة والحرمان ، وتزيدهم كلفاً على كلف بمن أحبوا من النساء ، ولا سيما المرأة التى تحسن أن تمزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء ، وفى هذا يقول من قصيدة أخرى :

ولست على بذل الصفاء هويتها
ولكن سبتنى بالدلال وبالبخـــل

فالسباب استهواه والبخل سباه ولج به فى هواه ، وتلك أبداً آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعليق تلك الثقة بمشيئة غيره ، إن أقبلت عليه معشوقته رضى عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى ، وإن أعرضت عنه ظل فى حيرة وابتئاس لا يزولان إلا أن يزيلهما إقبال جديد ، وأما هو فليس بقادر على أن يستغني برأيه أو يستمد الثقة من قرارة نفسه ، ولو قدر على ذلك لكان إعراض المعشوقة عنه داعياً من أكبر دواعى القطيعة والجفاء ، ولكان فى وسعه أن يعرض عنها ويكف عن التعلق بها ، ولا يضيره ذلك أو يشعره بنقص فى طمأنينته النفسية ، لأنها طمأنينة لا تتعلق بمشيئة سواه .

وفى بعض الضعفاء خليقة قريبة من هذه الخليقة أو هى هى فى مظهر من مظاهرها المختلفة ، ونعني بها «حب التعذيب» والحنين إليه ، ومن هؤلاء من يلتمسون الضرب والإيجاع فى بعض الأحيان ويسعون إليه ، وقد يستأجرون من يضربهم ويوجعهم كما يصنع أناس من أصحاب هذه الخليقة فى بعض العواصم الأوربية ، ويقترن ذلك دائماً بالنزعات الجنسية على نحو من الأنحاء .

فإذا كان جميل من أصحاب هذه الخليقة فهواه على تلك الصورة مفهوم ، وأسباب اللجاجة فى الحوتى عنده أكثر من أن تحتاج إلى مزيد .

أقبلت بثينة على وادى « بغيض » وفيه إبل جميل لترد الماء مع جارة لها ، فنفرت الإبل عن المورد ، فسبها جميل وسبته ، فكان هذا أول التعارف بينهما وأول الغرام ، ونسب بها منذ ذلك اليوم بعد أن كان ينسب بأختها أم الجسير .

وقيل إن جميلا خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، فوقف على بثينة وأختها أم الجسير فى نساء من بنى الأحب ؛ ورأى منهن منظراً عجيباً فقعد معهن وعشق بثينة ، ثم راح ومعه فتيان من بنى الأحب عرفوا فى نظره حبها ووجدوا عليه ، وقال ينسب بها من أبيات :

عجل الفراق وليته لم يعجل
وجرت بوادر دمعك المتهلل
لن تستطيع إلى بثينة رجعة
بعد التفرق دون عام مقبل

ثم علمت بثينة أنه نسب بها فحلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه .

وهنا موضع آخر للعجب أو للملاحظة :

لم نسب بها وهو لا يجهل أن النسيب يحول بينهما وبين الزواج كما جرت سنة البادية التى لا تخفى عليه ؟

أغلبته النزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه ؟ أم هى نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأى ومطاوعة الغواية العاجلة ؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضاً مقصوداً لذاته لا يفكر معه فى زواج ولا اتصال ؟

أيسر ما يقال فى هذا المسلك أنه مسلك لا حزم فيه ؛ وأنه خليق أن يلقى بصاحبه فى تلك المحنة التى ابتلى بها وساق نفسه إليها .

وقد حيل فعلا بين جميل وبثينة فلم يتزوجا ، طلبها للزواج وتزوج بها رجل آخر قيل فى وصفه إنه دميم أعور وظهر من أخباره فى قصة جميل أنه كانت له زوجة قبلها ، وأن بثينة لم تعش معه طول حياتها ، وذلك هو نُبيه بن الأسود العذرى الذى قال فيه جميل :

لقد أنكحوا جهلا نُبيها ظعينة
لطيفة طى الكشح ذات شوًى خدل

فهى زيجة لا تغتبط بها الفتاة وليس من شأنها أن تقطع الصلة ما بين بثينة وجميل ، بل لعلها أحرى أن توثقها وتمكن من عراها ، ولاسيما إذا كان الزوج مشنوءاً لفتوره وخوره وقلة حميته وعجزه عن إرهاب غريمه ، كما كان مشنوءاً لدمامته

تفاوت السن بينه وبين عرسه . وكذلك كان نبيه بن الأسود فيما وصفته لنا الروايات المختلفة كلما ألم جميل بالحى وطرق بيوت بثينة وأهلها فلم يجاوز غضب نُبيه أن يشكوها إلى أبيها وأخيها .

وكأنما اتفقت الدواعى جميعاً على إطالة العلاقة بين العاشقين فطالت ولم يقطعاها معاً حتى قطعها الموت ، وتخللها ما لا بد أن يتخللها من قرب وبعد ، ولقاء وجفاء، ووشاية وغيرة ، وفرص موالية وأخطار معادية ، مما نقله إلينا الرواة أو لم ينقلوه ، ومما صدقوا أو لم يصدقوا فيه ، ومما تناقضوا فى نقله ولا حاجة بنا إلى اتفاقهم عليه .

فبعض هذا التناقض يثبت القصة فى جملتها ولا ينفيها ، لأنه يرينا أن القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويسمعونها من شتى المصادر ، وليست بالاختراع الموضوع الذى يلفقه قاص فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه .

وبعض هذا التناقض يرجع إلى تقديرات النقاد أو القراء فيما يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيستبعدون الخبر الذى هو بعيد عن الحب فى تقديرهم ، ويميلون إلى اتهام الرواة فيه بالوضع أو قلة التحقيق .

من ذلك مثلا أن صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعى التشكيك فى قصة جميل أنه غدر بصاحبته مرة وأن «الغدر

لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه »

فأحصى الدكتور ألوان الشكوك ومنها اللون الثانى وهو كما قال :

« شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم وإنما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه المقالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل أن تضطجع فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها فلم يشكوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك شعراً . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حباً كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة ؟ »

فتقدير الدكتور هنا لحب جميل وما ينبغى أو لا ينبغى لمثل حبه هو الذى أظهر التناقض فى هذه القصة وجنح به إلى تكذيبها .

أما إذا أخذنا بتقدير غير هذا التقدير فلا تناقض ولا موجب إذن للتكذيب .

وعندنا نحن أن حب جميل لا يمنع أن يعرضها لتلك الفضيحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة التى تغنى فيها بحبها ولقائها ومناجاتها ، ثم أرسلها فى أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حيث قدر لها المطاف

وجميل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسيب والقالة حتى ليجازف فى سبيلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه المجازفة ، فينسب بها وقد علم أن هذا النسيب يحرمه أن يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها . ونحن مع هذا نصدق حبه ونصدق نسيبه ولا نقول : لو كان محباً حقاً لترك النسيب بالمحبوبة ليظفر بها ولا يفقدها

فالتناقض فى القصة التى استشهد بها الدكتور طه تقديرى يزول — أو يزول مؤداه — متى اختلف التقدير

وربما اختلف التقدير فكان من أسباب توكيد الخبر أو ترجيحه ولم يكن من أسباب استبعاده ونفيه ، لأن الرجل الذى يشغله النسيب هذا الشغل الشاغل يكرثه حقاً أن يقال إنه يتغزل بأمة شائهة وأنه مسلوب العقل مضيع الحياة فى هواها ، ويهون عليه أن يعلن حقيقة هواه ولا يهون عليه أن يحتمل هذه الوصمة المهينة ، وعلالته فى ذلك أنه لا يخشى ضرراً من الفضيحة على من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بملاحقته لها ولم يصبها

مصاب من ذويها ، غير الشكاية والزجر الذى لا يضيرها

والزهو بعدُ عنصر من عناصر العشق لا سبيل إلى نكرانه والاستخفاف بإغرائه وتحريضه

فالعاشق قد يحتمل النكبة الفادحة ولا يحتمل الغض من مكانته فى نفس معشوقه ، والشك فى هذه المكانة هو أكبر لواعج الغيرة ، والحرص عليها هو أقوى أواصر المحبة ، وقد يجازف بمنفعته وراحته ولا يجازف بلقاء تهمة، تغض من تلك المكانة وتذيلها وتسقطها عنده وعند غيره

فجميل صاحب النسيب الذى ضيع فى سبيله بثينة كلها ليس بعجيب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضيرها ، فى سبيل كرامة هواه وكرامة نسيبه وكرامة نسبه وأهله .

وقد ينبغى ذلك فى الهوى العذرى أو لا ينبغى فيه ولا فى هوى من الأهواء ، ولكن من هو العاشق الذى يعمل ما ينبغى ولا يعمل ما دونه ؟

إنه قد يريد أن يتحامى الضرر الذى يحيق به هو ولا يملك أن يتحاماه ، وقد يريد أن يدرأ الفضيحة عن نفسه ولا يملك أن يدرأها ، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغى فى عرفه وعرف الناس ، وإنما نحاسبه بما يساق إليه وبما هو مغلوب عليه ، وليس بمستبعد على مغلوب أن يعمل عملا لا يرضاه ساعة عمله ،

وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه

* * *

ومن النقائض التى تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهوى العذرى صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى فى كلام جميل وأخباره على صفة أخرى

فالهوى العذرى كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجسد ونزعاته ، باق ما بقيت الحياة ، ثم هو لا يزال قانعاً على مدى الحياة؛ بالنظر والحديث والمناجاة، وقد يتورع عن الملامسة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لهما جثمان

وقد وصف جميلٌ هواه على هذه الصفة فى بعض ما نسب إليه فقال :

لا والذى تسجد الجبـــاه له   مالى بما دون ثوبهـــا خبر

ولا بفيهـــا ولا هممت به   ما كان إلا الحديث والنظر

وقال يصف ليلة مع بثينة :

خليلان لم يقربا ريبـــة   ولم يستخفـــا إلى منكر

وقال عباس بن سهل الساعدى : « دخلنا على جميل وهو يحتضر ، فنظر إلىّ وقال : يا ابن سهل ! ما تقول فى رجل لم

بشرب الخمر ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قلت : أظنه قد نجا . فمن هذا الرجل ؟ قال : أنا . . . قلت : ما أحسبك سلمت وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة . فعاد يقسم : لا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة ، وأكثر ما كان منى أن أسند يدها إلى فؤادى أستريح ساعة ! »

ووصفوا لقاءه إياها فقالوا إنه كان إذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته إلى الجلوس فكأنه لصق بالأرض . . . « ثم يسلم عليها ويسألها عن حالها وتسأله هى مثل مسألته . ثم تقرب إليه جاريتها الطعام فيأكل ، وتستنشده ما قال فيها فينشدها ، ولا يزالان يتحدثان لا يقولان فحشاً ولا هجراً حتى إذا قارب الصبح ودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ، وانصرفا وكل منهما يمشى خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا . . . » .

وعلى ذلك انقضت السنون بعد السنين يفترقان ما يفترقان ثم يلتقيان هذا اللقاء ، حتى افترقا إلى غير لقاء

إلا أن أخباراً أخرى فى سيرة جميل تصرح بمبيته عندها واضطجاعه معها ، وقد صرحت قصائده غير مرة بالتقبيل والعناق كما قال :

تجود علينا بالحديث وتارة   تجود علينا بالرضاب من الثغر

وكما قال :

كأن فتيت المسك خالط نشرهـــا
تقـــل به أردانهـــا والمرافـــق
تقوم إذا قامت به من فراشهـــا
ويغدو به من حضنها من تعانق

وأشباه ذلك فى شعره غير قليل

وربما حلف لها فى بعض شعره أنه لم « يمس جلداً غير جلدها » حيث يقول :

حلفت يميناً يا بثينـــة صادقـــاً
فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنى
وباشرنى دون الشعار شريت[١]

فهى كانت تتصل به وتتهمه بالاتصال بغيرها ، وهو أيضاً لم يكن يكتم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها ، وله فى ذلك كلام صريح يقول منه :

---

(١) الشعار : ثوب يباشر الجسد ، وشريت : أى أصبت بالشرى ، وهو طفح مؤلم يظهر على الجلد .

تظل وراء الستر ترنو بلحظهـــا
إذا مر من أترابهـــا من يروقها

ويقول :

بثينة قالت يا جميل أربتنى
فقلت كلانا يا بثين مريب !
وأريبنا من لا يؤدى أمانـــة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب
بعيد على من ليس يطلب حاجـــة
وأما على ذى حاجة فقريب

أو يقول مبكتاً لها :

لحا الله من لا ينفـــع الوعد عنـــده
ومن حبله إن مد غير متـــين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت علىّ بقـــائل
لهـــا بعد صرم يا بثين صلينى

أو يقول مبكتاً نفسه :

وإنى لأستحيي من الناس أن أرى
رديفاً لوصـــل أو علىّ رديف

وأشرب رنقاً[1] منكِ بعد مودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإنى للمـــاء المخالط للقذى
إذا كثرت واده لعيـــوف

وبلغه يوماً أن بثينة استبدلت به حجبة الهلالى فقال :

فيا بثن إن واصلت حجبة فاصرمى
حبالى وإن صارمتـــه فصلينى
ولا تجعلينى أسوة العبد واجعلى
مع العبد عبداً مثله وذرينى

وحدث كما جاء فى سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت بثينة بعده بحجبة هذا ثم طلب منها حجبة حين عاد جميل أن تصارحه بتركها إياه وتغيرها عليه فقالت أو قيل على لسانها :

ألم تر أن الماء غير بعدكم وأن شعاب القلب بعدك حُلّت

فأجابها وقد علم ما تريد :

فإن تك حُلّت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصى وعلّت[2]

---

(١) الرنق : الكدر (٢) القلوص : الطويلة القوائم من الإبل ، والنهل أول الشرب والعلل الشرب للمرة الثانية

وكان لبثينة فتى من بنى عمها يتحدث إليها فاستراب به جميل وذهب يتحدث إلى غيرها ، « وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدى لصاحبه شأنه » حتى غلبه الأمر فأقبل على البيت الذى كان يجتمع فيه معها وأقبلت هى إليه ولم تبرز له ، وجعل كل منهما يطالع صاحبه ، فأنشأ يقول :

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لتثنينى الحفيظة كلما
لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها : ما أحسن الصدق بأهله ، ثم اصطلحا ، فسألته بثينة أن ينشدها قوله :

تظل وراء الستر ترنو بلحظها
إذا مر من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها ، فبكت وقالت : كلا يا جميل ! ومن ترى أن يروقنى غيرك ؟

* * *

فتلك جملة من الأخبار المتفرقة تفضى بنا إلى نتيجة ظاهرة وهى أن الهوى بين جميل وبثينة لم يكن خلواً من نزعات الجسد ولم يكن خلواً كذلك من الشك والريبة وتهمة الخيانة من الجانبين . فماذا نقول فى ذلك ؟ أنقول إنه تناقض ؟ . . . نعم هو تناقض لا شك فيه ، ولكنه تناقض فى طبيعة العاطفة نفسها أو فى حالاتها وتعبيراتها ، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها ، لأنها تحصل متناقضة الحالات والتعبيرات ، وكذلك العواطف جميعاً لا تلتزم الدقة المنطقية فى جميع الأوقات

فجائز جداً أن يكون جميل قد أعلن براءته فى بعض شعره ، وجائز أن يكون جميل قد كشف الحقيقة فى بعضه الآخر ، وجائز جداً أن يكون عذرياً فيما اعتقد ونوى، وأن تخالطه النزعات الجسدية فيما طغى به الهوى

ذلك كله جائز جداً وهو الذى يحصل كل يوم ولا نزال نراه حيثما التفتنا إليه

يحصل كل يوم أن ينوى الإنسان البراءة ويقع فى الريبة على غير وده ، ويحصل كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذاك فى حينه ولا يكون ذلك نافياً لما حصل بل مؤيداً لما تعودنا حصوله كل يوم ، ولا سيما إذا علمنا أن صاحب القصة إنسان

لا يملك مشيئته ولا يزال محاولا يضطرب فى محاولاته ، فيود حيناً ما يأباه فى آخر ، ويستنكر فى يومه ما كان ارتضاه فى أمسه ، ولعله يعود فينكره فى غده

وإنما نحن نفرط فى التصديق إذا فهمنا أن قبيلة من القبائل تصف هواها بالبراءة التى لا يطرقها الزغل فيكون هذا الوصف عاصما لكل فرد من أفراد القبيلة ، مبطلا لكل خبر يخالف تلك الصفة

ونفرط كذلك فى التصديق إذا فهمنا أن الرجل ينوى الأمانة فيكون معنى ذلك أنه لم يخالف الأمانة مختاراً أو مضطراً إلى المخالفة ، ونحن متناقضون فى هذا الفهم لأننا نلمس كل يوم ما يناقضه ولا يستقيم فى طريقه

فجميل وبثينة إنسانان كسائر الناس ، لا نحكم على عمل من أعمالهما بالمناقضة ونتفيه إلا إذا ناقض الطبيعة البشرية وكذب ما تواتر من أخبار الناس

وكل ما يبدو لنا من أخبارهما أنهما كانا عاشقين يلج أحدهما فى عشقه ويقبل الآخر منه هذه اللجاجة

فكان جميل يتابع بثينة وكانت بثينة تقبل منه هذه المتابعة ، لأنها تألفه وتؤثره على زوجها وتستعز بهيامه ونسيبه بين أترابها

ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها ، بل

يجوز أنها كانت تعتمد عليه فى بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذى يهواها ، فكان الهوى بينهما على طباق الأرض ولم يكن بالهوى السابح فى أجواز الفضاء ، وكانا إنسانين فى كل حالة من حالاتهما كما يكون كل إنسانين بدويين فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة ، وعند ذلك لا نرى فى أخبارهما ما يناقض الواقع أو يستبعده العقل أو يخالف ما يجرى فى علاقات الغرام .

أما الهوى العذرى فقصاراه أنه كان أمنية لهما وأمنية لكل قبيلة تعتز بالمنعة والصيانة فى بناتها . إن جرى الواقع بما يخالفه فهو الواقع الذى يخالف أبداً كل عرف نصبوا إلى تحقيقه ، فما زال من دأب المثل الأعلى — أو من دأب الأمانى الاجتماعية — أنها تراد وتخالف ولا يزال الناس يريدونها ويخالفونها ، فلا ينفيها ذلك بل يدل على وجودها

وقد اتفقت أسباب شتى على توكيد هذا العرف فى قبيلة بنى عذرة وجيرانها

فهى قبيلة بادية توكل إليها أحياناً حراسة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شماله ، ففيها طبيعة البداوة أن تعتز بالمنعة والصيانة وألا تعترف بالشبهة فى بناتها ومحارمها ، وفيها رغبة الحفاظ على هذه السمعة التى تحتاج إليها وتأبى أن تمس فيها ، وإلا ديس حماها وبطلت حراستها وتخطاها من يعتمد عليها

وهى مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الإسلام وتنكر ما ينكر من إثم وتفرض ما يفرض من حدود . فليس بمباح عندها أن تتصل المرأة بغير زوجها ، وليست إباحة ذلك فعلا بمانعتها أن تنكرها وتبرأ منها فى حياتها الاجتماعية

ونحسب أن المنعة فى العشق أو الاستعصام فى العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية ، بل مصلحة « فزيولوجية » كما نستطيع أن نسميها فى العصر الحديث ، وليست بمصلحة اجتماعية فى القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شىء غيره على اتباعه

فإذا كانت آداب العشق هى الآداب التى تكشف الفضائل النوعية فى العاشقين معاً فالاستعصام لازم فيها والتجمل بالعفة ضرورة من ضروراتها ، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يرشح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار

وإذا قال اليوم بعض الثراثرة المتعجلين إن العقائد القديمة هى التى كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتيان والفتيات ، وإنهم خلقاء أن يحمدوا الإباحة متى تحرروا من ربقة العقائد القديمة ، فهؤلاء الثراثرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون .

إن الفتى والفتاة يجب أن يستعصما ولو لم يؤمنا بدين من الأديان الكتابية أو غير الكتابية ، لأنهما فى دور العشق يعرضان

فضائل النوع فيهما ، وليس من فضائل النوع أن ينساق الفتى أو الفتاة لأول غواية ، وأن تكون الشهوة هى كل ما يصبي الواحد منهما من زميله

فالطبيعة والدين معاً يدعوان إلى العصمة بين العاشقين وينكران التدفع إلى الشهوات فى غير مساك ولا ممانعة ، وخليق أن يتأكد ذلك فى القبيلة البدوية التى تهمها المنعة وتجاور كعبة الدين وتجرى على سنة الطبيعة ، فلا يضعف فيها ذلك التوكيد إلا العارض يوهى الحوزة ويبيح المحظور ، أو على انحراف يغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه

فما اشتد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض ما توجبه السنن الطبيعية

وما جاء فى سيرة جميل وبثينة خلافاً لذلك العرف أو وفاقاً له فمعقول كذلك فى خلافه ووفاقه ، لأن مخالفة العرف شيء يقع ولا يمتنع ، وشيء له أسباب فى الحياة الفردية كالأسباب التى أوجبت العرف فى الحياة الاجتماعية

وقد أجملنا الإشارة إلى هذه الأسباب وتلك الأسباب ، فخلص لنا منهما أن جميلا وبثينة عاشقان طبيعيان ، وأن ما جرى بينهما وروى عنهما لا يناقض ما يكون ولا ما كان ، ولن يوجدا على غير ما وصفا ، حيث وجدا فى تلك البيئة وفى ذلك الزمان .

أحسن الغزل

كان العرف الشائع بين نقاد الغزل فى الشعر العربى إلى عهد قريب أن أحسن الغزل هو ما حسن فيه وصف المحبوب وأربى على الغاية فى إسباغ المحاسن عليه . فمن جعل محبوبه عصمة فى الجمال لا يمسه نقص ولا يلحق به عيب فهو أغزل ممن وصفه فظهر من وصفه إياه أنه معيب فى بعض نواحى خلقه وخلقه ، ومن قال إن محبوبه كالشمس أغزل ممن قال فيه إنه كالبدر أو كوكب من كواكب الليل التى لا تبلغ مبلغ البدر والشمس فى الإشراق والجمال

وهذا كما يرى من النظر تيسير خلط ذريع بين أمور كثيرة : خلط بين الاستحسان والعشق وهما مختلفان

لأن الاستحسان قد يأتى من العاشق وغير العاشق ، ولا يلزم من عشق الرجل امرأة من النساء أنها فى نظره أجمل من كل امرأة رآها . فربما عرف عيوبها وعرف محاسن غيرها فأحبها بعيوبها ولم يحبب صاحبة المحاسن المفضلة فى عينيه

وخلط بين هوى الشخصية وهوى الصفات . فمن شروط العشق الأول أنه يميز للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات

التى يراها . فهو يحل « المشخصات » لفرد من أفراد الجنس فى محل أعلى وأرفع من الصفات التى تعم بحسنها كل من اتصف بها ، ويرجع هذا التمييز إلى أسباب كثيرة لا تقتصر على استحسان الجمال : منها تقارب العواطف ، ومنها المصادفة التى تجمع بين العاشقين فى أحوال مهيأة للتعلق والالتفات ثم للألفة والهيام ، ومنها إحساس النقص فى العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق ، ومنها قدرة المعشوق على إعزاز مكانته فى قلب العاشق وإن لم تكن له فتنة جمال

ثم هو خلط بين خصائص المعشوق وخصائص العاشق ...

فالجمال شيء يخص المعشوق ويدل عليه . ولا يلزم من تفوق المعشوق فى الصفات المحبوبة أن يتفوق العاشق فى الصفات المحبة وأن يكون كلامه مثلا لكلام المحبين

فمن المحقق إذن أن أحسن الغزل ليس هو أحسن الثناء على المحبوب ، وقد يكون غزلا جيداً — أو شعراً غرامياً جيداً — وفيه هجو وإقذاع

ثم ينبغى أن نذكر هنا أن العشق اضطرار وليس باختيار ، فالعاشق لا يلازم معشوقه لأنه يختار ملازمته بل لأنه لا يستطيع فراقه ولو أساء إليه . فإذا رأى منه السيئات وبقى على عشقه فذلك أدل على قوة العشق من البقاء مع الاستحسان والاختيار .

إذ لا فضل ولا قوة عشق لمن يبقى على الشيء لأنه مستحسن لديه ، وقد يكون فضل العاشق وقوة عشقه فى عرفانه السيئات والسخط عليها ثم حبها مع هذا وذاك . فيكون هجاؤه أحياناً أدل على عشقه من ثنائه ، لأنه العشق الذى يغلبه على ما يريد

فالمدرسة التى تجعل الثناء والاستحسان مقياس الإجادة فى الغزل تجهل الغزل الجيد وتخلط بين جميع تلك الأمور

* * *

وهناك مدرسة أخرى تجعل « الرقة » والمبالغة فيها مقياساً للغزل والمتغزلين

فالذى يجعل قلبه موطئاً لقدم محبوبه أغزل ممن يجعل خده — ليس إلا — موطئاً لقدمه

والذى يبكى الليل والنهار أغزل ممن يبكى الليل ويكفكف دمعه بالنهار

والذى يتذلل ويتضرع أغزل من الذى يثور ويتبرم ، والذى يشبه المرأة فى كلامه معها هو على مذهبهم أصلح الرجال لعشق النساء !

وهذا الرأى من سخف الضعف والاضمحلال الذى ابتلى به الشرقيون فى زمن من الأزمان

فالعشق أقوى غريزة تختلج بها البنية الإنسانية ، وهو لم

يخلق للذة العاشقين ونعيمهما حتى يكون كل ما فيه ليناً ونعمة ورقة ، ولكنه خلق لبقاء النوع واستدامة الحياة ، فربما ذهب العاشقان معاً ضحية له فى بعض الأحيان ، وربما غلب فيه الجماح والسورة فطغى جانب الغضب على جانب الرضى ، وجارت القسوة على الرقة ، وظهر المحبان فى مظهر أشبه بصراع الأعداء منه بملاطفة الأودّاء ، لأن كليهما مسوق مغلول ضعيف الحيلة فى النجاء

وإنما نعرف أحسن الغزل حين نعرف مبعث الغزل من طبيعة الأحياء

فالغزل قبل كل شىء خاصة من خواص الذكور فى الإنسان وفى جميع الأحياء

لأن الذكور هى التى تبتدئ الغزل وتتعارك فى طلب الإناث ، وكل ما تصنعه الأنثى من دور طبيعى فى الغزل أن تتعرض له وتلبيه وتستجيب إليه

ومتى بلغ الذكر سن التغزل فآية ذلك أن يغلظ صوته ويخشوشن وتشتد فيه دوافع السطوة والطراد

فالصفات التى تجعل الغزل صالحاً للإصغاء إليه والوقوع فى موقعه هى الصفات التى تجعل الرجولة صالحة لما تستبق إليه ، وهى صفات ليس فيها تأنث ولا ضراعة ولا خفوت

وقد عرضنا لهذا البحث فى مقال من مقالات كتابنا « الفصول » وعقبنا على رأى دارون فقلنا إنه تلمس « علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول إلى مصدرها وقال فى كتابه أصل الإنسان : « لو سأل سائل ما بال بعض الألحان والأوزان يرتاح إليه الإنسان وأنواع من الحيوان ؟ لما كان فى وسعنا أن نجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشمومات »

ثم قلنا إننا « إذا تلمسنا علة الطرب أولا من جهة التأثر بقوة الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلا قريباً وأمكننا أن نجيب من يسألنا : لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجافاً وتمويداً وأكثرها تنوعاً وتجويداً ؟ فنقول له : لأنه ترجمان العاطفة الشديدة والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة ، ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظاً فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقاً قوياً عارماً ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة وأبلغهم إلى نفسها كلاماً وأغلبهم على طبعها سلطاناً . . . »

واستطردنا من ذلك إلى أن « العشق فى طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة ، وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره ، ويلتهب شوقاً إلى وقوده ، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم

بهناءة نفسه ويغتبط بالراحة من سورة طبعه ، وإن لم يصب وقوداً كان نقمة لا تطاق . وأى رقة فى قول المجنون :

كأن فؤادى فى مخالب طائر
إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علىّ فما تزداد طولا ولا عرضا

« إن قلب السامع لينقبض ، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف ، ومع هذا أى شعر أبرع من هذا الشعر وأى شاعر أطبع وأعشق من المجنون ؟

« وليس العشق الصادق حين يشب أواره وتتأزم حلقاته بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ويستريح إلى مناجاتها . كلا وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها . ويقوم فى نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو الغالب وهو المغلوب ، وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ويغوث من ركوب هذا النزاع : نزاع الحيرة التى يقول فيها المجنون :

فوالله ما فى القرب لى منك راحة
ولا البعد يسليني ولا أنا صابر

والله ما أدرى بأية حيلــة
وأى مرام أو خطار أخاطر

« وكان كاتيولّس[1] الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلا :
أيتها الآلهة ، إن كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية ، فبحق براءتى عليك إلا ما نظرت إلى عذابى ، ورثيت لما بى ، ومسحت عنى هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى فنفت الهناءة عن قلبى »

وهى رعدة عروة التى يقول فيها :

وإنى لتعرونى لذاكرك رعــدة
لها بين جلدى والعظام دبيــب

ووهلة المجنون التى يصفها بقوله :

دعا باسم ليلى غيرها فــكأنما
أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فإن طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك وإلا حنق عليها ، وذهب

---

(١) Catullus شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق فى اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة و جميل وكثير عندنا .

به الحب إلى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذى حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه ، فيحب ويكره فى آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس منه أن يشفيه ، كما قال جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأساً ثم يسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

« وكان كاتيولس يقول : « إنى لا أكره وأحب . تسألنى كيف ذلك ؟ من يدرى ! ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه . »

وكذلك كان يقول المجنون :

فيا رب إذ صيرت ليلى هى المنى
فزنى بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلىّ وأهلها
فإنى بليلى قد لقيت الدواهيا

« وليس فى نعت الحب بالداهية شىء من الرقة والدماثة ، ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ، أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن . ولكنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة — بل اتفق عليها كل شاعر عالج من العشق ما عالجه هذان الشاعران

« وأحياناً يثوب العاشق إلى نفسه فيبدو له كأنه مختار فى شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعنى غيره ، فإن شاء سدر فى الحب وإن شاء صدف ، وإن شاء مضى مع قلبه وإن شاء وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وإن الأمر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذى يصفه جميل إذ يقول :

ألا قاتل الله الهـــوى كيف قادنى
كما قيد مغلول اليدين أســـير

« وهنا يخيل إليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الإنسان تقهره على مشيئته ، وأن رقية من رقى السحر أو طائفاً من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما خيل إلى ذلك الشاعر الرومانى حين قال : أيتها الساحرة . . . لئن جملتك طلاسمك فى عينى لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الإجلال ، وإنى لأهواك ولست بعد إلا محتقراً لك ، وإن عد هذا ضرباً من الخبال »

وكما يقول المجنون :

هى السحر إلا أن للسحر رقية   وإنى لا ألقى لها الدهر راقيا

أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يجن بذكرها
فأقسم ما بى من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر إلا ما به ، وإلا فهل للعشق وصف أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ؟ هل هو إلا جنون يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الأهواء ، فإن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته ؟ ألا يعرف العاشق ما يوبقه ولكنه لا يحيد عنه ؟ ويبصر ما يشفيه وهو يأبى أن يذوقه ؟

« ... ومن محاسن جميل وإخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم فى الإعراب عن النفس والبث بالعاطفة . انظر إلى قوله :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها
يلذان فى الدنيا ويغتبطان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

« فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى أين هى ، فيحسب أنه هو الشقى وحده وأن العشاق كلهم سعداء ، والحقيقة أن العشق لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمجان . . . »

* * *

وأول ما يستخلص من هذه المشاهدات وهذه الحقائق أن الغزل الحسن شيء لا يشترط فيه استحسان شمائل المحبوب والمبالغة فى إطرائها ، وأنه كذلك شيء لا يشترط فيه الترفق والشكوى وضراعة الخطاب ، وإنما هو التعبير الصادق عن الحب كما خلقه الله فى نفوس الأحياء ، وهو بهذه المثابة شيء أعظم من حياة الإنسان نفسه لأنه يتناول الغرائز النوعية كلها والطبائع الكونية كلها ، ولا يقتصر على فرد من الأفراد فى حالة من الحالات . فهو كالبحر اللجىّ الذى تتيه فيه العقول ويتسع للنقائض ويعج بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء

هو ظفر حيوى لأنه استيلاء شخصية على شخصية أخرى تنضوى إليها وتفتح لها أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها ، فهو إذن غبطة وفرح وانتشاء

وهو تضحية لأنه مطلب نوعى تهمل فيه منافع الفرد ولذاته

وأمانيه ، فهو إذن يأس وشدة وبلاء

وهو لذة لأن الطبيعة تحتال على الفرد أحياناً لتوقعه فى حبائلها فتريه لذته فيما تقوده إليه من أغراضها ، فهو إذن نعيم وطرب وترنيم

وهو حسرة لأنه يربط مسرات الدنيا كلها بمخلوق واحد لا ينوب عنه مخلوق آخر ، فهو إذن نعمة مهددة بالضياع والقلق فى كل حين

وهو عراك ووئام وظفر وتسليم ، واختيار وإكراه ، وعزة وذل ، وقسوة ورحمة ، وخشونة ولين

وهو كما خلق فى الغرائز جارف عنيف ، وكما تعهدته الحضارة مهذب مصقول ، ولا يزال بين الغريزة والصقل قابلا للوثبة المفاجئة من النقيض إلى النقيض ، لا ينقاد للعنان مرة إلا جذبه مرة أو مرات فكأنه منطلق بغير عنان

مثل هذا العيلم الزاخر من الحياة النوعية والحياة الفردية حمق أسخف الحمق أن يحصره المتبطلون من مصطنعى النقد فى قالب واحد أو هيئة واحدة أو لون لا يتبدل ، فمن حصره هذا الحصر وسامه هذا السوم فأقل ما يقال فيه إنه يلغوا بما لا يدريه

ونحن لا يفوتنا أن نستحضر هذه الحقيقة إلا فاتنا أن نحكم

الحكم الصحيح على كل غزل وكل عاطفة غزلية ، وكل علاقة إنسانية تستند إلى طبائع الأحياء

فجميل — مثلا — أبطل المبطلين فى عشقه وغزله عند مدرسة « الاستحسان » أو مدرسة الرقة حين قال :

رمى الله فى عينى بثينـــة بالقـــذى
وفى الغر من أنيابهـــا بالقـــوادح

لأنه سأل الله تشويه ما هو حسن فى عينى حبيبته وثغرها وهما أجمل ما يتمنى له الجمال فى وجه محبوب ، ولأنه تجافى الرقة كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ الذى يدعو به العدو على ألد أعدائه

ولكن هذا البيت مع هذا أدل على عشق جميل من عشر قصائد غزلية تفيض بالرقة والثناء، لأنه دليل على حب برح به وحار فى الخلاص منه وغلب على مشيئته فيه ، وظن أن البلاء كله من جمال تلك العيون وجمال تلك الثنايا ؛ فلم يبق له من حيلة إلا أن يسأل الله إتلاف هذا الجمال عسى أن يطيق بعد ذلك سلوه والراحة من بلواه . أما قبل ذلك فلا حيلة له ولا طاقة بالسلو والنسيان

هذا أعمق الحب وأصدق الغزل ، ولك أن تقول إنه غزل

صادق من رجل سيئ ، أو أنه غزل صادق من رجل طيب فى سورة البأس والحيرة ، فهذا حق لا غبار عليه . . أما أن يكون مبطلا فى عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية ، فذلك من اللغو الذى لا صدق فيه

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه « الأنانية » ويلتمس الراحة بما استطاع من وسيلة ولو كان فيها بلاء لمن يهواه ، إلا أنك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية لأنه أحب وضاق ذرعاً بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق بالمعشوق والعجز عن الفكاك من إرهاقه ، فهى إن شئت « أنانية » ذميمة صادقة عنه . وهذا هو المرجع فى قياس الشعر وتحقيق العاطفة ؛ ولا مرجع سواه

وفى شعر جميل ما ينم على الأنانية لا مراء ، كقوله فى الرائية المشهورة :

فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها
ودامت لنا الدنيا إلى ملتـــقى الحشر

فهو يتمنى البقاء معها إلى ملتقى الحشر ، ولكنه يأبى عليها الحياة بعده ويسأل الله أن يموتا معاً إذا قضى الله أن يعجل بموته

ولكنها « أنانية » لا تخص جميلا بين العشاق فيما نراه ، فما من عاشق يسره أن يتخيل معشوقته وقد نعمت بعده بحب غيره ، وما فى هذه الأمنية من دليل على قلة الحب وكراهة المحبوب ، بل فيها دلائل على فرط الحب والاستغراق فيه ، ونحسب أن بثينة أرضاها هذا من دعائه فوق ما كان يرضيها دعاء السلامة لها والنعمة فى هوى العشاق بعده ، لأنها تحس ببداهة الأنوثة أنه يسر ببقائها ونعمتها بعد موته لأنه قليل الغيرة عليها فى الحياة وبعد الممات

وللشعراء العشاق من مدرسة جميل فلتات مستغربة من هذا القبيل ، أو لعلها أغرب جداً فى هذا الباب من فلتات جميل ، ولا سيما الفلتات التى أحصوها على تلميذه الأكبر كثير بن عبد الرحمن .

فقد أصبح كثير أضحوكة الأضاحيك بين الشعراء والنقاد ، لأنه قال :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبـــة
بعيران نرعى فى الخلاء ونَعذِب[1]

---

(١) المذوب من الدواب : القائم الذى يرفع رأسه ولا يأكل أو يشرب .

كلانا به عرٌّ فمن يرنا يقل
على حسنها جربى تعدّى وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله
علينا فما ننفك نرمى ونضرب
وددت وبيت الله أنك بكرة
هجان وإنى مصعب ثم نهرب[1]
نكون بعيرىْ ذى غنى فيضيفنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

وعيّره نظراءه حين شاعت هذه الأبيات فقالوا له :

« ويلك ! تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك قول الأول « معاداة عاقل خير من مودة أحمق ! »

وصدقوا والله ما من أمنية هى أدعى إلى الضحك والسخرية من هذه الأمنية التى سألها كثير . ولكن من قال إن كثيراً لم يكن مضحكاً وسخرة حتى يستغرب منه أن يتمنى هذه الأمنية ، وأن ينظمها فى تلك الأبيات وهو صادق التعبير ؟

فقد وصفه بعضهم فقال : « رأيته فى الطواف فمن قال لك إنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه ! » ووصف بعض عشرائه

---

(١) البكرة من الإبل الصغيرة والمصعب الفحل الذى يراح من الركوب

حماقته فقال : « إن كثير لقيه فسأله : ماذا يقول الناس عنى ؟ فأجابه : إنهم يزعمونك المسيخ الدجال . . . قال كثير : عجباً . والله إنى لأحس فى عينى بعض الضعف منذ اليوم !

فمثل هذا الرجل يستغرب منه إذا غلبته العاطفة أن يعبر عن نفسه فلا تفلت منه أمثال تلك الأبيات ، فهذا موضع الغرابة وليس موضعه أنه يصدق فى التعبير عن ذات نفسه كما صدق فى التعبير عما تمناه .

عاشق زرى المنظر مستحمق العقل ضعيف الحيلة يزاحمه الناس على محبوبته ويخشى أن يغلبه كل مزاحم عليها لأنه أجمل منه منظراً وأقدر على الإغواء والإغراء ، ثم تنغصه الوساوس وينظر فى وسيلة يأمن بها على صاحبته فيتركها الناس له ، ويتركونه لها ، فلا يجد من وسيلة قط غير ابتلاء عزة بالبلاء الذى يزهد الناس فيها ويقصرها على حبه وولائه دون غيره ، فيبتعد الناس عن عزة وتبتعد هى عنهم ضرورة لا محيد لها ولا لهم عنها . أما أن يبعدهم هو أو يبعدها فقد علم أنه لا يستطيع ولا يملك من فتنة ولا حيلة تعينه على ما يريد . فماذا هو صانع ؟ أيتركها ؟ إنه لا يقوى على تركها . . . أيحميها ؟ إنه لا يقوى على حمايتها . فلا عجب إذن أن يخطر له ذلك الخاطر ، وأن يتمنى الشىء الوحيد الذى يصون له محبوبته بمأمن من الغواة

والمزاحمين ، وهو ما تمناه وصدق فى تمنيه

ويخيل إلينا أن كثيراً قد رأى البعيرين الموصوفين رؤية العيان لأنه منظر لا يندر أن يصادفه الناظر مرات حيث عاش كثير ، فوقع له أن هذين البعيرين سعيدان حيث يسرحان ولا يطلبهما مالك ولا راع ، ولا هما سائلان عن علف وشراب . فتمنى السعادة على هذا المنوال ، وشهدها بالعين قبل أن يتمناها فى الخيال

أتقول إنه سخيف ؟ نعم هو سخيف لا مراء ، ولكنه محب يصدق فى التعبير عن حبه ويدل عليه دلالة لا اصطناع فيها فلا محل للخلط إذن بين سخف القائل وصدق ما قال ، ولا محل كذلك لاتهام عاطفته بما كان من رداءة تمنيه ، لأنه أحب فنغصه الحب وحيل بينه وبين التماس الراحة من غير هذه الطريق

وها نحن أولاء قد رأينا عشاقاً يتمنون الموت لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون التشويه لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون الخلاص ممن يحبون ، ورأينا أنهم أحبوا وصدقوا التعبير عن الحب وأن عيبت عليهم الأثرة أو الغفلة أو الجفاء ، فلا غرابة إذن فى شعر غرامى تعوزه الضراعة والشكاية أو يعوزه الثناء والاستحسان ، ولا شرط للغزل الصادق إلا التعبير عن الشعور الذى يختلج فى قلب صاحبه كائناً ما كان الرأى فيه وفى خلقه وعقله وأمانيه

مكانته فى الصناعة الشعرية

نشأ جميل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره ، وتخرج فى مدرسة الشعر كأحسن ما يتخرج الشاعر بالحجاز فى القرن الأول للهجرة ، فكان كما جاء فى كتاب الأغانى « راوية هدبة بن خشرم ، وكان هدبة شاعراً وراوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه » فاجتمعت له الرواية والشعر مسلسلة من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواة والشعراء .

وكان بعض المشهورين بعلم الشعر فى زمنه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية .

فروى عن نصيب الشاعر أنه قال : قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقيل لى : الوليد بن سعيد بن أبى سفيان الأسلمى ، فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر . فإنّا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المنكبين ، طُوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة . فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جبير : هذا جميل ؛ فادعه لعله أن ينشدنا . فصاح به عبد الرحمن : هيا جميلُ هيا جميلُ ! فالتفت فقال : من هذا ! فقال : أنا

عبد الرحمن بن أزهر . فقال : قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك . فأتاه فقال له : أنشدنا . فأنشدهم :

« نحن منعنا يوم أوّل[١] نساءنا » إلى آخر الأبيات . . .

ثم قال له : أنشدنا هزجاً . فسأل : وما الهزج؟ لعله هذا القصير ! قال : نعم . فأنشده :

رسم دار وقفت فى طلله   كدت أقضى الحياة من جلله

حتى فرغ من القصيدة ، ثم اقتاد راحلته مولّيا

« فقال ابن الأزهر : هذا أشعر أهل الإسلام . فقال ابن حسان : نعم والله ، وأشعر أهل الجاهلية . والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه . فقال عبد الرحمن بن الأزهر : صدقت ! »

ثم قال نُصيب : « وأنشدت الوليد فقال لى : أنت أشعر أهل جلدتك ، والله ما زاد عليها »

ذلك رأى المتأدبين المشهود لهم بعلم الشعر فى عصره ، ولعلّهم غلّبوا فيه النظر إلى العشق والنسيب على النظر إلى فنون الشعر كله ، فى هذا ولا ريب مجال لمن يشاء أن يقدّم جميلا على شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام إلى زمانه . إذ ليس فى

---

(١) واد على طريق اليمامة إلى مكة .

الجاهلية من اشتهر بالعشق والنسيب خاصة كما اشتهر بعض الشعراء فى القرن الأول للهجرة ، وليس فى شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جميل فى أغراضه ومعانيه . فإذا قال القائل على هذا الاعتبار : إن جميلا أشعر أهل الإسلام والجاهلية ، فليس فى قوله غلو كبير ، وإن جاز فيه الخلاف .

ومع تعدد الآراء فى هذا يمكن الاتفاق على أن جميلا كان ملحوظ المكانة بين شعراء زمانه وكان معترفاً له بالإجادة والأستاذية إلى ما بعد زمانه ، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله .

لقى الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط – بالمدينة – فقال له الفرزدق : يا أبا صخر ! أنت أنسب العرب حين تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لى ليلى بكل سبيل

يعرض له بسرقته من جميل حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى على كل مرقب

فأجابه كثير : وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وهذا البيت أيضاً مسروق من قول جميل :

نسير أمام الناس والناس خلفنا
فإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وهذان شاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما بينهما بالاقتباس من معانى جميل ، وهو اقتباس لا يخلو من شهادة وإكبار ودلالة على مكانة ملحوظة بين الشعراء .

وقد بقيت له هذه المكانة إلى ما بعد عصره عند أناس من شعراء العصر العباسى فى طبقة الفرزدق وكثير . فروى أن ابن الحسين المهلّبي لقى أبا العتاهية فاستنشده من شعره فأنشده :

يا صاحب الروح ذى الأنفاس فى البدن
بين النهار وبين الليل مرتهن

لقلما يتخطاك اختلافهما حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبنى يد الدنيا بقوتها إلى المنايا وإن نازعتها رسنى [١]
لله دنيا أناس دائبين لها قد أرتعوا فى رياض الغَىّ والفتن
كسائمات [٢] رواع تبتغى سمنا وحتفها لو درت فى ذلك السمن

---

(١) الرسن : حبل فى رأس الدابة.

(٢) السائمة : الماشية والإبل الراعية .

قال ابن الحسين المهلّبي : فكتبتها ثم استنشدته من شعره فى الغزل فقال : يا ابن أخى ! إن الغزل يسرع إلى مثلك ، فقلت له : أرجو عصمة الله جل وعز ، فأنشدنى :

كأنها من حسنها درة ... أخرجها اليمُّ إلى الساحل
كأنّ فى فيها وفى طرفها ... سواحراً أقبلن من بابل
لم يبق منى حبها ما خلا ... حُشاشة فى بدن ناحل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى ... من شدة الوجد على القاتل

فقلت له : يا أبا إسحاق ! هذا قول صاحبنا جميل :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فقال : هو ذاك يا ابن أخى ، وتبسم !

وأقل ما يدل عليه هذا وأشباهه أن شعر جميل كان يقرأ ويستحسن ويقتدى به فى معناه ، وأنه ينال هذا الاستحسان عند فحول الشعراء فضلا عن الشُّداة المبتدئين ، وهذه مكانة « الأستاذية » لا مراء .

وقد يزكى هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس عرفوا بالخيلاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظراء ، ومنهم من كان يستحمق لفرط خيلائه كالشاعر العاشق كثير ، وهو أحرى الناس بمنافسة جميل .

فمن خيلائه أن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ونصيباً اجتمعوا فى مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه إليهم ، فأكبر الأمر وسأل صاحبه متبرماً : أما كان عندك من المعرفة بى ما كان يردعك عن إتيانى بمثل هذا ؟ . . قل لابن أبى ربيعة إن كنت قرشياً فإنى قرشى ، وإن كنت شاعراً فأنا أشعر منك . . . قال راويته : هذا إذا كان الحكم إليك . فقال : وإلى من هو ؟ ومن أولى به منى ؟ . . ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه ، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه فى خيمة فوجدوه جالساً على جلد كبش ، فما أوسع لهم من مجلسه !

فهذا الشاعر على خيلائه كان لا ينى قائماً قاعداً بالشهادة لجميل وتفضيله على نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتتلمذ عليه .

سأله نصيب : أجميل أنسب أم أنت ؟ فقال : وهل وطأ لنا النسيب إلا جميل ؟

وسئل مرة أخرى فقال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه ؟

وربما نقلوا عن كثير فى صدد إعجابه بجميل ما نستبعد صدقه سواء قاله أو لم يقله . كزعمهم أنه ذكر يوماً أنه يروى لجميل ثلاثين قصيدة لا يعرفها الناس وأنه أمات له ألف قافية

لينتحلها ويدعيها لنفسه . فإن ميدان جميل لا يتسع لألف قافية تسرق . ولا لثلاثين قصيدة تسقط من جملة شعره وهو محدود الأغراض متشابه الأنماط . وإنما يفهم من هذا الكلام إن صدر من كُثير أن فخره بالرواية عن جميل أكبر من فخره بشعره الذى يُنسب إليه ، ولولا مكانة جميل عنده وعند الناس لما وقع فى خاطره وجرى على لسانه هذا الفخار .

* * *

ولا نحسب أن أحداً ناظر جميلا على قصد منه — أو على غير قصد — كما ناظره عمر بن أبى ربيعة الذى كان كثير يستطيل عليه .

فقد كانت المناظرة بينهما طرائق متعددات لا طريقة واحدة ، فكان كلاهما شاعراً وكلاهما مشهوراً بالنسيب وكلاهما إماماً لأمثاله من المتغزلين . فكان جميل فى عصره إمام العشاق المقصورين على معشوقة واحدة ، وكان عمر بن أبى ربيعة فى عصره أمام المشغوفين بمغازلة النساء، وكانا فوق هذا التقابل فى شتّى الطرائق متقابلين فى تمثيل البداوة والحضارة . وفى عزة النسب وعراقة الأصول . فهما متناظران يقترنان فى الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان ، وقد تلاقيا وتناشدا وقيل إن جميلا سمع منه اللامية التى فيها :

جرى ناصح بالود بينى وبينهـــا
فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى

فقال : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثل هذا سجيس[1] الليالى، وما خاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام مشمراً

ونميل نحن إلى قبول هذه الرواية لأن الشاعرين قد تشابها فى معان هى أقرب إلى نمط ابن أبى ربيعة منها إلى نمط جميل
فقال جميل :

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وقال عمر :

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها
ليذهب عن رجلى الخدور فيذهب

وقال أيضاً :

أهيم بها فى كل ممسى ومصبح
وأكثر دعواها إذا خدرت رجلى

---

(١) طوال الليالى

وهو من القصيدة التى سمعها جميل وشهد من أجلها لعمر بالسبق فى مخاطبة النساء ، والبيت أقرب إلى كلام الذين تعودوا محادثة النساء منه إلى كلام العاشق المقصور على معشوقة واحدة كذلك قال جميل :

وهما قالتا لو أن جميلا
عرض اليوم نظـــرة فرآنا
بينما ذاك منهمـــا رأيانى
أعمل النص سيره الزفيانا

وهو أشبه بقول عمر وبفعله أيضاً وخلائقه حيث يقول :

بينما يذكرننى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقد قيل إن عمر بن أبى ربيعة أنشد بثينة تلك الأبيات الثلاثة من كلام جميل فقالت : « إنه استملى منك فما أفلح ، وقد قيل : اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم من خلقه »

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها :

---

(١) الزفن : الدفع الشديد والضرب بالقدم كما يفعل الراقص .

أغادٍ أخى من آل سلمى فبكر
أبِنْ لى أغادٍ أنت أم متهجرّ

وهو كمطلع عمر فى قصيدته الرائية التى هى أفضل شعره حيث قال :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر
غداة غد أم رائح فمهجرّ

والقصيدة كلها مما قيل إن جميلا سمعه من شعر عمر فأقر له وأثنى عليه

وفى الديوانين قطعة جيمية رويت لعمر ورويت لجميل منها هذه الأبيات :

قالت وعيش أخى وحرمة والدى
لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تحرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وهو كلام فيه من عبث المجون والمماحكة بين عمر

وصويحباته ، وليس فيه من جد العشق الذى كان بين جميل وبثينة ، ولا هو مما يوافق فخر جميل باقتحام المنازل والمناجزة لمن يترصدون له بالسيوف حول بيت بثينة ، ومنهم أبوها وأخوها كما جاء فى بعض الأخبار ، وتكرر فى سيرته على روايات مختلفات

فالذى نرجحه أن جميلا كان يحب أن يحكى عمر فى بعض ما قال ، ولكننا لا نرجح هذا الترجيح لنخلص منه إلى تقديم عمر على جميل فى الصناعة الشعرية ، فهما فيها متكافئان يختلفان حيثما اختلفا فى المزاج والخليقة ولا يدعو ذلك إلى تفضيل أحدهما على الآخر فى صناعة النظم والتعبير ، وإنما نحمل اقتباس جميل من عمر على اقتداء البدوى بأهل الحضارة حيثما كان وكانوا ، ولا سيما إذا كان الحضرى شاعراً مقبول الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها ، وهم أهل الطبقة التى تروع من البدو خاصة من كان قريباً إلى معيشة المدن غير منقطع لخشونة البادية ، على مثال جميل

* * *

فهما إذن فى الشعر ندان متكافئان ، جميل وعمر بن أبى ربيعة . وقد خرجا معاً بالغزل كله من ناحيتيه فى القرن الأول

للهجرة بأرض الحجاز بين حاضرة وبادية ، فلو زال شعر الغزل فى تلك البيئة وفى ذلك العصر جميعاً فلم يبق منه إلا ما نظم هذان الشاعران لأغنانا عن كل ما عداه فى الدلالة على حالة المرأة وحالة النساء كما ينعتها العاشق وزير النساء

وقد يبدو على شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر أنه أفحل وأجزل وأبلغ فى الصناعة الشعرية وأجمل ، وذلك فيما يبدو لنا التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمحيص . فمن المألوف أن يظهر الجد فى شعر العاشق الذى ينسب بامرأة واحدة ويعيرها كل قلبه وهواه ولا يظهر مثل هذا الجد فى شعر الرجل الذى يقضى زمانه كله فى التحدث إلى النساء والتنقل بينهن ، وقلّ أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأنث ولو لم يكن مطبوعاً عليه ، فيسرى التأنث إلى كلامه وتتوارى منه قوة الفحولة التى تقترن بالجد حيث كان

ومع هذا لم يسلم جميل ممن يأخذ عليه التأنث فى نصف بيت هو قوله :

ألا أيها النُّوام ويحكموا هبوا
أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فالشطر الأول كما قال صالح بن حسان « أعرابى فى

شملة » والشطر الثانى « مخنث يتفكك من مخنثى العقيق ! »

ولكن نصف بيت أو مئات من الأبيات ليس فيها أعرابى واحد فى شملة ، ومعظم أبياتها هوادج تسفر عن حسان مدللات وأخدان حسان مدللات ! وذلك ديوان ابن ربيعة فى جملته على التحقيق .

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسيب جميل ، فهو عندهم إمام الشعراء لأنه إمام المحبين ، وقد سئل عنه نُصيب فقال : ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله عز وجل لما ترى إلا بجميل ؟

وجائزٌ أن يكون صدق الحب سبباً من أسباب جودة الشعر الذى يعبر عنه ، ولكن صدق الحب وجودة التعبير يظلان بعد هذا شيئين مختلفين ، فيصدق المحب ولا يجيد الشعر ، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك المحب الصادق فى وجده وشوقه ووفائه . . . إن أحدهما لسبب للآخر ونعنى الحب والتعبير ، ولكنهما قد يفترقان كما يتفقان .

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شىء واحد ، وإن لم يكن من الضرورى أن تتناقض هذه الأشياء .

فالذين قالوا إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية لأنه أصدق

المحبين يخطئون ، إذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب فى زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلا عمن هجا ومدح كما أراد بعض النقاد فى زمانه أن يقول .

وحقيقة الرأى الذى يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعراً يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويرتقى فى الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره ، وهم على الإجمال فطريون فى هذه الصناعة لهم مزايا الفطرة وعيوبها فى آن ، ولا سيما العيوب التى لها اتصال بكل صناعة من الصناعات .

ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الأداء ، ومن عيوبها النقص والسذاجة وقلة الإتقان . ومن رأينا أن شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جميعاً أوفر الشعراء حظًّا من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء . فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا بهرج فيه ولا التواء، وهم إلى جانب هذا مبتدئون متعثرون فى صوغ الشعر لم يصلوا بالقصيدة ولا بالأغنية إلى مبلغ الإتقان ووحدة المدلول ، ولعلهم لم يبلغوا فى ضرب من الشعر مبلغه من الإتقان غير الرجز ، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج إلى تنسيق وانسجام .

وما زال الإتقان الصناعى يزداد والشعور الفطرى ينقص حتى تناهيا زيادة ونقصاً فى أواخر عهد العباسيين ، فأصبح

الإفراط في الصناعة بهرجاً والإفراط في ضعف الشعور الفطرى تكلفاً واصطناعاً ، وتلاقى هذا وذاك في الغثاثة المزيفة التى لا هى صناعة جيدة ولا فطرة جيدة ، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة لا خير فيه .

فالشعراء العباسيون مثلا أجود صناعة من الشعراء الأمويين والمخضرمين ، وأنأى منهم عن استقامة الفطرة وبساطة التعبير ، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين والجاهليين فى ضعف الصنعة الذى يأخذ كل منهم بنصيب منه ، حتى شعراء المعلقات .

وشأن جميل فى هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه : يأتى بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط ، ولأنه يملك القدرة الفنية التى يعمد بها إلى المعانى المركبة فتسلس له فإذا هى مجلوة فى ثوب من البساطة يخدع السامع حتى ليحسبه خلواً من كل تركيب .

وقلما تجاوز الأبيات فى القصيدة الواحدة واعتمد الإطالة إلا تعثر والتفت بمن يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير المفرد وضمير الجمع فى نفس واحد . كما قال :

فإن تبيني بلا جرم ولا ترة [1]
وتولعى بى ظلماً أىّ إيلاع

---
(١) ثار .

فقد يرى الله أنى قد أحبكم
حباً أقام جواه بين أضلاعى
لولا الذى أرتجى منه وآمله
لقد أشاع بموتى عندها ناعى

أو كما قال :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها
ولا بد من شكوى حبيب يروّع
ألا تتقين الله فيمن قتلته
فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع

وقد يخطىء فى قواعد اللغة أو يتجوز فى أبيات غير قليلة منها قوله فى قصيدة من أشهر قصائده :

فإن لم تكن « تقطع » قوى الود بيننا
ولم تنس ما أسلفت فى سالف الدهر
فسوف يرى منها اشتياق ولوعة
ببين وغرب من مدامعها يجرى

ومنها قوله :

ولو أن « داع » منك يدعو جنازتى
وكنت على أيدى الرجال حييت

وهو فى هذا وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما من شعراء عصرهما سواء أو متقاربون

* * *

وفى حيز هذه القدرة الفنية يبدع غاية الإبداع الذى يتاح لشاعر قديم أو حديث ، فلا يقول شاعر فى البيت والبيتين أو الأبيات القلائل أبلغ من قوله فى تعذر نسيان الحبيب :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتّها
ولكن طلابيها لما فات من عقلى

أو قوله لمن يقدحن فى صاحبته ليحللن عنده فى محلها :

ولرب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقُول الهازل
فأجبتّها بالرفق بعد تستّر
حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو أن فى قلبى كقدر قلامة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطل
منها فهل لك فى اعتزال الباطل
ولباطلٌ ممن أُحب حديثه
أشهى إلىّ من البغيض الباذل

أو قوله فى حيرته بين حبه لغيرها وحب غيره من المحبين :

سلا كل ذى ود علمت مكانه
وأنت بها حتّى الممات موكّل
فما هكذا أحببت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل

أو قوله فى الفراق :

كأنى سُقيت السم يوم تحملوا
وجدٍّ بهم حاد وحان مسير
على أننى بالبرق من نحو أرضها
إذا قصرت عنه العيون بصير
وإنى إذا ما الريح يوماً تنسَّمت
شآميةً عاد العظام فتــور
ألا يا غراب البين لونك شاحب
وأنت بروعات الفراق جدير
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحت
همومك شتّى والجناح كسير
ودرت بأعداء حبيبك فيهمُ
كما قد ترانى بالحبيب أدور

أو قوله فى تمنى الصلة الدائمة بصاحبته حيًّا وميتاً ثم سخطه على لجاجة الحب بعد هذا :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور إذا ما مت بينى وبينها
فيا حبذا موتى إذا جاورت قبرى
عدمتك من حب ! أما منك راحة
وما بك عنى من توان ولا فتر ؟

ولهذه الأبيات الأخيرة لا نستغرب مبالغته التى تندر فى شعره وشعر أبناء عصره حيث يقول :

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
تعلق روحى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
وليس إذا متنا بمنتقض العهد

ولكنه باق على كل حالة
وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فى هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه، ولكن المبالغة هنا تتسلسل وتتدرج وتنمو على جذورها حتى تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تناقض بين أعلاها وأدناها . فمن قال البيت الأول قال الأبيات التى تليه كما يصعد النفس مطيلا فيه حتى يستوفيه

إلا أن الذى يأباه الذوق والعقل أن تنسب إلى جميل أبيات كهذه الأبيات التى ضمت إلى ديوانه :

خليلى إن قالت بثينة ماله
أتانا بلا وعد ؟ فقولا لها : لها
أتى وهو مشغول لعظم الذى به
ومن بات طول الليل يرعى السها، سها
بثينة تزرى "بالغزالة" فى الضحى
إذا برزت لم تبق يوماً بها بهـا
لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة
كأن أباها الظبى أو أمها مها
دهتنى بود قاتل وهو متلفى
وكم قتلت بالود من ودها دها

فهذا كالانتقال من الشملة العربية إلى ثياب المرافع قبل أن تخلق المرافع بقرون ، ولو جاز أن يقول جميل مثل هذه الأبيات مرة لوجب أن تتكرر نظائرها فى قصائده هنا وهناك ، لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجر لا محالة إلى الإدمان

وقياساً على هذا كله ما جاوز الصدق الفطرى والبلاغة السهلة والجد فى وصف الشعور ، فهو منحول له وليس بالنسج الذى يندس بين لحمته وسداه

إنما الرجل ابن زمانه فى معناه وصناعته ، وله من الإمامة بين شعراء العشق فى ذلك الزمان مكان لم ينازع فيه ، لأن عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم ، وشعره فى جملته يجمع خير ما قالوه

وهنا يحسن بنا أن نقيد « خير ما قالوه » بما قالوه فى النسيب دون غيره ، فالحق أنه لم يأت بطائل فى الهجاء ولو بالقياس إلى معاصريه ، أو لعل الذى نظم فى هذا الباب ورجح به على الشعراء فى رأى نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل إلينا مع سائر شعره ، وهو ظن ضعيف

مزاجان

قدّمنا فى الفصل السابق أن شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر يبدو أنه أفحل وأجزل ، وأنه أبلغ فى الصناعة وأجمل . ثم قلنا إن هذا فيما يبدو لنا « التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمحيص »

ومن الحسن أن نعرض ببعض الوصف والتمييز لمزاج الشاعر الذى تتعلق به هذه الفحولة الفنية . فجملة ما يقال فيه — بسياق هذه المقابلة — أنه كان يحتاج إلى البأس والسيف فى معيشته وعشقه ، فهو بدوى يعيش مع آله فى طريق تحميها الدولة وتكل حمايتها أحياناً إلى سكانها من أهل البادية ، لأنها تتوسط بين الحجاز ومصر والشام . فمن واجبه — إن لم يكن من طبعه — أن يحمل السيف ويعتز بالمنعة وصيانة الحوزة

وهو إلى هذا عاشق مشغوف بامرأة واحدة لا تغنيه عنها امرأة غيرها ، فلابد له منها وإن حيل بينه وبينها ولا غنى له عن المجازفة والتقحم بالقوة فى سبيلها

ولم نسمع من أخبار عمر بن أبى ربيعة أنه احتاج إلى القوة مرة واحدة . بل علمنا من أخباره أكثر من مرة أنه تعرض

لبعض الحسان وألحف عليهن بالتوسل والمطاردة ، فرددنه حتى أعيتهن الحيلة معه ، ثم ظهرن مع رجل من أوليائهن يتقلد السيف فتجاهلن عمر ، ومضى فى طريقه ، وقنع من الغنيمة بالذهاب . ثم تمثل المتمثلون :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى مربض المستأسد الضارى

ولا جرم أن يكون هذا شأن عمر وشأن حبه ، فقد كان من أهل حاضرة يعيش فيها الرجل حياته كلها ولا تلجئه ضرورة يوماً إلى تقلد سلاح ، وهو فى معظم ما يرتاده من صويحباته طالب جلسة ومحادثة إن تيسرت فهى فكاهة ساعة ثم تنقضى إلى نسيان أو تسجلها قصيدة أو قصيدتان ، وإن تعسرت فلا موضع للسيف فى هذا الميدان ، وغير هذه الحسناء كثيرات بين الحسان

أما جميل فكان السيف فخره وفخر آله من قبيلة أبيه أو قبيلة أمه ، ولم يفخر قط إلا تغنى بالنجدة وحماية الحرم ، والنساء . فمن قوله فى هذا المعنى :

نحن منعنا يوم أول نساءنا
ويوم أفى ، والأسنة ترعف[1]

---

(١) تقطر دما

ويوم ركايا[١] ذى الجذاة ووقعة
ببتيان كانت بعض ما قد تسلّفوا[٢]
يحب الغوانى البيض ظل لوائنا
إذا ما أتانا الصارخ المتلهف

ومن قوله فى أخواله جذام :

جُذام سيوف الله فى كل موطن
إذا أزمت يوم اللّقاء أزام[٣]
هموا منعوا ما بين مصر فذى القرى
إلى الشام من حل به حرام

وتواترت الأنباء فى قصة عشقه باقتحامه وقلة مبالاته بأهل عشيقته المترصدين لقتله . وقيل فيما قيل من ذلك إنه استدعاها يوماً وعلم أهلها فتجمعوا لمفاجأته ، ثم جاءه من ينذره وينبئه بنبأ القوم فاستكبر الحرب ، وقال لمنذريه : « والله ما أرهبهم ، وإن فى كنانتى ثلاثين سهماً والله لا أخطأ كل سهم منها رجلا منهم . وهذا سيفى والله ما أنا به رعِش اليد ولا جبان الجنان »

وذكر الهيثم بن عَدِى فيما رواه صاحب الأغانى : « أن

(١) جمع ركية وهى البئر
(٢) ذو الجذاة وبتيان : موضعان
(٣) أزام : أى شدة

جميلا طال مقامه بالشام ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة فى لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها طويلا وأخبرها خبره بعدها . وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب ، وناشدته بثينة الله إلا انصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتنى ، ولعل الحي أن يلحقوك . فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا . فلم تزل تناشده حتى انصرف »

وغير هاتين القصتين كثير يردد ما فيهما من المغامرة والتحدى وقلة المبالاة . وقد تصح هذه القصص جميعاً أو يصح بعضها دون سائرها أو لا تكون فيها قصة واحدة صحيحة . ولكن الحقيقة التى قصدنا إلى بيانها تبقى بعد ذلك قائمة فى مكانها ، وهى أن حب جميل يتطلب مزاجاً فيه الجد والفحولة ولو كان « دور تمثيل » على مسرح من مسارح الفنون ، فلو أننا تركنا الواقع جانباً وتخيلنا أن جميلا وعمر ممثلان فى رواية مسرحية يمثلان ما روى لنا من أخبارهما لما استطعنا أن نخرج جميلا إلى المسرح بغير سيفه ولا وجدنا من حاجة إلى السيف فى دور عمر وصويحباته

فالمزاج هنا حقيقة فنية وإن لم يكن بالحقيقة الطبيعية ،

ولا يبعد أن يكون جميل شجاعاً متقحماً كما جاء فى بعض أنبائه . إلا أنه على ما نعتقد كان مستطيعاً أن « يمثل دوره » فى مسرح الحياة بغير حاجة إلى شجاعة أكثر من الشجاعة الظاهرة التى يتلبس بها الممثل أو تتلبس هى به إلى حين

فقد كان يقتحم ويعلم أنه آمن ، وكان يبقى حيث لا حاجة به إلى البقاء بعد افتضاح الأمر وانطلاق صاحبته ، لأنه لا يخشى العاقبة إذا أدركه المتعقبون . إذ كان أهله أعز من أهل بثينة ، وكان طالبوه يضعفون عن حرب قبيلته ولا يقدرون على الدية إن رضى بها المطالبون بثأره، وهو نفسه قد ذكر ذلك فى بعض قصائده :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى
وهمّوا بقتلى يا بثينُ لقونى

إذا ما رأونى طالعاً من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفونى

يقولون لى أهلا وسهلا ومرحباً
ولو ظفروا بى خالياً قتلونى

وكيف ولا توفى دماؤهم دمى
ولا مالهم ذو ندهة[1] فيدونى

---

(١) الندهة : الكثرة من الماشية

فهو قد كان فى حاجة إلى الاقتحام ، ولكنه كان اقتحاماً سهلا عليه موافقاً لحاله وحال بثينة وأهلها . فاقتحم ما أمن وسلم ، وما كان الخطر من بثينة وأهل بثينة ، فلما تجاوز ذلك إلى الخطر من مطاردة السلطان وإهدار بأمر الوالى الذى يقدر عليه وعلى قبيلته رجع إلى الأناة وهرب إلى اليمن كما قيل

وليس يطلب من جميل ولا من عاشق فى موضعه أن يكافح السلطان بشجاعته وينهض للدولة ببأسه ، فمن الجائز مع هذا أن يكون شجاعاً وأن يترك دياره إلى اليمن إذا لم يكن له بد من زيارة بثينة فيقتل ، أو من معالجة السلو وهو قريب منها فلا يطيق .

إلا أنه لم تكن به حاجة إلى أكثر من الشجاعة التمثيلية فى دوره الحقيقى وفى روايته الواقعة ، وهذه الشجاعة التمثيلية كافية لاصطباغ شعره بصبغة الفحولة التى تظهر فيه ولا تظهر فى شعر ابن أبى ربيعة .

أما إذا أعرضنا عن البحث فى شجاعته لبيان هذا الفارق بينه وبين المتغزلين بالنساء عامة ، واعتمدنا أن نعرفها لنعرفه على حقيقته ونخلص إلى ناحية من نفسه قد تعين على فهمه وفهم عشقه وشعره ، فالذى يلوح لنا أنه كان شجاعاً بين قومه ككل بدوى يشجع فى حمى الجماعة وفى ذمار القبيلة .

فإذا حاربوا حارب ، وإذا اجترأ فإنما يجترئ بقلوب المئات والألوف من ورائه ، ولكنه لا يخلو من رقة تقعد به عن النضال العنيف والمعارك الدامية ، وفى بعض قوله ما يدل على ذلك حيث يقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشةٌ
وكل قتيل عندهن شهيد

أو حيث يقول :

يقولون صبٌّ بالغوانى موكل
وهل ذاكَ من فعل الرجال بديع
وقالوا رعيت اللهو والمال ضائع
فكالناس فيهم صالح ومضيع

فلا هو للجهاد فى غزوة ولا هو للجهاد فى طلب ثروة ، وليس كذلك الرجال الأقوياء الذين يحبون فلا يشغلهم حبهم عن الجهاد حيث تنفتح أمامهم أبواب الجهاد ، بل يكون حبهم مثيراً للعزيمة فيما طبعوا على اعتزامه من طلب المجد أو طلب العلو على الأقران بالمال والجاه ، ويبعد جداً أن يملك الهيام على أحد

أحد من هؤلاء عقله ووقته وهموم عيشه حتى يفرغ له ويعيي بأمره ، ويرضى بالضياع كما رضى جميل .

وفى بعض أوصافه ما ينم على هذه الرقة الضعيفة فيه كما تنم عليها أخباره ودلالات شعره . فكان له مظهر يروع الناظر ، ولكنه كان عرضة للنوبات التى تعتريه فجأة ، وقد تدل على مرض فى القلب والأعصاب ، فذكر بعض أصحابه أنه كان جالساً معه يحدثه « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتى أنكره صاحبه .

فهذه حالة غير سليمة ، ولعله مات بعلة من عللها قبل أن يمعن فى الشيخوخة ، فقد علمنا من شعره أنه عاش حتى شاب ولا تزال بثينة فى سن العشق والجمال ، ثم مات وهى كذلك لا تزال فتية . فكانت وفاته ولا ريب فى كهولة دون الشيخوخة الفانية ، وكانت لعلة من علل الضعف التى لا تدل على بنيان وثيق ، وإن كان هذا لم يمنعه أن يجد فى حب بثينة أقوى الجد فى هذا المقام .

بعض أخباره

قابلنا بين جميل وعمر بن أبى ربيعة فى أكثر من خصلة واحدة من خصال الفن والحياة ، إذ الحقيقة أنهما متقابلان يوشك أن يتناظرا فى جميع الخصال : بداوة وحضارة ، وعكوف على محبوبة واحدة وتشبيب بجميع الحسان ، وعاطفة تغلب فيها الحاسة الإنسانية حيث كانت ، وعاطفة تغلب فيها حاسة الطبقة الاجتماعية التى منها الشاعر ، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكيه .

وإنهما ليتقابلان فى أخبارهما كما يتقابلان فى تلك الخصال التى أشرنا إليها .

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منها إلا بعض التفاصيل ، وأخبار جميل تحتاج إلى الرواة والناقلين ، لأن الذى نظمه منها فى ديوانه قليل الغناء فى باب الأخبار ، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعقيب .

واختلاف العاطفتين يتأدى بنا إلى علة الفارق بينهما فى هذه الخصلة كما يتأدى بنا إلى علل الفوارق بينهما فى جميع الخصال .

فابن أبي ربيعة كان له فى كل يوم خبر وعلاقة ، وكان همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان . فلا عجب فى اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التى هى متعته وهجيراه .

أما جميل فعاطفته خبر واحد ، إن لم ينظم فى الحنين والشكوى فلا نظم عنده ، ولا تأتيه الأخبار التى ينظم فيها إلا حين يطرأ طارئ يغيِّر مجرى تلك الحياة الرتيبة ، كما قال حين خرج عليه أهل بثينة :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوّفوا
وقالوا جميل بات فى الحى عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقّفوا

أو كما قال حين وقف متذكراً على الأطلال :

بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جمله
فتناظرْن ثم قلن لها أكرميه حييت فى نزله

ولا غنى مع شعره عن نتف من أخباره التى تناقلها الرواة ، وهى مما يزكيه شعره ويثبته فى الجملة وإن عرضت له الزيادة والاختراع فى التفصيل ، وعلى هذا النحو هذه النخبة التالية

من أخباره الكثيرة التى توخينا فيها الدلالة عليه ، وتجنبنا التكرار فيما يشبه ما اخترناه .

* * *

« بين نظيرين »

لقى عمر بن أبى ربيعة جميلا فى طريقه إلى الشام فاستنشده من شعره فأسمعه من قوله :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم قال له : أنشدنى أنت يا أبا الخطاب ، فأسمعه قصيدته العينية التى أولها :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ... ببطن حُليّات دوارس بلقعا

فلما بلغ إلى قوله :

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفننى ... وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا[1]
وقرّبن أسباب الهوى لمتيم ... يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعا

---

(١) تعب وأسرع

فصاح جميل واستخذى وقال : ألا إن النسيب أُخذ من هذا ، وما أنشد بعد ذلك حرفاً

فقال له عمر : اذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها . فامتنع جميل واعتذر بإهدار السلطان دمه إن وجدوه عندها ، وأشار له إلى أبياتها . فتقدم عمر حتى وقف على الأبيات وتأنس حتى كلم ، فقال : يا جارية ! أنا عمر بن أبى ربيعة فأعلمى بثينة مكانى ، فخرجت إليه بثينة فى مباذلها وهى تقول : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللائى يزعمن أن قتلهن الوجد بك ، فانكسر عمر ، ونظر فإذا امرأة أدماء طوالة

« بين الأستاذ وتلميذه »

والتقى جميل وكثير فتذاكرا النسيب ، فقال كثير : يا جميل ! أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يقيك جميل كل سوء أماله
لديك حديث أو إليـــك رسول ؟
وقد قلت فى حبي لكم وصبابتى
محاسن شعر ذكـــرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى
نسيم الصبا يا بثن كيف أقول

فما غاب عن عينى خيالك لحظة
ولا زال عنها والخيال يزول

فقال جميل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك :

يقول العدا يا عزَّ قد حال دونكم
شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها والله لو كان دونكم
جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع
ووجهك فى الظلماء للسفر معلم[1]
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى
فلا تنقمى حبى فما فيه منقم

ثم بكيا قطعة من الليل وانصرفا . . .

« جلستها أو لم تجلسها ؟ »

كان أهل بثينة يأتمنون عليها عجوزاً منهم يقال لها أم منظور ، فجاءها جميل يسألها أن تريه بثينة . فقالت : لا والله . لا أفعل وقد ائتمنونى عليها . فتوعدها ليضربنها . . . قالت :

---

(١) السفر : المسافرون ، والمعلم ما يهتدون به من علامات الطريق

المضرة والله فى أن أريكها . فخرج من عندها وهو يقول :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحِجْر يوم جلتها أم منظور
ولا انسلابتها خُرساً جبائرها[١]
إلىّ من ساقط الأرواق مستور

فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فاتهموا أم منظور وهى تقسم لهم فلا يصدقونها !

وقيل فى رواية أخرى إن مصعب بن الزبير أنشد هذان البيتان فقال : لوددت أنى عرفت كيف جلتها ، فأخبروه أن أم منظور هذه حية ، فكتب فى حملها إليه مكرمة ، وسألها عن الجلوة فقالت : ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق — أى الطيب — ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينيه ويلتفت إليها حتى غاب عنا . فأقسم عليها مصعب لتجلون امرأته عائشة بنت طلحة مثل ما جلت بثينة ، ففعلت . وركب مصعب ناقته وأقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه ويسير حتى غاب عنهما . . . ثم رجع

---

(١) الجبائر : الأساور ، والأرواق جمع وروق هو الفسطاط

« يتهمها ولا يُتهم بأَمة »

أشاع أهل بثينة أن جميلا إنما يتبع أمة لهم ، ليدافعوا عنهم الوصمة ويصموه ، فواعد جميل بثينة حتى لقيها ببرقاء ذى ضال وتحادثا ليلا طويلا حتى أسحرا ، فاقترح عليها أن ترقد فقالت : ما شئت ! على أنى خائفة أن نكون قد أصبحنا ، فوسدها جانبه ثم اضطجعا ونامت ، وانسل مستوياً على راحلته ، وأصبحت فى مضجعها فرآها الحى راقدة عند مناخ راحلة جميل ، وفى ذلك يقول :

فمن يك فى حبى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال علىّ شهيد

« لغة واحدة »

قال كثير : لقينى جميل مرة فسألنى : من أين أقبلت ؟
قلت : من عند أبى الحبيبة — أعنى بثينة
فسألنى : وإلى أين تمضى ؟
قلت : إلى الحبيبة — أعنى عزة

فقال : لابد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعداً من بثينة .

فاستجبت أن أرجع وعهدى بها الساعة . وألح قائلا : لابد من ذلك . فسألته : متى عهدك ببثينة ؟ فقال : فى أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم ، فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها . فلما أبصرتنى أنكرتنى فضربت بيديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به ، وعرفتنى الجارية فأعادت الثوب فى الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ، ثم سألتها الموعد فأنبأتنى أن أهلها سائرون ، ولم أجد أحداً آمنه فأرسله إليها

قال كثير : فاقترحت عليه أن آتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها . فوافقنى ، وخرجت حتى أنخت بالقوم ، فسألنى أبوها : ما ردك ؟ قلت : ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك ، وأنشدته وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبى
إليك رسولا والموكل مرسل

بأن تجعلى بينى وبينك موعداً
وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعل

وآخر عهدى منك يوم لقيتــني
بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسل

فضربت بثينة جانب خدرها وقالت اخسأ . واخسأ . فقال أبوها : مَهْيَم[1] يا بثينة ! . . قالت : كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية . ثم صاحت بالجارية أبغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له !

فقلت : أنا أعجل من ذلك ، ورحت إلى جميل فأخبرته ، فعلم أن الموعد الدومات ، وخرجنا حتى أتيناها ، ثم جاءت بثينة مع بنات خالتها الثلاث ، فما برحنا حتى برق الصبح ، فما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ، ولا رأيت مثل علم أحدهما بضمير الآخر .

« خداج سهل »

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إن جميلا عندها الليلة !

---

(١) مهيم كلمة يمانية معناها : ما خطبك ؟ وماذا بك ؟

فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجرة[1] منها يحدثها ويشكو إليها بثه . ثم قال لها : يا بثينة ؛ أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه ؟

قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المحبين .

فأجابته مغضبة : يا جميل. أهذا تبغى؟ والله لقدكنت عندى بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً .

فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ؛ ولو علمت أنك تجيبينى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بثينة بالـــذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتـــقى وأوائلـــه

(١) أى ناحية منها .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا . فما ينبغى بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها .

« سكرة وصحوة »

رصد جميل بثينة فى نجعة لأهلها ، حتى إذا صادف منها خلوة فى ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد ، سكر ودنا منها وحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها . ففزعت وقالت : « والله ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن ! » وفطنت بثينة فصرفتها ناحية من منزلها ، وبقيت مع بثينة أم الجسير أختها وأم منظور . فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها وتحدثا طويلا ، ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا

وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها ، فرآها نائمة مع جميل . فمضى لوجهه حتى خبر سيده

ورأته ليلى أخت بثينة وكانت قد عرفت خبرها وخبر جميل تلك الليلة ، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله ، وبعثت بجارية لها تحذر صاحبتها ، فجاءت الجارية فنبهتهما ، وصاحت بثينة بجميل وقد تبينت الصبح : نفسك ! نفسك ،

وهو غير مكترث لتخويفها يتمثل لها بقوله :

لعمرك ما خوفتنى من مخافــة
بثين ولا حذرتنى موضع الحــذر
فأقسم لا يُلفَى لى اليوم غـــرةٌ
وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت متاع البيت ، وأفهمته أنها إنما تسأله ذلك خوفاً على نفسها من الفضيحة لا خوفاً عليه .

ففعل كارهاً ، ونامت هى كما كانت وإلى جانبها أم الجسير . ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما ولا يشك فى أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه . فلما كشفوا الثوب إذا أم الجسير حيث كانوا ينظرون جميلا ! فخجل الزوج ، وصاحت أختها ليلى : قبحكما الله ! أفى كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور –تعنى زوج بثينة– بكل قبيح ؟

قال راوى القصة : وأقام جميل عند بثينة حتى أجنه الليل ثم ودعها ، وانقطعا عن اللقاء إلى أن نسيت القصة !

« بين سلطانين »

كان عمر بن ربعى بن دجاجة والياً على بلاد عذرة . فشكا إليه أهل بثينة جميلا وقالوا : إنه يهجوهم ويغشى بيوتهم وينسب بنسائهم ، فأباحهم دمه إن وجدوه عندهم ، ونجا جميل بنفسه إلى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك الوالى وانتجع بنو عذرة ناحية الشام فارتحل إليهم

« بثينة تنقد »

لقى جميل بثينة بعد تهاجر طال بينهما ، فتعاتبا ملياً ثم قالت بثينة : ويحك يا جميل ! أتزعم أنك تهوانى وأنت الذى تقول :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى
وفى الغر من أنيـــابها بالقوادح

فأطرق طويلا يبكى . ثم قال : بل أنا القائل :

١٢١

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

فقالت له : ويحك ! ! ما حملك على هذا المنى ! أو ليس فى سعة العافية ما كفانا جميعاً ؟ !

« خاتمة هوى »

روى أيوب بن عباية قال :

« خرجت من تيماء فى أغباش السحر ، فرأيت عجوزاً على أتان ، فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة . فقلت : ممن أنت ؟ قالت : عذرية

فأجريت ذكر جميل وبثينة فقالت : والله إنا لعلى ماءٍ لنا بالحباب وقد تنكبنا الجادة [1] لجيوش كانت تأتينا من قِبل الشام تريد الحجاز ، وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثاً ، فانحدروا ذات عشية إلى صِرم قريب منا يتحدثون إلى جوار منهم ، فلم يبق غيرى وغير بثينة ، إذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا . فسلم ونحن مستوحشون وجلون،

---

(١) الجادة : مستوى الطريق ، والصرم الجماعة القليلة من الناس

فتأملته ورددت السلام فإذا جميل !

قلت : أجميل !

قال : أى والله ؛

وإذا به لا يتماسك جوعاً . فقمت إلى قعب لنا فيه أقط[١] مطحون ، وإلى عُكة[٢] فيها سمن ورُبّ[٣] فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت : أصب من هذا . فأصاب منه ، وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه

فقلت له : لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك ؟

قال : أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرصة . فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر . فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص . فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه ؛ فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صرح النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول

---

(١) الأقط اللبن الجاف (٢) العكة الزق الصغير
(٣) الرب ما يطبخ من التمر

ولقد يجر الذيل فى وادى القــرى
نشوان بين مــزارع ونخيــل
قومى بثينة فاندبى بعــويل
وابكى خليلك دون كل خليــل

وتحدث من شهد موت جميل بمصر أن جميلا دعاه فقال : هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلّفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك ! . . . إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانباً ثم كل شىء سواها لك ، وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة ، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ، ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات :

صرح النعى وما كنى بجميــل
وثوى بمصر ثواء غــير قفول

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة .

قال الرجل : فلما واريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به جميل ، فما استتممت الأبيات حتى برزت إلى امرأة يتبعها نسوة قد فرعتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى دُجنة وهى تتعثر فى مرطها حتى أتتنى فقالت : يا هذا !

والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتنى ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتنى !

قلت : والله ما أنا إلا صادق ، وأخرجت حلته . فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فكثت مغشياً عليها ساعة ، ثم قامت وهى تقول :

وإن سلوى عن جميـــل لســـاعةٌ
من الدهرِ لا حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا يا جميلُ بن معمـــر
إذا مت بأساء الحيـــاة ولينها

مختارات من شعره

« دعاء »

فيا رب حببني إليها وأعطني ا
لمودة منها ، أنت تعطي وتمنع
وإلا فصبرني وإن كنت كارهاً
فإني بهـــا يا ذا المعارج مولع

... ...

تمتعت منها يوم بانوا بنظـــرة
وهل عاشق من نظـــرة يتمتع ؟
كفى حزنـــاً للمرء ما عاش أنه
ببين حبيب لا يـــزال يروع

« لذة الظلم ! »

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه[1]
ودعه إذا خيضت بطرق مشاربه

---

(١) جمع ذنوب وهى الدلو لها ذنب

أعاتب من يحلو لدى عتـــابه
وأترك من لا أشتهى وأجانبـــه
ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالماً
عناقك مظلوماً وأنت تعاتبـــه

« الميت المبعوث »

وما بكت النســـاء على قتيل
بأشرف من قتيـــل الغانيـــات
فلما مات من طرب وسكر
رددن حيـــاته بالمسمعـــات
فقام يجـــر عطفيـــه خُماراً
وكانَ قريب عهـــد بالممات

« الزمن الحانى »

أما كنت أبصرتنى مـــرة
ليالى نحـــن بذى جوهـــر
وإذا أنا أغيد غض الشبـــا
ب أجرّ الرداء مـــع المئزر

وإذا لمّتي كجناح الغرا
ب ترجل بالمسك والعنبر
فغيّر ذلك ما تعلمين
تغيّر ذا الزمن المنكر
وأنت كلؤلؤة المرزُبان
بماء شبابك لم تعصرى
قريبان مربعنا واحدٌ
فكيف كبرت ولم تكبرى[١]

« داء وطب »

ارحميني فقد بليت فحسبي
بعض ذا الداء يا بثينة ، حسبي
لا مني فيك يا بثينة صحبي
لا تلوموا ، فالحب قرّح قلبي
زعم الناس أنّ دائي طبي
أنت والله يا بثينة طبي !

---

(١) المرزبان الرئيس عند الفرس ، وترجيل اللمة تسريحها

« كدر ومطروق ! »

وإنى لأستحيي من الناس أن أُرى
ردیفاً لوصل أو علىّ ردیف
وأشرب رنقاً منك بعد مـــودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإنى للماء المخــالط للقــذى
إذا كثرت وّراده لعيــوف

« من هى ؟ »

قناة من المران ما فوق حقــوها
وما تحته منهـــا نقا يتقصف
لها مقلتا ريم وجيـــد جداية
وكشح كطى السابرية أهيف(١)

(١) المران شجر تتخذ منه الرماح ، والحقو الخصر ، والنقا مجتمع الرمل ، والجداية : الغزال ، والسابرى الحرير

« وفاء الله ! »

... ...

فما وجد العذرى عــــروة إذ قضى
كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى
على أن من قد مات صادف راحة
وما لفؤادى من رواح ولا رشــــد
يكاد فضيض الماء يخدش جلــــدها
إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلــــد
وإنى لمشتــــاق إلى ريح جيبهــــا
كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد
لقد لامنى فيهــــا أخ ذو قرابــــة
حبيب إليه فى ملامته رشــــدى
وقال أفق ، حتى متى أنت هائم
ببثنة فيها قد تعيد وقد تبــــدى
فقلت له فيها قضى الله ما تــــرى
علىّ ، وهل فيما قضى الله من رد

فإن كان رشـــداً حبها أو غواية
فقد كان ما قد كان منى على عمد

لقد لج ميثاق من الله بيننـــا
وليس لمن لم يوف لله من عهــد

فلا وأبيها الخير ما خنت عهدهـــا
ولا لى علم بالذى فعلت بعدى

وما زادها الواشــون إلا كرامة
علىّ ، وما زالت مودّتها عندى

أفى الناس أمثالى أحبوا فحالهم
كحالى أم أحببت من بينهم وحدى

وهل هكذا يلقى المحبــون مثل ما
لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

« محب أكول »

ويعجبنى من جعفر أن جعفـــراً
ملحٌ على قرص ويبكى على جمل

فلو كنت عذرىّ العلاقة لم تـــكن
بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

« صرخة »

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها
مقالة واش أو وعيــد أمير
فلم يحجبوا عينىّ عن دائم البــكا
ولن يملــكوا ما قد يجن ضميرى
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
ومن حُــرَق تعتــادنى وزفير
ومن كرب للحب فى باطن الحشــا
وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكى على نفسى بعين غزيرة
بكاء حزين فى الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النوى
بأنعم حالى غبطــة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنــا
بطون الهــوى مقلوبة لظهور
لقد كنت صعب النفس لو دام وصلنا
ولــكنما الدنيا متــاع غرور.

لو أن أمرأً أخفى الهوى عن ضميره
لمت ولم يعلم بذاك ضميرى

« عند ذلك »

هى البدر حسناً والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر
عليها سلام الله من ذى صبابة
وصب معنى بالوساوس والفكر
أيبكى حمام الأيك من فقد إلفه
وأصبر ؟ مالى عن بثينة من صبر
ومالى لا أبكى وفى الأيك نائح
وقد فارقتنى شختة الكشح والخصر [١]
يقولون مسحور يجن بذكرها
وأقسم ما بى من جنون ولا سحر

(١) شختة : دقيقة ، والكشح ما بين السرة و وسط الظهر

ذكرت مقامى ليلة البـــان قابضاً
على كف حوراء المدامع كالبدر
فكدت ولم أملك إليها صبـــابة
أهيم وفاض الدمع منى على نحرى
تجود علينـــا بالحديث وتـــارة
تجود علينا بالرُّضاب من الثغر
فياليت ربى قد قضى ذاك مرة
فيعلم ربى عنـــد ذلك ما أمارى

« وعد مطول »

يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت
يتبع صداى صداك بين الأقبر
إنى إليك بمـــا وعدت لناظرٌ
نظر الفقير إلى الغنى المـــكثر
تقضى الديون وليس ينجز موعـــداً
هذا الغريم لنا ، وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذى تعدينى
إلا كبرق سحابة لم تمطـــر

« ليت »

لقد ذرفت عيني وطال سفوحهـــا
وأصبح من نفسى سقيماً صحيحها
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت
يجاور فى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب
إذا قيل قد سُوّى عليها صفيحهـــا
أظل نهارى مستهامـــاً ويلتقى
مع الليل روحى فى المنام وروحها
فهل لى فى كتما حُبّي راحة وهل تنفعنى بوحة لو أبوحها

« جهاد »

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى
من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به
تولّت وقالت ذاك منك بعيـــد

فلا أنا مردود بمـــا جئت طالباً
ولا حبهـــا فيما يبيـــد يبيـــد

. . . .

ومن يُعط فى الدنيا قريناً كمثلها
فذلك فى عيش الحياة رشيـــد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها
ويحيـــا إذا فارقتهـــا فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغـــزوة
وأى جهـــاد غيرهـــن أريد ؟
لـــكل حديث بينهـــن بشاشة
وكل قتيـــل عندهن شهيـــد

« فى الصلاة »

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها ... يلذان فى الدنيان ويغتبطان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا ... أسيران للأعـــداء مرتهنان
أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها ... لىَ الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ألا أهيم بغيرها ... وقد وثقت منى بغير ضمان
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا ... خصومة معشوقين يختصمان

وفى كل عام يستجدان مرة ... عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
يعيشان فى الدنيا غريبين أينما ... أقاما ، وفى الأعوام يلتقيان
وما صاديات حُمن يوماً وليلة ... على الماء يغشين العصى حوانى
لواغب لا يصدرن عنه لوجهة ... ولا هنّ من بردالحياض دوان
يرين حباب الماء والموت دونه ... فهن لأصوات السقاة روانى
بأكثر منى غلة وصبـــابة ... إليك ، ولـــكن العدو عدانى

« اليمين وما ملكت »

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغى ... يمينى ولو عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينى مالى يا بثين فإنمـــا ... يُبيّن عند المال كل ضنين
فمالك لما خبر النـــاس أننى ... غدرت بظهر الغيب لم تسلينى
لأُبلى عذراً أو أجىء بشاهد ... من الناس عدل أنهم ظلمونى
لى الله من لا ينفع الوعد عنده ... ومن حبله إن مُدّ غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم ... على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت علىّ بقائل ... لها بعد صرم يا بثين صلينى

« نعي نفسه »

صرح النعيّ وما كنى بجميــل
وثوى بمصر ثواءُ غير قفــول
ولقد يجر الذيل في وادى القــرى
نشوان بين مزارع ونخيــل
بكر النعى بفــارس ذى همــة
بطل إذا حم اللقــاء مذيل[١]
قومى بثينــة واندبى بعــويل
وابكى خليلك دون كل خليل

أبيات مفردة

فى معان مختلفة

« لو . . . ولا »

وددت ولا تغنى الودادة أنهــا
نصيبى من الدنيا وأنى نصيبهــا

---

(١) المذيل من أهان ماله ، أو طال ذيله أو درعه

« بدل مطلوب »

أفى كل يوم أنت محدث صبوة
تموت لها ؟ بُدّلت غيرك من قلب

« الصدق أنجح »

حلفت لكيما تعلمينى صـــادقا
وللصدق خير فى الأمور وأنجح

« شتان المرادان »

أريد صلاحها وتريد قتــلى
وشتّى بين قتــلى والصــلاح

« داء مزمن »

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل
إلى اليوم ينمى حبهـــا ويزيد

« لا قرار »

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعــــد

« زهد ! »

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها
فما أسأل الدنيــــا ولا أستزيدها

« تفويض »

فريني أطعـــك فى كل أمــــر
أنت والله أوجـــه الناس عنـــدى

« دعوة أم دعاء »

وعاذلين ألحـــوا فى محبتهـــا
يا ليتهم وجدوا مثل الذى أجـــد

« عذر أو ظلم »

لو تعلمين بمـــا أجن من الهوى
لعذرت أو لظلمت إن لم تعذرى

« خبر مكتوم ! »

أموت وألقى الله يا بثن لم أبـــح
بسرك والمستخــبرون كثـــير

« موعد فى السماء »

أقلب طرفى فى السماء لعلـــه
يوافق طرفى طرفــكم حين ينظر

« ليس كمثلها ! »

لا حسنها حسن ولا كدلالهـــا
دل ولا كوقـــارها توقـــير

« جفون قصيرة »

كأن المحب قصير الجفـــو
ن لطول الليـــالى ، ولم تقصر

« الموطن الغرامى »

فإن يك جثمانى بأرض بعيـــدة
فإن فؤادى عنـــدك الدهر أجمع

« قليل نافع »

إن القليل كثير منك ينفعـــنى
وما سواه كثير غـــير نفـــاع

« حجته لها »

وبين الصفا والمروتين ذكرتـــكم
بمختلف ، والناس ساع وموجف

« جلد جاموس »

وما يبتغى منى عداة تعاقـــدوا
ومن جلد جاموس سمين مطـــرق

« ماذا يقولون ؟ »

وماذا عسى الواشون أن يتحـــدثوا
سوى أن يقولوا إننى لك عاشـــق

« غير خوار »

فلو كنت خواراً لقد باح مضمرى
ولـــكننى صعب القنـــاة عريق

« علامة »

فإن وجدت نعل بأرض مضلـــة
من الأرض يوماً فاعلمى أنها نعلى

« ثقل » محبوب

وتثاقلت لمـــا رأت كلفي بهـــا
أحبب إليَّ بذاك من متثاقل !

« التحول حزم ! »

وإن التي أحببت قد حيل بينها
فـــكن حازماً ، والحازم المتحول

« لعلها »

وقالوا نراها يا جميـــل تبـــدلت
وغيرها الواشي فقلت لعلهـــا

« آلة الصيد »

ولكنما يظفـــرن بالصيد كلمـــا
جلون الثنايا الغر ، والأعين النجلا

« صلح على انفراد »

فإن تك حرب بين قومى وقومها

فإنى لهـــا فى كل نائبة سلم

اقرأ

حسين شوقي

من يوميات فتاة عصرية

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مِن يوميّاتِ فتاةٍ عصريّة

حسين شوقي

من يوميات فتاة عصرية

اقرأ ١٤

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٨ — اليوم عدنا من الإسكندرية وكنا عادة نتأخر فيها لغاية أكتوبر كما يفعل أصحاب الوجاهة (!) ولكن أبى كان ملزماً هذا العام أن يبكر فى العودة إلى القاهرة لبعض الأعمال فلم نشأ عندئذ — أمى وأنا — أن نتركه يرجع وحيداً .. ولو أنه عرض علينا أن نتخلف نحن بالثغر .

عدنا بالسيارة عن طريق الصحراء . حقاً ما كان أصدق ذلك الذى شبه هذا الطريق بثعبان طويل أسود ، الطريق نظيف ولو أنه يبعث الملل فى النفس لعدم تغير مناظره فأينما تلتفت لا تجد غير الرمال .

إنى مغتبطة بهذه العودة لأنى مللت الإقامة بالإسكندرية فهى مدينة ضيقة . وإن أسفت على فراق شىء هناك فإنى آسف على البحر إذ هو حقاً جميل رائع ، فما أطيب الجلوس على الشاطىء حيث يستنشق المرء هواء البحر المالح المنعش وكذلك ما ألطف الجرى أمام الأمواج الثائرة أثناء الاستحمام . وفى الليل عند ما نهم بالاستسلام إلى النوم ما أرق همس الموج فى آذاننا !

١٧ سبتمبر — وقع اليوم فى نادى « س » . الرياضى حادث قبيح وما كنت أود أن أدوّنه فى هذه المذكرات لولا ما تفرضه الأمانة علىّ من تدوين كل شىء . وهذا ما حدث : ذهبت إلى النادى فى الصباح لألعب «التنس» مع إحدى الصديقات ولكنها لم تحضر ثم وجدت هناك بالمصادفة (فتحى) وهو شاب لطيف . غير أن معرفتى به بسيطةً لا تتعدى حدود النادى . وكان فتحى هذا ينتظر بدوره فتاة تدعى سونيا ، هى أيضاً بالنسبة لى من معارف النادى غير أنى كنت لا أميل إليها لكبريائها إذ كانت تفخر بأنها بنت وزير سابق . وكانت سونيا هذه قد تخلّفت هى أيضاً عن الحضور. فعرض علىّ عندئذ فتحى أن نلعب معاً . قلت : لا مانع من جهتى ولكن أخشى إن حضرت سونيا ظنتنى السبب فى عدم انتظارك لها، لأنى كنت أعلم بميل الفتاة إليه. قال: أى حق لها فى الاعتراض بعد كل هذا التأخير ؟ قلت : ما دام هذا رأيك فلامانع عندى هيّا بنا . ثم توجهنا إلى ساحة التنس ولكننا لم نكد نبدأ الشوط الأول حتى رأينا سونيا مقبلة مكفهرة الوجه. فلما دنت منا حييتها معتذرة لها عن أنى حللت محلها فى اللعب . فردت تحيتى فى برود ، أما اعتذارى فلم تعبأ به . ثم التفتت إلى فتحى

صائحة فى وجهه : لماذا لم تنتظرنى ؟ قال فى صوت خافت (بعد ما كان يتظاهر بعدم الاكتراث من مدة قصيرة) لأنك تأخرت يا عزيزتى . . . على كل حال أنا مستعد لأن ألاعبك حينما نفرغ من هذا الشوط فقط . . قالت فى تهكم : بل تستطيع أن تلعبَ مع صديقتك الجديدة كيفما شئت : هذا الشوط ثم الشوط الذى يليه بل الأشواط القادمة كلها . لأنى لن ألعب معك بل لن أكلمك بعد اليوم . قلتُ غاضبة : لك أن تلومى صاحبك كما يتراءى لك. ولكن حذار أن تعرضى بى .. صاحت : أو ماتنكرين أنك كنت تبغين مغازلته تحت ستار اللعب ؟ قلت : كفى وقاحة و إلا أدّبتك . أفهمت ؟ وهممت أن أوذيها بالفعل بالمضرب غير أن (فتحى) حال دون ذلك . صاحت : أتتطاولين علىّ ؟ ألا تعلمين بنت من أنا ؟ قلت فى سخرية : لا يا آنستى لا أجهل بنت من أنت إذ لا يوجد أحد فى النادى بل فى المدينة بل فى القطر كله يجهل حسبك ونسبك فإنك لم تتركى أحداً دون أن تخبريه بأنك بنت وزير سابق ، ولكن صدقينى ، خير لك أن تكونى بنت فلاح بسيط ومؤدبة من أن تكونى بنت وزير سابق وقليلة الأدب .

ثم تناولت معطفاً خفيفاً كنت أحضرته لألبسه بعد الانتهاء من اللعب ، وغادرت المكان غير عابئة بقذائف الشتائم التى شيعتنى بها . فإذا ابتعدت عنها رأيتها تحولت إلى صاحبها فتحى تصب عليه جام غضبها . والعجيب فى أمره أنه كان يلاطفها ويهدئ من روعها بدلاً من أن يصفعها لقلة أدبها .

حقاً ما أبعدنا عن الروح الرياضية !

* * *

١٨ سبتمبر – تحدثت إلىّ فى التليفون صديقتى علية تسألنى ما إذا كنت حقيقة قد ضربت سونيا بالأمس فى ساحة التنس بالنادى قلت لا و يا للأسف لأننى هممت بذلك فحال فتحى دون تحقيق هذه الرغبة . فأثنت علىّ علية ثناء حاراً من أجل ذلك قائلة إننى أشجع فتاة عرفتها وإن الدرس الذى ألقيته على تلك الفتاة المغرورة سونيا لجدير بأن يذاع على الملأ . ولكن الواقع أن كره عليّة لسونيا لم يكن سببه غرور الفتاة وقلة أدبها كما تدعى، بل ميلها هى أيضاً لفتحى مع تفضيله سونيا إذ هى بنت رجل عظيم قد يفيد من نفوذه فى التوظف حينما ينتهى من دراسته هذا العام . ثم سألتنى عليّة إذا كنت أحب أن ألعب معها التنس اليوم بعد الظهر،

فاعتذرت قائلة إنى كرهت الرياضة من أجل سونيا ولن أعود مرة ثانية إلى النادى حتى لا يقع نظرى على وجهها البغيض .

حاولت عليّة أن تثنينى عن عزمى بإلحاحها ولكنى لم أتحول عن عزمى لأنى فتاة من أصل شركسى عنيدة . . . ثبتّ فى الدفاع عن رأيى وكأنى أدافع عن إحدى قلاع الوطن العزيز . أما إلحاح عليّة علىّ فأظن أن مصدره لم يكن رغبتها فى اللعب معى بل الرغبة فى إغاظة منافستها .

***

٢٠ سبتمبر — لاحظت اليوم حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وأنا أخترق الدهليز عائدة من الحمام إلى غرفتى أن غرفة أبى خالية خاوية ، عَلَى حين كانت الأصوات تنبعث من غرفة أمى ، بل تبينت فيها صوت أبوى ، كانا يتحادثان فى عنف على غير عادتهما الأمر الذى أدهشنى حقاً . . . إذ كان من شأنهما الاستسلام إلى الراحة فى مثل هذه الساعة الحارة من النهار . . . فما الذى حدث يا ترى ؟ ثم زادت دهشتى وانتابنى شىء من القلق حين سمعت أمى العزيزة تنتحب وعهدى بها باشة دائماً بل لم أرها تبكى قبل الآن إلا مرة واحدة — منذ ثلاث سنوات —

لدى وفاة أختها جليلة هانم . . . فاقتربت من باب غرفتهما لأسترق السمع ، مع علمى بأن عملى هذا بعيد عن الأدب بل هو عمل قبيح شنيع . . . غير أنى لم أستطع تحقيق هذه الرغبة إذ سمعت فى هذه الأثناء وقع أقدام تصعد السلم ، نخفت أن أفاجأ وأنا على هذه الحال فأسرعت فى الهرب عائدة إلى غرفتى . . . ترى ماذا هناك ؟ لقد عهدت أبوى مثال الزوجية الصالحة ، وكيف لا يكونان كذلك وهما على انسجام تام من حيث الأخلاق . لم أشهد لهما شجاراً واحداً فى حياتى قبل اليوم . . . وهما من أصل واحد . . . شركسى . .

ولقد رأيت من آيات المحبة بينهما ألواناً منها أن أبى كان يشغل من سنوات منصباً فى الحكومة ضحى به من أجل أمى ، إذ تقرر نقله إلى الصعيد مع الترقية . ولما كانت الحرارة هناك لا توافق صحتها إذ تشكو من الكبد ، آثر الاستقالة . .

إذن ماذا هناك ؟ متاعب مالية ؟ لا أظن ذلك لأننا و إن لم نكن أغنياء ، فى سعة من العيش ولله الحمد ، نمتلك مئتى فدان فى الغربية على مقربة من طنطا ، أرض كلها جيدة ، كما أن المنزل الذى نقطنه ملكنا ، كذلك الحياة التى نحياها بسيطة

لا أثر فيها للمظاهر ، فكل بذخنا ينطوى على سيارة متوسطة الحجم نستبدل بها كل ثلاث سنوات ، ثم منزل نستأجره فى الرمل فى فصل الصيف من أجل كبد أمى التى لا تتحمل حرارة القاهرة فى ذلك الفصل ، أما أوربا فلم نشاهدها إلا مرة واحدة فى العام الماضى حينما أقيم فى باريز المعرض الدولى ومع ذلك كانت نفقات السفر مخفضة لهذه المناسبة حتى خيّل لى وقتئذ أن مصر بأسرها انتقلت إلى باريز . . . وأبى لا يقامر بل لا يغشى الأندية مطلقاً . يقضى وقته ، حينما يكون خارج المنزل ، فى قهوة متواضعة بجوار ميدان الأوبرا يطالع الصحف ويعلق عليها مع بعض الأصدقاء القدماء . . . وليس لأبوى ذرّية كبيرة يرهقهما الانفاق عليها فأنا بنتهما الوحيدة . . إذن ماذا حدث حتى أسمع أمى تنتحب ؟ أظن أن مثل هذا الأمر سوف أعلم به نظراً لخطره ، عاجلاً أو آجلاً .

فى الساعة الخامسة هبطت إلى البهو كى أتصل فى التليفون بصديقتى عليّة لتأخذنى معها فى سيارتها إلى حفلة الشاى التى دعتنا إليها «رفيعة» . . . كانت أمى هناك فى البهو إذ ذاك تجلس كعادتها على المقعد الجلدى الوثير بالقرب من المائدة التى وضعت

عليها آلة التليفون وكانت بيدها إحدى صحف المساء تطالعها أو تتظاهر بمطالعتها لتخفى عنى آثار الحـزن التى ارتسمت على محياها . . . . أما أبى فلم أره ولعله خرج . . . . قالت أمى بعد أن فرغت من حديثى فى التليفون ، فى ابتسامة مصطنعة : أأنت ذاهبة إلى رفيعة ؟ . . قلت : أجل ، قالت : هل ينتظر أن تتأخرى هناك ؟ قلت : ربما .. قالت : إذن خذى معك المعطف لأن الجو متقلب الآن ، والليالى الأخيرة من سبتمبر تميل إلى البرودة .... قلت : حسناً ، سأفعل ! ثم تناولت بدورى مجلة قديمة مطروحة أمامى على المائدة وجعلت أتصفحها على غير هدى بقصد تمضية الوقت لحين حضور عليّة ؛ حتى لا أحمل أمى المسكينة على الكلام وهى على هذه الحال من الحزن والكآبة . . . ولم يمض زمن طويل على ذلك حتى سمعت صوت سيارة عليّة فأسرعت فى الخروج إليها بعد أن ودعت أمى بقبلة خاطفة على جبينها المحبوب . وكنت آمل وأنا أغادر عتبة المنزل أن كل شىء يسوّى قريباً ، مدفوعة فى هذا الأمل بتلك الثقة التى تبعثها فينا حرارة الشباب .... ولو لم تكن عندى أية فكرة عن ذلك الشىء الذى كنت أرجو تسويته . . . .

***

٢١ منه — كانت أمسية صاخبة لذيذة تلك التى قضيناها عند رفيعـة إذ التقينا هناك بكل زميلاتنا القديمات من مدرسة « المردى ديو » عدا أمينة المسكينة التى عصفت بشبابها حمّى التيفوئيد فى العام الماضى .... رباه كم ذرفت من دموع على أمينة هذه... وما كان أجمل أمينة بقوامها المشوق وعينيها اللتين تشبهان عينى الغزال حقاً ما أقسى الموت !... إننى كلما فكرت فيها تذكرت أبيات الشاعر الفرنسى « سولى پرودوم » التى تقول :

لم تعش إلا لصبـــح هكذا عيش الورود
أجمـل الأشـــياء طراً حظـــــه حظ قعود

ترى أين هى الآن أمينة ؟ أما زالت ترفرف روحها الطاهرة حولنا ؟ أم سئمت هذا العالم الباهت فذهبت إلى عالم أفضل ؟.

حبيبتى أمينة . إنك ما زلت تحتلين المكان الأول فى قلب صديقتك .

لنعد إلى حديث السهرة .... كانت حفلة رفيعة حفلة شاى بالاسم فقط ولكن بالفعل كانت حفلة « كوكتيل » ....

مسكين أيها الشاى إنك لم تعد تؤثر فى أعصابنا نحن فتيات اليوم اللواتى ولدن فى زمن السرعة والجلبة والثورات ! . . لقد حضر الحفلة أيضاً كثير من إخوة صديقاتنا مما ساعد على تحويل منزل رفيعة إلى مرقص .... أما أنا ، فعلىّ أخو رفيعة لم يتركنى لحظة واحدة طول الليل دون أن يراقصنى . ومع ذلك لم أتضايق من هذا التصرف لأنه شاب لطيف حسن المنظر ، ولو أنى لا أحب شاربه القصير الذى يقلد به أحد نجوم السينما الأمريكان « كلارك جيبل » . . . . . مساكين شباننا إنهم يقلدون نجوم السينما تقليداً أعمى . . . . طلبت من علِى أن يزيل هذا الشارب فقبل على شرط ألاّ أراقص غيره طول السهرة ، فرضيت بشرطه حتى أنقذه من هذا الشارب السخيف . . . . ناولنى علىّ عدة أقداح « من الكوكتيل » فى تلك السهرة ثم جذبنى من يدى إلى الشرفة الخلفية التى تطل على الحديقة حيث شرع يقبلنى . . . حقاً يا له من فتى أحمق . . إننى لم أكن فى حاجة إلى تناول مثل هذا القدر من الخمر لأسمح له أن يفعل هــذا إذ كنت أرضى بقبلاته بدون حاجة إلى « كوكتيل » لأنه كما قلت من قبل — شاب لطيف ، حسن المنظر ، ثم إن (على) يعتبرونه كلهم

خطيبى . وأمه لا تفكر إلا فى هذا ، أو بالأحرى هى تفكر فى المثتى فدان التى تمتلكها فى الغربية .... أما أنا فرأيى أن (على) لن يكون زوجاً كاملا ، إذ أن أمثاله من فتيان اليوم لا يصلحون إلا للغزل أو الرقص أو لعب « التنس » ...... كنت أفضل للزواج رجلا ناضجاً فوق الثلاثين يقدّر الزوجية ... كمحمد بك مثلا ...... ذلك السيد الذى عاد معنا فى العام الماضى على الباخرة « النيل » من معرض باريز . حقاً إنه يعجبنى كثيراً ولو أنه ناهز الأربعين إذ تسلّلت إلى فوديه طلائع المشيب .... أحبه لأنه عظيم الشبه بنجمى السينمائى المفضل « جارى كوبر » ... وأحبه لأنه رجل جم الأدب عظيم المروءة . أذكر أننا لما كنا على ظهر الباخرة ، قامت ذات ليلة عاصفة هوجاء جعلت تهز النيل هزاً عنيفاً فلزم أبواى عندئذ « القمرة » وهما يستنزلان اللعنة على « آلهة البحر » أما أنا فقد صعدت إلى ظهر السفينة كى أتحدى العاصفة بقوة شبابى ، ولكنى لم ألبث أن شعرت بمعدتى تغوص وبرأسى يدور ثم كدت أسقط على الأرض لولا أن ساعداً قوياً حال دون ذلك فى الحال ألا وهو ساعد محمد بك ... صحبنى بعد ذلك محمد بك إلى قمرتنا فى الدور

الأول حيث أخذت بدورى استمطر اللعنات على البحر . . . .
وفى صباح اليوم التالى حينما سكنت الأمواج وعادت الأحوال
إلى طبيعتها صعدنا إلى ظهر السفينة فوجدت هناك مسعفى يتمشى
بمفرده فمددت إليه يدى شاكرة . ثم قدم هو نفسه إلى أبوى
اللذين كررا إليه الشكر من أجل معونته لى . ثم صار محمد بك
بعد ذلك لا يفارقنا لحظة حتى وصلنا إلى الإسكندرية . كذلك
يقدر أبى محمد بك لأنه فوق أدبه مثقف جداً طالع كثيراً
وسافر كثيراً . . . وأظن أن أبى يود أن يزوجنى منه على رغم
السنوات الكثيرة التى بيننا ، ولكن محمد بك مع الأسف
لم يطلبنى بل لا أظنه يفكر فى مثل هذا الأمر مطلقاً ، ولقد
عاملنى كطفلة أثناء الرحلة إذ رآنى مرة أدخن سيجارة بعد تناول
العشاء فنهرنى وألقى بها فى اليم قائلا إن « النيكوتين » قد يفسد
صدراً صغيرا مثل صدرى . . . . وأعجب أبواى جداً بهذا
التصرف . ورغبت مرة مشاركة بعض المسافرين لعبهم البوكر
فى قاعة التدخين فعارض فى ذلك أيضاً محمد بك قائلا إن البوكر
ليس من الألعاب التى تناسب الفتيات الصغيرات مثلى . حقاً !
أنه يعتبرنى طفلة لا أكثر .... ولو أن هنالك بائع لعب على ظهر

السفينة لما تردد فى شراء دمية لى منه . . . . ولكنى على الرغم من هذا أقدره وأحبه لأنه فى كل هذه التصرفات الشاذة لم يكن ينظر إلا لصالحى . . . .

عقب عودتنا إلى القاهرة زارنا محمد بك فى البيت بعد أن استأذن بالتليفون ثم دعانا فى اليوم التالى إلى تناول الشاى فى فندق « شبرد » حيث اعتاد الإقامة كلما قدم إلى القاهرة من عزبته بالمنيا . . . وعنده هنالك نحو ألف فدان من أجود الأطيان كما يقول أبى . وقد رقصت معه مرتين أثناء الشاى ، إنه يجيد الرقص كل الاجادة . وقد دعاه أبواى أيضاً إلى تناول طعام العشاء عندنا ، أعجبه طعامنا وبخاصة طبق « الشركسية » التى أوصى بها ، وأشرفت أمى بنفسها على إعدادها . . . ثم ذهبنا جميعاً بعد العشاء إلى السينما بناء على دعوته ، حيث شاهدنا شريطاً بطله نجمى المفضل جارى كوبر فكنت سعيدة حقاً فى جلستى أشاهد هذا النجم المحبوب على الشاشة البيضاء بينما جلس تمثاله إلى جانبى يتحدث إلىّ . . . . وقد أخبرت محمد بك أثناء العرض بالشبه العظيم بينه وبين جارى كوبر فضحك لهذه الملاحظة قائلاً إنه على كل حال يكبره كثيراً .

الساعة ٩ من مساء اليوم نفسه — دعاني الخادم إلى تناول طعام العشاء وكنت مشغولة بمطالعة رواية فرنسية فى غرفة نومى فلما هبطت إلى الدور الأول حيث توجد غرفة الأكل رأيت أبوى قد سبقانى إليها وكان الحزن يعلو وجهيهما على خلاف العادة . . . إذن فحادث الأمس لم يسوّ بعد . . . ترى ما هو ؟ تناولنا طعامنا فى صمت عجيب لا عهد لى به . . . . فأسرعت فى سؤال أمى عندما انصرف أبى من الغرفة عن سبب حزنهما ، فنظرت أمى إلىّ طويلا ثم قالت وهى تتنهد : لا شىء يا حبيبتى. لا شىء . . .

رباه كم أشعر بالألم من أجل ألم أمى !

***

٢٣ سبتمبر — (صباحا) أبى رجل ظريف إلى حد بعيد إذ لم يكد يعلم برغبتى فى الخروج هـذا الصباح لقضاء بعض الأمور بالمدينة حتى تنازل لى عن السيارة . . . أما هو فقد ركب الترمواى .

كان علىّ فى أول المطاف أن أؤدى أحد فروض المدنية الحديثة بل أهمها وأثقلها على النفس ألا وهو تنسيق الشعر . قضيت

عند المزين حوالى ساعة ونصف ما بين انتظار وتجميل . أف له من فرض متعب ! وجدت هناك السيدة « م » قرينة أحد كبار أغنيائنا تدلك وجهها وكان المزين منهمكا فى مكافحة التجاعيد التى علت وجهها من الكبر بمختلف المعاجين لأن السيدة لا تريد أن تتنازل عن شبابها الوهمى إذ هى مغرمة ، وياللأسف ، بشاب يكاد يكون ابنها من حيث السن ، تغدق عليه من مال الزوج المسكين ما يشاء حتى لا يتخلى عنها ! إنه المزين الذى أخبرنى بكل هذه المعلومات المدهشة حينما انصرفت السيدة . ترى ماذا سيقول عنى أنا بدورى لدى انصرافى من عنده ؟ حقا ياله من مزين نمّام !

قصدت بعد ذلك دكانا يبيع تحفا منزلية صغيرة حيث اشتريت مصباحا مصنوعا فى (سيفر) لأقدمه هدية عرس لصديقتى «عديله» التى سوف أزورها فى بيتها الجديد مساء اليوم . . إن المصباح آية فى الجمال لذلك أفكر فى احتفاظى به لنفسى ، تباً لك يا سميحة ! ما هذه الأثرة القبيحة التى تظهرينها ؟ ثم ذهبت إلى إحدى المكتبات حيث اقتنيت آخر مؤلف ظهر للكاتب الفرنسى «هنرى دى منترلان» ذى الأسلوب الرشيق والأفكار المبتكرة

الخلابة . حقا أن الكتب الأوربية لألطف فرض نؤديه لتلك المدنية بل هو أقل فروضها نفقة

اشتريت بعد ذلك بضعة أزواج من الجوارب وهى أغلى شىء فى ملابسى لأن الجورب مع الأسف لا يحتمل أكثر من لبسة أو لبستين ثم يتمزق . آه لو كنت حرة التصرف لما لبست جوارب أبداً بل لخرجت عارية الرجلين . ولكن ما الحيلة مع أهل الوجاهة الذين يستقبحون جدا خروج الفتاة الراقية أوالسيدة النبيلة بدون جورب ؟

(فى المساء) — صديقتى عديلة تقيم فى شقة صغيرة لطيفة بمصر الجديدة ولكنها مع الأسف حشيت حشوا بالأثاث ذى الوزن الثقيل ، فالصالون مثلاً وضعوا فيه « طقما » ضخما جعل التحرك فى أركانه صعباً كأنه ميناء ملغم عليك أن تسير فيه بكل حذر . فهمت من نظرة عديلة إلىّ أثناء مشاهدتى له بأنها لم تكن صاحبة هذا الاختيار . . بل هذا طلب زوجها . . على فكرة : إنى لم أقدم هذا الزوج بعد : إنه شاب فى مقتبل العمر حسن المنظر ذو شارب قصير يقلد به هو أيضا أحد نجوم السينما الذى لا يحضرنى اسمه الآن . أما لبسه فمتكلف ولكنه «بلدى»

و يبدو لى أنه متسلط على عديلة تسلطاً عجيبا . فكل شيء يقوله
أجد عديلة تردد صداه بلا روية أو تفكير . لا شك أنها مدلهة
بحبه و إلا لماذا كل هذا الانصياع . على كل حال لن أصير مثلها
يوما ما . . . مهما أحببت ، أليست كرامتك فوق كل شيء
يا سميحة ؟ أعجبت هديتى عديلة . أما زوجها فقد بدا لى من نظرته
أنه استرخصها ولو أنه تظاهر بالإعجاب بها من باب المجاملة إذ
صاح : حقاً ! ياله من مصباح صينى جميل ! احمر وجه عديلة خجلا
لدى سماعها هذا القول من زوجها المسكين الذى لم يميز بعد ،
بين السيفر والصينى. أما أنا فقد تظاهرت بأننى لم أسمع شيئا حتى
لا أزيد عديلة إحراجاً . على كل حال إنى أتمنى لها حظاً سعيداً
مع هذا الزوج لأنها فتاة على جانب كبير من الطيبة .

وجدت مع الأسف لدى عودتى إلى المنزل ، خصوصا فى
أثناء تناولنا العشاء ، أبوى وأنا ، أن الكآبة التى شاهدتها
بالأمس مخيمة على وجهيهما لم تنقشع بعد . ترى ما ذا هناك ؟

٢٤ منه — رفيعة وأخوها مرا على بعد ظهر اليوم لأذهب
معهما إلى قصر السيدة «ن» . حيث نقوم نحن وغيرنا من أبناء
البيوتات « بپروفات » الحفلة الساهرة التى تقيمها السيدة عندها

فى منتصف الشهر القادم مساعدة لإحدى الجمعيات الخيرية ....
سنظهر نحن الثلاثة ضمن منظر فرعونى يمثل الملكة «تايا» وهى تقدم القرابين للآلهة . .. . أعطيت دور وصيفة وكذلك رفيعة ، أما دور الملكة الرئيسى فقد أعطى لمديحة بنت صاحبة الحفلة على الرغم من دمامتها.... حقاً ما أشد تغلغل داء تفضيل الأقرباء فى مصر. إنه يطغى عندنا على كل شىء ، حتى على المناظر التمثيلية .أما على فيقوم بدور كاهن . . . كنت أحب عادة حضور هذه البروفات لأنها مجال ضحك وتسلية ، ولكن أحسست فى هذه المرة بانقباض لما بدا على أبوى من حزن فى هذين اليومين . . . . يكلفنى الثوب الذى أرتديه فى هذه الحفلة ٤٠ جنيها ، ألسنا أغبياء لندفع مثل هذا المبلغ الكبير من أجل فستان لا يلبس إلا مرة واحدة ، ولا يصلح لشىء بعد ذلك ؟ أليست الأربعون جنيها مرتبا لموظف محترم يعول أسرة كبيرة ؟

***

٢٥ منه — إن أبوى ما زالا مهمومين مشغولى البال ، خصوصا أمى يبدو عليها الحزن جليا لأن الابتسامة كانت قبل الآن لا تفارق ثغرها أبدا مما أثار حسد جارتنا حكمت هانم. فكانت

تقول لأمى كلما جاءت لزيارتها ورأتها على هذه الحال من البشاشة. حقا ... يا نعمت هانم إنى لأغبطك على هذه الابتسامة الدائمة . . إن مثل هذا التفاؤل ليحبب المرء فى الدنيا . . مسكينة أمى . . لقد حسدتها تلك المرأة اللعينة . . . ترى ما ذا أحزن أبوى ؟ أليس من حقى أن يطلعانى على أمرهما بصفتى ابنتهما الوحيدة بل ولية عهدهما ؟ اليوم سألح على أمى فى السؤال عند ما يغادر أبى البيت .

« بعد الظهر فى اليوم نفسه . — »

رباه . . . لقد عرفت السر ... يا ليتنى لم أعرفه ... حقا ... لقد عوقبت على تطفلى . . . تسللت إلى غرفة أمى بعد الغداء وقد تأكدت من خروج أبى ، فوجدتها جالسة على السرير وهى ممسكة برأسها بين يديها فلما رأتنى سالت الدموع من مآقيها ثم قالت : لقد فقدنا كل شىء يا حبيبتى ... أجل فقدنا كل أملاكنا .... هذا هو سبب حزننا وقد تكتمنا الأمر عنك كى لا نحزنك .... فصعقت لدى سماعى هذا الخبر لأننى لم أكن أتوقعه أبداً ، فنحن كما قلت أبعد الناس عن التبذير ، كما أن أبى لا يقامر .... قلت : وكيف كان ذلك ؟ قالت : الضمان يا ابنتى،

الضمان . لعنة الله على الضمان . لقد ضمن أبوك صديقه القديم حسين بك فى مبلغ جسيم غرق فيه ، وها نحن أولاء نغوص فيه بدورنا . . . حزنت جداً وانتابنى غم شديد لما حدث . ولكنى على الرغم من ذلك لم أستطع كتمان ضحكة صدرت منى حينما فكرت فى أمر عزيزة هانم أم خطيبى على والغضب الذى سينتابها حين تعلم أن عزبتنا فى الغربية لن تؤول إلى ابنها بعد .

***

٢٦ منه — دعانى أبى فى هذا الصباح إلى غرفته حيث كانت هناك أمى أيضاً ، وكانت جالسة فى مقعد وسط الغرفة وبيدها منديلها تجفف به دموعها من وقت لآخر ، أما أبى فكان واقفا إلى جانبها يبدو وكأنه قد كبر عشر سنوات مرة واحدة . . . حقا . كم أحزننى منظرهما ! إنه يذكرنى بتلك الصورة الزيتية الرائعة التى شاهدتها فى أحد متاحف باريز فى العام الماضى تمثل أسرة فرنسية نبيلة ، أثناء ثورة سنة ١٧٨٩ الكبرى وهى بالسجن تنتظر ، فى كآبة ، العربة التى ستقلها إلى المقصلة . . . . ابتدرنى أبى قائلا فى صوت متهدج : إذن أنت تعلمين بنبأ الكارثة . قلت : أجل يا أبى . . . قال : سميحة إننى أذنبت

فى حقكما إذ لم يكن يحق لى أن أهد كيانكما على هذه الصورة ، لكن صدقينى كان لزاما على أن أمد حبل النجاة إلى صديقى ، بل صديق العمر حسين بك ، فقد كان المفروض أن ينجو من الخراب بهذا الضمان ، ولكن الأقدار شاءت غير ذلك فضاع حسين بك على الرغم من مساعدتى له كما ضعنا معه . . . . فقدنا كل شىء يا ابنتى ، عزبة طنطا ومنزلنا هذا الذى أحبه وأعزه من أجلك لأنك ولدت وترعرعت فيه . . . . ثم توقف قليلا عن الكلام ثم عاد فقال : لا يتبقى لنا بعد هذه الكارثة غير دخل ضئيل نحو مائتى جنيه فى العام من بعض الأملاك الموقوفة لجدك من أمك . . . . وهناك أيضا دار حقيرة وقف ، فى حى السيدة زينب أجرها جنيهان فى الشهر . . . . فأجبت فى حماسة مصطنعة حتى أخفف عليهما أثر الصدمة : إذن الحالة ليست سيئة إلى الحد الذى تتصوره يا أبى . . . إذ يمكننا مثلا الإقامة بهذا المنزل القديم بعد أن ندخل عليه بعض الإصلاحات الضرورية فنقتصد بذلك أجرة السكن . . . كما أنى أستطيع مضاعفة هذا الدخل وذلك بالعمل ككاتبة أو سكرتيرة فى مكتب إحدى الشركات فانى كما تعلم أجيد الفرنسية والانجليزية .

فصاح أبى متأثراً : حقا إنك فتاة نبيلة الشعور ، ولم أكن أتوقع منك مثل هـذا الجلد إزاء الكارثة . ثم ضمنى إلى صدره واغرورقت عيناه وهو يردد : سامحينى يا ابنتى سامحينى . . .

قلت — إذا فكرنا يا أبى فى مصائب غيرنا هان علينا مصابنا ، فكر فيما حدث فى روسيا سنة ١٩١٧ ، فكر فى الكوارث التى حلت بسراتها ونبلائها الذين إذا قورنّا بهم لم نزد على أن نكون متسولين ، فكر فى هؤلاء الروس الأشراف الذين رأيناهم فى باريز فى العام الماضى وهم يعملون ، فى صبر وجلد ، كخدم فى فنادقها ومقاهيها . . . أليس مصابنا هيناً يا أبى إذا قورن بمصاب هؤلاء ؟ . . . أطرق أبى قليلا ثم قال : حقا إنكن جديرات بالإعجاب يا فتيات اليوم . . تسخرن بالعواصف ولا تعبأن بالكوارث . . .

« بعد الظهر فى اليوم نفسه — »

كان المتفق عليه أن يحضر على إلى منزلنا فى الساعة السادسة ليصحبنى فى سيارته إلى السينما ، ولكنه بدلا من أن يحضر تحدث فى التليفون معتذراً عن عدم المجىء بالطوارىء . . قلت لأمى وكانت جالسة كعادتها بالمقعد الموضوع بقرب التليفون —

يا للعجب . . . هذه أول مرة يتخلف فيها على عن موعد لى . . .
تنهدت أمى طويلا ثم أجابت : ولسوف يتخلف فى المرات القادمة
إذ لابد أن تكون أمه قد علمت بكارثتنا فنصحته ألا يرافقك
بعد . . . قلت فى دهشة : ولكن هذا التصرف من جانبهما يكون
قبيحاً جداً . . . قالت : ماذا تريدين يا ابنتى ، هكذا خلق الناس
مجردين عن الطيبة . قلت : يا لله . . . ما كان أحسن ظنى
بالعالم ، كنت إذا رأيت رجلا شريراً نسبت سبب شره إلى
المجتمع الذى دفع به من اليأس إلى الإجرام أو السرقة . . .
كجان فلجان[1] مثلا . . . الذى اضطر إلى سرقة الرغيف كى
لا يهلك أولاد أخته من الجوع . . قالت أمى فى مرارة : يالك
من فتاة بريئة، الناس يا ابنتى طبعوا على الشر ،وإذا كان الناس
على ما تتصورين من الطيبة ، فما عمل جهنم ؟ . . . تشجعى يا ابنتى
سوف نلقى كثيراً فى الأيام المقبلة من جحود أصحابنا ومعارفنا . . .
ولم نكد ننتهى من هذا الحديث حتى أقبلت جارتنا حكمت هانم
قائلة إنها عجلت بالحضور لتطمئن على بطلان تلك الإشاعة السخيفة
التى تروج حول ماليتنا ... رباه ... ما هذا ؟ .. أيتناقل الناس

(١) بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو

الأنباء السيئة بمثل هذه السرعة ؟ . . حقاً . . . صدقت يا أماه . إن العالم قبيح بالغ في القبح . . . والعجيب في أمر حكمت هانم أني لمحت وميض فرح في عينيها الخبيثتين حينما أبدت أمي لها خبر الكارثة على الرغم من تظاهرها الماكر بالحزن والإشفاق . . يا لضعة الناس ، علام تسر حكمت هانم لهذا ولن يعود خرابنا بفائدة عليها؟

سألت الخبيثة : والبيت يا عزيزتي هل يشمله الضمان أيضاً ؟ فأجابتها أمي في برود : أجل والبيت أيضاً . . . ولكن فيم هذا السؤال يا حكمت هانم ؟ هل تفكرين في شرائه ؟ صاحت المرأة وقد أحست بالغلطة التي ارتكبتها : معاذ الله يا عزيزتي . . كيف أجرؤ على هذا . . . ثم جاء الخادم بالقهوة فشربتها على عجل واستأذنت لتروج بلا شك بدورها هذه الأنباء «السعيدة» بين أهل الحي . . . آه لو كان معي سم في تلك اللحظة لدسسته لحكمت هانم عن طيب خاطر في القهوة . .

***

٢٧ منه — ما زالت الحوادث المؤلمة تترى . . ترى أين كان القدر يخبؤها لنا ؟ دق التليفون صباح اليوم مبكراً في الساعة السابعة منبئاً بوفاة حسين بك على أثر نوبة قلبية ، ولكن أمي لم تخبر أبي

بذلك إلا بعد أن صحا من نومه كعادته حوالى التاسعة و بعد أن تناول طعام الإفطار حتى لا تكون الصدمة قوية ، ومع ذلك كان حزن أبى شديداً حين علم بالخبر ، إن حزنه على وفاة صديقه أضعاف حزنه على ضياع ثروتنا . . حقاً أن مثل هذه الصداقة لجديرة بالإعجاب ، لا شك أن الرجال يمتازون علينا فى هذا المضمار. إذ أين الفتاة التى لا تضحى بأحب صديقة إليها من أجل الظفر بزوج ؟

شيعت جنازة حسين بك . . . لم هذا التسرع فى الدفن ؟ . إن مثل هذا التعجل فى إخراج الميت لا يروقنى . . لم لا نترك أرواح موتانا تتزود قليلا ممن سيخلفونهم فى الحياة الدنيا من أهل وأحباب ؟ .. إذ بعد كم من السنين ؟ بل بعد كم من الحقب سنلتقى بهم ثانية ؟ . . على كل حال أرجو أن يكون هذا العالم الآخر أفضل من هنا و إلا آثرت أن أترك فى قبرى بدون بعث

***

٢٨ منه — طبعاً . . لم تحضر رفيعة ولا أخوها اليوم كما كان المتفق عليه لنذهب إلى السيدة «ن» . من أجل حضور «پروفات» المناظر الحية ، والمدهش أنهما لم يعتذرا ، حقاً ! لقد تجردا من

كل ذوق . . ومع ذلك ما كنت أفكر فى الذهاب إلى السيدة « ن » بل كنت مصممة على أن أكلف رفيعة بأن تعتذر لى . . سأكتب الآن كلمة اعتذار للسيدة المذكورة عن عدم اشتراكى كلية فى حفلتها الخيرية إذ لم يعد لى بعد الآن «شرف» الانتماء إلى طبقة بنات الذوات .

* * *

٢٩ منه — ذهبت إلى حىّ السيدة زينب لمشاهدة منزل الوقف الذى أشار إليـه أبى والذى اقترحت الانتقال إليه بعد الكارثة التى حلت بنا ا المنزل يقع على شارع عمومى بالقرب من المسجد ولو أن المدخل من حارة ، وهو مؤلف من طبقتين صغيرتين ، الأولى تشمل قاعة رحبة بجوارها « دورة المياه » ثم السلم الذى يصعد منه إلى الطبقة الثانية ، أما هذه فتضم غرفتين كبيرتين ، والعجيب فى أمر هذا البيت نظام إضاءته ، فالطبقة الأولى ليست لها نوافذ البتة وتستمد نورها الضئيل مما تجود به عليه الطبقة الثانية من نور أو مما يتسرب إليها من ضوء من الخارج كلما فتح الباب العمومى . . أما الطبقة الثانية فلها نافذتان واسعتان . . يسكن هذا المنزل الآن امرأة عجوز وابنها

وهو موظف صغير فى إحدى المصالح ، لم يكن بالمنزل إلا الأم لدى حضورى، وقد رحبت بى ترحيباً حاراً حينما عرفت شخصيتى من (الأوسطى) عبده ، سائق السيارة ،ثم قدمت لى قهوة شربتها على مضض كى لا أجرح شعورها لأن الدار وسكانها على جانب من القذارة لا يشجع أبداً على تناول أى شىء عندهم ، على كل حال لا بأس بالقهوة فقد غلى ماؤها فى النـار ، فلا داعى إلى الخوف إذن من الميكروب.. رب كيف يتاح لنا تنظيف هذا المنزل؟ لا شك أننا سنحتاج إلى أطنان من الصابون للقيام بمثل هذه المهمة . . ثم طفت قليلا فى هذا الحى لأكوّن فكرة عنه . . . لا بأس به فقد يعجبنى جوّه الشرقى الصميم ولو أن أسباب الصحة لم تتوافر فيه ، يمكننى حينما نقيم فيه أن أعتبر نفسى — إذا استعنت بشىء من الخيال إحدى أميرات ألف ليلة وليـلة ، ولو أنى سأكون أميرة مفلسة . . !

***

٣٠ منه — توجهت بعد ظهر اليوم إلى السينما والواقع لم تكن لى رغبة فى ذلك ولكنى ذهبت كى أثبت لأبوى أننى لست حزينة إلى هذا الحد على الكارثة التى حلت بنا . . . ذهبت مع

الأسف بمفردى فى هذه المرة إذ أين هى الصديقة التى ترغب بعد الآن فى مصاحبة فتـاة مفلسة مثلى فى روحاتها وغدواتها ؟ . .
لم تمض دقائق على استقرارى هناك فى مقعدى حتى شاهدت «على» خطيبى السابق مقبلا ومعه فتاة عرفتها من فورى لبدانة جسمها ، اعتدال بنت «ص» . باشا .. ربّاه .. أبين عشية وضحاها يستبدل المرء خطيبة بأخرى ؟ .. على كل حال لا أغبطه على هذا الاختيار لأن الفتاة المذكورة تزن ٩٠ كيلو على الأقل ، وعلى كعهدى به مولع بالفتيات النحيلات .. إذن لابد أن تكون أمه صاحبة هذا الاختيار : . لأن الباشا المذكور محشو بالنقود بقدر ما حشيت ابنته شحما ولحماً . . أما على فلم يرنى إلا فى الاستراحة ولما وقع نظره على احمرّ وجهه احمراراً بيناً أو بالأحرى احمرت أذناه حتى غدتا وكأنهما إشارتا مرور للسيارات . . حقاً . . لم يكن المسكين على يتوقع ذهابى إلى السينما فى مثل هذه الأيام . . لا شك أنه سيقضى ليلة مؤرقة لأن موضوع الرواية كان كبير الشبه بمأساتنا ، فهى قصة فتاة غنية تشك فى أن خطيبها لا يرغب فيها إلا من أجل مالها ، فتدعى فقدانها لمالها ، فى بعض المضاربات المالية ، فيفر عندئذ الخطيب . . ولأنى لا أشك فى أنه ما زال يحبنى

ولو بعض الشيء . . أما أنا فلم أتأثر كثيراً بهذا اللقاء لأن حبي لعلى كما قلت من قبل ، لم يكن يتعدى حد الاستلطاف ، وهذا من حسن حظى لأنى فتاة خيالية فلو كنت أحبه حباً عميقاً لتحوّل قلبي اليوم إلى رماد من جراء هذه المفاجأة . . . ولكن ما لى أخوض فى الحب وشئونه . . لم أعد بعد أهلا لذلك . . ألم أعد أبوى بالمساعدة فى محنتهما الحاضرة ؟ ومع ذلك أليس من المؤلم أن أدفن قلبي ولما تتفتح أكمامه ؟ .

٥ أكتوبر — وجدت أمى هذا الصباح حزينة أكثر منها فى أى يوم مضى لذلك قررت أن أرفه عنها ولو بالقوة . حملتها بعد عناء كبير على الخروج معى والذهاب إلى حديقة الحيوان ، أرادت هى أن تركب السيارة كالعادة ولكنى عارضت فى ذلك قائلة إنه يجب علينا من الآن فصاعداً أن نتعود ركوب الترمواى والسيارات العامة خصوصاً أن الحركة سوف تفيد أمى صحياً ، ركبنا الترام ، وقبل مضى وقت طويل كنا أمام مملكة الحيوان : أول ما بهرنا هناك عند المدخل تلك الببغاوات الأوسترالية ذات الألوان الزاهية المتآلفـة على الرغم من شدة اختلاف ألوانها فمن أصفر فاقع إلى أبيض ناصع الخ . . . حقاً أننى أتحدى

أساتذة فن التصوير الحديث فى مزج هذه الألوان المتباينة هكذا بعضها فى بعض . لا شك أيضاً فى أن منظر هذه الببغاوات يكون أشد روعة وهى فى غابات الموطن تنتقل فوق الأشجار العجيبة . قصدنا بعد ذلك قفص الأسود ، فشجتنا رؤية سيد الغاب ذى اللبدة الملكية البديعة وهو يروح ويغدو فى ذل الأسر ، تفرجنا بعد ذلك على ملك آخر سجين ألا وهو النسر ملك الجو كما يقولون . . شاهدنا عدة أنواع من النسور : النسر الأمريكى ، النسر الأسيوى ، النسر المصرى، النسر السودانى. إنها كلها قبيحة المنظر والعياذ بالله . رب ! كيف يلقبون ملكا طائراً دميماً مثل هذا ؟ أليس الطاووس مثلاً أحق بمثل هذا اللقب، إذ أن الملك يجب أن يكون فى رأيى جميلا كى يستولى على قلوب رعيته ؟ ثم مررنا على مكان الحيات ، ولكن أمى رفضت أن تتفرج عليها صائحة: علام نضيع هنا وقتنا سدى؟ أليس لدينا فى الزمالك حية تفوق هذه الحيات كلها أذى وخبثاً ألا وهى حكمت هانم ! ثم تفرجنا على الخنزير البرى فعجبت من أن يكون مخلوق فى الوجود على مثل هذه الصورة القبيحة . و إذا كانت ديانة تناسخ الأرواح

هى ديانة الحق فإنى أدعو الله أن يبعث روح جارتنا حكمت هانم فى جسم هذا الحيوان الدميم .

ثم رأينا فى الجهة المعدة للذئاب والثعالب نوعاً من الثعلب الصغير جداً اسمه الفنك . حقاً أنه حيوان لطيف يستطيع المرء نظراً لضآلة حجمه أن يطويه فى جيبه . والعجيب فى أمر هذا الفنك أنهم ذكروا عنه أنه من أكلة اللحوم . ترى ما يكون الحيوان الذى يستطيع أن يفتك به فنكنا الصغير ؟

قصدنا بعد ذلك مملكة القرود وهى أكثر الحيوانات تسلية بالحديقة لأنهـا أقربها شبهاً بنا ، إننى كلما نظرت إلى عينى القرد أو يديه شعرت برعشة بل بمذلة من أجل ذلك الشبه العجيب ، هنا عند القرود رأيت الابتسامة تعود إلى ثغر أمى بعد ما كانت قد اختفت عنه فى الأيام الأخيرة . إذ أن المناظر التى شاهدناها لدى القرود مسلية للغاية . رأينـا قرداً صغيراً اتخذ ظهر أمه مطية فصعدت به الأم الصخور فى سرعة عجيبة ممـا جعل الابن يصرخ ويولول كالأطفال تماماً خوفاً من أن يقع من فوق ظهرها . ثم وجدنا فى مكان آخر قرداً شرع ينقى أخاه من البراغيث التى كان يبتلعها فى لذة كلما عثر على واحد

منها وكأنها حبات من الفول السودانى الشهى . لاحظنا فى مكان ثالث قردين يطارد أحدهما الآخر فكانا يقفزان فوق الأغصان ويتأرجحان عليها فى مهارة عجيبة قل أن يأتى بمثلها « فيسمولر » طرزان هليوود العظيم . ثم شاهدنا فى ركن ما من الحديقة طائراً أسود رشيقاً يدعى الرهو اليابانى والعجيب فى أمر هذا الطائر أنه ظل طول الوقت واقفاً على ساق واحدة دون أن يأتى بحركة كأنه دمية لا جسم حى .

ولما رأيت التعب بادياً على وجه أمى ، التعب الجسمى لا الروحى ، ولله الحمد ! قفلنا راجعتين .

قبلتنى أمى بحرارة فى تلك الليلة شاكرة لى هذه النزهة التى روحت عنها كثيراً داعية لى بأطيب الدعوات . وأظن أن السماء كانت مفتحة الأبواب فى تلك اللحظة التى دعت لى أمى فيها لأنى نمت هذه الليلة نومة هادئة لذيذة على الرغم من المصائب التى كانت تحيط بنا .

١٠ أكتوبر — ما زال الناس يتحدثون عن الكارثة التى حلت بنا . فاذا جاءوا لزيارتنا كان غرضهم فى الغالب التشفى ! لذلك أضر بنا عن استقبالهم . . كذلك صديقتى علية أمرها عجيب . . .

حضرت مرة مستفهمة فلما أبدت لها النبأ لم تنفجر باكية كما كنت أتوقع منها بل قالت : حقاً أننى آسفة لك يا عزيزتى ، كأن ما حدث لى لم يكن إلا خسارة قفاز أو ضياع حقيبة يد .. ثم استأذنت بعد دقائق وانصرفت متعللة بكثرة مشاغلها ، ياللدنيا . . . إن تلك الفتاة كانت إذا حضرت عندنا قبل اليوم لا تنصرف إلا بعد أن تقضى الساعات الطويلة . . . كما حدث مثل ذلك عند ما كانت ترجونى كى أتوسط لها فى الصلح مع صديق لها يدعى صالح مل صحبتها .

تسليتى الآن إصلاح بيت الوقف وتنظيمه إذ أرجو أن يكون معداً فى نهاية الشهر لأننا مللنا المقام هنا وسط قوم على هذا القدر من سوء النية ونكران الجميل . . . ولو أنه سيؤلمنى مغادرة بيتنا الحالى من أجل ذكريات الطفولة التى أخلفها فيه ، ولسوف أبتعد عن غرفة نومى التى أحبها كأنها عضو من أسرتنا . . . أتحدث إليها حينما أشعر بالوحدة أو أغنى لها فى أوقات السرور ... وأشعر بوحشة أيضاً لفراق الحوريات المصورة على جوانبها وطالما أنست بهـا فى أيام المرض فتخيلتها تارة تبسم لى وطوراً ترقص أمامى . .

٢٥ أكتوبر — كنت أتصفح إحدى المجلات الأسبوعية المصورة بعد ما فرغنا من تناول الغداء فاذا نظرى يقع بها على برنامج للحفلة الساهرة التى أقامتها السيدة «ن» بقصرها مساعدة لإحدى الجمعيات الخيرية والتى كنت سأشترك فيها . . رأيت صور المناظر التى قدمت للجمهور فى تلك الليلة وبينها المنظر الفرعونى الذى كنت سأظهر فيه كوصيفة للملكة « تايا » وقد حلت محلى فيه اعتدال خطيبة على البدينة ! بالله ما أعجب أمر هذه الفتاة التى تريد أن تستولى على تركتى برمتها . لقد كان منظرها مضحكا وهى تنحنى للأرض تحية للملكة وقد ناءت المسكينة تحت عبء التسعين كيلو التى تزنها ، كذلك الجمهور لا بد أنه قد عجب من أمر تلك الوصيفة الفرعونية البدينة ، لأن المصريين القدماء اشتهروا برشاقة أجسامهم ، أنظر إلى الصور التى حلوا بها قبورهم ومعابدهم تجدها كلها تمثلهم . . . فى أجسام رشيقة . . كذلك على ظهر فى دور الوصيف وهو يحمل شاربه القصير البغيض . ذلك الشارب الذى استطعت أن أحمله على إزالته يوم حفلة (رفيمة) . . رب ما هذا المسخ الفنى ، من شاهد أبداً وصيفاً من عهد الفراعنة يحمل شارباً . بل شارباً

سوى على طريقة « كلارك جيبل » ! ولكن ترى لماذا قد أعاد علىّ شار به الصغير ، هل هذه رغبة الخطيبة الجديدة ؟

على كل حال أصبحت أرى بعد ما تحررت من تأثير ذلك الوسط أن مثل هذه الحفلات لا يأتى بالفائدة المنشودة لأن معظم الإيراد يذهب مصاريف . . لا يتبقى منها فى الحقيقة غير التسلية التى تنعم بها تلك الطبقات الراقية . . .

٢ نوفمبر — اليوم شرعت فى جمع ملابسى من (الدواليب) فهالنى عدد الفساتين والأحذية التى أمتلكها ، هل من الإنصاف أن يمتلك فرد واحد من أفراد الشعب مثل هذا القدر من الملابس بينما يسير الكثيرون بل الآلاف المؤلفة عراة فى الشوارع ؟ أردت أن أوزع كل ما أمتلك منها على الخدم ، ولكن أمى أقنعتنى بوجوب الاحتفاظ بجزء منها صائحة : بالعكس يا حبيبتى الاحتفاظ بها الآن ضرورى أكثر من أى وقت مضى ، لأنك سوف لا تستطيعين فى المستقبل تفصيل كل ما ترغبين . أما ملابس السهرة فهى التى هممت حقاً بتوزيعها كلها بل بإحراقها كراهية للمجتمع الذى كنت أرتديها فيه ، ولكن هنا أيضاً أشارت علىّ أمى بالاحتفاظ باثنين أو ثلاثة منها على الأقل من

باب الاحتياط ، وقد حصلت نفيسة خادمتى الخاصة على القسم الأكبر من هذه الملابس لأنها على وشك الزواج من شاب ميكانيكى. أعطيتها أيضاً كل ما عندى من أدوات زينة الوجه : معاجين ، بودرة أحمر الخ . لأنى سوف لا أحتاج بعد لهذه السفاسف فى العالم الجديد الذى أنا مقبلة عليه . ولكنى أخطأت كثيراً فى إعطائى نفيسه هذه الأشياء إذ جاءت فى المساء ووجهها ملطخ بها وكأنها مهرجة فى سيرك ، ضحكت عليها ضحكا متواصلا حينما شاهدتها على هذه الحال ، فحزنت الفتاة من أجل ذلك قائلة : ألأنى فقيرة لا يحق لى أن أتجمل ؟ قلت وأنا أربت على كتفها : معاذ الله أن أفكر فى مثل هذا يا عزيزتى نفيسة ، إنما الأمر أنك أسرفت فى زينتك . فأجابت الفتاة فى زهو : ولكنى هكذا أعجبت إبراهيم — وهو خطيبها — قلت : حينئذ ابقيها لأن المطلوب إعجابه هو لا إعجابى أنا .

شرعت فى جمع كتبى أيضاً فأنا ضنينة بمكتبتى التى تضم مجموعة لا بأس بها من الكتب القيمة ، إنى أحب الكتب بل أحب المطالعة . لست ممن يقتنون الكتب لمجرد الزينة . ولما كان أهلى وأصحابى يعلمون بهذا الميل كانت أكثر هداياهم إلىّ

فى مناسبات الإهداء كتباً : عندى من الكتب القيمة مؤلفات جيد ، پروست ، فرويد ، فرانس الخ . وبينما كنت أقلب فى هذه المجلدات عثرت على مجموعة من التذكارات لرحلتنا إلى باريز فى العام الماضى ، وهى برامج وتذاكر للمسارح والملاهى التى غشيناها إذ ذاك . لله در باريز من مدينة ساحرة ما أروع مسارحها ! وبخاصة الكوميدى فرنسيز حيث تمثل الروايات الكلاسيكية تمثيلا يفوق كل وصف من حيث الدقة والإتقان ، وقد برع القوم بوجه خاص فى فن الإلقاء الذى يحبب إلى الغريب حتى إذا لم يكن متضلعاً من اللغة الفرنسية ، هذه اللغة الرقيقة ، كذلك أذكر مسرح الفولى برجير الشهير حيث شاهدنا أعظم الاستعراضات نفقة وتنسيقاً . وإنى لأعجب كيف تسنى لهم جمع مثل هذا العدد من الراقصات اللاتى يجتمع لديهن إجادة الرقص إلى نضارة الوجه ورشاقة الجسم ، وليس جمال باريز مقصوراً على مسارحها ، بل هناك متاحفها الثمينة : كمتحف اللوفر حيث يستعرض الزائر تاريخ فرنسا المجيد . ثم هناك قصر فرساى الضخم وهو فى ضواحى باريز ، وكان مقراً لأكثر ملوك العالم بذخاً وترفاً .

ولباريز شوارع وميادين رائعة ، وبخاصة ميدان الكونكورد الذى يقال إنه أفسح ميدان فى العالم ، وبه دمى تمثل كبريات مدن فرنســا ، وقد نصبت به مسلتنا المصرية المحبوبة . والكونكورد نجم فى الليل ، إذ هو مشكاة كبيرة لكثرة ما يتلألأ فيه من المصابيح . ولقد شهد هذا الميدان الجميل أياماً مروعة فى أثناء الثورة الفرنسية ، فقد قطع به رأس الملك البائس لويس السادس عشر ، كذلك طوح فيه الثوار برأسى الملكة مارى أنطونيت والكونتس دى بارى[1] الجميلتين .

ترى هل سيتيسر لى بعد الكارثة التى حلت بنا ، مشاهدة باريز مرة أخرى ؟ أما هذه الوريقات التى تحمل فى ثناياها عطر باريز ، فلسوف أحتفظ بها كى تذكرنى بفترة سعيدة من العمر مرت وتلاشت فى طيات الدهر .

٤ نوفمبر — اليوم أقيم بمنزلنا ، بناء على رأيى أنا وعلى الرغم من معارضة أبوى ، مزاد علنى للأثاث لحسابنا الخاص ، لأن أبى استطاع أن يخرجه من الحجز بعد أن أثبت للدائنين ملكيته لأمى ، أشرت بإقامته بعد أن رأيت فى السنين الأخيرة شدة إقبال أعياننا

---

(١) حظية لويس الخامس عشر

على مثل هذه المزادات ، كأنهم اتخذوها أندية اجتماعية . . جاء البيع ولله الحمد بمال وافر كنا فى أشد الحاجة إليه من أجل إصلاح بيت حى السيدة زينب وتأثيثه الأثاث البسيط المناسب . أشرفت بنفسى على البيع فكنت إذا وجدت قطعة سيرسو عليها المزاد بالثمن البخس أرسلت من ينافس لتزيد قيمتها .

لم تحضر واحـدة من صديقاتى المزاد ، هذا ولا شك من باب المجاملة ، ولو أنى وددت اشتراكهن فيه لرفع الأثمان ، كذلك عجبت لعدم حضور جارتنا حكمت هانم ، إذ كان فى وسعها أن تصول وتجول فى مثل هذا اليوم، ومن يدرى ؟ ربما كان لها مندوب أو بالأحرى جاسوس بين الحاضرين يوافيها بالتقارير بعد انتهاء الجلسة . . أو ربما راقبت هى الأمور من نافذتها بمنظار كبير .

ولكن اعتدال خطيبة (على) البدينة كانت بين الحاضرات ، ترى هل جاءت تشفياً بى أم نكاية فى على ؟ لاحظت أن التحف كانت أكثر الأشياء حظاً فى الإقبال عليها .

***

٦ نوفمبر — اليوم حينما غادرنا منزل الزمالك منتقلين إلى

حيّ السيدة زينب ذرفنا دموعاً مرة كالتي ذرفها عبد الله ملك غرناطة لدى خروجه للمرة الأخيرة من قصره «الحمراء» ... كيف لا نحزن وقد خلفنا وراءنا كنزاً من الذكريات ؟ . . . ومما زاد في ألمي أني لم أجد السماء تشاركنا حزننا كما كنت أتوقع . . . . فلم تكن ثم عواصف ولا أنواء ، بالعكس كان الجو صافياً ، والهواء عليلا كما هي الحال عادة في أيام الخريف اللذيذة . . . . إذن ما أكذب هؤلاء الكتاب الذين يدعون في رواياتهم ، مشاركة الطبيعة لأبطالهم المنكوبين أحزانهم ، فيقولون مثلا يوم توفي فلان بطل القصة الشهيد : إن السماء كانت ملبدة بالغيوم ، والعواصف تعصف الخ . . . .

***

١٠ نوفمبر — إننا نقطن حيّ السيدة منذ بضعة أيام ، نقيم فيه منعزلين عن الناس ، كأننا في جزيرة وسط محيط ، إذ أن جيراننا كلهم من الطبقة الدنيا التي لا يمكن مع الأسف إنشاء علاقات تعارف وإياها ، وليس هذا ترفعاً منا ، وهل يحق لنا أن نتعاظم بعد ما حلّ بنا ؟ بل لأن هذه الطبقة في مصر على جانب كبير من الانحطاط من أثر الفاقة والجهل اللذين تتخبط فيهما من

زمان طويل ، وعلى كل فليس لهم ذنب فى ذلك . . . إنما الذنب على حكامهم الذين لم يفكروا فى رفع مستواهم . . . أسوق على سبيل المثل ما كان بينى وبين عائشة زوجة «ع» . . أحد تجار التوابل حين قدمت إلينا لتبارك مقدمنا بالحىّ . . . علمت منها أثناء الحديث أنها تنام هى وزوجها وأولادها الخمسة فى غرفة واحدة . فلما أظهرت لها تعجبى لهذا الأمر ، واعترضت عليه لمنافاته للعرف وللصحة دهشت لاندهاشى ولم تقتنع بطبيعة الحال باعتراضاتى ، بل ربما استجنّتنى فى أعماق نفسها . فلما سألتها إذا كانت هناك غرفة أخرى يصح أن تنام هى فيها أو ينتقل إليها زوجها صاحت مذعورة : أجل هناك غرفة أخرى ، ولكن معاذ الله أن ينام أحد منا فيها فهى مأهولة بالجن . . . . كذلك عرفت فتاة تدعى نفيسة وهى تقربنى سناً ، جاءت لى بالأمس تشكو من التهاب فى ساقها قائلة إنه ربما كان عندى دهان يشفيها . . . ولما فحصت الساق وجدت بها جرحاً عميقاً يعلوه الصديد ، وقد عصبته الفتاة بخرقة أقذر من الجرح نفسه ، ثم شاهدت مع العجب دهاناً أخضر اللون موضوعاً على الجرح ، فلما سألتها عن مصدره قالت : إنه من عند الحاجة ف . . ثرت عندئذ

إزاء هذا الجهل الفاضح ، ثم جذبت الفتاة عنوة من يدها وذهبت بها إلى أول عيادة صادفتنا فى الحى حيث فحصها الطبيب وهو متعجب لهـذا الإهمال الذى كاد يودى بساق الفتـاة التعسة . . . حقاً . . . ما أتعس هؤلاء القوم . . . إنى لأرثى لهم من أعماق قلبى . كم وددت مساعدتهم ، ولكنى أينما توجهت اصطدمت بحائط ضخم كأهرام الجيزة ، شيده الجهل والفاقة . . والخرافات . .

***

٢٠ منه — وجدت عملا فى شركة من شركات التصدير الأجنبية ، ولو أنها تعتبر فى عرف القانون مصرية . . . حقاً . . . يا لهـا من شركة مصرية عجيبة موظفوها المصريون . . . أنا والسماة ! ساعدتنى فى الحصول على هذه الوظيفة صديقة فرنسية تدعى لوسين من زميلاتى فى « المردى ديو » إذ أبوها من كبار مساهمى الشركة المذكورة ، أما زملائى فى العمل فكلهم من الأجانب المتمصرين المعروفين فى أوربا باللاوندبين ، وهؤلاء يتكلمون فرنسية عجيبة ذات اصطلاحات عربية مما أدى بفرنسى ظريف إلى تسميتها بحق « فرانكو — آراب » ... والعجيب

فى أمر هؤلاء أنهم يفخرون فى الخارج بالانتساب إلى الجنسية المصرية فيقولون إنهم مصريون صميمون ، بل يزعمون أنهم من سلالة الفراعنة . . . فإذا عادوا إلى مصر انقلبوا « خواجات » يرطنون بالفرنسية والإنجليزية . . .

***

ألحقت فى الشركة بمكتب المراسلات ، ومرتبى سبعة جنيهات وهو مرتب ضئيل ولا شك ، لا سيما أن شغلى كثير فأنا أعمل صباح مساء ، ولكنه خير من لا شىء ، على أننى أجد فى هذا العمل تسلية لنفسى القلقة المضطربة ... وأتعلم فى أوقات الفراغ الكتابة على الآلة الكاتبة إذ أن عملى يقتضينى معرفتها ، أما أبواى ، فقد يلوح لى أنهما تعودا الوضع الراهن لحالنا ، فقد رجع أبى إلى عادته القديمة فى قضاء وقته بقهوته القديمة مع أصحابه ، كما أنه استرد هدوءه ولو أن وجهه شحب شحوباً بيناً فى المدة الأخيرة . . . وأمى لا تزال محتفظة بعادتها من حيث القعود طول الوقت على المقعد الجلدى الوثير ، وكنا احتفظنا به من أجلها ، وقد وضعته فى المنزل الجديد بالقرب من النافذة التى تطل على الشارع لتشاهد أهل الحى فى روحاتهم وغدواتهم . . . وقد استبدلت

بقراءة الصحف والمجلات التطريز ، تقضى أكثر الوقت فى تهيئة ستر وصدارى لنا من الصوف ، قد نحتاج إليها حينما يبرز الشتاء فى مصر ، فى غضون الشهر القادم . . . حقاً . . . أننى أشكر الله من أعماق قلبى لأنه أخرج أبوى المحبوبين سليمين من هذه المأساة ، كما أعاد إلى نفسيهما بعض الهدوء والطمأنينة .

أما زملائى فى العمل ، من ذكور وإناث ، فعلاقتى بهم لا تتعدى المجاملات العادية . . . يوجد بين هؤلاء شاب يرى أنه شريك نجوم السينما فى الحسن والرشاقة ، ذلك لأن فتاة ادعت مرة أن هناك شبهاً كبيراً بينه وبين النجم الفرنسى الشهير شارل بوييه ، لا شك أن الفتاة قالت له ذلك على سبيل المزاح ، لأنه ليس هناك شبه مطلقاً بينهما ، بل إن صاحبنا أقرب فى الشبه إلى حاخامية أوربا الوسطى بأنفه الأقنى الضخم . . . أراد هذا الشاب بالأمس مغازلتى ، فلما صدمته وألزمته حدوده أخذ يقول عنى المصرية متكبرة . . . . « والمصرية » هو الاسم الذى يطلقونه على

***

٢١ منه — حقاً . . . أجد سلوى كبيرة فى كتابة هذه

السطور فأنا أستطيع أن أتكلم فيها بحرية ومن غير مقاطعة أو مضايقة ، يمكنني عرض عواطفي فيها ، ثم تقليبها ، ثم فحصها دون أن يطلع أحد عليها . . . لو كانت لى ثمة صديقة حميمة لكان الأمر غير ذلك ، كنت عرضت عليها شئوني ، ولكن ليس لى مع الأسف صديقات . . . كنت أعز فيما مضى علية ومع ذلك لم أطلعها على دخيلة نفسي ، إذ كلما شرعت فى ذلك وجدت من نفسي ترددا لم أدر له سببا ، ومع ذلك ما كان أصدق هذا الإحساس ! إذ ها هى ذى علية تخلفت عنى حينما حل بنا الإفلاس . . . أما فى المدرسة فقد وددت اتخاذ المرحومة أمينة كاتمة سرلى ، ولكن هذا لم يتيسر لأن أمينة كانت موضع حب الجميع فى المدرسة ، تتخاطفها المدرسات والطالبات من كل صوب كأنها قطعة من الكاستناء المسكرة « مارون جلاسيه » . . وكانت لى صديقة أخرى تدعى مارسيل من فرنجة الشرق لم يكن فى استطاعتى اتخاذها كاتمة أسرار لأنها تصغرنى كثيراً فى السن بل كنت أنا كاتمة أسرارها .

أحبتنى مارسيل حباً كبيراً كأنها رأت فىّ أمّا ثانية لها وقد فقدت أمها وهى فى سن الطفولة ، يا لسذاجة أسرارها ! . . . .

كانت هذه الأسرار تدفعنى أحياناً إلى الضحك من مارسيل ضحكا متواصلا عالياً تغضب له الفتاة وتثور ، ولكننى كنت أمحو هذا الغضب بقبلة واحدة ، وكيف لا أضحك وقد أتت إلى مرة تقول إنها تشاجرت مع تلميذة أخرى تدعى (اليان) لأنها وجدت فى درج (اليان) صورة النجم السينمائى فرانشتون مع علمها بأن هذا النجم هو حبيب مارسيل وفتى أحلامها .

* * *

٢٣ منه — لدى عودتى اليوم فى الظهر إلى المنزل ، لتناول طعام الغداء وجدت أمى تتحدث إلى علية التى لم أشاهدها من مدة ، فلما رأتنى هرعت إلى ثم ضمتنى إلى صدرها قائلة إن الذى دفعها إلى الحضور شدة حبها واشتياقها إلى ، أما أنا فرأيى أن الذى دفعها إلى الحضور رغبتها فى مشاهدة مسكننا كى تجد لدى عودتها إلى الزمالك موضوعاً جديداً تتكلم فيه مع أصحابها وأصحابنا السابقين هناك . . . ولكن من حسن الحظ أن بيت الوقف أعجبها لأننا استطعنا لصغر حجمه تنسيقه تنسيقاً جميلا من غير نفقات كبيرة متبعين الطراز العربى كى يناسب الجو الشرقى الذى يحيط به ، غير أنه طراز عربى مستحدث لأن

الطراز العربى الخالص يقبض الصدر كما أنه يحجب الضوء . أما الطراز العربى المستحدث فنقيض ذلك . . تناولت علية معنا طعام الغداء و بعد ما انتهينا منه حضرت إلى غرفتى حيث أخبرتنى بأن (على) قد خطب الفتاة البدينة المثرية التى شاهدتها معه فى السينما ؛ ثم أضافت إنه متضايق جداً من هذه الخطبة التى فرضتها أمه عليه فرضاً لأنه لا يميل أبداً للفتاة المذكورة ، بل هى موضع سخريته بين أصحابه لأن الفتاة المسكينة مدلهة بحبه . . . يقول إنه كلما تناول الطعام لدى أبيها أخذت الفتاة تلتهمه بنظراتها أثناء الأكل كما جعلت تضغط على قدمه بقدمها الغليظة ، فاذا برحوا المائدة جذبته من يده إلى الحديقة حيث تشرع فى تقبيله فى شره ونهم . . . ولكنى لا أقر (على) على تجريحه للفتاة المسكينة التى لا ذنب لها إلا أنها أحبته . . . ولكن علام يغضب علىّ ؟ إنه يطلب المال فعليه إذن أن يضحى فى سبيله . وقد صحبتنى علية فى سيارتها ذات المقعدين إلى محل عملى وكانت تجهل أمر توظفى فلما علمت به أثنت على كما أشادت بشجاعتى الأدبية . . . ترى هل هى مخلصة فى هذا الثناء . . . ؟ . . .

***

٢٥ منه — كان الركوب فى السيارات الخاصة فى الماضى يحرمنى مشاهدة الحوادث المسلية التى تحدث كل يوم فى السيارات العامة أوفى الترام .وقد أرتنى هذه الحوادث ، على الرغم من فكاهتها ، الناس بمنظار قاتم ، إذ بينما هم يبالغون فى التمسك بحقوقهم تجـدهم يتجاهلون واجباتهم ، شاهدت مثلا اليوم لدى عودتى بعدالظهر إلى عملى الحادث الآتى ، الذى أخرنى كما أخر سائر الركاب برهة من الزمن . كانت السيارة ملأى بالركاب لا سيما فى الدرجة الثانية ولكن مع هذا صعد راكب وجد مكاناً عندنا فى الدرجة الأولى فلما طالبه العامل بالأجر أبى أن يدفع إلا قرشاً واحداً وهو أجر الدرجة الثانية معتذراً بعدم وجود مكان خال يجلس فيه هنالك فى الدرجة الثانية ، وحاول العامل أن يقنعه بدفع القرشين ولـكن من غير جدوى ، عندئذ خيره بين الدفع أو النزول ، ولـكن صاحبنا أبى هذا وذاك بل أضاف على الرفض قوله للعامل إنه وقح وقليل الأدب . . . ثم رد العامل التحية بأحسن منهـا وكادا يشتبكان بالأيدى لولا تدخل الركاب الذين عيل صبرهم وكان السائق قد توقف فى هذه الأثناء عن المسير . . .

كذلك أرى أحياناً ركاباً يعرضون على العامل أوراقاً مالية من فئة الجنيه من أجل تذكرة قيمتها قرش أو قرشان . . . فإذا اعتذر الرجل نزلوا من السيارة بعد أن يستنزلوا اللعنة على رأس العامل بعد أن يكونوا ضيعوا وقت الركاب المساكين

٢٦ نوفمبر — وجدت اليوم عند الظهر لدى انصرافى من المكتب خطيبي السابق (على) واقفاً ينتظرنى بعد ماركن سيارته بالقرب من الرصيف قال وهو يحييني تحية حارة رددتها له أنا فى شيء من البرود : هل تأذنين لى فى أن أوصلك حيث تذهبين ؟ قلت متهكمة : وهل جئت خصيصاً لهذا الغرض ؟ قال متلعثما : كلا كنت أريد أن أتحدث إليك قليلا . قلت : إذن هات ما عنـدك ، أما بخصوص توصيلى فاننى أفضل ركوب سيارتى على سيارتك ، شرع على عندئذ يحملق يمنة ويسرة باحثاً عن سيارتى تلك بدون جدوى فقلت ضاحكة : أسأت الفهم يا صديقى . أقصد السيارة العامة « الأتوبوس » إننى سائرة على قدمى إلى الموقف الذى لا يبعد كثيراً من هنا فاذا كان لك كلام معى فيمكنك أن ترافقنى حتى نبلغه ولنتحدث أثناء السير . ولكن (على) سار بجنبي خطوات وهو لا ينطق بكلمة . عندئذ

سألته : مالى أراك صامتاً ؟ قال معاتباً : ما هذه المعاملة القاسية يا سميحة ! هل نسيت حبنا القديم ؟ قلت فى سخرية : حبنا القديم ؟ ربما كنت أنت تحب يا صديقى . أما أنا فلا . الله يشهد أن عاطفتى نحوك لم تتعد يوما حد الاستلطاف . ولو كنت أغرمت بك لقضى على يوم تخليت عنى بلا سابق عذر أو إنذار. صاح على : أقسم لك يا سميحة بأنى لم أتخل عنك عن طيب خاطر ، بل هى أمى التى ضغطت على . . . قلت : هذا عذر أقبح من ذنب ، إذ معنى كلامك أنك معدوم الإرادة . قال : ثقى يا سميحة إننى لو كنت أتممت دراستى واشتغلت وكنت فى حالة تمكننى من الاستغناء عن مال أمى لما ترددت لحظة فى الاقتران بك. قلت متهكمة : يا للخسارة ! لقد حرمت شرفا عظيما . صاح : كفانى تهكما يا سميحة ، والآن هلا عفوت عما مضى ؟ قلت : عفوت. والآن هل لك طلب آخر؟ قال: أجل، أن نكون صديقين. قلت متهكمة : وهل تظن أن خطيئتك الجديدة اعتدال تبارك مثل هذه الصداقة ؟ قال : سوف لا تعلم بها ، إذ سوف نتقابل يا عزيزتى فى مكان بعيد عن أعين الناس . قلت بعد أن أطرقت برأسى قليلا : فهمت قصدك ، الآن وقد حصلت على الزوجة

الغنية تبحث عن الخليلة ، كأنى بك تقول فيما بينك و بين نفسك : ولكن لم أرهق نفسى فى البحث عن تلك الخليلة بعيداً وهذه سميحة أمامى وقد أصبحت سهلة المنال بعد الذى قد حل بها من فقر . لا يا صاحبى إننى لا آكل من هذا الخبز .
احمر وجه على خجلا لدى سماعه هذا القول منى إذ لاشك فى أنى قد أصبته فى الصميم ثم أجاب متلعثما : كلا يا سميحة كلا ما قصدت هذا أبداً . وكنا قد بلغنا موقف السيارات فصعدت فى الأتوبوس بعد أن التفت إليه .قائلة : أرجو ألا تتحمل مشقة انتظارى مرة أخرى يا صاحبى ، طاب يومك .

***

٢٧ منه — اليوم لدى عودتى إلى المنزل ، حوالى الساعة الواحدة فى السيارة العامة ، كانت المقاعد كلها مشغولة فى الدرجة الأولى ، عندئذ تنحى لى شاب عن مقعده ، فأعجبنى عمله لأنه تنحى فى أدب إذ أن كثيراً من الشبان الذين كانوا يتنحون لى كانوا يتخذون ذلك سبباً للغزل والمماكسة ، كما أن هذا الشاب لم يحاول أن ينظر إلى أثناء وقوفه فى الممر ، بل أنا التى كنت أختلس إليه النظرات وقد راعنى حسنه . . . وكانت

ملامح وجهه جميلة وسمرته لطيفة ... ولكن فيم اهتمامك بالشاب يا سميحة ؟ . . . هل يا ترى تجدينه ظريفاً . . . ولم لا ؟ ... إنه شاب وسيم على كل حال .... قولى إنك وددت لو نظر إليك . كى تعرفى لون عينيه . . . . ترى أى الألوان أوفق لعينى ذلك الشاب ذى البشرة السمراء ؟ ... الخضرة ... أليس كذلك ؟.. ولكنه نزل مع الأسف دون أن تتحقق من لون عينيه ....

***

٢٩ منه — اليوم بدأنا نشعر بقدوم الشتاء ، والعجيب فى أمره أنه يأتى فى مصر مفاجئاً بغير سابق إنذار كالصيف إذ ليس عندنا مع الأسف ربيع أو خريف . . . أو إذا كان هناك شيء من هذا فعمره قصير .... حقاً .... أننى أشعر بالبرودة وها هى ذى أسنانى تصطك .... والسماء أيضاً قد تغيرت فاحتجب أبونا « رع » عن الأنظار كما تجمعت الغيوم الكثيفة التى تنذر بالمطر . . . كنت أحب فى الماضى هطول الأمطار لأنى كنت أجد لذة فى مشاهدة قطراتها وهى تتأرجح على زجاج النافذة ... أما الآن فانى أخشاها لأن الطرق فى حيّنا الجديد ليست نظيفة مع الأسف كما أن معظمها غير مرصوف ... بل هى تتحول فى

الأيام الممطرة إلى برك ومستنقعات والعياذ بالله . . إننى أشعر بالكآبة اليوم . ترى هل هذا من تأثير الجو الملبد المظلم ، أم لأننى لم ألتق مرة أخرى بذلك الفتى الوسيم ، الذى لم أتحقق من لون عينيه ؟

٣٠ نوفبر — اليوم يوم عطلة لى ، لذلك رأيت أن أحمل أمى على الخروج لأرفه عنها قليلا ولأغير من نظام حياتها اليومى الممل ، وهو قضاؤها الساعات الطويلة على المقعد الجلدى منهمكة فى التطريز . مسكينة أمى كانت دائماً وحيدة . حتى فى الزمالك لم تكن لها صديقات بمعنى الكلمة بل بضع معارف من الجارات ، وبخاصة حكمت هانم التى كانت أكثرهن تردداً عليها . ولكن حكمت هانم هذه قد منعناها من دخول بيتنا الجديد بعد مسلكها الشائن معنا أثناء المحنة . . . هناك أيضاً غير هؤلاء بضع نسوة من المحاسيب كن وما زلن يترددن عليها من وقت لآخر لأن أمى الطيبة ما زالت تغدق عليهن إحسانها رغم العسر التى هى فيه الآن . أما أبى فهو أكثرنا حظاً من حيث مسلك أصدقائه معه لأن هؤلاء لم يتنكر له واحد منهم أثناء المحنة بل أكبروا عمله كما أرادوا مساعدته بدورهم ولكنه اعتذر لهم مع الشكر والتقدير .

قالت لى أمى وقد بلغنا الشارع : ولكن إلى أين تريدين الذهاب بى ؟ قلت : هيا بنا نجول فى حيّنا الجديد إذ أن الجو اليوم بديع يا أماه والشمس أبدع تملأ الفضاء حياة وغبطة . قالت أمى : ولكن الطرق هنا قذرة أيتها الأديبة المحبوبة لا يطيب التجوال فيها . ثم أطرقت قليلا ثم عادت فقالت : عندى فكرة . هيا بنا نزور ضريح السيدة زينب . صحت : وأنا لا مانع عندى من ذلك إذ أنى لم أزره من أمد بعيد . منذ حداثتى . حينما أخذتنى هناك داده مبروكه رحمة الله عليها ، عساها تشفينى من تلك الحرارة التى لازمتنى طويلا فى ذلك الوقت وقد حار فيها الأطباء . صاحت أمى وقد ظنتنى أذكر ذلك الحادث على سبيل السخرية : وقد شفيت فعلا يا حبيبتى بعد تلك الزيارة المباركة بأيام قليلة !

دخلنا المسجد فاذا به غاص بالناس . ولكن معظمهم من الطبقة الدنيا . لم أجد إلا القليل من طبقتنا مع الأسف . قلت : حقاً أن هذه الطبقة لأكثر منا تعلقاً بالدين ولو أنه يؤلمنى فيها قذارتها . قالت أمى : الفقر هو يا ابنتى السبب فى ذلك . قلت : كلا يا أماه . هل تذكرين ما قاله أبى لنا عن رحلته فى تركيا

حينما عطلت العربة التى كان يستقلها مع بعض أصـــدقائه للنزهة فى ضواحى استنبول ، فرجاهم السـائق أن يستريحوا قليلا فى بيته وكان قريباً من المكان الذى عطلت به العربة فخشى أبى وأصدقاؤه دخول البيت ظناً منهم أنه سوف لا يكون نظيفاً وهو بيت رجل من هذه الطبقة ، ولما دخلوه بعد إلحاح من السائق وجدوه آية فى النظافة مع بساطته وضآلة الأثاث ، وقد قدمت لهم زوجة السائق قهوة لم يشربوا مثلها من حيث النكهة والنظافة فى كثير من بيوت أثريائنا فى مصر ، ثم وقفنا حيال الضريح فشرعت كل منا تقرأ الفاتحة فاذا انتهت منها تمتمت بكلمات . . ولما انصرفنا من هناك قالت أمى : هل تعلمين يا حبيبتى أنى دعوت لك كى تحصلى على الزوج الغنى الذى يعيد إليك هناءك وسعادتك ؟ صحت : أو مازلت تعتقدين يا أماه أن المال هو سبب السعادة بعد الذى حل بنا من شقاوة من جرائه ؟ ثم أطرقت قليلا ثم عدت فقلت : وأنا أيضاً دعوت يا أماه ! دعوت الله أن يطيل عمركما أنت وأبى وأن يبارك شيخوختكما . فصاحت أمى وهى تربت على كتفى لأن المكان لم يكن ملائماً للعناق أو للتقبيل : بارك الله فيك أيتها البنت البارة !

أول ديسمبر — اليوم هطل المطر بغزارة كما اشتد البرد ، فأسفت على النعيم الذى فقدته إذ كانت سيارتنا تقلنى فى مثل هذا اليوم إلى حيث أشاء من غير خوف من الأمطار . أما الآن فعلىّ أن أحسب حساب الوحل فى كل خطوة أخطوها ... رأيت أطفالا كثيرين فى الحىّ يمرحون ويلعبون فى الوحل الذى تكوّم فى الطرق والمنافذ عقب المطر وكانوا حفاة وثيابهم مهلهلة لا تستر شيئاً تقريباً . . . فحزنت من أجل ذلك ... رب كيف يسمح المصرى بوجود مثل هذا الشقاء فى دياره ؟ . . . إذ كم منهم سيعود الليلة إلى وكره — إذا كان له وكر ؟ ... — بنزلة شعبية أو التهاب رئوى ؟ . . . . رب أليس هنالك من يعنى بأمر هؤلاء البؤساء . ؟

***

لم يذهب أبى اليوم إلى قهوته كعادته إذ أحس بتعب ربما كان من تأثير البرد . . . أرجو على كل حال ألا يكون هناك شىء جدّى قد ألم به لأن أعصابى لن تتحمل بعد كوارث أخرى. حقاً ! . . . أن أبى لرجل ظريف لم أعرفه جيداً فى الماضى إذ كنت مشغولة بالحفلات والزيارات . . . إنى قضيت معه أمسية .

ظريفة تحدثنا خلالها فى شتى الشئون . . . هو رجل نزيه إلى حد بعيد ... إن أمثاله من الرجال لا يصلحون للعيش فى زماننا هذا . . . أبى يود تطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من القوانين الأوربية كى تنتظم الأحوال فى مصر . . . قائلا إنه لو تم ذلك لما بقى فى البلاد مساكين أو أشقياء . . . ولكن أنا لا أظن أن للقوانين سلطاناً على القلوب . لا تصلح الأمور فى نظرى إلا إذا صفت ، قبل كل شىء ، القلوب وخلصت الضمائر ...

تحدث بعد ذلك عن أصدقائى فسألنى عن أخبار خطيبى السابق على الذى انقطع فجأة عن زيارتنا ، فأخبرته بأمر خطبته من اعتدال بنت الباشا السرى على الرغم من بدانتها وقبحها فضحك وقال : يا لله ..! ما أسوأ زمانكم هذا . . . إن المادة أفسدت فيه كل شىء ... فى أيامنا يا ابنتى ... لم يكن الرجل الذى يبغى الزواج يفكر فى المال أبداً ، أنا تزوجت مثلا من أمك دون أن أعلم أى شىء عن ثروتها ... كنا فى ذلك العهد لا نهتم إلا بالأصل ... لأن الأصل هو كل شىء ... هو النبل ، الاستقامة ، الذرية الصالحة ... هل تعلمين أنى لم أر أمك إلا بعد الخطبة ؟..

صحت متعجبة : ولكن ألم تكن تخشى أن تجد العروس دميمة

يا أبى ؟ . . . فقالت أمى وقد سمعت قولى هذا وكانت أقبلت فى هذه الأثناء تحمل قدحا من الشاى لأبى : أنا دميمة ؟ . . . آه لو كنت دميمة أيتها الابنة العاقة لما أنجبت فتاة حسناء مثلك . .

* * *

٣ منه — بالأمس مالت علىّ جاكلين إحدى الزميلات بالمكتب وكان هناك شىء من الود بيننا لتقارب مقاعدنا ثم قالت: إنها تدعونى غداً — أى اليوم — إلى الذهاب معها إلى السينما لمشاهدة رواية يمثل فيها نجمى المختار جارى كوبر إذ كنت أخبرتها بميلى لهذا الممثل ... أردت أول الأمر أن أعتذر لها لأنى لا أريد أن أنشىء علاقات ، خارج العمل ، مع هؤلاء الأجانب الذين هم ليسوا من طبقتنا ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أشأ ردها خائبة ، لأنها فتاة منكسرة لا يرغب أحد فى مصاحبتها نظراً لدمامتها . لذلك قبلت على مضض دعوتها ثم انتظرتها اليوم فى الوقت المحدد أمام السينما ولكن لشدة دهشتى لم تحضر جاكلين بمفردها بل جاءت تصحب صديقنا دون چوان المكتب ..... إذن كانت هذه الدعوة باتفاق معه ... لم أقل شيئاً لدى رؤيتى إياه معها على شدة الغيظ الذى تملكنى فى تلك اللحظة ، ولكنى

رددت تحيتها فى برود ، ولما دخلنا فى السينما أراد صاحبنا أن يجلس بجوارى فحلت دون ذلك .... وقد لاحظت چاكلين هذا فبدا عليها الارتباك ثم همست فى أذنى معتذرة قائلة : إنها كانت تجهل أن رفقة هذا الشاب تضايقنى ... ترى هل هى صادقة فى هذا الزعم ؟ ولما فرغنا من العرض أراد صاحبنا أن يدعونا إلى تناول شىء من الطعام أو الشراب فى مرقص من المراقص فاعتذرت. ولكن لما كنت فى الوقت نفسه أريد مضايقة هـذا الشاب المفتون بجماله قلت من فورى لچاكلين : أظن ألا مانع عندك أنت ياعزيزتى من قبول هذه الدعوة فأنت كما أعلم تهوين الرقص ... فصاحت الفتاة فى نشوة : بكل تأكيد ! ثم ألحت علىّ چاكلين لأذهب معها فاعتـذرت ثانية ثم قلت فى سخرية وأنا أودعهما موجهة الكلام إلى الدون چوان : أرجو لكما متعة سعيدة ... فاحمر وجـه الشاب وبدا عليه الارتباك إذ لا يروقه بطبيعة الحال أبدا أن يظهر فى محل عمومى مع فتاة دميمة مثل چاكلين البائسة ... أظن أنى بعد هذا « المقلب » تخلصت نهائياً من دون چوان ومغازلاته . .

***

٧ منه — شاهدت اليوم من جديد ذلك الفتى الوسيم الذى تنحى لى منذ أيام عن مقعده فى السيارة وكان لقاؤنا فى هذه المرة فى السيارة العامة أيضاً . جلست بجواره إذ كانت أكثر المقاعد مشغولة ما عدا مقعدين أحدهما بجوار رجل معمم بدين والآخر بجنبه هو ، فاخترت طبعاً المقعد الأخير . . . وقد أتيح لى فى هذه المرة معرفة ما أصبو إليه ألا وهو تمييز لون عينيه . . . ولقد كانتا كما كنت أرجو أن تكونا . . . خضراوين . . . أجل إنهما عينان خضراوان كالزمرد الصافى لا يمل المرء النظر إليهما أبداً ... هو لا شك طالب حقوق إذ كان يحمل كتب قانون ... ثم رغبت بعد ذلك فى معرفة نبرات صوته . . . حقاً . . . أن القناعة ليست من صفاتك ياسميحة . . . قلت : هل صوته جذاب مثل عينيه . . . يا ترى ؟ . . . ولكن كيف يتاح لى معرفة هذا ، وهو كما قلت من قبل ، لا يهتم بى ؟ . . . لا بد إذن أن أرغمه على الكلام ... ثم شرعت أفكر فى الأمر حتى اهتديت بسرعة إلى حل ، لأننا نحن بنات حواء لانعدم الحيلة كما يقولون عنا بحق ... ما ذا أصنع ؟ ... انتظرت حتى بلغت بنا السيارة المحطة النهائية وكنت عادة أنزل قبلها بمحطتين ، ثم أسقطت

منديلى — عمداً طبعاً — بحيث يشاهده هو ثم أسرعت فى الخروج ، عندئذ التقطه صاحبى ثم أخذ يعدو ورائى وهو يصيح : إليك منديلك يا آنسة ... خذى منديلك . فتناولته منه شاكرة متأسفة على إتعابى إياه ... ثم انصرفت وأنا أشكر الله على نجاح ترتيبى فى معرفة صوته أيضاً ، ولقد كان هذا الصوت كما كنت أرجو أن يكون ... صوتاً جميلا جذاباً وإن لم يخل من الرجولة

أثَّر هذا الحادث فى مزاجى ، تأثيراً حسناً ، طول اليوم ، فكنت فرحة مسرورة على صورة غير عادية ، فى المنزل وفى المكتب على السواء ، مما لفت الأنظار هنا وهنالك ، كان هذا سبباً فى المكتب لتهكمات دون جوان ، ولكنى طبعاً لم أعبأ بها . أما فى المنزل فقد سألنى أبى عن سبب اغتباطى فى سذاجة ، فأجبته وقد احمرَّت وجنتاى على الرغم منى: لاشىء يا أبى لاشىء .. فهز رأسه وقال : حقاً . . . أن الشباب لشىء جميل! إنه يبعث فى الإنسان الغبطة بدون سبب . . . ولكن أمى أظنها قد أدركت بعض ما ألم بى لأنها رمقتنى بنظرة كلها معانٍ . . . ونحن معشر النساء أقدر من الرجال فى معرفة أسرار القلوب وخباياها .

الآن وقد رأيت لون عينى الشاب ، كما عرفت نبرات صوته ،

أود أن أعرفه هو شخصياً . . . حقاً أن مطامعك يا سميحة لا حدَّ لها !

لقد اعتدت من زمن أن أطالع وأنا فى سريرى كى أجلب النوم ، ولكن ها هى الكتب حولى لا تؤثر فىّ الليلة . . . حتى كتاب « الغذاء الأرضى » لأندريه جيد الذى كنت عادة أقرأه فى شغف ، لا يجذبنى . . . ترى لماذا ؟ . . . آه لقد عرفت السبب . . . إن عقلى لم يعد معى . إنه يفكر فى فتى السيارة العامة الوسيم . . . ويحك يا سميحة . . . أبهذه السرعة تنجذبين ؟ . . ألم تقررى نسيان الحب بعد ما حلت بأهلك الكوارث ؟ . . . ألم تتعهدى لأبويك بالمساعدة فى محنتهما ؟ . . . أليس هما أحق باهتمامك من هذا الشاب الغريب ؟

* * *

١٢ منه — كان أمس يوماً موفقاً فيما يخصنى ، لأن رغبتى قد تحققت فى التعرف بفتى السيارة العامة الوسيم . أليس هذا اسماً لطيفاً لرواية بوليسية ؟ . . . وقد حدث ذلك على الوجه الآتى : كنت أخترق أحد الشوارع الكبيرة منتقلة من رصيف لآخر فلمحت الفتى داخلا مكتبة ، فقلت أخاطب نفسى : ها هى

الفرصة ياسميحة لا تتركيها تفلت من يدك . . . ولكن حيائى
كان يدفعنى مع ذلك إلى التردد ، عندئذ تذكرت كلمات
« دانتون » زعيم الثورة الفرنسية « أقدم . . . ثم أقدم . ثم
أقدم . . » فعملت بها إذ اندفعت كالسيل الجارف نحو المكتبة . .
حقاً أن الإنسان يستطيع دائماً الوصول إلى ما يصبو إليه إذا
كان الهدف معيناً محدوداً . . وجدت صاحبى داخل المكتبة
يتصفح مجلة أمريكية للسينما فقلت للعامل : هل هناك نسخة
أخرى من المجلة التى يتصفحها السيد ؟ . . فاعتذر الرجل
لنفادها . . . عندئذ قدم لى الفتى نسخته قائلا : أرجو أن تأخذى
هذه يا آنسة ، فاعتذرت مردفة : ألا يكفى أنى حرمتك مرة من
مقعدك فى السيارة كى أحرمك هذه المرة من مجلتك ؟ . . . فألح
فى تقديمها إلى ، فتناولتها منه شاكرة ثم أخذ هو يتصفح مجلات
أخرى . . . أما أنا فجعلت أقلب فى هذه الأثناء كتباً مرصوصة
على سبيل تضييع الوقت لا غير ، حتى إذا رأيته انتهى من
اختيار مجلته وهم بدفع الثمن ، دفعت أنا أيضاً حسابى كى نخرج
من المكتبة فى وقت واحد . . وقد تم لى ذلك . . ثم سألنى
الفتى أثناء الخروج : حضرتك تسكنين فى السيدة . . . أليس

كذلك ؟ . . قلت : أجل ، قال : هل حضرتك عائدة الآن إلى هناك ؟ قلت : أجل ، ولو أنى لم أكن فى الواقع عائدة فى تلك الساعة إلى هنالك ، إذ كان على قبل ذلك قضاء بعض الحاجات. قال : إذن نركب السيارة معاً لأنى ذاهب أيضاً إلى السيدة فى زيارة . قلت : إذن حضرتك لا تقطن السيدة ؟ . . . قال : بل فى المنيرة ولكنى أذهب كثيراً إلى السيدة لزيارة صديق حميم فيها . . . قلت مبتسمة : صديق أو صديقة ؟ . . فضحك وقال : بل صديق . . . ثم ركبنا السيارة وقد أبى إلا أن يدفع لى أجر الركوب فأذنت له فى ذلك ، ثم تحدثنا عن السينما التى يهواها كل منا ، وقد ظهر أنه مثلى يعجب بجارى كوپر ، ثم قال : إن سينما « ديانا » سوف تعرض فيلماً جديداً لجارى فهل لى أن أشاهد هذا الفيلم معه عند عرضه ؟ قلت : لا مانع عندى . قال : إذن كيف أخبرك ؟ قلت : كلمنى فى التليفون رقم كذا . . . فأخرج مفكرته حيث دون النمرة ثم سأل مبتسماً : والاسم من فضلك ؟ ... قلت سميحة ... قال : تشرفنا وأنا اسمى أحمد ... قلت : تشرفنا يا افندم ... ثم ضحكنا فى وقت واحد على هذه الرسميات

ولما بلغت محطتى وهى قبل محطته بموقفين ، غادرت السيارة وأنا أحمد الله على هذا التعارف لأن فتى السيارة هذا .. أحمد... لطيف جداً ، كما أنه جذاب للغاية . ولكنى أرانى قد أخطأت حينما سألته هل كانت زيارته فى السيدة لصديق أو صديقة . . إذ بأى حق أسأله ذلك ؟ .

***

١٣ منه — أمر أمى يدعو إلى الاعجاب ، طيبتها لا حد لها ، هى لن تجرؤ على إلحاق الأذى بنملة ، كما بلغ كرمها حد التبذير فى أيام العز. و إذا كانت تتألم اليوم من الكارثة التى حلت بنا فلاشك عندى فى أن أثر هذا الألم يرجع إلى أن قدرتها على عمل الخير قد حدت . . جاءت إلى غرفتى الليلة حوالى الساعة الثامنة تقول لى فى شىء من القلق الذى أحب مظهره عليها : سميحة إن والدك لم يحضر بعد و إنى فى حاجة عاجلة إلى جنيهين فهل يمكنك أن تعطيهما لى ؟ . . سلمتها الجنيهين قائلة : ألا يمكننى من باب الفضول معرفة شخصية ذلك الدائن السمج الذى يحضر فى مثل هذه الساعة المتأخرة ليطالب بدينه ؟ . . قالت فى تردد : ليس هناك دائن ما يطالب بهذا المبلغ ، إنما هى جارة مسكينة توفى

زوجها وهى فى حاجة إلى هذا المبلغ لتخرجه ، ولما انصرفت المرأة بالنقود ، لمت أمى على هذا قائلة إن الظروف تغيرت الآن فلا يحق لنا مع الأسف أن نبسط يدنا لمن جاء . فأجابتنى فى حزن لمت نفسى بعد ذلك على أنى سببته لها : أعلم ذلك يا ابنتى ولكنى هكذا خلقت. لا أستطيع أبداً ردمحتاج ، ولوأدى هذا إلى حرمانى أنا . . . حقاً . . . أن أمى ملك . . بهذه المناسبة أذكر أن لها صديقة حنبلية لاتتخلى عن السبحة لحظة ، تلوم أمى لإهمالها بعض شعائر الدين محذرة إياها من جهنم وسوء المصير ، ولكنى واثقة أن قلب أمى هذا الطاهر الحنون الذى يفيض بالناس رحمة ومحبة ، لن تمسه النار بسوء .

* * *

١٤ ديسمبر — اليوم بعد الظهر أقيم عندنا فى البيت فصل تمثيلى فكاهى جدير (بالريحانى) كانت بطلته الست عائشة زوجة تاجر التوابل الذى يقطن بالقرب منا ، هذا ما حدث :

جاءت عصر اليوم الست عائشة تزورنا و بعد أن أدت واجبات التحية والسؤال عن الصحة الخ . . قالت لأمى وهى ترمقنى أنا بنظراتها : مبروك إن شاء الله يا هانم غندى عريس عظيم

للست سميحة . لم تكد تفوه الست عائشة بهذا القول حتى تدخلت أنا فى الحديث خشية أن تثور أمى على الخاطبة فتفسد علينا هذا الفصل الفكاهى المتوقع . قلت : عريس عظيم، ومن يكون ياترى ؟ قالت مبتسمة : ولكن هل تعديننى أولاً بالحلاوة لو تمت الأمور طبق المرام ؟ قلت : أعدك والله العظيم . قالت : إذن لا حرج من ذكر اسمه يا حبيبتى ، هو العم مصطفى . قلت : ومن يكون العم مصطفى هذا ياست عائشة ؟ إنا لم نحظ بعد بشرف معرفته . قالت : هو شقيق زوجى . قلت : وما صناعته ؟ قالت فى تأفف : صناعته ؟ هو صاحب ملك ياحبيبتى واسع الثراء يمتلك مئات الأفدنة فى الوجه البحرى . قلت : وكيف أحس بى ؟ قالت: كان يزورنا فى الأسبوع الماضى فأبدى رغبته فى الاقتران بفتاة من أهل مصر تكون بنت ناس طيبين . فرأيت من الأمانة بل بحق الجيرة علىّ أن ألفت نظره إليك ، ثم لما رآك هو من يومين بعينى رأسه لم يتردد لحظة فى إيفادى إليكم لهذا الغرض . قلت : هذا كرم ولطف منك ياست عائشة . فأطرقت المرأة تواضعاً فأردفتُ قائلة : وما سنه ياست عائشة ؟ قالت : حول الخمسين . قلت: فوقها أو دونها ؟ — فوقها قليلا . قلت: وهل وجهه وسيم ؟ قالت مبتسمة:

هو البدر في تمامه ياحبيبتي . كادت أمي تنفجر ضاحكة لدى سماعها قول الست عائشة بأن العم مصطفى هو البدر بعينه لولا أنها تمالكت نفسها وأشاحت بوجهها ، ثم عدت إلى استجوابي للست عائشة قائلة : وهل سبق له أن تزوج ؟ قالت في حيرة : هو متزوج ، ولكن لاتلقي بالا لهذا ياحبيبتي لأن الزوجة المذكورة فلاحة لا تغادر الريف أبداً ، ثم هي دونك بمراحل من حيث الحسب والنسب والظرف والجمال . قلت : وهل تزوج من غيرها ؟ قالت : أجل كانت له زوج أخرى ولكنه طلقها لسوء سلوكها معه . قلت : ترى ما كانت جريرتها معه ؟ قالت : لقد زورت عليه السافلة كمبيالة بمائة جنيـــه . قلت : ربما كان شحيحاً معها في المعاملة فاضطرت المسكينة إزاء ذلك إلى ارتكاب هذا الوزر . صاحت معترضة : كلا ياحبيبتي إن العم مصطفى هو الجود بنفسه . قلت : وهل له منها أولاد ؟ قالت : لا . قلت : ومن زوجته الحالية ؟ قالت : ثلاثة

نطقت الست عائشة بالجملة الأخيرة في صوت مبحوح لأن التعب كان قدنال منها من كثرة إلحاحي وتعدد أسئلتي ... ولكنني لم أبال بتعبها بل عدت إلى إرهاقها قائلة : هم ذكور أم إناث ؟ قالت :

ولدان و بنت ، قلت : وما عمرهم؟ قالت: البنت فى السابعة والولدان أحدهما فى التاسعة والآخر قد جاوز الثالثة عشرة ... أطرقت عندئذ قليلا ثم قلت : قبلت العم مصطفى زوجا لى ولكن بشرط واحد. قالت فى حيرة : بشرط ؟ . . ثم أطرقت بدورها ثم عادت فقالت فى ابتسامة عريضة : فهمت قصدك يا حبيبتى، أنت تخافين أن يكون المهر دون المقام ، كلا لا تشغلى بالك بهذا الموضوع إذ أنى أوليته عظيم اهتمامى من أول الأمر لأنه كلما كان المهر مرتفعاً زادت السمسرة . قلت:ليس هذا ما أشترطه ياست عائشة ، إنى أطلب من العم مصطفى أن يجيئنى قبل زواجى منه ، برءوس زوجته وأولادها الثلاثة . قالت مستضحكة : حقاً ما أظرفك ياحبيبتى إنك تجيدين فن النكتة . قلت عابسة : أنا لا أمزح الآن ياست عائشة ، أنا جادة فى طلبى ، ثم أخذت أصيح بأعلى صوتى : أريدمنه أن يقتلهم جميعاً أفهمت يقتلهم جميعاً . جميعاً . فولت عندئذ الست عائشة الأدبار مذعورة مستنجدة بأولياء الله لا يخامرها شك فى أننى حقاً جننت .

أما أمى فكاد يغمى عليها من الضحك. ولما عاد أبى فى المساء قصصنا عليه ما حدث فشاركنا ضحكنا . غير أنه اعترض قائلا :

لكني أخشى يا ابنتى أن الست عائشة هذه تشهر بك وتعلن جنونك فى الحى . فأجبته : ولكن أعترف يا أبى بأن الفصل يساوى تشهيرها بى . فربت أبى على كتفى قائلا : آه منكم يا شباب اليوم أنتم شياطين فى زى ملائكة .

١٦ ديسمبر — شاهدت عند ذهابى اليوم صباحا إلى المكتب الست عائشة واقفة على عتبة بيتها تتهيأ بدورها للخروج. فلما رأتنى أسرعت فى الالتجاء إلى الداخل مذعورة وكأنها قد شاهدت الشيطان بنفسه . مسكينة الست عائشة لقد ربيت لها الفزع . أظن أن أبى كان محقاً حينما زعم أنى تجاوزت معها حدود المداعبة. ولكن هل هو ذنبى ؟ لماذا لا يتركوننى وشأنى ؟

٢٤ منه — كاد ينفد صبرى هذا الصباح لأن فتى السيارة العامة لم يكلمنى بعد فى التليفون كما وعد بذلك لدى عرض فيلم جارى كوپر ، وقد بدأت سينما ديانا فى عرضه منذ البارحة ، إذ كنا اتفقنا على مشاهدته معاً ، ترى هل نسيتى ؟ . . . ولكن أنا مع الأسف لم أنسه . . . رب لماذا جعلت الميل بين الناس غير متبادل ؟ . . . لماذا ؟ . . .

التليفون موجود على مكتب چاكلين ، لذلك اضطررت أن

أبالغ فى هذه الأيام فى التلطف معها بعد حادث السينما كى لا تتلكأ فى اخبارى عند ما يتكلم أحمد . . . بل أصبح التليفون هاجساً لى يهز مشاعرى كلما دق . . . حقاً . . . يا لها من حرب أعصاب ! . . ومع ذلك كنت أعمل طاقتى كى أتظاهر بالهدوء حتى لا ألفت إلى الأنظار ، إذ لو علم مثلا صاحبنا الدون چوان بما أنا فيه من قلق لسخر منى كل السخرية . . . خصوصاً بعد مقلب المرقص . . . أخيراً جاء النداء الساحر . . . قال أحمد : الآنسة سميحة ؟ ... قلت: أجل . قال : صباح الخير ، أنا أحمد ، إنى أذكرك بفيلم جارى كوپر . قلت: أجل إنه يعرض الآن فى ديانا . قال : هل عندك مانع أن نذهب بعد الظهر فى عرض الساعة الثالثة ؟ . . . قلت : ألا يمكن أن نذهب الساعة السادسة ، لأنى أنتهى من عملى هنا بالمكتب فى الساعة السادسة . . . قال متعجباً : المكتب ؟ قلت : أجل المكتب . . . قال : حسناً ، سأنتظرك فى الساعة السادسة والربع تماماً أمام السينما . . . ثم كان اللقاء ، وقد ذهبت أنا مبكرة عن الموعد ، يا للخجل يا سميحة كيف تبدين مثل هذه اللهفة ؟ . . . أما هو فقد حضر فى موعده . . . لم نتحدث كثيراً أثناء العرض لأننا كنا

مأخوذين بالتمثيل . . . ثم ذهبنا بعد انتهاء السينما إلى محل بيع شطائر ومشروبات حيث تناولنا قدحاً من الشكولاته الساخنة ، لأننا كنا فى أشد الحاجة إلى الدفء ، إذ أن الليلة كان بردها قارساً .

صحبنى بعد ذلك إلى موقف سيارات السيدة زينب ، وفى أثناء الطريق بينما كنا نجتاز شارعاً كبيراً مزدحماً بالعربات والسيارات أمسكنى من يدى كى يعاوننى على اجتياز الشارع ، ولما بلغنا الرصيف الآخر ظل قابضاً على يدى، عندئذ صحت : هل أستطيع الآن وقد اجتزنا الشارع أن أسترد يدى ؟ . . فتخلى عنها بعد أن وضع عليها قبلة خاطفة . . . قلت : حقاً . . إنك تتسرع . . . قال : ولم لا ما دمت أعجبك . . . قلت : وأنّى لك هذا ؟ قال : لما أبديت من غيرة علىّ حينما سألتنى أول مرة ، هل أذهب إلى السيدة لزيارة صديق أو صديقة . . .

من حسن الحظ أن الدنيا كانت ظلاماً فى تلك اللحظة وإلا لشاهد تلك الحمرة السخيفة التى تعلو وجوهنا فى مثل هذه الأحوال الحرجة ، ومع ذلك أجبته : لم أسألك هذا إلا على سبيل المزاح . . . قال : وأنا لم أقبل يدك إلا على سبيل المزاح .

حقاً . . . ياله من فتى صعب المراس !

***

٢٨ منه — اليوم صباحا كلمنى أحمد مرة ثانية فى التليفون مقترحا أن نذهب إلى السينما بعد الظهر فقبلت اقتراحه بسرور لأن أحمد ، فضلا عن ميل قلبى إليه ، صاحب لطيف مسل ، وهو لا يحمل خبثاً كهؤلاء الأصحاب الذين خلفتهم فى الزمالك . ولكن الفيلم مع الأسف كان مملا فى هذه المرة لأن الرواية كانت تحوى حواراً كثيراً ، والحوار أصلح للمسرح منه للسينما ، بل السينما تعتمد أكثر شىء على الحركة ، لذلك غادرنا السينما وسط العرض ، ولما كان أمامنا فسحة من الوقت ذهبنا إلى منتدى من منتديات الشاى حيث تحدثنا هناك طويلا فى شتى الأمور ، ثم دار الحديث عن الفتيات المصريات العصريات اللواتى يشتغلن مثلى ، إذ كنت أخبرته بأنى موظفة فى الشركة التى كلمنى فيها بالتليفون ... فحمل علينا قائلا إنه لا يوافق أبداً على نزول المرأة إلى ميدان العمل لأن المرأة مكانها الطبيعى فى البيت حيث ترعى شئونه كما أن عليها أن تعنى بتربية الأولاد. وقد نسب إلى مزاحمة المرأة للرجل فى الأعمال تلك البطالة المروعة المتفشية فى

العالم بين طبقات العمال ، وقال إن بعض الدول الأوربية التى هالها الأمر ، شرعت تسن القوانين لتحول دون ذلك . . . قلت : ولكن المرأة فى كثير من الأحوال تعمل لأنها فى حاجة إلى هذا العمل لتعيش منه ، إذ أننا لم نعد نعيش بعد فى ذلك الزمن السعيد الذى كانت فيه العبيد ترفع إلينا طعامنا فى أوان من الفضة والذهب . قال : إنك تبالغين يا عزيزتى ، أنت مثلاً لا تزاولين عملك إلا من باب التسلية لا غير... ألا تدركين أنك بعملك هذا حرمت رب أسرة من رزقه ؟ . . . قلت مبتسمة : ولكن أنا أيضاً يا عزيزى أعمل من أجل رزقى ، ثم شرحت له مأساتنا فتألم لدى سماعها كثيراً ، كما اعتذر لى عما قال مردفا أن تقديره لى قد زاد أضعافا من جراء ذلك . قلت: هل أدركت الآن أننا على حق ، نحن فتيات اليوم ، فى رغبتنا فى النزول إلى ميدان العمل ؟... ترى ماذا كان مصيرى لو حلت بنا هذه الكارثة ونحن فى عهد المماليك مثلا ؟ لا شك أنى كنت أطرح للبيع فى سوق من أسواق الرقيق .... فضحك وقال : كنت أفضل هذا لكى أستطيع اقتناءك .... قلت : ولو سبقك إلى هذا أحد هؤلاء المثرين من ذوى البطون المنتفخة

والشوارب المفتولة ؟ ... قال : كنت أطحت رأسه بسيفى .

ثم تحدثنا عن الزواج ، فانتقد زواج العصريات قائلا إن هناك فتيات من أكرم العائلات انفصلن عن أزواجهن ولما ينقض شهر العسل ... قلت: هذا صحيح ما زلنا فى دور الانتقال ولا بد من ضحايا حتى تستقر الأمور ... قال : انظرى إلى الزواج فى عهد آبائنا ، لقد كان محترما بل مقدساً فى نظر الزوجين ... فلم تكن تحدث حوادث طلاق إلا نادراً ... قلت : لأن الرجل كان يكثر من الزوجات ، فعلام الطلاق ؟ . ونظرت فى هذه الأثناء إلى الساعة التى فى معصمى فرأيت عقربها الصغير قد اقترب من التاسعة عندئذ نهضت للانصراف فنهض مثلى ... ثم عاوننى فى وضع معطفى ... ثم انصرفنا من المحل بعد ما قضينا ساعة ونصف ساعة فى مثل هذه الثرثرة ... قال وهو يوصلنى إلى محطة السيارات : يا حبذا لو كنت تعلمت مثلى الحقوق إذن لكان لك فيها شأن وأى شأن ... ولكنه فى هذه المرة لم يحاول تقبيل يدى ؟ ... ترى لماذا ؟ ...

***

٣٠ منه — قابلت أحمد بعد ظهر اليوم أيضاً ، وكان

ينتظرنى فى محل الشاى الذى قضينا فيه أمسيتنا أول من أمس ...
قال أحمد : أليس عجيباً أن نصبح ، بين عشية وضحاها ،
صديقين حميمين؟ ... قلت : حقاً ... أن الحياة ملأى بالعجائب.
قال : هل تعرفين أنى أدركت ميلك لى منذ أول لقاء لنا فى
السيارة العامة حينما تخليت لك عن مقعدى ؟ فقد لمحتك أثناء
وقوفى وأنت تختلسين إلىّ النظر ... قلت مبتسمة : ولكن ثم
شىء آخر لم تدركه بعد ... قال : ماذا ؟... قلت إنى أسقطت فى
يوم آخر منديلى عمداً كى ترده إلى ، قال متعجباً : حقاً أن
النساء شيطانات ، لا يستطيع المرء أن يسبر غورهن أبداً ثم
أضاف: هل تعلمين ما أنا صانع هذا العام حينما أنتهى من دراستى؟
قلت: لا ... قال : أتزوجك ... قلت: و إذا رغبت عن ذلك ؟...
قال: لا تستطيعين لأنك تحبيننى ... على الأقل هكذا تقول عيناك
فى هذه اللحظة ... فضلا عن أنى حائز للشروط التى تؤهلنى
للزواج . فأنا بالغ ، سليم الجسم والعقل ... قلت : حقاً ؟ ...
إنى أشك فى سلامة الأخير ... ثم لنفرض أن آباءنا يرفضون .
قال : أرجو ألا تتغابى فأنت تعرفين جيداً أن الأبناء هم الذين
يفصلون اليوم فى مثل هذه الشئون ، فضلا عن أنك لست بالطفلة

التى أغرر بها ، إذ أنت فتاة تجاوزت سن الأهلية ولا شك .
بهذه المناسبة كم سنك ؟ قلت دهشة : ألا تعلم أنه من عدم اللياقة سؤال فتاة عن سنها ؟ . حقاً لقد كنت مخدوعة حينما ظننتك فتى مهذباً ... ما أصدق المثل القائل : ما كل ما يلمع ذهباً ... قال فى هدوء : لو كنت تجاوزت الثلاثين لما سألتك سنك أبداً لا من باب المجاملة ، بل لأنك فى تلك الحالة ما كنت تصدقيننى القول ، أما الآن فالأمر عكس ذلك ، إذ أن الفتيات أضرابك يجدن لذة فى زيادة أعمارهن كما هو أيضاً شأننا نحن معشر الفتيان . أذكر أنى كنت وأنا فى الخامسة عشرة ، أحلق ذقنى يومياً بدون أن تكون بى حاجة إلى هذا وذلك كى أعجل نموها لأبدو رجلا للعيان ... ما هو سنك يا عزيزتى ؟ ... قلت: لا بأس من إخبارك ... أبلغ الثامنة عشرة فى الثامن عشر من يناير المقبل . قال : أرأيت أنى أصبت حينما زعمت أنك فى سن تؤهلك للزواج ؟ . . ثم أخرج من جيبه مفكرته فدون فيها هذا التاريخ ثم أعادها فى كل بساطة إلى مكانها ثانية ، فصحت متعجبة : ما هذا ؟ . . ما ذا تصنع ؟ ... قال : سجلت تاريخ ميلادك يا عزيزتى كى أقدم لك فيه هدية ... فأنا إن لم أفعل

هذا غضبت ورميتني بالفتور كما اتهمتني بقلة الحساسية . . .
قلت : وأنَّى لك كل هذا ؟ . . لا شك أن الفتـاة التي تهواها
تعاملك هكذا . . . قال مبتسما : هل ملكتك الغيرة ؟ . . .
ولكن كيف تسمحين لنفسك بالغيرة وأنت من أنت ، الفتاة
العصرية التي تسخر من ضعف نساء العهـد الماضي وجهلهن ؟
قلت وقد حزّ في نفسي هذا القول لأنه أصاب عين الحقيقة
إذ كنت فعـلا أشعر بالغيرة : وبأي حق أغار عليك ،
وما أنت إلا صديق لي ؟ قال : ألا تعلمين أن الصديق
أيضاً قد يغار على صديقه ؟ . . . أنا مثلا كان لي صديق
ونحن في المدارس الثانوية ، يبكي إذا انصرفت عنه لأصاحب
آخرين . قلت متنهدة : مسكين ذلك الصديق الصغير كم قاسى
على يديك . . . قال : ثرثري ما شئت يا عزيزتي ولكني
أؤكد لك بأنك سوف تصبحين زوجاً لي . . . قلت : حقاً ! ! !
لا أستطيع ذلك يا عزيزي ولو أن شكلك وهندامك يروقاني
لأن آراءك في الزوجية رجعيـة ، أنت أهل في حالة
زواجي منك بأن ترغمني على لبس الياشمك قال : ولم لا ،
ربما صرت فيه رائعة يا عزيزتي ؟ قلت محتدة : إذن أنت

لا تنظر إلى زوجك نظرة الرجل إلى رفيقة حياته بل نظرة السيد إلى جاريته أو نظرة الرجل الهاوى إلى قطعة فنية . . . حقاً ... مثلك كان الأحرى به أن يعيش فى تلك العصور المظلمة المنقرضة التى كانت تبيح الرق . . . لا فى زماننا هذا ، زمن العدل والحرية والمساواة . . . ثم كدت أتشاجر معه جدياً لولا أنه تدارك الأمر فغير مجرى الحديث .

طفنا بعد ذلك فى بعض الأحياء الأوربية مع برودة الجو ، لأن الأضواء المنبعثة من الحوانيت والمقاهى هناك كانت جذابة ، إذ عرضت عروضها فى أثواب زاهية من أجل عيد رأس السنة . قال أحمد : هل تحبين أن نقضى سهرة رأس السنة فى المحلات العامة قلت : لا بأس ، ولكن يدهشنى أن يصدر منك مثل هذا الاقتراح وأنت ذلك الفتى الرجعى من رأسه إلى قدمه . . . قال : لا أرى غضاضة فى ذلك ما دمنا نذهب متفرجين . . . قلت : أتعنى أننا لا نرقص ؟؟ ... قال : أنا لا أعرف الرقص فبطبيعة الحال لن أسمح لك بمراقصة غيرى . . قلت : وبأى حق هذا المنع ؟ ... قال : بحق الصداقة ... قلت مبتسمة : حقاً ... إنها الصداقة عجيبة ! قال : أظن أنه يحسن أن نلبس

ملابس السهرة ؟ ... قلت : طبعاً ... ترى هل عندك «سموكن» أو « فراك » ؟ قال مغضباً : لا هذه ولا تلك يا سيدتى ... يبدو من سؤالك أن تفكيرك ما زال هو تفكير طبقة أبناء الذوات الذين تزعمين أنك كرهتهم وهجرتهم إلى الأبد . قلت : أنا آسفة لم أقصد إحراجك بسؤالى . أرجو أن تصدقنى ... فابتسم قائلا : صدقتك يا عزيزتى ... أما عن السهرة فسأستعير « سموكن » صديقى توفيق فهو فى طولى وقوامى ... ثم اتفقنا على اللقاء مساء الغد أمام محطة المترو لنتوجه من هنالك إلى منتديات السهر .

اليوم نفسه فى الليل — أرى على الرغم من كثرة شجارى مع أحمد ، أنى أكون سعيدة لو تزوجت به لأننى لم أعد أطيق بعده ، ولو أرغمنى بحكم رجعيته على لبس اليشمك — ويحك يا سميحة ألا تخجلين من إبداء مثل هذا الضعف ؟ وكم أود أن أرى الليلة فى أحلامى تلك العيون الخضراء الجذابة .

***

٣١ منه — (صباحاً)

قالت أمى لى صباح اليوم وأنا أفطر وحدى مبكرة من أجل

عملى — أما هى فتنتظر أبى حين يصحو لتفطر معه — : ألاحظ عليك يا عزيزتى أن ثم شيئاً ، أو بالصراحة شخصاً يشغلك هذه الأيام ، إذ أشاهدك مرحة أكثر من ذى قبل ، كما أنك تتأخرين الآن فى العودة ، أقول لك هذا من باب التحذير لا غير ، كى لا يتحطم قلبك مرة ثانية ، أما من حيث سيرك الشخصى فأنت تعلمين مقدار ثقتنا بك ، لأنكن يا معشر فتيات اليوم ولو أنكن تثرن حولكن الأقاويل بسهراتكن الصاخبة التى تناقض تقاليدنا الشرقية القويمة لا تفقدن صوابكن أبداً ولا يمكن أن يغرر أحد بكن . . . كفتيات العهد الماضى الساذجات ، قلت ضاحكة وأنا أربت على كتفها: أنت واهمة يا أماه . إن قلبى لم يتحطم من أجل على لأنى من حسن حظى لم أكن أحبه بل كنت أجده ظريفاً لا غير . . . أما أحمد . . . وهو اسم الشخص الذى تشيرين إليه فما هو إلا صديق لى ظريف مثقف ولو أنه يغضبنى أحياناً بجدله لأنه مع الأسف رجعى فى أفكاره الأمر الذى قد يؤدى بنا يوماً إلى الخصومة . فتنهدت أمى قائلة : أو إلى الحب . . حاذرى يا ابنتى حاذرى . . إنى أخشى أن أرى يوماً هذه العيون الصافية الجميلة معكرة بالدموع . ضممت عندئذ أمى إلى صدرى ثم شرعت

أمطرها بقبلاتى قائلة : لا تخشى أبداً يا أماه على ابنتك فهى نمِرة . حقاً ما أطيب قلوب الأمهات .؟

مساء — رآنى أبى وأنا فى فستان السهرة فسألنى باسماً عن غايتى من وضعه فقلت إنى أقضى السهرة — سهرة رأس السنة — لدى صديقتى لوسين وهى الفتاة التى عاونتنى على الحصول على وظيفتى . اضطررت أن أكذب على أبى كى لا أشغل باله بأمر تافه مثل هذا ولو أنى أبغض الكذب .

أما أمى فقد أطلعتها على الحقيقة .

قابلت أحمد بعد ذلك وكان جذاباً فى بذلة « السموكن » وددت لو شاهدته وهو على هذا الحال صديقاتى السابقات من أهل الزمالك كى يذبن حسداً وغيرة . من يدرى ؟ ربما التقينا بهن الليلة أثناء مطافنا . أخذنا بعد ذلك نجول هنا وهناك . قال أحمد أثناء السير : أخشى أن يقول الافرنج عنا إننا نحتفى بشىء لا يخصنا ، إذ فى الواقع ما لنا ورأس السنة الافرنجية ؟ قلت : مادمنا نتبع نظامها فى حياتنا العامة فلم لا نحتفى بها ؟ إن الشىء الذى لا أقره حقيقة هو احتفاء أمثالنا بعيد ميلاد المسيح ، لأن هذا عيد دينى بحت ، وكثير منا مع الأسف معشر المسلمين

يحتفلون بهذ العيد بل يبالغون فى ذلك . فتراهم يهيئون فى بيوتهم شجرة الميلاد كما يجلب بعضهم خصيصاً من أوربا الكعك الذى يقدم فى هذا المقام ! قال أحمد : ما رأيك فى العام الذى ينصرم الليلة ؟ هل تشيعينه بالرضا أو بالسخط ؟ قلت بعد شىء من التفكير : والله لا أدرى، فمن جهة أراه مسئولا عن الدموع الغزيرة التى ذرفتها أمى المحبوبة أثناء الكارثة المالية ، ولكن من جهة أخرى أرانى تجنبت فيه التزوج من ذلك الغر على — وكنت حدثت أحمد عنه — ، كما أنى تعرفت فى خلاله أيضاً بذلك الصديق الرشيق الماثل أمامى . فابتسم أحمد ثم جذب يدى نحوه فطبع عليها قبلة طويلة . قصدنا فيا قصدنا ، فندق « شبرد » وكان زاخراً بالناس من مصريين وأجانب وكانوا فى أشدحالات النشوة والسرور ، وقد لمحت بينهم (على) وخطيبته البدينة وكانا يرقصان ، وقد اصفرّ وجهه لدى رؤيته إياى كما لاحت عليه علائم الغيرة حين وقع نظره على أحمد الذى كان فى تلك اللحظة متأبطاً ذراعى . قال أحمد وقد أدهشه ما كان عليه القوم من سرور ومرح جارفين : ألا يدرك هؤلاء الحمقى الذين يبالغون هكذا فى الاحتفاء بزوال عام و إقبال آخر أنهم يحتفون بزوال أعمارهم التى

لن تعود ثانية ؟ بل إن اللحظة الواحـدة لا يستطيع كائن على ضآلتها أن يردها إلى الوراء ولو كان هذا الكائن من أصحاب الملايين مثل فورد أو روكفلر . . قلت: المسألة بسيطة يا عزيزى لاتحتاج إلى ملايين ، بل إلىّ ريالاً واحداً وأنا أرجع لك ساعتى إلى الوراء كما شئت، دقيقة ، ساعة ، يوماً .. فرد أحمد ضاحكاً : حقاً أن فلسفتك مدهشة لم يأت بمثلها ديكارت أو (كانت). قلت متنهدة : لو كانت الحياة تنقضى فى مرح وسرور فأنا أشاركك أسفك من حيث سرعة هروب الزمن ، أما إذا كان الأمر عكس ذلك فليمض الوقت غير مأسوف عليه . . ولما دقت الساعة الثانية عشرة أطفئت الأنوار لحظة قبلنى أحمد خلالها قبلة رقيقة ، رددتها له . . . أظن أن أحمد لم يهىء لسهرة الليلة إلا ليغنم هذه الفرصة لأننا فى غير هذا لم نشارك القوم مرحهم . . .

***

٢ يناير — قابلت أحمد فى السيارة العامة ، على سبيل المصادفة ، وكان بصحبة أمه فقدمنى إليها كزميلة له بالجامعة . دهشت لزعمه هذا فهمست فى أذنه مستفهمة عن السبب فأجاب همساً أيضاً أن أمه من الدقة القديمة لا تستطيع أن تدرك أن

تكون هناك علاقة بين شاب وشابة على أساس الصداقة ، أطرتنى أمه على حسن منظرى ورشاقة قدى كما دعتنى إلى زيارتها فى أقرب فرصة فوعدتها بذلك ... سألبي دعوتها كى أعرف عن كثب من قد تصبح يوماً ما ... من يدرى ؟ ...

* * *

٣ منه — كلمنى أحمد فى الصباح قائلاً إن أمه وقد أعجبت بى ، تدعونى إلى تناول الغداء معها ظهر اليوم فقبلت الدعوة ، ثم اتصلت فى التليفون بدكان العم صالح وهو قريب من بيتنا فى السيدة كى أخطر أبوى بتخلفى عن الحضور .

البيت بالمنيرة وقد صحبنى إليه أحمد ... هو منزل ضخم اضطر صاحبه لكبره إلى إيجاره شققاً مستقلة لأن الناس لا يرغبون اليوم فى الفيلات الكبيرة ... هما يقيمان فى الدور الثانى والشقة كبيرة واسعة الأرجاء لذلك يبدو الأثاث فيها ضئيلا ... وهو مع الأسف « بلدى » ... والشقة بها أربع غرف . غرفة يحتلها أحمد وغرفة أمه ، وغرفة للطعام ثم الغرفة الرابعة تركت لإقامة الأهل والأقارب الذين يفدون من الريف من وقت لآخر لقضاء

بعض الحاجات فى العاصمة . أما الخدمة فتقوم بها فتاة ريفية فى الرابعة عشرة من عمرها .

كان الطعام شهياً ولو لم يخل من الدسم المحبب لدى أهل الريف . ولما أطريته قالت أمه فى رضى إنها هى التى أعدته كما أنه يسرها أن تعلمنى فن الطهى لو شئت أنا ذلك .. فقاطعها ابنها قائلا : كيف تطالبين يا أماه فتاة مثقفة تدرس بالجامعة أن تتعلم فن الطهى ؟ حقاً ... ما أعجب أمر أحمد الذى يصر على ادعائه بأنى طالبة بالجامعة ... قال أحمـــد أيضاً ونحن لا نزال على مائدة الطعام : أتدرين يا أماه ما أنا صانع بغرفة الضيوف عند ما أتزوج من سميحة ؟ ... سأجعلها غرفة أولاد ... تنهدت عندئذ أمه ثم أجابت : إن أسعد يوم فى حياتى يا ابنى هو اليوم الذى أضم فيه إلى صدرى ولدك ... أما أنا فقد احمر وجهى خجلا كما عقلت الدهشة لسانى ... علمت من أمه فى أثناء الحديث أنها تقضى وقتها موزعا بين ولديها أحمد وأخته ، إذ أن أحمد له أخت متزوجة فى الريف .

رأيى فى والدة أحمد أنها سيدة طيبة القلب ، إلا أنها على جانب من الجهل والسذاجة ... بعد انتهاء الغداء صحبنى أحمد

ثانية إلى مقر عملى ، وقد لمته فى أثناء الطريق على ملاحظته الوقحة عن غرفة الأولاد ، فقال ضاحكا : آسف لم أعلم أنكن يا فتيات اليوم قد يخجلكن ... شىء

حقاً ... أن أحمد وقح للغاية !

٤ يناير — كنت واقفة أنتظر الأتوبيس حينما وجدت من يحجب عينىّ من الخلف ، فالتفت ورائى فإذا المتظرف على هذا النحو عليّة . قبلتنى صائحة بعد التحية والسؤال عن الصحة أن لديها أخباراً قد تهمنى للغاية. فتصنعت الاهتمام لمعرفة هذه الأخبار من باب المجاملة لا غير ، لأنى فى الواقع لم تعد أحوال هؤلاء القوم تهمنى البتة . قالت عليّة : تصورى يا عزيزتى لقد تخلى فتحى عن صاحبته سونيا المتعجرفة قلت : هذا خبر عجيب لأن (فتحى) هذا كان يطمع فى الانتفاع من نفوذ أبيها الوزير السابق بعد تخرجه . . فصاحت فى شماتة لم ترقنى منها : نفوذ أبيها ! لقد ضاع هذا النفوذ يا عزيزتى، ضاع بموته ! قلت : متى توفى ؟ قالت : من أسبوع . قلت : مسكينة سونيا . هى ضربة قاسية لها إذ تفقد أباها وخطيبها فى آن واحد . قالت عليّة : هل تعطفين عليها بعد كل ماحدث منها ؟ أنسيت تحتها وتطاولها عليك يوم النادى ؟ قلت :

صدقيني يا علية لقد قاسيت كثيراً حتى لم يعد في قلبي مكان للحقد . وأقبلت في هذه الأثناء إحدى السيارات العامة التي تعمل على خطنا ولكنني تخلفت عنها كي تشبع علية ثرثرة، مسكينة هذه الفتاة سوف تصير نمامة كبيرة كجارتنا السابقة حكمت هانم عند ما تبلغ سنها ، لكثرة اهتمامها بأخبار الناس ولاغتباطها بالمصائب التي تحل بهم . قلت على سبيل الدعابة : وأنت يا عليّة هل حللت محل سونيا في قلب فتحي؟ صاحت : آه يا عزيزتي إنه لفتى متعب يغيظني فيه كثرة تيهه ودلاله كأنما الأوضاع معه قد انعكست ، فصرت أنا الفتى وأصبح هو الفتاة . قلت : خير لك أن تستبدلي به صديقاً آخر لأن مثله لا يؤمن له جانب بعد تصرفه القبيح مع سونيا . صاحت : ولكن سونيا تستحق ما حدث لها يا عزيزتي إذ هي فتاة لا تطاق بغرورها وقلة أدبها ، ثم أضافت وهي تتنهد : وإني أحبه . وهنا رأيت سيارة أخرى من خطنا مقبلة فاستأذنت وصعدت فيها وأنا آسفة من أجل عليّة التي سوف يحل بها ما حل بسونيا على يدي هذا الفتى الغر الوصولي ... أما سونيا فسوف أكتب لها الليلة أعزيها في أبيها .

٦ يناير — ورد إليّ كتاب شكر رقيق اليوم من سونيا

وكنت قد كتبت لها أعزيها من يومين ... وهو كتاب طويل حاولت فيه الفتاة المسكينة أن تعتذر من حادث النادى قائلة إنها كانت وقتئذ تحت سلطان الغيرة اللعين ... ثم تحدثت عن نذالة فتحى معها . . لا أدرى لماذا تذكر لى سونيا كل هذا وما كنت صديقتها الحميمة يوما بل علاقاتنا لم تتعد المعرفة التى تنشأ عادة بين أعضاء ناد واحد . . على كل حال إنى لأرثى لهذه الفتاة من كل قلبى راجية الله أن يبعث لها بخطيب طيب لطيف مثل عزيزى أحمد . ولكن ترى هل هناك من يماثل أحمد فى صفاته ، إنى لأشك فى ذلك ، إن أحمد فريد بين الشبان . .

٧ منه — (فى ساعة متأخرة من الليل) .

قلت لأحمد اليوم يحسن بنا أن نقلل من لقائنا لأن عليه أن يلتفت إلى دروسه التى أهملها فى الأيام الأخيرة ، سنتقابل مثلا مرة أو مرتين فى الأسبوع . . . ولكنى تعبت حتى أقنعته بهذا الرأى لأنه كان يعارضنى قائلاً : إنى لا شك رغبت عنه والله يعلم كم أرغب فيه ! . . بل كم يضايقنى هذا القرار . . . اتفقنا أيضاً على أن نذهب يوم الأحد القادم — يوم عطلتى — إلى الأهرام لنتغدى هناك ، ستعد أمى لنا غداء خفيفاً

مناسباً نأخذه معنا فى سلّة . . . إنى جد تواقة إلى هذه الرحلة لأنى أحب الأهرام إذ أتذكر فى خلالها ذلك الماضى الفرعونى المجيد . . . كم وددت أن أعيش فى ذلك العهد لأركب زوارق خفيفة من البردى ، وألبس نعالا رقيقة من اللوتس وأسمع الناس يتكلمون حولى بتلك اللغة العجيبة (لغة العصافير) . . . ولكن ما لك وهذه الأفكار الغريبة يا سميحة . ؟ إنك لم تطالعى الليلة شيئاً عن مصر القديمة ، بالعكس أنت قرأت أندريه چيد الذى يحضنا على نبذ الماضى والتشبث بالحاضر بل باللحظة الماثلة ، كما يطالبنا بالتمتع بالحياة إلى أقصى حد .

***

٨ منه — أن أمكث بضعة أيام دون أن أشاهد أحمد — حسب اتفاقنا — هذا عذاب شديد لى ، بل هو عذاب جدير بمملكة (پلوتون[1]) لذلك بادرت اليوم إلى التحدث إليه فى التليفون فى بيت صديقه مدحت الذى يشاركه المذاكرة . سألت أولا عن مدحت هـذا فلما جاءنى على التليفون رجوته أن يوصلنى بأحمد . يبدو لى من رد هذا الصديق أنه

(١) سيد جهنم (فى الميثولوجيا) .

لطيف ومؤدب ، وصــوته رقيق فى التليفون — ويحك يا سميحة ألا يكفيك شاب واحد ؟ — ثم كلمنى بعد دقائق أحمد سائلاً فى تهكم عما استجد من الحوادث الجسام حتى أستقدم الموعد الذى كنا اتفقنا عليه ، قلت مرتبكة : رأيت أن أعرض عليك مساعدتى فى شأن تفهم النصوص الفرنسية للقانون المدنى . فأنا أعلم بضعفك فى الفرنسية . قال ضاحكا : حقاً هى مساعدة قيمة تلك التى تقدمينها . كيف لم أفكر فيها قبل الآن ؟ ألف شكر يا أستاذتى سميحة ولكن أين تريدين أن يكون الدرس؟ قلت : حيثما شئت . قال : أتريدين أن تأتى إلى هنـا ؟ صحت : أمجنون أنت ! إن فى حضورى إحراجاً لصديقك. قال : بالعكس سيسره الاستماع إلى أستاذة فى علمك ولطفك وجمالك . قلت : أشكرك يا عزيزى على كل هذا الاطراء ، أما عن الحضور إلى بيت مدحت فهذا غير لائق . قال : إذن أين أقابلك ؟ قلت:حيثما شئت . قال : إذن قابلينى فى قهوة كذا بميدان الجيزة ، فهى تكاد تكون خالية من الرواد فى النهار كما أن لها حديقة صغيرة نستطيع أن ننعم فيها بشمس يناير اللطيفة . .

ذهبت إلى القهوة فوجدت أحمـد جالساً هنـاك ومعه

شاب آخر هو لا شك صديقـــه مدحت فعجبت لسرعة حضورهما لأنى كنت أقرب إلى الجيزة منهما عندما تكلمت فى التليفون. ولما سألت أحمد عن السبب فى حضورهما بمثل هذه السرعة أشار نحو صديقه قائلا : الفضل فى هذا يرجع إلى مدحت ياعزيزتى فقد أحضرنى فى سيارته ، ثم قام بمراسيم التعارف بيننا. مدحت شاب كما تخيلته ، لطيف مؤدب ولكنه دون أحمد جاذبية ولو أنه أرشق منه قواماً . . صحت : الآن هلماً إلى العمل ثم التفت إلى أحمد قائلة : هل أحضرت «الكود» الفرنسى ؟ قال أحمد : أجل يا أستاذة ، قلت : أرنى المواد التى يصعب فهمها من حيث اللغة طبعاً. و بينما شرع أحمد يتصفح «الكود» قال مدحت: حقاً يا لنابليون من رجل عبقرى ! لم تكفه الفتوحات العظيمة التى قام بها حتى شغل نفسه بوضع القوانين ، يقول المؤرخون إنه كان يشرف بنفسه على أعمال اللجنة التى عنيت «بالكود» كما كان يتدخل فى بحوثها ومناقشاتها، قلت : أما أنا يا أستاذ مدحت فلا أشارك الإعجاب بنابليون بعد الذى قرأته عنه نقلا عن أديب فرنسا الكبير أناتول فرانس. فقدقال إن نابليون كان دعياً فى العلم حتى خطبه ورسائله كان هنالك من يكتبها له . بالاختصار فرانس

يسميه مهرجاً . قال مدحت : ولكن ما رأيك فى حروبه المجيدة ؟
قلت : كانت وبالا على أمته فقد أرهقت فرنسا واستنفدت دم
شبابها المسكين ، حقًّا ما كان أصدق الدوقة دلبانى حينما قالت
عن أمّ ناپليون : هذه المرأة هى أعظم البطون جرما فى النصرانية .
قال : على كل حال لقد كسا ناپليون فرنسا حللا لاتبلى من المجد .
قلت : لكن العبرة بالنهاية ألم يضيع كل شىء فى آخر الأمر تاركا
بلاده فى غاية الذل والفاقة ؟ هنا صاح أحمد : ويحكما يا صاحبىّ .
إننا لم نجتمع للتحدث عن ناپليون بل لندرس نصوص
« الكود » هيا إلى العمل يا أستاذة سميحة. إليك الفصل الخامس
من « الكود » هلا تفضلت بقراءته ؟ ثم ناولنى إياه فرأيتنى
أقرأ ما يلى : الواجبات التى تنشأ عن الزواج ، المادة ٢٠٣ :
يتعهد الزوجان بموجب الزواج بسد حاجة أطفالهما وتربيتهم ،
المادة ٢١٣ : على الزوج حماية زوجته كما أن على الزوجة إطاعة
زوجها . المادة ٢١٤ : الزوجة مضطرة إلى الإقامة حيث يكون
الزوج . هنا توقفت عن القراءة صائحة : ولكن هذه المواد
صريحة يا صاحبى لا لبس فيها . فأجاب أحمد مستضحكا : إنى
طلبت منك قصدا قراءة هذه المواد يا عزيزتى لتعلقها بالزواج

لأنك ستصبحين عن قريب إن شاء الله زوجة فيجب أن تكونى ملمة بحقوقك وواجباتك . احمر وجهى خجلاً لدى سماعى هذا التعليق ثم قذفته « بالكود » صائحة : أتريد أن تتظرف على حسابى . ثم تدخل مدحت قائلاً : الأولى بكما مراجعة الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد . فقال أحمد وهو يشير إلىّ: الآنسة ثقافتها أوربية فلا تفقه مع الأسف شيئاً فى الشريعة. ثم عاد مدحت فقال بعد ما هدأت العاصفة — إذ يلوح لى أنه من الشبان الذين لا طاقة لهم بالمذاكرة : إنى أستأذن منكما الآن لأنى على موعد فى القاهرة . هل لكما فى العودة معى أم تؤثران البقاء هنا واستئناف هذا الدرس العجيب ؟ فأجاب أحمد : شكراً يا أخى سنبقى هنا لأنى أريد أن أبث خطيبتى الغرام فى هذا المكان البعيد عن الرقباء، أليس كذلك يا حبيبتى؟ صحت ضاحكة: أو ما كفاك تظرفا اليوم ؟ ثم صعد مدحت إلى سيارته وانطلق بها بينما عدنا نحن إلى «الكود» . ولكن بجد هذه المرة، و بعد فترة من الزمن قضيناها فى العمل ، تناول كل منا فنجاناً من الشاى أنعشنا وأزال عنا تعبنا ثم رأينا أن نتريض قليلا فى تلك الضاحية اللطيفة قبل أن نعود إلى القاهرة

وضجيجها ، فمشينا طول شارع الجيزة حتى إذا بلغنا الكوبرى الانجليزى ، صعدنا فى الترام قافلين .

حقا قضينا يوما مفيدا ممتعا ! . . اتفقت مع أحمد على أن أقابله هنا فى الغد

٩ يناير — استطعت الذهاب مبكرة بعد ظهر اليوم إلى القهوة التى اتفقت مع أحمد على لقائنا فيها . ذلك لأن عملنا فى المكتب قليل فى هذه الأيام لتغيب رئيسنا فى الخارج بأوربا ، فطلبت فنجانا من الشاى وجعلت أتصفح فى نشوة أحد مؤلفات صديقى فرانس فوقع نظرى على هذه الجملة البديعة :

يحقق العالم دائما أحلام الحكماء ولو على مهل .

صحت فى حسرة : مسكين يا فرانس.. ما أبعد أحلامك عن التحقيق ! ها هى إنسانيتك التى طالما عطفت عليها يدفعها المجانين نحو الهاوية .

صاح أحمد وكان قد حضر فى هذه الأثناء : واشقوتاه ! ها هى خطيبتى قد جنت . إنها تحدث نفسها . أجبته : كم أود أن أجن حقا بشرط أن أستطيع أن أكتب شيئا مثل هذا . وأين مدحت ؟ قال : أتفتقدينه إلى هذا الحد ولما ينقض يوم كامل على

تعارفكما . قلت : لم لا ! إنه شاب لطيف جداً — ثم فى تهكم — أرجو ألا يضايقك ثنائى عليه قال: بالعكس. بالعكس يا عزيزتى. إنى لأشاركك هذا الثناء على صديق مثله . سكت قليلا ثم عاد فقال : على فكرة مررت اليوم به فوجدته مريضا . قلت : وبم يشكو ؟ قال : من الانفلونزا . قلت : هذا سوء حظ لنا لأنه كان فى استطاعتنا أن نذهب فى سيارته لدى رحلتنا إلى الأهرام. أتستطيع أنت قيادتها ؟ قال : لا أعرف وأنت؟ قلت : ولا أنا . والواقع أنى أجيد قيادة السيارات ولكنى تظاهرت بالجهل لأنى لو قدتها وحدث لها أى حادث فأنا ملزمة بإصلاحها وهذا ما لا تسمح به مع الأسف ماليتى الآن . قال : نستطيع أن نؤجل الرحلة إلى الأسبوع القادم حتى يشفى.. صحت : لا يا عزيزى إنى أحب أن أتنزه فى يوم عطلتى . قال : لنذهب إذن إلى مكان آخر قريب . قلت : كلا. إنى مشتاقة إلى زيارة الأهرام. قال: هل تعلمين يا سميحة أنى أصبحت أخاف منك، إذ أخشى أن تكونى قد تقمصت إحدى تلك الأرواح الفرعونية التى ترقد أجسادها هناك كبنت خوفو أو بنت منقرع؟ ذلك من كثرة حنينك إلى تلك المقابر. قلت : أما كفاك هراء يا عزيزى، والآن ما ذا تريد أن

تشرب ؟ أقهوة أم شاياً مثلى ؟ وكان الخادم قد أقبل فى هـذه الأثناء فطلب أحمد منه شايا ثم صحت : والآن هيا إلى العمل قال: اليوم مع الأسف الشديد لست فى حاجة إلى مساعدتك يا أستاذتى سميحه إذ علىّ أن أراجع درس هذا الصباح فى الجامعة لأنى لم أفهم بعض ما ورد فى القانون الجنائى . قلت: حسناً وأنا أعود إلى فرانس . قال : هل تعلمين يا سميحة أن التطريز قد يكون خيراً لك بكثير من القراءة لأن الطفل سوف يحتاج إلى كثير من الملابس . قلت: أى طفل؟ قال : طفلنا طبعا يا عزيزتى. صحت : أما نهيتك عن الخوض فى مثل هذه الموضوعات المملة ؟ والآن كفى ثرثرة ، هيا إلى العمل ، ثم ناولته كتابه وأرغمته على المذاكرة كما عدت أنا إلى مطالعتى الشائقة .

١٢ منه — قمنا اليوم أحمد وأنا برحلة الأهرام حيث تغدينا على أطلال المعبد الصغير القائم بجوار الهرم الثالث ، ثم ذهبنا إلى أبى الهول الذى رفعوا عنه الرمال حديثاً ، الأمر الذى لا أقره لأنه بدا بهذا العمل خالياً من ذلك الجو الرهيب الذى كان يحيط به . . . كانت الشمس أيضاً بديعة حتى أننا أحسسنا بالحر أثناء المسير على الرغم من برودة الجو . . . حقاً . . . أن

أجدادنا المصريين القدماء كانوا على حق حينما قدسوها . . .
كذلك الهواء كان جميلاً إلى حد أننا شعرنا بالجوع ثانية
ولما نغادر المكان ؛ لذلك لم نكد نصل إلى القاهرة حتى
ذهبنا إلى مقهى حيث التهمنا « شاياً كاملا » . تبادلنا أحمد
وأنا عدة قبلات فى أثناء هذه الرحلة . . . ولكن أحمد غاظنى
بعدم مبالاته بالعاديات المصرية . . . رب كيف لا يشعر أمثاله
بالإعجاب بهذه الآثار الجميلة ؟ . . .

١٣ منه — إننى جد حزينة إذ شاهدت هذا الصباح أحمد
يسير فى الشارع محتضنا ذراع فتاة سمراء . . . وكانت تبدو
عليهما آثار الغبطة . . . أحمد لم يرنى ... ترى هل أفاتحه فى
الأمر ؟ ... ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ إنه سوف يزعم أن الفتاة
زميلة له فى الجامعة لا أكثر ولا أقل ... ولكنها على جانب من
الرشاقة ، لذلك من الجائز جداً أن تكون هناك علاقة عاطفية
بينهما ... كيف يتاح لى معرفة الحقيقة ؟... إن الشك يعذبنى ...
آه لو كان فى استطاعة الإنسان قراءة ما فى صدر أخيه ...

١٥ منه — بدت فى سماء ودنا الصافية السحب القاتمة
الأولى ، وذلك من أجل تلك الفتاة التى رأيته يمسكها من

ذراعها فى الشارع منذ ثلاثة أيام ، إذ سألته عنها فقال لى ما كنت أتوقع أن يقول : إنها زميلة بالجامعة . قلت : أليست هناك علاقة عاطفية بينكما ؟ قال : كلا . قلت : وفى الماضى ؟ ... قال : ولا فى الماضى . قلت : أرجو أن تصدقنى القول يا عزيزى لأننا نحن معشر فتيات اليوم أبغض شىء إلينا هو الكذب . قال : وأنا أرجو أن تكونى أكثر ثقة بى ... ثم جذب يدى إلى فمه وطبع عليها قبلة حارة .

١٦ منه — حدث ما كنت أخشى أن يحدث فقد تلقيت صباح اليوم الرسالة العجيبة الآتية : آنستى المحترمة :

هل لى أن أراك غداً — أى اليوم — فى الساعة السادسة والربع لدى محطة المترو النهائية بشارع عماد الدين ؟ إنى اخترت هذا الموعد لعلمى أنك لا تنتهين من عملك قبل الساعة السادسة ... — حقاً أنها جد مطلعة على حياتى الخاصة — أرى ألا ضرر هناك من أنك لا تعرفين شكلى كى تهتدى إلىّ ... فأنا أعرفك جيداً ... والموضوع الذى أريد أن أحدثك فيه يتعلق بأحمد ... لذلك سوف لا تبخلين بالحضور لأنك كما أعلم شديدة الاهتمام به

الإمضاء « س »

قلت أخاطب نفسى : لا شك فى أن الرسالة من الفتاة السمراء التى شاهدتها مع أحمد فى الشارع . . . اللهم إلا إذا كان أحمد زير فتيات . . . ماذا أفعل ؟ هل أذهب أو أمزق الرسالة ؟ . . ثم هل أحمد خدّاع إلى هذا الحد ؟ . . . ولكن لو تخلفت عن الذهاب عذبنى الشك ، وربما ظنت هذه الفتاة أنى أخشاها . . . لذلك صممت على الذهاب ، فلم يكد يأذن الموعد حتى كنت أنتظرها عند محطة المترو . . . ولقد كان ما توقعت أن يكون : صاحبة الرسالة هى الفتاة السمراء التى شاهدتها مع أحمد . . . تقدمت منى فحيتنى ، دون أن تعرّفنى مع ذلك باسمها ، ثم عرضت علىّ أن ندخل «الأمريكين» — فرع عماد الدين — لأن البرد وقتئذ كان شديداً فى الخارج ، فقبلت . . . ثم جلسنا هنالك إلى مائدة منعزلة فى الدور الأول . . . تأملت الفتاة ونحن نصعد السلم فوجدتها على جانب من الرشاقة ، كما أن سمرتها ليست شـديدة بل معقولة . . . وشعرها فاحم جميل ولكنه يميل مع الأسف إلى التجعّد ، أما ذوقها فى الملبس « فبلدى » . كذلك لم أخل أنا فى أثناء هذا من نظراتها الناقدة .

بدأت هى الحديث فقالت فى ابتسامة متكلفة : آسف يا آنسة

أن كنت أزعجتك ، ولكن لقاؤنا كان لابد منه لأننا نحن الاثنتين مع الأسف نحب شخصاً واحداً . . . نحب أحمد . . . على أنى أنا أحبه قبلك بزمن طويل فلى عليه والحالة هذه ، حق الأولوية كما نقول نحن معشر القانونيين . . أما أحمد نفسه فهو مع الأسف يؤثرك علىّ . . . فتنته بأدب سلوكك العالى ، بأناقة ملابسك بيديك الناعمتين . . . فقاطعتها قائلة فى غضب : ما هذا التهكم ؟ إذا استمر حديثك على هذا النمط فإنى أنسحب . . . قالت : أنا آسفة جداً لم أقصد أبداً أن أتهكم عليك ، إذ أنت فعلا من وسط أرقى بمراحل من وسطنا أحمد وأنا ... هذا ما كنت أقصد أن أقول ، أما إذا كان الكلام الطويل يضايقك فإنى أوجز طلبى فى كلمة واحدة ألا وهى أن تبتعدى عن أحمد . قلت فى برود : آسف ، هذا الأمر يخصنى أنا وأحمد فقط . . . ثم ناديت الخادم فدفعت الحساب ، ثم حييتها وانصرفت تاركة الفتاة فى حالة دهشة عجيبة لم تمكنها من الرد . . . مسكينة أيتها المحامية الناشئة . . . لقد خسرت قضيتك الأولى . . . مسكينة أنت أيضاً يا سميحة فلن تذوق النوم فى ليلتك ، مع ما أبديت من حزم ! . .

***

١٨ منه — اليوم عيد ميلادى الثامن عشر ، كنت قد نسيته عقب الكدر الذى سببه لى حادث الفتاة السمراء . . . أمى العزيزة هى التى نبهتنى إليه ، وذلك بأن وضعت أمامى على مائدة الفطور هديتها لى . . . وهى حقيبة يد لطيفة ، كما أنها قبلتنى بحرارة فى وجنتى ، متمنية لى الصحة والهناء . . . حقاً ما أغبانى ! أحرق دمى على هذا النحو من أجل أحمد أو غيره . . بينما لى أم حنون . . . أما صديقاتى القديمات فلم تتذكر واحدة منهن هذا العيد . . . حقاً . . . ما أعجب أمرهن ألأنى أصبحت فقيرة لم يعد لى حق الاحتفاء بعيد ميلادى ؟ . . .

كلمنى أحمد بعد ظهر اليوم بالمكتب مهنئاً إياى بعيد ميلادى ثم قال أيضاً إنه سوف ينتظرنى لدى انصرافى من العمل فى منتدى الشاى الذى اعتدنا الذهاب إليه فى الأيام الأول . . . ذهبت هناك فوجدته فى انتظارى ، وكان على جانب عظيم من البشاشة . حيانى فى حرارة ، ولكنى رددت تحيته فى فتور لأنى لم أستطع الضغط على أعصابى التى كانت تغلى من الغضب لكذبه . ولكن أحمد نسب تغيرى إلى التعب إذ قال : هل تشعرين

بشيء من التعب يا عزيزتي ؟ هل لك في « أسبرين » ؟.. قلت : كلا. أشكرك . . . قال مبتسما : هل تعلمين أني أحضرت لك هدية فاخرة ؟ . . قلت : حقاً ؟ . . أشكرك على ذلك . . ولكن أنا أيضاً أحضرت لك هدية . . . قال متعجباً : وبأية مناسبة أحضرت لي هدية يا عزيزتي ؟ . . قلت : لأوكد لك محبتي . . فتهلل وجهه صائحاً : حقاً يا لك من فتاة لطيفة . . . ثم أخرج هديته من جيبه فإذا هي زجاجة عطر غالي الثمن ولكنه بعيد عن الذوق . . . فتسلمتها منه شاكرة ثم قدمت له بدوري هديتي التي لم يكد يطلع عليها حتى امتقع وجهه إذ لم تكن هذه الهدية سوى ذلك الكتاب الذي وردني من فتاته السمراء . . . قلت : ما رأيك في هديتي ؟ . . .

— رأيي أنه لم يكن مناسباً إثارة مثل هذا الموضوع في يوم سعيد كيوم عيد ميلادك .

— قلت لك مراراً أني أحب الصراحة فلو كنت صدقتني القول منذ البداية لما غضبت منك . . .

— أقسم لك يا سميحة أنني لم أكن كاذباً حينما ذكرت لك أني

لا أحب هذه الفتاة . . . وأن العلاقة بيننا لا تتعدى الزمالة فى الدراسة .

— ولكنها تحبك . . .

— فليكن ، ولكنى لا أشاركها هذا الحب . . . أقسم لك بهذا للمرة الثانية . . .

— حسن سأصدقك إلى أن يثبت العكس . . .

أراد بعد ذلك أن يطلب قدحين من « الويسكى » قائلا : إن الخمر سوف تبدد ما حدث من سوء تفاهم ... فقلت : لا بأس من ذلك . . . ولكنى أفضل « البورتو » على الويسكى فطلب عندئذ قدحين من البورتو قائلاً إنه يجهل هذا المشروب فقلت له : إنه نوع من النبيذ الحلو . آه لو سمعه أصدقائى السابقون من حىّ الزمالك يقول ذلك لما خلا أبداً من سخريتهم . وقد التهمنا مع هذا البورتو عدة فطائر لذيذة . . . مسكينة يا سميحة . . . هذا حال الدنيا ، إقبال ثم إدبار ، فيما مضى كنت تحتفلين بعيد ميلادك وسط المرح والسرور فى رهط من الأصدقاء والأحباء الذين يقدمون لك فاخر الهدايا . أما اليوم فها أنت تحتفلين به فى محل حلوى حقير . . . ومع ذلك فلولا حادث الفتاة السمراء لما

حزنت على تبدل الحال على هذا النحو . بالعكس ربما كنت أسعد حالاً فى قضائى الليلة على انفراد مع شخص أحبه كأحمد .

تنزهنا بعد ذلك سيراً على الأقدام، على غير هدى ، على الرغم من شدة البرد ، وكان الفضل للپورتو فى عدم شعورنا بقسوة الجو .. قبلنى أحمد أثناء الطريق فى عينى مكررا تهنئته ثم أردف قائلاً: إن عينىّ أجمل شىء رآه فى حياته . قلت : ولكن كيف أتيح لك معرفة جمال عينىّ وسط هذا الظلام الحالك ؟ ... قال : إن صورتهما المحبوبة محفوظة فى قلبى مذ أول مرة رأيتك فيها يا عزيزتى . . . قلت : أتظن حقيقة أنهما أجمل من عينىّ فتاتك السمراء ؟ قال فى غضب : ناشدتك الله ألا تعيدى هذا الحديث . .

***

٢١ منه — اليوم لدى انصرافى من المكتب عند الظهر وجدت تلك الفتاة السمراء البغيضة فى انتظارى ، حيتنى ثم سألتنى : هل أستطيع أن أنصت إليها قليلا ، فأجبتها معتذرة ، ولكنها ألحت قائلة : إنك أخطأت يا آنسة فى إخبار أحمد بحديثنا فى « الأمريكين » لأنه وجه لى من أجله لوماً شديداً ... فلزمت

الصمت ... عندئذ أردفت تقول وقد غاظها سكوتى : لاتصدقى أحمد إن قال لك أنه يحبك ، لأن حبه لك هو فى نظره بمثابة تسلية ليس إلا . . . أما أنا فحبيبته القديمة ، أنا حبه الأول . . ألا تذكرين قول الشاعر: ما الحب إلا للحبيب الأول ؟ . . . ولما رأتنى ما زلت ملازمة الصمت ثارت ثائرتها إذ قذفتنى بكلمات شتيمة ثم انصرفت .

رباه . ما أقبح الحقد ! . ما أبغض منظر هـذه الفتاة وقد انقلبت سمرة وجهها اللطيفة إلى صفرة قبيحة ... أفسد هذا اللقاء مزاجى ولم أعد إلى طبيعتى إلا بعد أن رأيت وجه أمى المشرق الضاحك ، فقد محت نظرتها الرقيقة لى صورة تلك الفتاة التى كانت قد تحولت إلى حيوان مفترس بغيض ...

***

اليوم نفسه فى الليل —

لا أظن أن أحمد برىء كل هذه البراءة التى يدعيها فى أمر الفتاة السمراء ، لأن الفتاة المذكورة لا يمكن أن تنفعل كل هذا الانفعال بدون سبب . . .

رباه . . . لماذا أقع فى حب شخص كذوب كأحمد ؟ . . .

فضلا عن أنه ليس من وسطى أو أصلى ... إن مثله لا يتورع فى حالة زواجى منه من أن يجلس إلى مائدة الطعام وهو «بالجلبية» أو من أن يأ كل بأصابعه ... ولكن ما ذا أفعل وقلبى مدله بحبه ؟ ...

٢٤ منه — زارنا ظهر أمس محمد بك بمنزلنا بالسيدة . لم أ كن هناك مع الأسف لدى حضوره إذ كنت فى عملى ، وقد قال لأبوى إنه تألم كثيراً للكارثة التى لحقت بنا ثم عرض على أبى مساعدته فى هذا الصدد قائلا: إنه ربما أمكنه تسوية المسألة لدى البنوك بضمانه الشخصى، فأجابه أبى بأن المسألة مع الأسف انتهت الآن ، ثم شكره على أريحيته وشعوره النبيل ... حقاً ... إن ظنى فى محمد بك لم يخب فهو سيد بكل معنى الكلمة ... ثم سألها عنى مستفسراً عن صحتى وأخبارى. ولما علم بأننى أشتغل تأثر قائلا إنه يخشى أن يرهقنى العمل فيذهب بنضارتى و يقضى على طلاوتى حقاً ... دهشت لصدور مثل هذا الكلام من محمد بك لأنه لم يلتفت من قبل إلى شكلى إذ لم أ كن فى نظره . . . إلا مجرد طفلة ... ثم أبدى رغبته فى مشاهدتى فدعاه أبى إلى تناول الغداء معنا اليوم ... وقد حضر فعلا محمد بك اليوم فى الموعد المحدود

وأحضر لى معه علبة كبيرة من الكستناء المسكرة وهى هدية ثمينة فرحت بها كل الفرح لأنى أحب هـذا الصنف من الحلوى ولا أستطيع شراءه الآن لفداحة ثمنه . . أثنى محمد بك على شكلى وهندامى أثناء الطعام قائلا إننى كلما نموت ازددت رشاقة وفتنة ثم تحدثنا عن الجو فاشتكت أمى من قسوة الشتاء هذا العام ، فعرض علينا محمد بك قضاء بقية هذا الفصل فى عزبته بالصعيد حيث الجو دافىء لطيف .. فاعتذر أبواى شاكرين — من أجل عملى أنا — ولو أنهما فى قرارة نفسيهما كانا يميلان إلى تلبية هذه الدعوة لشدة محبتهما لمحمد بك . ولما انتهينا من تناول الطعام ثم القهوة صحبنى محمد بك فى سيارته «الپكار» الفخمة التى كان يقودها بنفسه إلى مكتبى وفى أثناء الطريق رجوته أن يقف قليلا أمام إحدى المكتبات لأقتنى كتابا ظهر حديثاً عن أناتول فرانس فقال محمد بك أثنـاء اشتغال العامل باحضار الكتاب : هل أنت مغرمة إلى هذا الحد بأناتول فرانس ؟ قلت : ومن ذا الذى لا يحب ذلك الإنسان العظيم الذى كان قلبه يفيض شفقة على بنى آدم التاعسين ؟ قال : أنت على حق، إن أناتول فرانس كان أيضاً ذا ذكاء نادر. ولكن محمد بك تأسف فى الوقت نفسه لأننا

معشر الفتيات المصريات العصريات لا نطالع الكتب العربية مردفاً أن بعضها يضارع المؤلفات الفرنجية بل يسمو عليها . قلت : إن اللوم فى هذا يقع على المعلم العربى الذى لا يحببنا فى تلك الكتب ، ويقع هذا اللوم على الناشر عندنا لعدم طبعه الكتب العربية طبعاً أنيقاً مغريًا كما يفعل الأوربيون . ولما بلغت السيارة المكتب ، سألنى محمد بك : هل أستطيع مقابلته ثانية لدى انصرافى من العمل لأنه يود أن يحدثنى فى أمر هام ، فأجبته طبعاً إلى رغبته إذ من ذا الذى يستطيع أن يرفض طلباً لسيد كمحمد بك ؟

سألنى محمد بك وسيارته الضخمة تنهب بنا الأرض نهباً فى طريقها إلى أهرام الجيزة إذا كنت أرضى به زوجاً، مردفاً أنه أحبنى لأول مرة رآنى فيها وذلك على الباخرة يوم كدت أسقط — أثناء العاصفة — على الأرض لولا أنه انتشلنى بساعده القوى. ثم سكت ملياً وعاد فقال : كذلك أرجو ألا تظنى أننى مدفوع فى هذا بالكارثة التى حلت بكم ... فقاطعته قائلة : ماذا تقول يا محمد بك؟ أنت سيد ، إن مثلك لا يستغل الظروف ... فربت على كتفى قائلاً : شكراً شكراً . إنى أريد أيضاً أن

ألفت نظرك إلى شيء آخر مهم، ألا وهو تفاوتنا فى السن... فأنا فى الأربعين بينما أنت لم تتجاوزى الثامنة عشرة ، ولو أن هذا التفاوت فى السن قد يجعل منى زوجاً رزيناً لا يهجر زوجته كما يفعل فتيان اليوم ... ولما رآنى ساهمة أردف قائلا: إنه لا يطلب رداً سريعاً بل علىّ أن أتريث قبل النطق بنعم أولا : لأن الأمر خطير يحتاج إلى تفكير ... وهنالك مع الأسف كثيرات يتزوجن أولا ثم يشرعن فى التفكير ... ثم عاد فقال: إنه مسافر فى الغد إلى الإسكندرية لأعمال مالية على أن يعود منها بعد أسبوع فيرجو أن يحصل إذ ذاك على جوابى ... ثم عاد فسألنى : هل كان قلبى مشغولا بشخص آخر ؟ ... فأجبته بالنفى. ويحك يا سميحة ألم تعودى تحبين صديقك أحمد ؟ .

***

اليوم نفسه ليلا —

لا يرغب النوم فىّ كما أنى لا أرغب فيه فأنا مشغولة البال بما عرضه محمد بك ... ترى ماذا أفعل ؟ ... أيهما أختار ؟ ... أحمد أم محمد بك ؟ ... لولا حكاية تلك الفتاة السمراء البغيضة لما ترددت فى اختيار أحمد مع على بأن الحياة معه ستكون

حافلة بالمتاعب المادية لأنه غير ميسور ، بل عليه أن يسعى قبل الزواج للحصول على عمل لائق بعد تخرجه فى الجامعة وهو أمر صعب التحقيق فى زماننا هذا الذى تفشت فيه المحسوبية فحجزت الوظائف الملائمة لأبناء العظماء وأصهارهم وأقاربهم ... ولكن من جهة أخرى سأحيا مع أحمد حياة لذيذة مرحة كلها ضحك ولعب ، لتقارب عمرينا ... حقاً سأتمتع بشبابى معه كل المتعة فما أجمل عينيه الخضراوين اللتين تضارعان أثمن ما هنالك فى العالم من زمرد ... أما محمد بك فحياتى معه ستكون حياة بذخ ... حياة تصفر لها حسداً صديقاتى السابقات من حى الزمالك اللواتى يعرضن عنى اليوم ... ثم إن محمد بك من بيئتنا كما أنه شركسى الأصل مثلنا وليس محمد بك دميما بل ملامح وجهه تنم عن النبل والرجولة ، أليس هو شبيهاً لنجمى المفضل جارى كوبر ؟ أما العمر ، فمحمد بك ليس بالرجل الطاعن فى السن ... بل هو كهل فقط تجاوز الأربعين قليلا ومع ذلك أليست هناك عشرون عاماً تفصلنا ؟ . . أليست هى نفسها عمراً ثانياً ؟ رباه كيف التصرف؟ لو كنت رجلاً لأنهيت المشكل بالاحجام عن الزواج ... لكن

نحن معشر النساء لا يسمح لنا بالعزوبة فالمرأة العانس هى موضع تهكم الناس وسخريتهم ...

أيهما أختار وكلاهما عزيز لدىّ ؟ فمحمد بك تطمئن إليه نفسى ، أما أحمد فقلبى يناديه ... على كل حال أمامى فسحة من الزمن لكى أفكر فى الأمر مرة أخرى ... حقاً . . يحزننى أن ليست لى أخت أستشيرها فى الموضوع ، أما أبواى فلا فائدة من استشارتهما فى ذلك لأنهما متحيزان كل التحيز لمحمد بك . بل إن زيارته الأخيرة التى أظهر فيها كثيراً من الاهتمام بى قد أحيت من آمالهما .

***

٢٥ منه — حلمت طول الليلة الماضية بهذا الموضوع : رأيتنى ويا للعجب أجلس على مقعد وثير فى غرفة الاستقبال الكبيرة بمنزلنا القديم بالزمالك وفارساى أمامى يتنابذان من أجلى ثم شرع كل منهما يجذبنى من ذراعى نحوه ، ولكن محمد بك هو الذى فاز بى فى النهاية فتبعته . . . ها هو ذا عقلى الباطن يختار لى . . . ترى هل أتبع هذا الاختيار ؟ ولكن لماذا لم أشعر فى الحلم بالسعادة حينما ظفر بى محمد بك ؟ لماذا كنت أنظر فى حسرة

ورائى شاخصة نحو أحمد ؟ حقاً . . . لقد تعبت من هذا الحلم كل التعب . إذ قمت اليوم من نومى منهوكة القوى وقد لاحظت أمى علىّ ذلك فظنتنى مريضة ثم أرادت أن تصرفنى من الذهاب إلى العمل ولم أستطع الخروج إلا بعد جهد ، بعد أن أثبت لها أنى غير مريضة وذلك بقياس حرارتى أمامها .

قابلت أحمد بعد ظهر اليوم لدى انصرافى من العمل . ولكنه لم يمكث معى طويلا لأنه مشغول هذه الأيام بمرافقة قريب مريض من الريف وفد إلى القاهرة لاستشارة بعض كبار أطبائها فى مرضه . وكان أحمد ساخطاً من هذه المهمة الثقيلة التى تصرفه عنى وعن الدراسة . قلت له ضاحكة : أظن أنك ترغب فى موت الرجل كى تتخلص منه ؟ قال : بالعكس لو مات تفاقمت مصيبتى إذ أكون ملزماً بمرافقة جثمانه إلى البلد ، ثم وجب على بعد ذلك أن أحضر ليالى المأتم الثلاث التى قد أشرب خلالها من القهوة الرديئة ما يؤرقنى بقية عمرى . . حقاً أن أحمد على الرغم من عيوبه ، فتى خفيف الظل ، لم أخبر أحمد بمقابلة فتاته السمراء لى للمرة الثانية ، إذ أية فائدة ترجى وراء ذلك ؟ .

قرأت اليوم فيما قرأت هذه الجملة الحكيمة «إذا أحببت فأغمض عينيك» . . ترى هل تمكننى أعصابى من أن أتبعها ؟ .

٢٦ يناير — لمحت مدحت صديق أحمد لدى خروجى بعد ظهر اليوم من المكتب ، وهو يقود سيارته فأشرت إليه فتوقف ، سألنى عن أحمد قائلا إنه لم يره من عدة أيام ، فقلت : إنه مشغول بمرافقة قريب وفد عليه من الريف ثم أردفت قائلة : كنت أحب أن أحدثك فى موضوع بسيط لا يشغل وقتك طويلا فهل هذا ممكن الآن ؟ قال : وهل أستطيع أن أرفض لك طلباً يا أستاذتى الفاضلة ؟ إننى رهن إشارتك . قلت : شكراً جزيلا ، إلى أين كنت تذهب الآن ؟ قال : فى مهمة بسيطة بمصر الجديدة تتلخص فى أنى أترك هذه الحقيبة فى بيت أختى التى تقطن هناك . فإن شئت رافقتنى فى هذه الرحلة ، هى نزهة لطيفة ، وفى الوقت نفسه يكون لدينا متسع للكلام فى أثناء الطريق . قلت : وهو كذلك ثم صعدت إلى جواره . وبينا نحن فى طريقنا إلى مصر الجديدة حدثته عن الموضوع الذى كان يشغل بالى ، وهو أمر تلك الفتاة السمراء التى تعكر صفو علاقتى بأحمد من وقت لآخر سائلة إياه : هل كان أحمد حقيقة قد أحبها

قبلى كما تدعى ؟ لأنى فى هذه الحالة أرى الواجب يحتم على أن أخلى لهـا الطريق ، و إن كانت لا تستحق هذه التضحية منى بعد ما بدا منها من عداوة وقلة أدب . ولـكن مدحت أقسم لى بأنه ليست هناك علاقة غرام بين أحمد و بينها ، فسررت جداً لذلك لأنه كان يبدو صادقا فى قوله . وكنا قد بلغنا فندق «هليو بلس هاوس» ، فنزلت عنده قائلة : سأنتظرك هنا بالشرفة إلى أن تنتهى من مهمتك لأنى أشعر بالعطش . ثم شربت هناك فنجانا من الشاى كان طعمه فى فمى أشهى من ماء الكوثر ، لمـا كنت فيه وقتئذ من راحة البال بعد تأكيد مدحت لى بأن أحمد لم يعشق يوما ما تلك الفتاة البغيضة . . . أف من الشك!

٣٠ منه — كلمنى محمد بك بالتليفون من الإسكندرية قائلا إنه قادم غداً صباحا إلى القاهرة ثم دعانى إلى تناول الشاى معه غدا فى فندق « مينا هاوس » ... ...

رباه . . ماذا أفعل ؟ إنى أحب أحمد ، لا شك فى ذلك إذ أن قلبي سريع فى نسيان هفواته ... أظن أن واجبى نحو نفسى يقضى أن أختاره هو ... مسكين محمد بك سوف يحزن حزنا عميقاً حين يعرف ذلك ... رب لماذا تعرفت بذلك الشيطان أحمد

ذى العينين الخضراوين الساحرتين ؟ إذ لولاهما لما فضلت رجلا فى العالم على محمد بك ولو كان محمد بك يكبرنى بأربعين عاماً ... لا عشرين ...

***

٣١ منه — اعتذرت لمحمد بك أثناء تناولنا الشاى « بمينا هاوس » ، فبدا الحزن على وجهه على الرغم من محاولته إخفاءه ، إذ لم يكن فى الغالب يتوقع الرفض ، ثم أخبرته بقصة أحمد من أولها إلى آخرها ... قال بعد أن انتهيت من سردها : إذن لماذا قلت لى إن قلبك لم يكن مشغولا ؟ قلت : لأنى كنت صممت على محو أحمد من ذاكرتى بعد حكاية فتاته السمراء ، ولكنى رأيت بعد ذلك ، مع الأسف ، أن لا طاقة لى بهجرانه ، لأنى أشعر بالكآبة فى اليوم الذى لا أراه فيه ... قال : إذن أتمنى لك كل سعادة ممكنة يا عزيزتى كما أعدك ببذل نفوذى لدى بنك «ص». حيث لى مصالح لتعيين أحمد فى قلم قضاياه لدى تخرجه فى الجامعة ... ثم أطرق محمد بك ملياً ثم استمر قائلا : فى الواقع يجب علىّ الاعتذار إليك عن تقدمى بطلب يدك لأنه ليس فيه غير الأنانية المجسمة من ناحيتى لأن السعادة الأبوية التى كنت

أريد أن أهيئها لك ليست هى السعادة الحقيقية ... السعادة الحقيقية لفتاة فى مثل سنك هى أعمق من ذلك ، هى الحب ... كذلك لو تزوجنا لما كانت لنا فيما بعد تلك الذكريات المشتركة التى تلطف للزوجين عهد الشيخوخة الكئيب بسؤال أحدهما للآخر: أتذكر كذا؟ ... أتذكرين كيت؟ . . تلك الأسئلة الرقيقة التى ترسل الابتسامة فوق الشفاه والدمعة فى الهدب . ثم أطرق مرة أخرى وقال : إنى مسافر فى الأسبوع القادم إلى أوربا لأن السفر خير علاج لأمراض القلوب ، وقد يتيح لى هذا السفر أيضاً الفرصة كى أقتنى لك من هناك هدية زواج فاخرة تليق بك، ثم انفصلنا بعد أن تمنيت له سفراً طيباً وتمنى هو لى حظاً سعيداً ...

٢ فبراير — قال لى أبى اليوم بعد انتهائى من تناول طعام الغداء عند ما هممت بالذهاب إلى حجرتى كالعادة حيث كنت أقضى وقتاً قصيراً فى المطالعة وأنا مستلقية على ظهرى فوق السرير وذلك قبل عودتى إلى عملى : هل لى أن أتحدث إليك الآن ياسميحة فى موضوع مهم؟ قلت: إنى كلى آذان لك يا أبى . هنا أرادت

أمى أن تنسحب ولكن أبى أومأ إليها أن تبقى قائلا : إن الموضوع الذى سيتحدث عنه يخص مستقبلى ، ولما كانت أمى تشاركه أبوته لى حقّ لها بل وجب عليها أن تبقى ، ثم التفت إلىّ مردفا : اعلمى يا ابنتى أننى منذ حلت بنا هذه الكارثة لا أفكر إلا فيك وفى أمر مستقبلك . أريد قبل أن أترك هذه الحياة الدنيا أن أراك فى مأمن من عوادى الدهر كما أريد أن أراك وقد تحررت من عملك هذا المرهق الذى أخشى أن يعصف مع الزمن بحسنك ونضارتك كما لاحظ ذلك بحق صديقنا محمد بك .

وهذه الأمنية لاتتحقق مع الأسف إلا بزواجك زيجة موفقة . وأرى أن العناية قد ساقت لنا أخيراً ذلك الزوج المنشود فى شخص محمد بك الذى أبدى مثل هذه الرغبة لدى زيارته الأخيرة وإن كانت مقنعة وذلك بكثرة السؤال عنك وشدة الاهتمام بأمرك .. قلت: بل هو صارحنى بهذه الرغبة يا أبى ولكنى اعتذرت له مع ما أكنه لشخصه من تقدير واحترام . وذلك لأن قلبى يميل مع الأسف لشخص آخر سأحدثك عنه . فوجم أبى لدى سماعه هذا القول منى لأنه ما كان يشك قط فى موافقتى

علي الاقتران بمحمد بك . ثم تنهد قليلا ثم عاد فقال : هل تعلمين أنى فكرت فى مسألة اقترانك بمحمد بك منذ تلك اللحظة التى عرفناه فيها علي ظهر الباخرة ؟ . . على كل حال يا ابنتى أنت أدرى بالشخص الذى يسعدك. ثم سكت قليلا وعاد فقال : ترى من ذا الذى آ ثرته على محمد بك ؟ . . عندئذ أخبرته بأمر أحمد وذ كرت له أصله وفصله . ولما أطلعته على اسم الأسرة التى ينتمى إليها قال : إنه من بيت طيب ، غير أن الدهر قد عبس لهم أيضاً مثلنا ، ثم أبدى رغبته فى التعرف بأحمد والتحدث إليه . فقلت: هل تحب أن أدعوه إلى تناول الغداء هنا غداً مثلا . فوافق أبى على اقتراحى صائحاً : أنت طيبة و بنت حلال يا سميحة . لذلك أر يد ألا يقترن بك إلا من هو أهل لك

أما أمى فلم تدهش لرفضى طلب محمد بك لأنها كانت تعلم بميلى لأحمد .

وقد اتصل بى أحمد من باب المصادفة بالتليفون بعد ظهر اليوم بالمكتب فأخبرته فى اختصار بما حدث و بأمر دعوته إلى تناول الغداء عندنا غداً فقبلها فى شىء من التردد إذ كان يبدو من ردوده أنه متهيب من لقاء أبى .

٣ فبراير — كان أحمد فى انتظارى لدى انصرافى عند الظهر من المكتب ليصحبنى إلى المنزل — إذ اتفقنا على هذا الترتيب بالأمس فى التليفون — وكان أنيقاً فى ملبسه ومظهره على خلاف المألوف ، فقد كان يهمل أحياناً حلاقة ذقنه الأمر الذى كان يغضبنى و يجعلنى ألومه وأعنفه صائحة : الحلاقة مرآة النظافة ، ألا تعلم أن بعض الانجليز يحلقون ذقونهم مرتين فى اليوم ، فى الصبح لدى ذهابهم إلى أعمالهم ، وفى المساء قبل بدء السهرة . فكان يجيبنى فى سخرية : سأحذو حذوهم يا عزيزتى حينما أتجنس بالجنسية الانجليزية . . . وقد ارتدى بذلة داكنة متقنة الكى وكذلك الطربوش . .

هالتنى هذه الأناقة غير المألوفة فيه ، فصحت وأنا أصافحه : مرحى مرحى يا صديقى لقد تجسمت فيك الأناقة اليوم ! قال : لا بد من كل ذلك ما دمتُ ذاهباً لمقابلة صهرى العزيز . ثم أراد أن يركب سيارة أجرة ، فصرفته عن ذلك قائلة : إن لدينا متسعاً من الوقت فلنذهب بالأتوبيس ، قال : لم أبغ ركوب سيارة الأجرة من أجل السرعة بل كى أحدث تأثيراً

حسناً لدى أبو يك ، إذ أخشى إن رأونا مقبلين فى الترام أو فى
السيارة العامة أن يقولا إننى مفلس . . قلت : لا تتعب نفسك
من هذه الناحية ، فقد أطلعتهما على كل شىء يخصك . صاح :
أقلت لهما إنى مفلس ؟ أجبته : قلت ما يشبه ذلك . صاح :
حقاً ! يا لها من دعاية طيبة تقومين بها لخطيبك ! ولما بلغنا
المنزل استقبله أبواى استقبالا حسناً أزال عنه قلقه وتهيبه ،
ثم قصدنا مائدة الطعام وهناك أخذ أبى يحدثه فى لطف و بشاشة
فى شتى الموضوعات من سياسة دولية إلى سياسة وطنية حتى
تدرج بهما الحديث إلى بعض شئون أحمد الحاضرة ، فسأله أبى عن
أهله ثم دراسته ، وهنا استفهم عن بعض المراجع القانونية إذ كان
أبى قد درس الحقوق أيضاً فى صباه و إن لم يمارسها . ثم انتقل
الحديث بهما إلىّ إذ قال أحمد فى شأن المراجع القانونية
تستطيع أن تسأل الأستاذة سميحة أيضاً فهى مطلعة بل عالمة فيها .
ثم التفت إلى أمى مردفاً : حقاً يا سيدتى أن بنتك فتاة مثلى ،
غير أنها مع الأسف متطرفة فى عصريتها . آه لو كان لى مثل
مالك عليها من السلطان لأرغمتها على لبس البرقع . فصاحت أمى

ضاحكة : ها أنا ذا متنازلة لك عن سلطانى عليها فهيا أرنا كيف تستطيع أن تنفذ رغبتك ؟ ثم قلت له أنا بدورى : أو ما تقلع عن التظرف ؟ و بعد ما قضينا وقتاً فى مثل هذه الأحاديث صحبنى فى طريقى إلى المكتب إذ كان الوقت قد أزف ، وكان أحمد طول الوقت يتحدث عن لطف أبوى وظرفهما قائلا إن أبى رجل فاضل بمعنى الكلمة لا تستغرب من أمثاله التضحية المالية التى كان أقدم عليها من أجل صديقه .

وفى المساء لدى عودتى إلى المنزل ، سألت أبوى عن رأيهما الصريح فى أحمد فأثنيا عليه بدورهما وقد سر أبى منه بوجه خاص من أجل تمسكه بالتقاليد

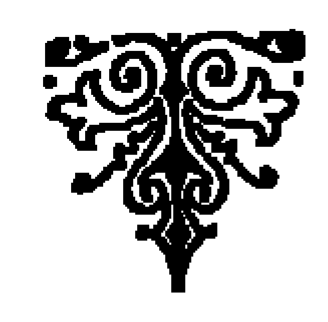
٥ فبراير — كانت أمى تطالع هذا الصباح إحدى الصحف اليومية كعادتها أثناء الإفطار . ولكنها توقفت بغتة عن القراءة صائحة : مسكينة سونيا صاحبتك سونيا توفيت يا سميحة . قلت مستغربة : توفيت ؟ ولكنها كتبت لى من وقت قريب ولم تكن إذ ذاك مريضة . ولكن دهشتى لم تطل إذ لم أكد أصل إلى مكتبى حتى دق جرس التليفون و إذا المتكلمة عليّة و إذا بها تنعى لى

سونيا قائلة إنها انتحرت إذ ألقت بنفسها من النافذة بسبب هجر فتحى لها . حقاً أن عليّة خير خلف لحكمت هانم من حيث اهتمامها بمصائب الناس . ولكن ألم يكن أليق بعليّة عدم ذكرها حادث سونيا بعد ما حلت محلها لدى فتحى ؟ ولما أخبرت أحمد بهذا الحادث وكان فى انتظارى لدى خروجى ظهر اليوم من المكتب صاح : حقاً ما أعجب أمركن أيتها الفتيات العصريات ! إنكن تسخرن من كل شىء بل تتحدين الدهر نفسه ، ولكنكن تضعفن أمام الحب ، أنتن كأسلافكن تماما فى هذا من عهد ليلى العامرية أو فرتر[1] قلت : الحب مرض ولسوف يتغلب العلم عليه قريباً . قال : هذا ما أشك فيه بل أظن أنه من الأسهل إيجاد العلاج لأشد الأمراض المستعصية فتكا ألا وهو « السرطان » من استكشاف دواء للحب . . قلت : بل سوف نتغلب على الحب أيضاً . سوف ترى . . ولو أنى فى سريرة نفسى كنت أشك فى ذلك ، إذ حقاً ما أضعفنا أمامه

---

(١) حينما نشر الشاعر الألمانى الكبير جوته روايته آلام فرتر التى انتحر فيها بطلها بسبب الحب حدثت عدة حوادث انتحار على الأثر فى أوربا بين أهل الهوى . . .

٨ فبراير — تشاجرت اليوم مع أحمد لأنى رأيته فى الصباح مرة أخرى مع تلك الفتاة السمراء البغيضة وكانا يسيران ذراعا فى ذراع ... إذ لم أستطع مع الأسف اتباع الحكمة القائلة : إذا أحببت فأغمض عينيك . . . ثم كدت أرسل برقية لمحمد بك بالقبول — إذ كنت أخبرت أحمد بهذا الموضوع — ولكن أحمد حال دون ذلك إذ جذبنى فى عنف من ذراعى صائحا : أنت مجنونة ؟ ألا ترين أنى أحبك ؟ ثم وضع على فمى قبلة عميقة أرخت أعصابى فأخذت البرقية تسقط من يدى ...



اقرأ

استفتاء عام

بمناسبة دخول سلسلة اقرأ فى سنتها الثانية رأت إدارة مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر أن تتقدم إلى جمهور القراء باستفتاء عام لمعرفة الكتاب الذى نال استحسان أكبر عدد منهم من بين الكتب التى صدرت فى السنة الأولى .

وقد خصصت جائزتين ماليتين تصرف كالآتى :

الأولى : ٧٠ جنيهاً لواضع الكتاب الذى ينال الأغلبية .

الثانية : ٣٠ جنيهاً للقارىء الذى يفوز بالاقتراع من بين أسماء القراء الذين استحسنوا ذلك الكتاب

●●●

تاريخ الاستفتاء ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤

شروط الاستفتاء والاستمارة الخاصة به تجدها مع الكتاب الثالث عشر الذى صدر فى أول يناير سنة ١٩٤٤

روزفلت

للاستاذ فؤاد صروف

الثمن ٣٠ قرشاً

قصة الرجــل الذى لم يستسلم !.. فحارب خصومه وحارب مرضه ، وظفر بالرياسة فى أكبر جمهوريات العالم ثلاث مرات متوالية ، واشترك فى وضع ميثاق الاطلنطى ، وأعلن الحريات الأربع وأعرب أبلغ إعــراب عن آمال الشعوب فى عالم أفضل !...

◆◆◆◆

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مؤلفات علمية تاريخية فى دراسة المدن

ص		
٨٥	بلادي	للاميرة شيوه كار
١٨	الاسكندرية	للاستاذ فؤاد فرج
٥٠	منطقة قنال السويس	للاستاذ فؤاد فرج
٥٠	القاهرة (جزء أول)	للاستاذ فؤاد فرج
٥٠	القاهرة (ثان تحت الطبع)	للاستاذ فؤاد فرج
٢٠	تونس الخضراء	للجنة دائرة المعارف الاسلامية
٢٥	المسجد الجامع بالقيروان	للدكتور أحمد فكرى

ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

وثائق الحرب العالمية الثانية

للأستاذ أحمد الصاوى محمد

ص	
٢٠	مأساة فرنسا
٢٠	أسرار انهيار أوروبا
٢٠	الرقص على البارود
٢٠	الوحش الأصفر والدب الأحمر
٢٠	الطابور الأول

للملازم أول السيد فرج

١٢	هذه هى الحرب
١٥	أحاديث فى الحرب (مع الصاغ محمد عبد الفتاح أبراهيم)
٢٠	حرب الصحراء المصرية
٢٠	فى شمال أفريقيا

ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الفبـاء فاروق

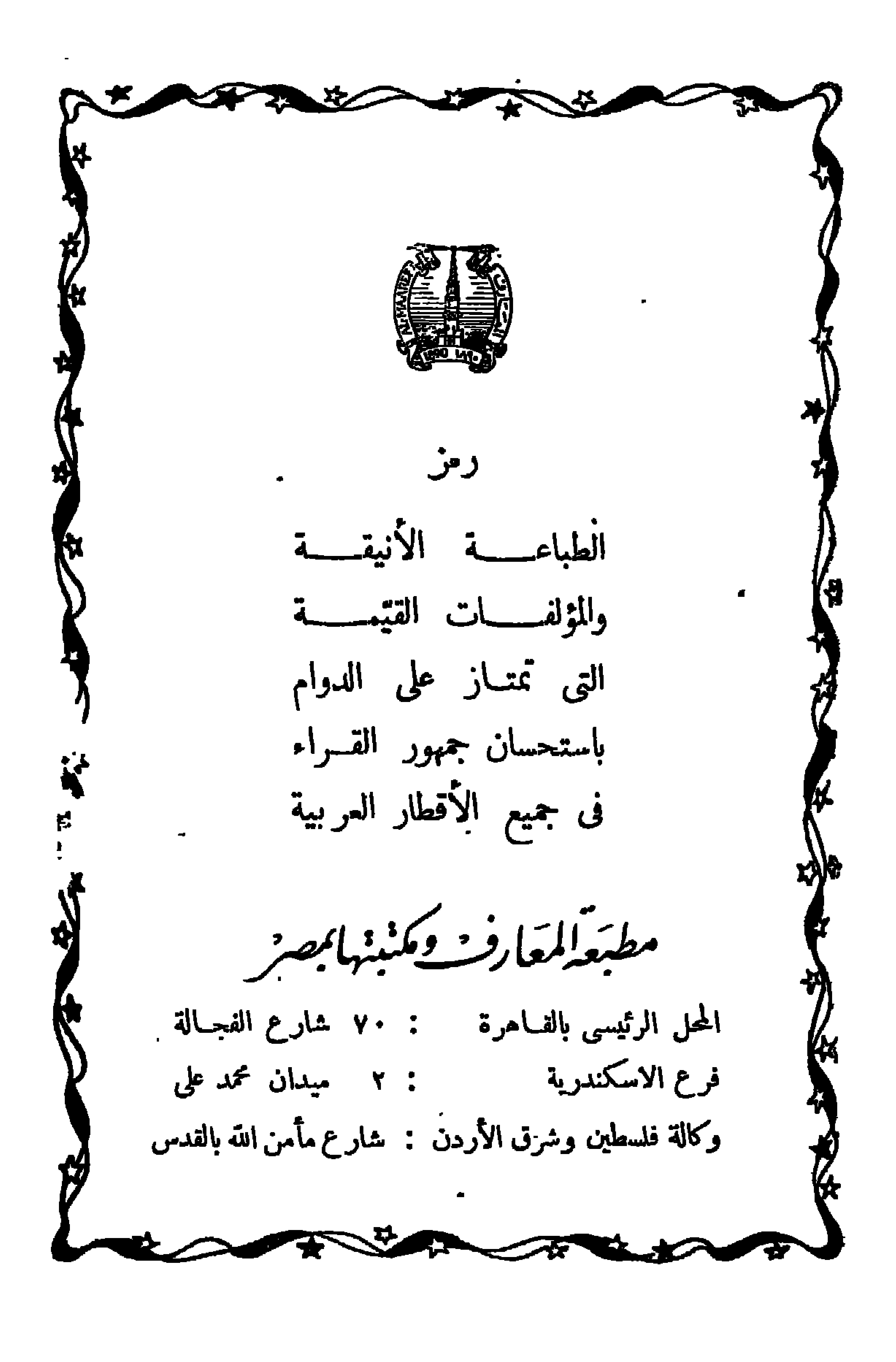
الحروف الجديدة

رسالة الجيـل الجديد لاصلاح الخط العربى
بطريقة صريحة دقيقة تساعد على الوصول
إلى الغرض المنشود فى سبيل التقدم والرقى

١٨٤ صفحة على ورق أبيض
الثمن ٥ قروش

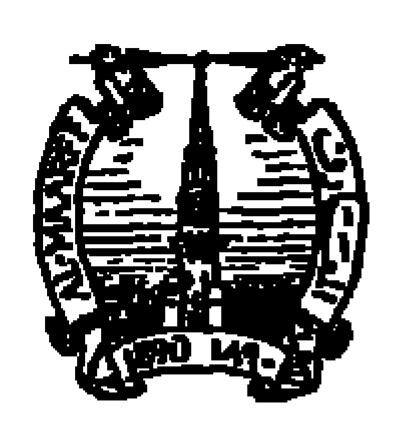
◆◆◆◆

يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
ومن المـكتبات الشهيرة



اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٥ مليما	العراق	٦٠ فلسا

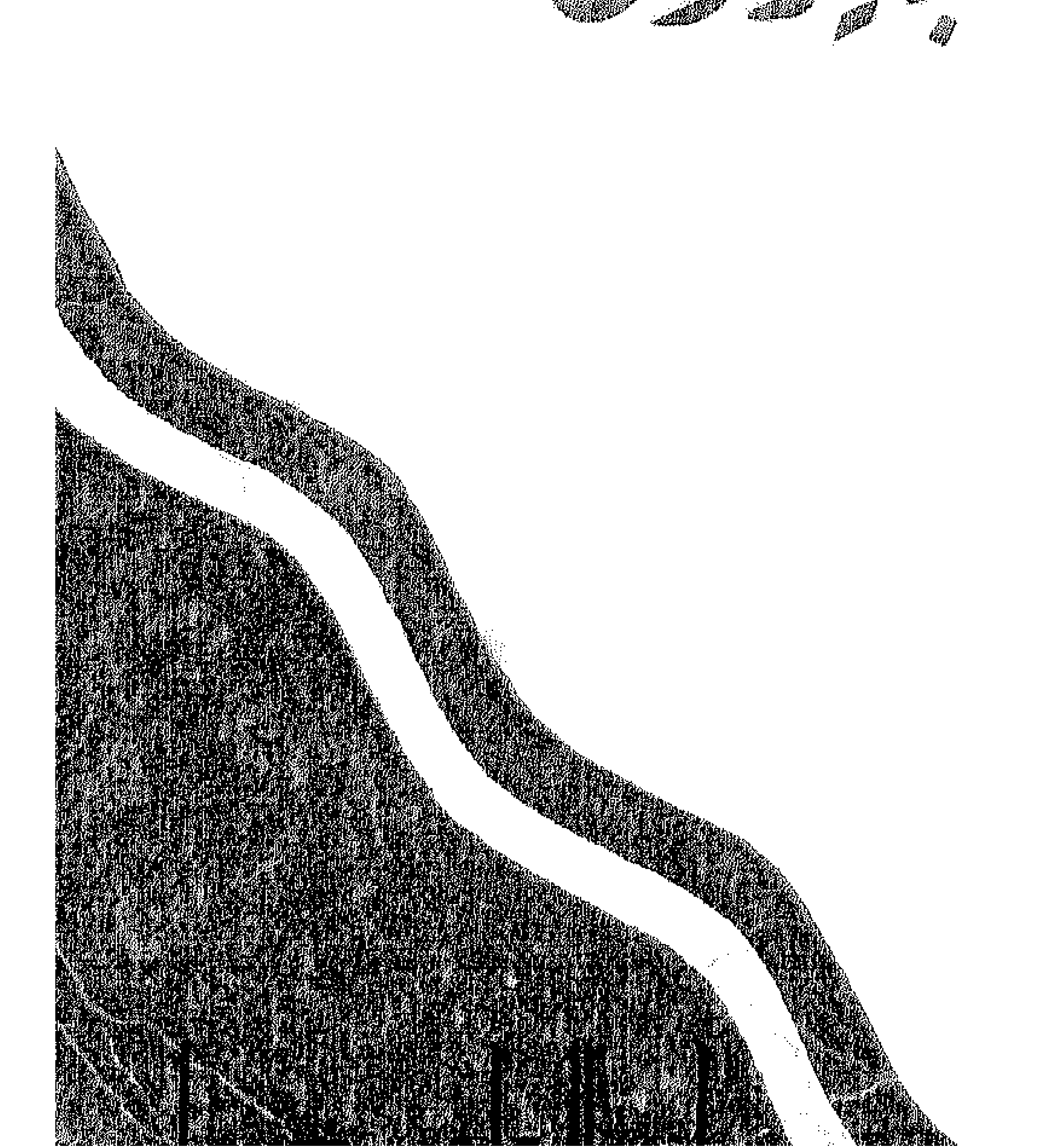
فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

الكتاب التالى يظهر فى مارس ١٩٤٤

اقرأ

أمينة السعيد

بايرون



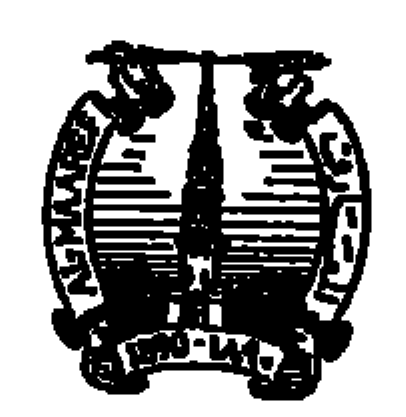
بايرُونْ

أمينة السعيد

بايرُونْ

اقرأ ١٥

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





لورد بايرون

١٩ ابريل عام ١٨٢٤

هبت على بلدة ميسولونجى فى اليونان عاصفة هوجاء اقتلعت الشجيرات ، وحطمت الأغصان ، وهزت الأكواخ . وتساقطت الأمطار فى سيول ملأت الطرقات بالوحول . وزمجر البحر غاضباً فقامت أمواجه تضرب الشاطىء فى شدة ووحشية ، ومع ذلك تجمع الناس حول بيت صغير يقوم فوق رابية ترتفع قليلا عن مستوى البحر . ووقفوا صامدين لغضب الطبيعة ينتظرون فى لهفة وقلق ، أنباء بطلهم المحبوب . وفى حجرة صغيرة من حجرات البيت ، كان هذا البطل يجود بأنفاسه الأخيرة ، ويعالج سكرات الموت على فراش رخيص يبعد آلاف الأميال عن وطنه وأسرته . ولم يطل الصراع به فأسلم الروح فى هدوء وسكون . وطلع الخبر على المجتمعين فاصفرت الوجوه ، وارتجفت القلوب ، وانهمرت الدموع غزيرة من عيون رجال عرفوا بالخشونة والوحشية ، وهتف الكل قائلين : « مات الرجل العظيم » .

وعند ما أشرق الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل الكريم ، وأغلقت الحكومة دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات في جميع أنحاء اليونان ، وأعلن الحداد العام في طول البلاد وعرضها .

ووصلت أخبار وفاة البطل إلى أوربة فوجم الناس في ألمانيا ؛ وفي فرنسا وضع الشباب شارة الحداد على قبعاتهم ؛ وفي انجلترا قضى التلاميذ يوماً حزيناً في قراءة دواوين الراحل وقصائده الكثيرة .

ففي اليوم التاسع عشر من شهر أبريل عام ١٨٢٤ مات چورج جوردن بايرون أعظم شعراء القرن التاسع عشر في انجلترا . وبموته في اليونان انطوت صحيفة مليئة بالأحزان والمآسي لرجل تحدى تقاليد مجتمعه فنبذه ذلك المجتمع وقضى عليه بالنفي والتشريد .

١

نزلت أسرة بايرون الجزر البريطانية فى صحبة وليم الفاتح دوق نورمانديا . واشتهرت تلك الأسرة بالشجاعة على مضى القرون ، وخاض أفرادها الحروب والمعارك ، وأظهروا ولاء للملوك المتعاقبين مما رفع شأنهم ووطد أقدامهم فى البلاد . ومن أجل خدماتهم العدة و إخلاصهم العميق منحوا الألقاب والضياع ، فاتسعت أراضيهم فى نيوستيد بالقرب من نوتنجهام ، وفى روشديل بمقاطعة لانكشير .

ولكن لعنة ما كانت تحوم حول هذه الأسرة فتجعل من أفرادها مردة جبابرة تجرى فى عروقهم دماء الشياطين . وظلت تلك اللعنة تنتقل من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل حتى وفاة اللورد السادس چورچ جوردن بايرون شاعر الانجليز العظيم : ففى نهاية القرن السابع عشر مات اللورد الثالث بعد أن بدد أموال أسرته ، ونشر الرعب فى قلوب جيرانه وأصدقائه . وزادت الحالة سوءا فى عهد حفيديه ولدى اللورد الرابع . فلقد أنجب هذا الرجل ابنين : أكبرهما وليم بايرون الذى ورث لقب أبيه واشتهر

فيما بعد « باللورد الشرير » ؛ وثانيهما الأدميرال چون بايرون المعروف باسم « چاك المنحوس » .

ولوليم بايرون تاريخ حافل بالشرور والمتاعب . فلقد كان حاد الطباع نارى المزاج ؛ يتشاجر أينما ذهب ، ويخلق المتاعب أينما حل . واختلف يوماً هو وجاره شوارث صاحب قصر أنْسلى فدعاه إلى المبارزة فى حجرة مظلمة وقتله غيلة وغدراً ، وقبض عليه ، وحوكم أمام مجلس اللوردات ؛ وبعد دفع غرامة كبيرة أُفرج عنه ، فعاد إلى قصره فى نيوستيد . وثار الرأى العام ضده ، فقاطعه أصدقاؤه ، وتجنبه جيرانه ، ولقَّبه الناس باللورد الشرير . ولم يحاول هو أن يسترضىَ الناس ، أو يكفر عن جريمته بل اعتكف فى بيته ، وأمعن فى شروره ، وسام زوجته صنوف الوحشية والعذاب ، فلماهربت منه استعاض عنها بخادمة قروية .

وحدث أن تزوج ابنه البكر دون موافقته ، فثارت ثائرة اللورد الشرير ، وأقسم أن ينتقم منه بتبديد ثروة الأسرة حتى لا يجد الولد بعد وفاة أبيه إلا الخراب والدمار ؛ فقطع أشجار الغابات وباعها ، وبدد ثمنها فى المقامرة ، وذبح الغزلان التى كانت ترعى فيها ، وحطم حجرات القصر ، وأجر ضيعته الثانية

روشديل بأجر اسمى زهيد لمدة طويلة ، وقضى بقية أيامه فى تربية الصراصير وتدريبها على تعرف صوته وإطاعة أوامره ! وذهبت الثروة كما شاء ، ولكن الابن مات قبل أبيه فلم ينله الانتقام من قريب أو بعيد ...

أما چاك المنحوس فقد كان ضابطاً بحرياً شجاعاً ، لازمه سوء الطالع طيلة حياته . وكلما قام برحلة بحرية هبت العواصف والرياح فتتحطم السفينة ويموت من عليها إلا هو . وفى عام ١٧٨٦ مات المنحوس ، وترك ولدين ، أكبرهما چون بايرون والد الشاعر الكبير .

***

ورث چون بايرون عن آبائه وأجداده ثروة كبيرة من الخلاعة والاستهتار والمجون . واتصف مثلهم بوحشية الطباع وحدّة المزاج فلقبه الناس « بجاك المجنون » . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أصبح مضرب الأمثال فى الجمال الرائع والحسن الفريد . وفوجىء المجتمع الانجليزى يوماً بهربه إلى فرنسا مع ليدى فرنسيس كارمارذن زوجة دوق ليدز . وطلق الدوق زوجته ، فاقترنت بحبيبها ، وأنجبت منه ابنة واحدة هى النبيلة أوجستا

بايرون التى تردد اسمها فى تاريخ شقيقها الشاعر وقصة حياته كلها..

وبعد عام من ولادة أوجستا ماتت الأم ، وبموتها انتقلت ثروتها إلى أسرتها ، وضاقت سبل العيش فى وجه چون بايرون ، وتراكمت عليه الديون ، فعاد إلى انجلترا لعله يجد فيها سبيل الخلاص ؛ وسبيل الخلاص هو أن يبحث عن امرأة غنية يشركها فى حياته وديونه . وفى مدينة باث وجد ضالته المنشودة فى شخص الآنسة كاترين جوردن الوارثة الوحيدة لممتلكات أسرتها الكبيرة .

وكاترين جوردن فتاة عريقة الأصل تجرى فى عروقها دماء الأسرة المالكة الاسكتلندية . ولكن أسرتها أيضاً عرفت بالوحشية والشرور ، فقد انتحر والدها فى نوبة غضب من نوباته المعروفة ، وقُتل جدها من قبله ، وشُنق عمها لجريمة اقترفها . وتربت كاترين فى رعاية جدتها ، ونالت من الثقافة قسطاً طيباً ، ومع ذلك لم يساعدها التعلم على التغلب على طباع آل جوردن وأخلاقهم الموروثة . وعُرفت بالحدة والمزاج النارى ، فإذا غضبت أفلت زمام لسانها ، فتنهال على ضحيتها بأقذع الشتائم وأفحش الكلمات ، ثم تتناول كل ما تصل إليه يدها من

أوان وأطباق وتحطمها على الأرض فى جنون . وعلى الرغم من خلقها الردىء كانت عزيزة النفس ، شديدة الكبرياء ، وبذلك « جمعت بين صفات النبلاء وأخلاق السوقة وطباعهم » .

وتزوجت كاترين جوردن من چون بايرون ، فلم يمض عامان حتى بدد الزوج ثروة زوجته ، وتركها فقيرة مفلسة لا تملك فى الحياة إلا معاشاً سنوياً لا يزيد على مائة وخمسين جنيهاً ! وتبينت هذه الحقيقة يوماً ، فلم تثر ، ولم تغضب ، ولم تحطم صحوناً ؛ بل أذعنت للأمر الواقع ، ولأنها كانت تحب زوجها حباً بالغاً تقبلت الفقر فى وقار وشجاعة وهدوء . وفى أوائل عام ١٧٨٨ وضعت طفلها الأول والوحيد چورچ جوردن بايرون .

وعند ما بلغ الصبى عامين من عمره ، أخذته أمه وسافرت إلى اسكتلندا . فلقد كانت تحن إلى وطنها الذى تربعت فيه يوماً على عرش الثروة والجاه . وفى مدينة أبردين استأجرت مسكناً صغيراً عاشت فيه مع ابنها الصغير وخادمتها ماى جراى . وأحس چون بايرون أنه أدى فى الحياة واجبه الأكمل : بأن بدد ثروة زوجته وجاء بولد يرفع لواء الأسرة من بعده ، فهجر

مسز بايرون ، وسافر إلى فرنسا ، وعاش ما تبقى له من العمر فى فلانسيين ...

***

كان بايرون الصغير آية من آيات الجمال : شعره الذهبي الصقيل ينهدل فى خصلات متموجة فوق جبينه ، وعيناه الرماديتان تتحركان بين أهداب طويلة غزيرة ، شفتاه قرمزيتان ، وأنفه دقيق حاد . ولكن لعنة الأسرة أبت إلا أن تتبع الصغير فى مهده، فولد بقدم معوجة كان لها أكبر الأثر فى حياته كلها . ونشأ عن تلك العاهة عرج ملحوظ فى سيره .

وكان المنتظر أن تحوط مسز بايرون ابنها الوحيد بعطفها ورعايتها مادامت قد فقدت الزوج الذى أحبته وضحت بالكثير من أجله . ولكن دماء جوردن لم تترك مجالا للعطف والرعاية . وزاد الأمور تعقيداً حزنها المكبوت على ماحل بها من فقر وتقشف لم تعرفهما أو تعتدهما من قبل ؛ فأصبحت حياتها سلسلة غضبات جنونية ، تتعالى خلالها صرخات يسمعها السائرون فى الطريق ، ثم يتبع ذلك تحطيم الصحون وتمزيق الثياب . وذاق بايرون الصغير الأمرّين ، وتفتحت عيناه على مشاجرات حامية الوطيس ، و بدل

قبلات الأم الناعمة قاسى الكلمات الخشنة الموجعة . ومنذ طفولته انصب فى أذنيه سيل الإهانات الجارحة التى تكمن فى القلوب ، فلا تستطيع الأيام محوها. وفى ذات يوم ثارت ثائرة مسز بايرون فجرت خلف الصغير صائحة : « صه ، أيها الأعرج » . ومادت الأرض تحت قدميه لعظم الإهانة ، وتقلص وجهه حزناً وألماً ، فقد كان يغفر لها كل شيء إلا أن تعيِّره بعاهته ، ولكنه كتم غيظه وأجاب فى جمود :

— هكذا ولدت يا أماه .

وعند ما اختلى فى حجرته أمسك بصحن صينى وقضمه بأسنانه فكسر جزءاً كبيراً منه . وتكررت الإهانة بعد ذلك ، ولكنه تعلم درساً ، وهو ألا يترك لحزنه أوألمه مجالا للظهور ، حتى لا يشفى غليل أمه القاسية . وكبت عواطفه فى قلبه وقابل ثوراتها بعد ذلك ببرود يزيدها غضباً وجنوناً . ولكن بذور الكراهية انغرست وتأصلت فى نفسه نحو من جعلت طفولته جحيما ، وظلت تلك الكراهية تنمو وتترعرع ، حتى آخر أيام حياتها .

ولم يكن بايرون الصغير بالحمل الوديع ، ولم يكن من المعقول أن تذهب دماء جوردن وبايرون هباء . فعرف كأجداده بالمزاج

الناري والغضب الحاد ، ولكنه كان غضباً صامتاً مكبوتاً ، لا يجد منفذاً للظهور . ومثل هـذا الغضب يأكل القلوب ، ويتعس النفوس ، ويجعل من الحياة عذابا مقيما . ولو كان بايرون الصغير من النوع الذي يطلق العنان لآلامه لخفت حدة تلك الآلام ، وتغير مجرى تاريخه القصير الحافل . ولكن الطبيعة شاءت أن تخلقه هكذا ، ليمتلىء قلبه بالبغضاء للمجتمع ، والحقد على الناس . وتلفت فى طفولته حوله ، فلم يجد ما يدعو إلى التفاؤل أو السرور فأمه تعذبه ، وقدمه العرجاء تجذب نحوه الأنظار ، وفقره المدقع يمنعه من أن يعيش حياة الأسر النبيلة العريقة التى انحدر منها .

وعندما بلغ الرابعة من عمره ، جاءت الأخبار من فرنسا تحمل نعى والده فى ڤلانسيين وشاء چاك المجنون أن يخلف لزوجته ما تذكره به ، فترك لها ديوناً جديدة دفعتها صاغرة ، فانخفض معاشها السنوى إلى مائة وعشرين جنيهاً . وخيم على الأسرة فقر مضاعف فتركت مسز بايرون بيتها القديم فى أبردين ، واستعاضت عنه بشقة صغيرة ليس فيها من الرياش إلا القليل . واقتطعت الكثير من ضروريات الحياة لترسل ابنها إلى مدرسة حقيرة لا تزيد مصروفات الفصل الدراسى فيها على خمسة شلنات . وفى

هذه المدرسة تلقى وريث لقب اللوردية علومه الأولى ، ولكن قسوة الحياة لم تنسه والده ، فحزن على وفاته ، وظل يذكره دائماً بالحب والعطف على الرغم من أنه لم ينعم بالعيش فى ظله إلا قليلا ، وأحس بفراغ ووحشة بين أمه المجنونة ومربيتـــه القاسية ماى جراى .

وانقضت الشهور والأعوام فى حزن وشقاء ، ففى كل صباح يذهب إلى المدرسة فيسخر الأطفال من عرجه ، ويعذبونه بذكر عاهته ، فيجرى خلفهم ليؤدبهم ، ولكن قدمه كانت كثيراً ما تعوقه عن اللحاق بهم والانتقام منهم . ويعود إلى بيته كاسف البال فتقابله مسز بايرون بعاصفة من الضجيج والسباب . وفى المساء يحضر مدرسه الخصوصى باترسون ليعلمه الدين ، ويلقى عليه محاضرات طويلة فى فلسفة الخالق والمخلوق : فحياة الإنسان مقدورة عليه قبل ولادته ، فمن أراد الله له خيراً عاش حياته طاهراً شريفاً ، ومن أراد له الشر خبط فى ظلمات الرذيلة والخطيئة ، والمرء يقضى عمره سائراً فى الطريق الذى رسم له من قبل .

وعندما ينصرف المدرس يجلس الصبى واجماً مفكراً يتساءل عن حكمة هذه الفلسفة ، ونصيبها من الرحمة والعدل . فإذا كان

الإنسان يعيش كما شاء له الخالق أن يعيش فأى جريرة عليه بعد ذلك ؟ ولماذا يعذب فى الحياة الأخرى ، ويذوق نيران الجحيم ؟ ولماذا التفرقة بين الناس ، وكلهم عبيد الله الخاضعون ؟ ولماذا يتعس البعض ويسعد الآخرون ، والجميع آلات مسيرة لا مخيرة؟ ثم يفكر فى نفسه : ترى ماذا قدر الله له ؟ أمن أصحاب الجنة هو أم من أبناء الجحيم ؟ وتتردد هذه الأسئلة فى ذهنه ، فلا يجد عقله الصغير القاصر إجابة عنها ، فدب التشكك فى عقيدته ، واهتز إيمانه ، وإذا تداعت العقيدة فى الطفولة وانهار الإيمان ، فلا سبيل إلى الإصلاح بعد ذلك .

وفى هذه الحالة النفسانية يأوى الصبى إلى فراشه كل ليلة ، فتتبعه مربيته ماى جراى ، وتحدثه بتاريخ أسرة أمه وأسرة أبيه ، وأن دماء الجنون والإجرام تجرى فى عروقه من الجهتين ، ولعنة الله تنصب على آبائه وأجداده فتقودهم جميعاً إلى الانتحار ، والقتل والشرور . وتؤكد له أنه مهما أتى من خير فقد حق العذاب عليه من أجل أخطاء من ولدوه . ولم تكتف المربية بذلك ، بل كانت تحدثه عن الشيطان والأشباح ، لتملأ نفسه بالرعب ، فيستسلم للنعاس سريعاً ولا يقلقها ، ثم تطفىء الأنوار ، وتتركه فى ظلام

دامس وتخرج للمسرات والملاذ . وتكون النتيجة أن يتملكه الرعب فلا يستطيع النوم ، ويقوم من فراشه خائفاً ، ويخرج من البيت جرياً كالمجنون ، ويقف عند أول نور يصادفه فى الطريق ويبقى هكذا حتى مطلع الفجر وعندما يشتد الصقيع والبرد يعود مرتجفاً إلى فراشه .

وحين بلغ بايرون الثامنة من عمره أصيب بالحمى القرمزية ، فأخذته أمه وسافرت به إلى جبال اسكتلندة ، فرأى للمرة الأولى الجبال الشاهقة ، والحقول الواسعة المترامية ، وانطبقت صورها الجميلة فى قلبه ، وبقيت عالقة بذهنه مدى الحياة ، وتردد ذكرها فى قصائده الأولى التى كتبها فى مقتبل الشباب .

ولما عوفى بايرون ، واستعاد صحته وعافيته ، عاد إلى حياة أبردين المؤلمة المملة . ولكن قبساً من النور أضاء الكون حوله ، فقد عرف فتاة صغيرة اسمها مارى داف ، وهى جميلة الوجه ، رخيمة الصوت ، خضراء العينين . وبادلها الحب وهو فى الثامنة من عمره ، وشغف بها إلى حد أقلق أمه ومعارفه ، وظل يذكرها أعواما عدة بعد الفراق . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره — وكان قد ترك أبردين ، ومارى داف منذ عهد بعيد — أخبرته مسز

بايرون أنها تلقت خطابا من أدنبره يقول إن حبيبته القديمة مارى تزوجت من تاجر معروف ، فزعج بايرون ، وتقلص وجهه ، وارتمى على مقعد بجواره ، وامتلأت عيناه بآيات الحزن البليغ حتى أخاف أمه . و بعد سنوات عدة كتب يصف هذا الموقف :

" فى الواقع لا أستطيع أن أصف أو أفسر شعورى فى تلك اللحظة ، ولكن حزنى بلغ حداً أزعج والدتى ، وجعلها عندما تحسنت حالتى فيما بعد تتجنب الإشارة إلى الموضـوع ، وتسلى نفسها بقصه على أصدقائها . كنا طفلين لا أكثر ، وأحببت بعدها خمسين مرة ، ومع ذلك مازلت أذكر أحاديثنا الرقيقة ، وتقاطيعها الجميلة ، وقلقى وأرقى ، وإلحاحى على خادمة أمى لتكتب لى خطاباً أرسله إليها . "

ومثل هذا الحب عجيب ولا شك فى طفل لم يبلغ التاسعة من عمره بعد ، وهو دليل على الحساسية المرهفة العميقة التى تكمن فى صدر هذا الصبى ، والتى تجلت فى مواقف كثيرة فى حياته ، وصيرت رجولته طوراً من التعذيب الطويل .

***

وما بلغ بايرون العاشرة من عمره حتى جاءت الأنباء بموت

« اللورد الشرير » ، فأصبح چورج جوردن الصغير لورد بايرون السادس ، سيد نيوستيد ، وصاحب ممتلكات روشديل الواسعة. فلما بلغه الخبر أسرع إلى المرآة وتأمل وجهه جيداً فلم يجد فرقاً ما ، فذهب إلى أمه حائراً يسألها : أترى فيه تغيراً بعد أن أصبح من النبلاء ؟ ! ولكنه عرف الفرق فى صباح اليوم التالى حين ذهب إلى المدرسة ، فنادى الناظر اسمه مقروناً بلقبه الجديد . وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع الجواب ، وعند ما اتجهت إليه عيون زملائه دهشة أجهشَ بالبكاء .

ولم يكن لورد بايرون الصغير يعرف عمه الشرير إلا بالاسم فقط ، فقد شاء الرجل الشيخ أن يحرم أسرته كلها ماله وعطفه . وقضى أعوامه الأخيرة فى تبديد الثروة وتخريب الممتلكات ، ولكن الصبي كان يعرف الكثير من شروره وآثامه ، وفى كل ليلة تحدثه ماى جراى بجديد من حوادث جنونه وإجرامه ، فأحس أنه ورث مركزاً محملا بالسمعة السيئة ، كما ورث ثروة يخيمها الفقر ويحوطها الإفلاس ، ومع ذلك امتلأ قلبه بالفخر والخيلاء ، فسيرفعه لقبه الجديد فوق أقرانه وخلانه ، وسيشغل الناس به عن تأمل قدمه العرجاء ، والتحسر على فقره المدقع .

ومن يدرى ؟ ربما فتح هذا اللقب عهدا جديدا فى حياته ينسيه ما لاقاه فى طفولته الأولى .

وقررت مسز بايرون أن تهجر اسكتلندة ، وتعيش مع ابنها فى ممتلكاته الجديدة ، فجمعت رياشها القليل ، وباعته بثمن زهيد ، وأخذت اللورد الصغير ومر بيته وسافرت إلى نيوستيد .

٢

لم تستطع مسز بايرون أن تعيش فى نيوستيد ، فالخراب والدمار يسودان حجرات القصر وأبهاءه العدة ، ومظاهر انتقام العم الشرير تتجلى فى كلّ ركن ، وكل منعطف . وكان إصلاح المكان يتطلب أموالاً طائلة لا طاقة لها بها ؛ ولذلك استأجرت بيتاً صغيرا فى نوتنجهام ، ووكلت عن ابنها محامياً اسمه هانسون ، وسافرت إلى لندن ، لعلها تستطيع أن تنتزع من مجلس الوصاية معاشاً للورد الصغير . وبقى بايرون وحيدا فى صحبة ماى جراى .

وكانت الحياة فى نوتنجهام صدمة شديدة لبايرون . وأمام الحقيقة المرة انحدرت آماله من عليائها ، وتلاشت أحلام القصور

والخدم والحشم . وعادت أيام أبردين بآلامها وأحزانها . وزاد البلاء بغيبة أمه فلم يعد هناك رقيب يحد من قسوة ماى جراى . وتضاعف طغيان المربية ، فكانت تضربه على مرأى من الناس، وتقوده معها إلى الحانات ، لتحتسى الخمر . وفى الليل تجلب الرجال إلى حجرته ، وتطارحهم الحب تحت أنظاره وأسماعه .

ويبدو أن القدر أراد للصبي شقاء دائماً ، فقد ضاقت أمه بعرجه ذرعاً ، وصممت على أن تعالج عاهته ، ولذلك أمرت بتسليمه إلى طبيب دجال اسمه لافندر . ولم يكن لافندر دجالا فحسب ، بل كان أيضاً وحشاً لا مثيل لقسوته ، فكان يرسله إلى الحانات ، ليجلب له أقداح الجعة . وفى كل يوم يرى أهل نوتنجهام منظرا فريداً : يرون اللورد الصغير ، سيد نيوستيد وصاحب روشديل ، يعرج فى الطرقات ، وهو يحمل القدح فى حذر خشية أن يسكبه ، فينال عقاب الدجال !

وتتلخص طريقة العلاج فى أن يدلك الدجال قدم الصبي بالزيت ، ثم يضعها فى آلة خشبية ، ويضغط المفصل ، ويلويه بتلك الآلة . وتدوم العملية الوحشية ساعات طوالا . ومن أجل أن يشغله عن الآلام يعطيه الكتاب المقدس ، ويأمره أن يقرأ

بعض آياته بصوت مرتفع طيلة الوقت. ولم يُجد العلاج إلا فى تعذيبه.

وتبينت الأم هذه الحقيقة بعد شهور ، فاستردت ابنها منه ، وخرج بايرون بأثر جديد فى نفسه لم تستطع الأيام أن تمحوه ، وهو نفوره من الكتاب المقدس الذى اقترنت آياته فى ذهنه بذكرى عذاب لافندر الطويل . وهكذا تضافرت الظروف على تحطيم إيمانه ، وعقيدته ، واحترامه لمبادىء الدين .

***

تمكنت مسز بايرون بفضل سعيها المتواصل من أن تحصل لابنها على معاش قدره ثلثمائة جنيه كل سنة ، وتحسنت حالتها المالية بفضل هذا المبلغ الجديد ، فهجرت نوتنجهام ، واتجهت إلى لندن ، وأصبحت الحالة ماسة للعناية بتعليم بايرون ، فاختار المحامى هانسون لعميله مدرسة أنيقة ، يديرها الدكتور جليني فى ضاحية وولوتش ، ثم أقنع لورد كارليل بقبول الوصاية عليه . وطابت الأمور من كل الجهات : فالوصى كبير الثروة عظيم الجاه والنفوذ ، وباستطاعته أن يقود بايرون إلى المكانة التى تناسب لقبه وأسرته . والدكتور جليني مرب فاضل ذكى وفى مقدوره أن يصوغ شخصية الصبى وأخلاقه فى القالب المرغوب . وسعد

بايرون بذلك ، وانتعشت الآمال فى قلبه من جديد ، وبدأ يحلم بالراحة والهدوء والاستقرار ، ويرسم خطط المستقبل ، ويبنى قصور الأمانى .

ولكن مسز بايرون لم تدع فرصة لعطف الناس على ابنها . فهاجمت كارليل وأذاقته من القحة ألوانا حتى ندم الرجل على قبوله الوصاية ، وحقد على الصبى الذى جلب له متاعب كان فى غنى عنها ، وقرر ألا يرعاه بعد ذلك أو يتداخل فى شئونه . ولم يقتصر شرها على الوصى بل تعداه إلى المدرسة ، فتدخلت فى حياته الدراسية تدخلا معيباً . وإذا اعترض الناظر على تغيبه يوماً أبقت ابنها فى البيت أياما ، وإذا اقترح شيئاً جديدا حضرت إلى المدرسة غاضبة ثائرة ، وترن صرخاتها وشتماتها فى أرجائها وتصل إلى أسماع التلاميذ . وحدث ذات يوم أن تجمع الطلبة حول بايرون بعد معركة من معاركها الحامية ، وقال أحدهم له :

— بايرون ، أمك مجنونة ، ولا شك

فأجابه الصبى واجماً :

أعرف ذلك !

وتكررت هذه المواقف ، فحزن المسكين حزناً بليغاً ، و بعد أن كان يكرهها فقط ، أصبح يحتقرها أيضاً . وفى كل ليلة يأوى إلى فراشه واجماً متسائلا لماذا لم ينشأ يتيم الأم والأب معاً ؟ ثم يستعيدأطوار حياته ، فيحقدعلى من أتعست طفولته وأشقت صباه ، وسودت أيامه . ونما الحقد وترعرع على مرور الزمن ، واتسع ميدانه فشمل الدنيا والمجتمع والأقدار .

وعندما بلغ بايرون الثالثة عشرة من عمره أحب للمرة الثانية : ففى خلال عطلته المدرسية قابل قريبته مرجريت پاركر ، وأعجب بجمالها الخلاب ، وحسنها الفريد ، وخلقها الرقيق ، و بددت صحبتها بعض آلامه ، وأضاءت بسماتها ظلمات نفسه ، ومن أجل تمجيدها حاول أن يقرض الشعر . ولكن مارجريت ماتت بعد عامين من تعارفهما فحزن عليها حزناً بالغاً ، و بعد أن زار قبرها كتب قصيدة كانت فاتحة حياته الشعرية :

« عند ما ذهبت لأزور قبر مارجريت ، »
« وأنثر الورود على تراب من أحب ، »
« سكنت الرياح ، وهدأ الليـل ، »
« وأبى النسيم أن يداعب الأشجار . »

« وفى حفـــير ضيق رقد جسدٌ »
« تفجر يوما بالحيوية والشـباب ، »
« ولكن ملك الرعب أطبق على ضحيته ، »
« ولن يستطيع مال أو جمال أن يردها إلىّ . »

وظل يذكرها طيلة حياته ، وقال فى وصفها بعد ذلك بعشرين عاماً :

— " كأنها صنعت من قوس قزح ... كلها جمال وسلام. "

***

فى ذلك العام أعلنت مسز بايرون راية العصيان على مدرسة الدكتور جلينى ، ومنعت ابنها من الذهاب إليها بدعوى فساد طريقة التعليم فيها . و بعد مباحثات طويلة تقرر أن يذهب إلى « هارو » . وفى ذات صباح ذهب هانسون و بايرون إلى المدرسة الجديدة ، وقابلا عميدها الدكتور دروری . وما كاد العميد يختلى قليلا بطالبه الجديد حتى تبين فى الحال أنه « حصان جامح يجب أن يروضه بخيط حريرى» ! ولكنه تبين فيه أيضاً ذكاء متقداً وروحاً فياضاً إلى عُجب وكبرياء .

وانخرط الصبى فى المدرسة كئيباً ، فهارو معهد أبناء النبلاء ،

وهو نبيل أيضاً إنما بالاسم فقط . وكل الناس يعرف فقره ، ونشأته المتواضعة ؛ ولذلك لن يستطيع أن يرتفع إلى مستوى زملائه ، أو ينال منهم ما يطمح إليه من احترام وتبجيل . فضلا عن أن قدمه العرجاء ستلفت أنظار الصبية إليه ، وسيعا كسونه بها ، فيتألم ويشقى ؛ فقرر أن يبدأ بالعدوان ، ويتكبر ويتعاظم على من معه ، لعل الكبرياء والعظمة تسدلان ستاراً بينهم وبين نقائصه . ولازمته هاتان الصفتان طيلة حياته بعد ذلك ، مما نفر قلوب الكثيرين منه .

وانقضى العام الدراسى الأول بين مشاجرات ، ووحدة ، ووجوم . وعند ما أقبلت العطلة المدرسية ، سافر إلى قصر نيوستيد ، ونزل ضيفاً فيه على لورد جراى الذى كان قد استأجر المكان أخيراً . وهناك عرف فتاة جديدة هى مارى شاوارث حفيدة النبيل الذى قتله اللورد الشرير فى مبارزة غير عادلة . وكانت مارى جميلة الوجه ، سوداء الشعر والعينين ، رائعة البسمات ، خليعة الحركات ؛ فضلا عن أنها فى السابعة عشرة من عمرها ، وهو ما زال فى الخامسة عشرة . وغرق بايرون فى حبها إلى أذنيه ، وأودع فيها مثله العليا وآماله العدة . ولكن مارى

لم تكن تحبه فى الواقع ، فهو يصغرها سنا ، وكان بدين الجسم لم يكتمل بعد جماله الذى طبقت شهرته الآفاق . وأخفت الفتاة عنه شعورها ، واستسلمت لمغازلاته ، وتقبلت حبه كفرض يجب عليه أن يؤديه نحوها ، وفى نفس الوقت وعدت شابا ثريا ، اسمه چون ماسترز بالزواج . وتمتعت بحب الاثنين فى حكمة وحذر ، فلما انتهت العطلة المدرسية ، رفض بايرون العودة إلى هارو ، وصمم على البقاء بجوار حبيبته ، وحاول هانسون ، كما حاولت الأم أن ينتظم فى سلك دراسته فلم يقبل . لقد كان يتعطش دائما إلى الحب والعطف الذين حرمهما منذ طفولته ، ولقد وجدهما أخيراً فلا سبيل إلى الفراق .

وانقضى الفصل الدراسى الأول على هذا الحال ؛ ولكن حدث ذات مساء أن كتب قصيدة لحبيبته ، وأسرع فى الصباح إلى قصرها ، ليتلوها عليها . وعند ما اقترب من الشرفة سمعها تتحدث مع خادمتها فى صوت مرتفع ، وتقول عنه :

— أتظنين أننى أهتم بهذا الأعرج ؟ !

وتسمر بايرون فى مكانه ومادت الأرض تحت قدميه ، وظل واقفاً برهة قصيرة ، ثم عاد يجرى إلى قصر نيوستيد

كالمجنون . وقضى اليوم كله وحيداً فى حجرته ، وفى اليوم التالي أعد حقائبه وعاد إلى المدرسة . وقضى حديث مارى على البقية الباقية من ثقته بالنساء ، و إنهاء إيمانه فى ذلك الجنس الذى يصفونه ظلما باللطيف ، وحكم على كل امرأة حكمه على أمه ومر بيته وحبيبته القاسية ؛ وكرس حياته بعد ذلك للانتقام ؛ ولكنه ظل يحب مارى في قلبه ، ولم ينسها على مضى السنوات ، و إن بقى أثر قسوتها ، ومن أجل هذا الأثر ذاقت النساء على يديه الأمرين.

* * *

عاد بايرون إلى مدرسة هارو ، و بعودته بدأ عهد جديد فى حياته الدراسية . فقد اعتاد الطلبة عرجه ، ولم تعد عاهته تلفت أنظارهم أو تثير اهتمامهم ؛ وأحبه الزملاء لشجاعته و إقدامه ، ومناصرته للضعفاء منهم والصغار . وبرع فى السباحة وركوب الخيل ، مما زاد مكانته احتراما وتبجيلا ، وتذوق الصداقة للمرة الأولى ، فثار قلبه الحساس ، وشعوره المرهف ، وغالى فى تلك الصداقة وأسرف ، حتى سبب المتاعب لإدارة المدرسة ، فطلبوا إليه الخروج منها . ولولا تداخل هانسون ولورد كارليل لطرد منها أشنع طردة . و بقى يحفظ ود أصدقائه هؤلاء ، وذكرهم فى قصائد

عدة . ولقد مات الأصدقاء واحداً أثر واحد ، فثار قلبه وتشاءم ، وبدأ يشعر أن اللعنة البايرونية تتبعه ، فتحرمه من أحبابه ، وتبقى على أعدائه . وعند ما بلغ الثالثة والعشرين كتب فى يومياته يقول : « هناك لعنة تحوم حول رأسى » . وقال مرة أخرى وهو فى الحادية والثلاثين : « لم أستطع أبداً أن أبقى على قيد الحياة حتى كلبا أحببته » . وتمكن منه هـذا التشاؤم ، وأصبح على مر الأعوام إيماناً لا يتزعزع . ..

وفى عهد هارو الأخير توترت العلائق بينه وبين أمه إلى حد خطير . فقد كانت مسز بايرون تضربه على الرغم من أنه دخل فى طور الرجولة ، فأصبح يحتقرها ويكرهها ، ويحقد عليها ، ويزدريها ، ويخاف العطلات المدرسية التى تجمع بينهما . واشتدت به الحاجة إلى من يفتح له صدره ، ويشركه فى آلامه ، فلم يجد إلا أخته أوجستا ابنة جون بايرون من زوجته الأولى فرانسيس كارمارذن ، ولم يكن قد رآها فى حياته ، لأنها عاشت فى رعاية جدتها لأمها التى حرمت عليها الاتصال بزوجة أبيها المجنونة . وكتب لأخته دون سابق معرفة ، فنشأت بين الاثنين صداقة شديدة خلال المراسلات . وفى خطاباته جعل يسكب لها آلام

نفسه ، ويشكو لها أمه بأسلوب نثرى رائع . وأرسل لها مرة يقول : « يتملكنى الرعب لقرب أيام العطلة » وفى خطاب آخر يقول : « أأسمى هذه المرأة أماً ؟ هل قدر على أن أغمر بالشتائم ، وأساق بالإهانات ، وتجرح كبريائى لأتفه الأسباب ؟ إننى مدين لها بالاحترام كابن ، ولكنى أنكرها كصديقة . » وتقابل الأخوان بعد ذلك ، فوجدت أوجستا فيه صبيا بديناً حساسا ، ولما رأته للمرة الثانية بعد ذلك بسنوات كان شخصا مختلفا لا يمت إلى الأول بصلة .

وأتم بايرون دراسته فى هارو ، وتخرج منها وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وتركها حزينا آسفا ؛ فلقد تربع فيها على عرش الزعامة وعرف قيمة الصداقة ، وأحب التلال المجاورة ، والأشجار العالية التى تحيط بها ، والقبور الهادئة . وفى اليوم الأخير صعد التل إلى حديقة الكنيسة ، وودع القبر الذى اعتاد أن يجلس بجواره كل يوم .

* * *

فى شهر اكتوبر عام ١٨٠٥ دخل بايرون جامعة كمبردج ، وهو فى أشد حالات الأسى ؛ فلقد انتهت مرحلة من حياته ،

ولا يعلم إلا الله كيف تنتهى هذه المرحلة الجديدة ؛ وقرر مجلس الوصاية إذ ذاك أن يرفع راتبه السنوى إلى خمسمائة جنيه ، حتى يبلغ سن الرشد ، وفرح بايرون بهذا القرار الذى سيحرره من استعباد أمه ؛ فاستأجر فى كمبردج شقة أنيقة ، وأثثها برياش ثمين يتناسب مع مركزه . واشترى حصانا ، وجلب إلى البيت خادما يعنى به ، ولم يلبث أن زايله الحزن ، واندمج فى حياته الجديدة بحماس وشغف .

وكانت الحياة فى كمبردج غير ما كانت عليه فى هارو : فالطلبة لا يعيرون الدراسة إلا اهتماما قليلا ، ويقضون جل وقتهم فى السباحة والمقامرة ، ومعاقرة الخمر . وكان بايرون يحب السباحة ، ويتقنها ؛ ولكنه يكره المقامرة ، ولا يحتسى الخمر ، ومع ذلك اندمج فى الرذيلتين ليساير الطلبة ، ويعيش حياتهم . وعلى الرغم من بيته الأنيق ، وخمره المعتقة بقى وحيداً لا صديق له ، وابتعد الزملاء عنه ، وعابوا عليه تعاظمه الذى لا يبرره داع ، ولكن ظهر صديق فى حياته فجأة اسمه « إدلستون » ، وهو شاب جميل الصورة ، نحيف القوام ، أسود الشعر داكن العينين . وبدأت المعرفة بأن أنقذه بايرون من الغرق ، ومنذ هذا اليوم ارتبط

الاثنان بصداقة عجيبة أخذت شكلا عاطفياً قوياً . وهبط الوحى على شاعرنا ، فكتب القصائد فى صديقه . وفى ذات يوم أهداه إدلستون قلبا صغيراً عاجيا ، فأرسله إلى أمه ، وطلب منها أن تحفظه له . ولكن اللعنة البايرونية تبعت ذلك الصديق أيضاً فمات بالسل بعد سنوات قليلة ، وحزن بايرون عليه ، واسترد القلبَ العاجى من أمه ، فلما عاد القلب مكسوراً تشاءم جداً ، وظل التشاؤم يطارده مدة من الزمن .

ولم يظهر بايرون عبقرية فى حياته الدراسية ؛ فلقد كان أبداً كسلا يقرأ جميع الكتب إلا الضرورى منها لدراسته . وزاد الطين بلة أن بدأ جماله يكتمل ، فتملكه الغرور وجعل يرعى ذلك الجمال ، ويتفانى فى إظهاره بتصفيف الشعر وأناقة الثياب . وضايقته البدانة التى تفسد الكثير من حسنه فحاربها بكل الطرق ، حتى اكتسب قواماً نحيفاً رشيقاً . وانقضت الليالى بين كئوس الخمر وقرض الشعر ، ومع ذلك كان وحيداً حزيناً فى قرارة قلبه ، فأخته أوجستا بعيدة عنه ، وزيارة أمه كدخول الجحيم ، والطبقة الراقية فى انجلترا لا تتصل أو تعترف به ، وزملاؤه فى الجامعة يرقبونه من بعيد ويعجبون لغروره وتعاظمه .

وكانت نتيجة هذه الوحدة النفسانية أن انغمس فى الملاذ ، وكلما حاول أن يكبح جماح نفسه ، تمرغ أكثر فى المجون والاستهتار. وأصبح نهباً لصراع عجيب بين الحالة التى انغمس فيها ، والحالة التى يتمنى أن يسير عليها ؛ وعندما يبلغ الصراع أقصاه يجلس إلى أوراقه ، وينظم الشعر ، حتى يعاوده الهدوء .

واقتصرت قصائده بادىء الأمر على محيط معارفه وأصدقائه ولم يحاول نشرها ، ولكنه فكر فى جمع ما كتبه وطبعه ، فى ديوان صغير تحت عنوان « ساعات الكسل » . وظهر الديوان فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٦ ، ونال نجاحاً عظيما على الرغم من نسخه المحدودة . وفعل الديوان فى كمبردج مالم يفعله شىء من قبل ؛ واتجهت الأنظار إلى الشاعر الشاب ، وتجمع الطلبة حوله يخطبون وده . وتصادق بايرون وزميل اسمه جون كام هو بهاوس الذى شاء القدر أن يلازمه فى كل ما حدث بعد ذلك .

وفى هذا الجو الساحر الجميل تورط بايرون فى الإسراف والنفقات ، ولم يعد راتبه يكفى مطالب حياته البذخة ، وأراد الآن — وقد أصبح شاعراً — أن يعيش كأهل طبقته ، فجعل يبعثر النقود يميناً وشمالاً على الخمر والميسر والنساء . وعند ما تنتهى

نقوده ، يلجأ إلى المرابين فيقرضونه أملا فى استرداد أموالهم مضاعفة ، عندما يبلغ سن الرشد . وتراكمت عليه الديون حتى أغضبت أمه وأربكت محاميه هانسون . وهكذا لم يجلب ديوان « ساعات الكسل » له غير الديون الكثيرة والصداقات القليلة .

ولكن فى بدء عام ١٨٠٨ ظهرت فجأة مقالة فى مجلة أدنبره تنقد «ساعات الكسل» ، وكانت هذه المجلة قوية منتشرة يتردد صوتها فى كل مكان، وعرف صاحبها هذه القوة فاستغلها استغلالا معيباً . وانصب شرها الآن على شاب صغير يبدأ حياته الشعرية ، لتحطيمه وتلويث اسمه . ولم يقتصر المقال على النقد فقط بل تعداه إلى التحقير والسباب .

وعندما قرأ بايرون المقال اسودت الدنيا فى وجهه ، وجرت دماء جوردن وبايرون حارة فى عروقه ، وتملكه غضب جنونى ظل يذكره إلى مماته . وقضى أتعس يوم مر فى حياته ؛ وفى المساء أغلق على نفسه الحجرة ، وشرب ثلاث زجاجات من الخمر ، ثم أكب على الأوراق يكتب حتى عاوده الهدوء ؛ وانتوى أن يرد على ناقديه بقصيدة جديدة يفرغ فيها أبلغ عبارات الانتقام.

ومن أجل أن يكون انتقامه رائعاً قرر أن لا يتعجل فى الرد ، وأن يكتب فى هدوء وتأنٍ ، ليبلغ شعره أعلى درجات السمو والكمال فيكون سلاحه حاداً قاتلا .

وفى أواخــــر عام ١٨٠٨ حاز بايرون إجازة الماجستير من جامعة كمبردج فانتهت صلته بالجامعة ، وفارقها غير آسف أو مأسوف عليه

***

كان الوقت قد حان لأن يتسلم بايرون ممتلكاته ببلوغه سن الرشد ؛ فسافر إلى نيوستيد ليعيش فى قصر أجداده ، وهناك وجد البيت فى حالة إهمال شديد : فالحديقة جدباء ، والحجرات مهدمة ، والقذارة سائدة . وكان إصلاح المكان يقوده حتماً إلى الخراب ؛ ولذلك اكتفى بإعداد بضع حجرات له ولأصدقائه ، وترك بقية القصر على حاله ؛ ورفض أن يسمح لأمه أن تشاركه فى السكنى لاختلافهما فى الطباع ، ولأنه كان ينوى أن يتمتع بحياة لا يصح أن تراها عين الأم .

وفى هذا المكان الهادىء ، وبين الحدائق الواسعة ، والحقول المترامية ، عاش بايرون وحيداً يقضى يومه فى السباحة ، وتدريب

كلبه العزيز «بوتسوين» ؛ ويقضي ليله فى شرب الخمر وإعداد قصيدة انتقامه من مجلة إدنبره . ولم يحاول جيرانه أن يزوروه ، ولم يحاول هو أن يتعرف بهم . فاشتدت به الوحدة وتملكه السأم، فجمع حوله بضع خادمات جميلات للعناية ببيته ومتعته . وأرسل يدعو بعض أصدقاء الجامعة لزيارته ، فكان چون كام هوبهاوس أول من لبى الدعوة ؛ وقضى الاثنان معاً أياماً جميلة بين المتع والشعر ؛ ولكن المصائب بدأ وابلها ينصب عليه : فمرض الكلب العزيز بالصرع ، وعالجه بايرون بنفسه ، ومسح الزبد عن فمه بيديه ، وظل الحيوان المسكين وفيا إلى النهاية فلم يعض سيده أو يعتدى عليه ؛ وبين ذراعى بايرون لفظ « بوتسوين » الروح ومات . وكان حب بايرون للحيوانات يفوق الحد ؛ ولذلك حزن عليه حزناشديداً ، ودفنه فى قبر صغير فى نيوستيد ، وأبدى رغبته فى أن يدفن بجواره ، وقرر أيضاً أن يدفن خادمه العجوز «مَرى» فى نفس القبر . وعند ما سمع مرى ذلك قال :

— لو أننى كنت واثقاً من أن سيدى اللورد سيرقد معى لأحببت أن أدفن هنا ، ولكنى أكره أن أنام وحدى مع الكلب !

وعلى قبر « بوتسوين » كتب بايرون هذه الكلمات :

« فى هذا المكان يرقد جسد امتلك جمالاً دون غرور ، »
« وقوة دون خشونة ، وشجاعة دون وحشية ، »
« بل امتلك كل فضائل الإنسان دون رذائله . »
« وما هذا المديح - الذى لو كتب على قبر آدمى »
« لكان ملقاً زائفاً - إلا شهادة صدق فى ذكرى الكلب بوتسوين »

وقبل أن يتغلب بايرون على حزنه ، وصلته دعوة من جارته مارى شاوارث التى كانت قد تزوجت من چون ماسترز وتعست فى زواجها . وفى هذه الدعوة طلبت إليه أن يزورها ، وتردد كثيراً قبل أن يذهب ، ولكن رغبته الجامحة فى أن يرى حبيبته القاسية مرة أخرى تغلبت ، فذهب إلى زيارتها ، وما كاد يراها حتى تحرك حبه القديم ، وتضاعف سخطه على الدنيا ، واشتد نفوره من الحياة التى يحياها . وفى خلال هذه الزيارة قدمت له ابنتها الصغيرة ، فدمى بقلبه الجرح ثانية ، وعند ما انصرف من لدنها كتب قصيدة جميلة يصف فيها تلك المقابلة ويقول فيها :

« عند ما رأيت أخيراً طفلتك المحبوبة ، ظننت أن الغيرة ستحطم قلبى ، »
« ولكن عند ما ابتسمت الصغيرة فى براءة ، قبلتها من أجل أمها . »

« قبلتها وكتمت آهاتى ، فقد رأيت فى وجهها ملامح أبيها ، ولكن كان »
« لها عينا أمها التى أحبها وأعبدها . وظننت أن الزمن والكبرياء »
« قد أخمدا شعلة غرامى الصبيانى ، ولم أعرف حتى جلست بجوارك »
« أن قلبى — عدا الأمل — كما كان . »

وأحس بايرون أن بقاءه فى نيوستيد على مقربة من مارى شاوارث خطر على قلبه ، فقرر أن يهرب من موطن الإغراء ، ويسافر إلى بلد بعيد ؛ وسمعت هى بذلك فأرسلت إليه تسأله سبب رحيله ، فأجاب فى قصيدة يقول :

« عندما طرد الإنسان من حرم النعيم ، تلكأ عند بابه »
« لحظة يذكر سعادة خالية ، فثار على حظه ولعن »
« الأيام القادمة . ولكن عندما جال فى بلاد أخرى »
« تعلم كيف يحتمل الألم . ووجد عزاء فى حياته »
« الجديدة ، فتنهد فقط لذكرى القديم . هذا هو حالى ، »
« ولن أرى سحرك مرة أخرى ، ففى البقاء عذابى ، »
« وفى قربك حسرة دائمة . سأكون حكيما إن رحلت ، »
« وهربت بعيداً عن الإغراء ، فلا أستطيع أن أرى »
« جنتى ، ولا أرغب العيش فيها من جديد . »

قرر بايرون أن يترك انجلترا ، ولكن كان عليه أن يتم انتقامه قبل الرحيل ، فجعل يكتب قصيدة رد على ناقديه ، وحمل فيها على الكتاب الانجليز والنقاد الاسكتلنديين ؛ وكان الشعر فى ذاته قوياً رائعاً ولكن السب شديد مقذع . ولم يقصر غضبه على من أساءوا إليه ، بل تناول أيضاً أعظم شعراء ذلك العهد وأكبر كتابه ؛ وعند ما انتهى من عمله سافر إلى لندن لطبعه ، وللاستعداد لدخول البرلمان ، واحتـــلال مكانه فى مجلس اللوردات .

وكانت العادة المتبعة فى البلاد أن يذهب اللورد الجديد أول يوم الى المجلس فى رفقة أحد كبار الأعضاء ؛ فالتجأ بايرون إلى وصيه السابق لورد كارليل ، ولـكنه تخلص منه وتهرب من هذه المهمة ، فاضطر إلى الذهاب وحيداً . وعنـد ما انصرف من المجلس أضاف إلى قصيدته قطعة شديدة عن كارليل ليشفى غليـــله .

وبعد دخول المجلس بأسبوعين ظهر الديوان ونال إقبالاً ، ولـكن الرأى العام ثار على المؤلف ثورة غاضبة من أجل الشتائم

التى كالها جزافاً لخيرة الناس . وتكهرب الجو من حوله ، واقتضت الظروف أن يبتعد ، ويسافر من البلاد مسرعاً ، ولم يكن لديه مال للرحيل فاقترض أربعة آلاف من الجنيهات ضاعف بها ديونه .

وقبل سفره بيوم أرسل يدعو أصدقاءه ليودعهم ، فاعتذر الكل بمختلف الأعذار التافهة ، وقضى ليلته وحيداً . واشتد سخطه على المجتمع ، وتحطمت ثقته بالأصدقاء ، ورحل فى اليوم التالى دون أن يرى أمه أو يودع أخته أوجستا . واكتفى بأن أرسل خطاباً إلى مسز بايرون يقول فيه :

« سأبحر بعد أيام قليلة ، وقبل أن يصلك هذا الخطاب ؛ وسأترك إنجلترا غير آسف ، ودون أية رغبة فى رؤيتها مرة ثانية . »

٣

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه عام ١٨٠٩ وقف بايرون على ظهر سفينة الـكابتن « كيد » يتأمل البحر بوجه جامد وعين حالمة ، واستعاد الماضى إلى ذهنه صورة صورة فانقبض صدره : تذكر طفولة مليئة بالعذاب والآلام ، وأمًّا لاتختلف كثيراً عن الشيطان ، وحياة كلها صراع وكفاح ، ومجتمعاً لا يقوم إلا على الزيف والنفاق . تذكر ماى جراى وهى تتلقفه من يد والدته لتزيد تعسه وشقاوته ، ولافندر الدجال بعلاجه الوحشى الطويل ، وماري شاوارث الخداعة القاسية ، ومارجريت پاركر فى قبرها الهادىء البعيد ، ثم قصيدة هجائه وما سببته من غضب وثورة . وتساءل عن حكمة هذا الغضب ، وسبب تلك الثورة : ألم يبدأ النقاد بالعدوان ؟ ؟ ألم تتناوله أقلام الـكتاب بالسخرية والسباب لا لسبب إلا كتابة الشعر ؟ ؟ وعند ما يرد العدوان بمثله ، وينتقم لنفسه ، يثور المجتمع هكذا غاضباً عليه !! ولـكنه لن يتقهقر حتى لو انقلب العالم رأساً على عقب ، وما دامت الأقدار قد حكمت على حياته أن تكون هكذا ، فليتحدَّ

الأقدار وليقف ثابتاً ليؤلم الكل ، ويغضب الكل ، ويحزن الكل . وسيهجر هذا الوطن القاسى إلى أوطان أخرى بعيدة ، ففى الترحال شفاء للنفوس و بلسم للجراح .

وفى هذه الحالة النفسانية الثائرة سافر بايرون من انجلترا ، وأقلع فى رفقة صديقه هو بهاوس وخادمه فليتشر إلى رحلة يعلم الله أمدها ، و إلى بلاد قد يجد فيها السلام والاطمئنان . ونبتت فى ذهنه فكرة شعرية جديدة : وهى أن يكتب قصيدة طويلة يصف فيها حالته عند الرحيل، وتجاربه العدة فى مختلف الأوطان والأقطار . وأكب على أوراقه ينظم قصة « الطفل هارولد » واتجه الى البرتغال ؛ وفى لشبونة تبدد حزنه وتذوق السعادة لأنه كما قال « يحب البرتقال ، و يتكلم مع الرهبان بلاتينية سقيمة ، و يذهب إلى المجتمعات ، ويشتم الناس باللغة البرتغالية ! » ومن هذا المكان ذهب إلى اشبيلية فانغمس فى الملاذ بضعف آل بايرون المعهود ، وأرسل إلى أمه خطاباً يصف فيه نساء هذه البلاد : « عند ما تتزوج المرأة تلقى بكل القيود والتحفظات ؛ و إذا تقدم الإنسان إلى فتاة إسبانية بعرض من النوع الذى يعتبر إهانة فى انجلترا وينال صاحبه عادة لطمة من أشد العذارى

خلاعة ، فإنها تشكره للشرف الذى يسبغه عليها وتقول : انتظر حتى أتزوج وعندئذ يسعدنى أن أجيبك ! »

وفى مدينة قادس تعرف بأسرة الأدميرال كوردوفا فأحب ابنته الجميلة ، وغازلها بمساعدة القاموس لجهله باللغة الإسبانية . وعند ما طلبت منه أن يهدى إليها ماسته الصفراء العزيزة ، رفض وافترق الاثنان غاضبين . ولكن الماسة لم تبق فى أصبعه طويلا ، وأهداها بعد ذلك إلى مسز سپنسر التى تركت فى نفسه أثراً جميلا فمجدها فى شعره لشرفها وعفتها ، وظل يذكرها حتى وصل إلى أثينا ، وهناك زال سحرها أمام امرأة جديدة هى « تريزا ماكرى » ، أو عذراء أثينا كما كان يسميها فى قصيدته :

« عذراء أثينا . . . ردى إلىّ قلبى قبل الرحيل ، »

« ولكن قلبى قد هجر صدرى إذن فإليك باقيه ، »

« واسمعى قسمى قبل أن نفترق ... حياتى ، إننى أحبك »

وبعد أن انتهت زيارته لأثينا ، اتجه نحو ألبانيا . وكانت تلك البلاد فى ذلك العهد مجهولة لدى الناس ، فصمم على الذهاب إليها ، وتعرف ما خفى من حياتها وأعجب بها أشد الإعجاب ، وأحب على باشا والى يانينا ، وصادق قبائل السوليوت الذين

عرفوا بالخشونة والوحشية ، ثم عاد إلى اليونان وهو يحمل أجمل الذكريات لتلك البلاد التى أكرمت وفادته ؛ وفى مدينة بتراس أصيب بحمى الملاريا وأشرف على الموت لولا عناية الله .

وفى خلال هذه الرحلة كان بايرون حريصاً على تأدية واجبين. أولهما كتابة الشعر ؛ فأتم قصيدة الطفل هارولد ، ووصف فيها كل شيء منذ رحيله من انجلترا ، بل وصف أيضاً حالته النفسية قبل السفر ؛ ونالت مسز بايرون نصيبها ؛ وكذلك أخته أوجستا التى لم يرها ولم يودعها قبل رحيله :

« كان للطفل هارولد أم لم ينسها ، »
« ولكنه تجنب رؤيتها ووداعها ، »
« وكان له أخت أحبها ، »
« ولكنه لم يرها قبل الرحيل . »

وذكر الأصدقاء الذين اعتذروا عن وداعه بما يستحقون :

« لم يحببه أحد ، وإن اجتمع فى بيته مختلف الماجنين »
« عبيد الساعة المرحة ، وطفيليات إذا أذن الرحيل . »

ووصف الشاعر أيضاً فى قصيدته جبال ألبانيا الشاهقة ، وامتدح سكان تلك المناطق الذين يتمتعون بقسط ضئيل من المدنية ،

وبنصيب عظيم من الحرية والاستقلال . وحيًّا فيهم الشرف والأنفة والكبرياء . أما بلاد اليونان فقد عاب فى شعره على أهلها خضوعهم للذل والعبودية ، واستسلامهم للأتراك ، وذكرهم بتاريخ وطنهم المجيد ، وجعل ينعى اليونان القديمة الخالدة :

« يونان الجميلة ... أيتها الخرائب الحزينة لمجد ذهب ! »
« إنك خالدة وإن تداعيت ... عظيمة وإن هويت ، »
« فمن لك بقائد يجمع شمل أولادك المشتتين ، »
« ويحطم عن معصميك قيود الذل والاستعباد ؟ ! »

ثم يهيب بالناس أن يستيقظوا ويجاهدوا بأنفسهم فى سبيل التحرير :

« ألا تعلمون ، أيها المستعبدون ، أن من يطلب الحرية يضرب بيده »
« وبيمينه يكتسب الفخر ؟ أو تظنون أن الفرنسى أو الروسى »
« يصلح ما فسد ؟ نعم ... قد يهزمان لكم الظالم ، ولكنكم لن »
« تنالوا فخر الحرية ، وشرف الجهاد . »

وعند ما انتهى من هذه القصيدة كتب أخرى يهجو بها لندن ومن فيها تحت عنوان « لعنة مينرفا » و « ملاحظات من هوراس » .

أما الواجب الثانى الذى حرص بايرون على تأديتـه خلال الرحلة فهو المداومة على مراسلة أمه ؛ فكتب إليها باستمرار يحدثها عن مشاهداته ومخاطراته ، ولم يكن ذلك معناه أن البعد أنساه قسوتها أو غير شعوره نحوها . . . كلا . . . وإنما كتب إليها لأنه لم يجد من يراسله غيرها . وظل شعوره على حاله بدليل أن لورد سليجو قابله فى اليونان ، ولاحظ كراهيته لأمه ، فلما سأله السبب ، قال بايرون :

— سأحدثك يوماً عن سبب هذا الشعور .

وبعد أيام قليلة خرج الصديقان للسباحة ، فأشار الشاعر إلى قدمه العرجاء ، وقال فى مرارة :

— أنظر ؟ هذه العاهة نشأت عن خشونتها عند ولادتى ، ومع ذلك ظلت طيلة حياتى تعيّرنى بها ؛ وقبل أن نفترق تشاجرت معى ، ولعنتنى ، ودعت الله أن يشوه عقلى كما شوه قدمى !

وفى هذه الرحلة عرف بايرون صبياً من أبناء اليونان اسمه « نقولا جيرود » ، وبدأت المعرفة بحجة تعلم اللغة الإيطالية ، ثم انقلبت إلى صداقة حارة ، على الرغم من اختلافهما فى السن ،

والأخلاق ، والمركز الاجتماعى . وعند سفره منح الصبى مبلغاً كبيراً من المال .

وبعد أن قضى بايرون فى رحلته ما يقرب من العامين ارتبكت حالته المالية ارتباكاً شديداً ، وألح الدائنون على هانسون فى لندن ، وأصبحت الحاجة ماسة لبيع نيوستيد وتسديد الديون ، وتوالت الخطابات من انجلترا تطلب عودته ، فاضطر إلى السفر كارهاً . وفى اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨١١ كان شاعرنا فى مالطا يستقل السفينة إلى وطنه ، وكتب فى خطاب يقول :

— « إننى عائد إلى الوطن دون أمل ودون رغبة . »

***

عاد بايرون إلى لندن ، فأسرع أصدقاؤه إلى استقباله ، وعلى رأسهم هوبهاوس ودالاس الذى اعتاد أن يسهل له طبع أشعاره ، ومن الخطابات القليلة التى وصلتهم منه توقعوا أن يروه حزيناً ، ضيق الصدر . ولكنهم وجدوه مرحاً سعيداً على غير ما ذكر فى خطاباته . وعند ما استقر به المقام فى فندق ريديش ، سأله دالاس أنظم شيئاً خلال رحلته ، فأعطاه « ملاحظات من

هوراس » ؛ ولما لم تعجبه أعطاه ديوان « الطفل هارولد » كارهاً لأنه كان يعتقد أن هذه القصيدة ضعيفة مملة ، ولكن دالاس قرأها ، فأُخذ بجمالها وروعتها ، وأعجب بالأسلوب الجديد الذى صيغت به ، وبالروح القوى الفياض الذى ينبعث من الأبيات . وعرف أن قصيدة الطفل هارولد ستحدث فى البلاد ضجة لاختلافها عما عرف من قبل ، فصمم على طبعها ، وبعد أخذ ورد قبل بايرون طبع الديوان .

ومضت الأيام فى لندن دون أن يفكر فى السفر إلى أمه فى نيوستيد لزيارتها بعد غيبته الطويلة ؛ واكتفى بأن أرسل لها خطاباً يعتذر فيه عن التأخر ، ولكن مسز بايرون ماتت بعد وصول الخطاب فلم تر ابنها . وكانت وفاتها بإحدى غضباتها المشهورة ، فقد هاجمها الدائنون يوماً ، فثارت ثورتها ، وانفجر شريان فى رأسها ، وبذلك انتهت حياتها الصاخبة .

وأسرع بايرون إلى نيوستيد حين بلغه نعيها ، فوجد أمه جثة هامدة على فراشها . وفى تلك الليلة مرت إحدى الخادمات فسمعت أنيناً فى حجرة الميتة ، وعند ما دخلت وجدت الابن يبكى بجوار الفراش ، وحاولت أن تخفف عنه بكلمات التشجيع

والعزاء ، فأجابها والدموع تنهمر من عينيه :

— كان لى صديق واحد فى هذه الدنيا ، وها هوقد ذهب .

فهل كانت مسز بايرون حقيقة صديقه الوحيد ؟ كلا بالطبع !
وكل ما فى الأمر أنه شاب عاطفى حساس إلى درجة غيرعادية ؛
وكلما سمع بموت إنسان أو حيوان يعرفه استسلم للحزن واعتبره
صديقه الوحيـــد فى الحياة . هكذا فعل مع مارجريت پاركر ،
ومع كلبه بوتسوين ، ومع أمه الحمقاء .

ولم يدم حزن بايرون على أمه طويلا ؛ ففى صباح اليوم التالى
دهشت نفس الخادمة عند ما رأته يرفض السير وراء جثمانها عند
تشييعه ، ويأبى الاشتراك فى الجنازة . وعند ما خرج نعشها من
البيت ، اقتصر على الوقوف فى البهو يرقب ابتعاده ، وقبل أن
يختفى عن ناظره أمر بإعداد القفازات ليقوم بتمرينه اليومى فى
الملاكمة ؛ ولكن المرن لاحظ شرود ذهنه ، وشدة ضرباته على
غير المعتاد ؛ وفجأة رآه يلقى القفاز جانباً ، ويخرج مسرعاً ،
ويختفى بقية اليوم فى حجرته .

وأبت الظروف إلا أن تضاعف من مضايقات بايرون ،
فقد ظهرت مقالة فى إحدى الجرائد تحت عنوان « لورد بايرون »

كتبها صحفى أهين فى ديوان الهجاء منذ عامين ، فلما سمع بعودته كتب المقال لينتقم من شاتمه . وأطلق على الشاعر مختلف النعوت فسماه « الابن غير الشرعى » و « الوارث لقاتل » و « العربيد الحقير » و « ابن امرأة قضت أيامها فى هذيان الثملة » .

وفى غمرة حزنه على أمه ، وغضبه من المقال ، علم أن ولاة الأمور يعارضون فى طبع « الطفل هارولد » بسبب إلحاد مايتناول الروح وخلودها ، ثم طفح الكيل عند ما سمع بغرق صديق له . وجن جنون بايرون، وثارت ثائرته على الدنيا، والأقدار والناس، فكتب وصيته المشهورة التى أمر فيها بأن يدفن بجوار كلبه بوتسوين ، وألا يصلى أحد على جثمانه ، وأن تباع نيوستيد ويرسل ثمنها إلى الصبى نقولا جيرود فى اليونان !

ولكن المصائب عادت تتراكم دفعة واحدة ثم تتفرق كذلك دفعة واحدة : فقد تغلب دالاس على اعتراض ولاة الأمور ، وطبع الديوان ، وظهر فى اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٨١٢ ، ونال الكتاب نجاحاً منقطع النظير ؛ فأقبل الناس على قراءته ، واشتروا مئات النسخ منه . وتألق اسم المؤلف فجأة فى سماء الشهرة وأضبح لورد بايرون موضوع حديث الناس ، وسعى الكل إلى

معرفته ، وفتحت أبواب القصور أمامه ، وسجدت النساء لجماله ، فقال جملته المأثورة :

— استيقظت ذات صباح فوجدت نفسى شهيراً .

وطابت الأمور ، وهدأت نفسه ، ولكنه خرج من تلك التجربة القاسية بصفات جديدة ، وهى صلابة القلب ، وموت العاطفة والإحساس ؛ فمما لا شك فيه أن الأحزان إذا هصرت القلوب دفعة واحدة ، تركتها حطاماً بالياً ، وقتلت فى نفوس أصحابها القدرة على الألم وتقدير النكبات ، والشعور المرهف الدقيق . وهكذا كان الحال مع شاعرنا : فقد تذوق أشد أنواع الألم ، فهان كل ألم عليه ، وتزعزع إيمانه فى الأقدار فتحداها ؛ وامتلأ قلبه بالاحتقار للناس ، فعاش بعد ذلك للانتقام منهم. ولما يئس من أن يجد من يحبه أحب هو نفسه ، وجعل من شخصه موضع عنايته واهتمامه ، وقضى الأيام فى عبادة هذا الشخص وإشباع رغباته وملاذه .

***

لا شك أن ديوان « الطفل هارولد » جلب لبايرون الكثير من المتع التى لم يعرفها ، أو يتذوقها من قبل ، ولكنها كانت

متعاً زائلة ، تشبه الأيام فى تقلبها والأعوام فى دورتها . ولعل الأمر الوحيد الذى اكتسبه حقيقة هو صداقته الجديدة للشاعر توماس مور : ولقد بدأت العلاقة بين الاثنين بأن عرض بايرون به فى هجائه ، فغضب مور وصمم على أن يمحو الإهانة بالدماء ، فأرسل خطاباً إلى شاتمه يطلب مبارزته ، ولكن الخطاب وصل بعد سفر بايرون إلى اليونان فلم يتسلمه . و بقى المظروف مغلقاً فى مكتب المحامى هانسون خلال غيبته . فلما عاد بايرون ، وعرف محتويات رسالة مور ، كتب إليه فى الحال يشرح سبب التأخر فى الرد ، ويظهر استعداده للمبارزة إذا كانت الرغبة ما زالت متوافرة . ولم تكن الرغبة إذ ذاك متوافرة : إذ تزوج توماس مور وأنجب طفلاً ، فتغيرت وجهات نظره ، وغلت حياته . وانتهى الأمر بأن توسط بعض الأصدقاء بينهما وجمعوهما للمرة الأولى معاً ، وخرج الاثنان من الاجتماع على أتم صفاء وتفاهم ، وربطتهما الصداقة معا برباط بقى قوياً خالصاً إلى النهاية .

٤

هبطت الشهرة المفاجئة على بايرون ، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . وكان إذ ذاك قد اكتمل جماله ، و بلغ حسنه درجة تأخذ بمجامع القلوب : فشعره كستنائى غزير يتهدل فى تموجات طبيعية رائعة ؛ وقوامه نحيف رشيق ، وجلده باهت شفاف كأنه من البلور ... فمه صغير ممتلىء الشفاه ، وعيناه زرقاوان يشو بهما ظل رمادى ، وصوته موسيقى رخيم حتى سماه الأطفال « الرجل الذى يتحدث كالموسيقى » . ولما كان بايرون قد أصبح — كما ذكرنا — موضع عبادة نفسه وتقديسها فقد رعى ذلك الجمال وتعهده بعناية فائقة . وعند ما تفتحت أبواب القصور أمامه ، لم يهبط على من فيها شاعر عظيم فحسب ، بل هبط أيضاً وجه ملائكى خرت له النساء ساجدات .

ودخل المجتمعات الجديدة بقلب حديدى ، أفقدته الآلام حساسيته ورقته ، وأقبل على معارفه الجدد بسخرية لاذعة واحتقار أملتهما صدمات المجتمع وغدر الناس ؛ فانتوى أن يقبل على الظروف الحديثة ليستفيد لا أن يفيد ، و يمتص رحيقها الحلو

ثم يلقى بما يتبقى فى غير أسف أو رحمة . و بين يدى هذا الرجل الذى طاردته الظروف ، وأورثته الحوادث قسوة بالغة ، سقطت ليدى كارولين لامب وهى تخبط فى مجاهل حب خطير .

* * *

ولدت ليدى كارولين من أب غنى ، وتقلبت على فراش ذهبى ، فلم تر من الحياة إلا ناحيتها البراقة . ومرضت أمها بعد ولادتها بزمن قصير ، فعاشت الصغيرة فى رعاية خالتها دوقة ديفونشير ، وتربت وترعرعت في رفقة أولاد هذه الخالة ؛ ولم يكن فى كل انجلترا أطفال أهملت تربيتهم كأطفال الدوقة ، وبين هؤلاء نالت كارولين قسطاً وافراً من الإهمال والتربية الفاسدة . . .

ولاحظت جدتها ليدى سپنسر البيئة الخطيرة التى تعيش فيها حفيدتها ، فانتزعتها منها وضمتها إلى أحضانها ، وحاولت جهدها أن تصلح ما فسد ؛ ولكنها لاحظت فى الفتاة شذوذاً دعا إلى استشارة الأطباء فى حالتها ؛ وقرر الأطباء أن كارولين عصبية المزاج إلى حد خطير ؛ ولذلك يجب ألا تجهد بتعلم أو تثقيف ، ونصحوا ببقائها على مبعدة من الناس ، وإلا انتهى أمرها

بالجنون . وكانت النتيجة أن بلغت الفتاة سن العاشرة قبل أن تتعلم القراءة والكتابة ، وتلقت دروسها الأولى وهى فى الخامسة عشرة فأظهرت ذكاء فذاً ، وأتقنت اللغات القديمة والحديثة ، وبرعت فى الموسيقى والرسم ، ولكنها ظلت على شذوذها ؛ فلم تكن تعنى بهندامها أو بسلوكها .

وتعرفت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها بوليم لامب ابن ليدى ملبورن الشهيرة ، فأحبته ولكنها رفضت الزواج منه لخمول اسمه إذ ذاك . ولم يمض وقت طويل ، حتى تألق اسمه فى سماء الشهرة ، وأصبح الوارث الوحيد للقب لورد ملبورن ، وتقدم إليها ثانية فقبلت الزواج منه وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى يوم الزواج تشاجرت مع القس ومزقت ثوب عرسها ، وسقطت فى بهو الكنيسة مغمى عليها ! وحملها الناس هكذا إلى بيتها الجديد ، وهمس الكل قائلين : "لن يدوم هذا الزواج !"

وتألق اسم كارولين لامب فى سماء مجتمعات لندن الأنيقة ، وأصبح بيتها ملتقى النبلاء والأدباء والشعراء ، وتجمعت حولها القلوب لرشاقتها وشذوذها . وأنجبت أطفالا لم يعش منهم إلا صبي واحد .

. وعند ما بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ظهر ديوان « الطفل هارولد » ، فاشترت النسخة الأولى منه وقرأتها ، فأعجبت بالجرأة الأدبية التى تسود أبياتها ، والروح الحزين الذى يطغى على الكلمات ، والموسيقى الشعرية الرقيقة . وأبت رغبتها إلا أن ترى المؤلف ، ولكن صديقه مور أراد أن يثبط عزيمتها ، فقال لها :

— إن بايرون قبيح الشكل ، ملتوى القدم ، يقضم أظفاره كالبلهاء !

فصممت على مقابلته ولو كان فى « قبح الشيطان » . وقابلته فعلا فى بيت صديقة لها فما إن رأت وجهه وهو يقترب منها حتى ارتدت على أعقابها ، وأبت أن تصافحه . وفى هذه الليلة كتبت عنه فى يومياتها تقول :

« مجنون . . . شرير . . . من الخطر معرفته » .

ولكن هاتفاً ما جعلها تضيف :

« هذا الوجه الجميل الباهت قد قدر على » .

و بعد يومين قابلته مرة أخرى فتعرفت به ، ودعته إلى زيارتها فى قصر ملبورن حيث تعيش مع حماتها ليدى ملبورن .

وبعـــد الزيارة الأولى أصبح لورد بايرون هو الضيف اليومى لهذه الأسرة .

واقتصرت العلاقة بادئ الأمر على حب أفلاطونى برىء ؛ فكان يقضى الصباح معها فى حجرة الاستقبال ، يداعب طفلها ويحدثها عن نفسه ، ويرسم لها صورته فى الشكل الذى يعجبها ؛ وحدثها بأجداده وباللعنة التى تطارد كل من ينتمى إلى أسرته ، ووصف لها حزنه الدائم ، وإيمانه المتداعى ، واحتقاره للمجتمع والناس ، فلم ترتدع ، بل زادت حباً له . ولم يمض وقت طويل حتى غرقت فى حبه إلى أذنيها ، فهاجمته ، وطاردته ، وفرضت نفسها عليه حتى بادلها الحب كارهاً .

وكان بايرون يعرف نقائصها جيداً ، ويحب زوجها ويحترمه ؛ فاتصل بها وقد امتلأ قلبه باحتقارها وازدرائها ، وتعجب فى نفسه كيف تخون هذه المرأة زوجاً كريماً طيباً ، ولكن ضعف آل بايرون وحيوانية أخلاقهم حالا دون ابتعاده عنها . وإذا قام الحب على أسس من الاحتقار فلا سبيل إلى السعادة بعد ذلك ، وهذا ما حدث بالضبط ، فقد اتخذها خليلة ولكنه سامها أنواع الذل والمهانة . وزادتها القسوة جنوناً على جنون، وحباً على حب .

فكان إذا غضب منها يوماً وقفت أمام بيته في الطريق العام إلى مطلع الفجر ، تنتظر عودته لتسأله الصفح والغفران . و إذا دعى إلى حفلة دونها ، وقفت بجوار عربته تحت الأمطار المتساقطة ، لتمتع النظر برؤيته عند انصرافه . وتقتحم بيته علانية، وتكاتب خدمه ليسهلوا لها سبيل الدخول في زى خادم . وهكذا كانت السيدة النبيلة تحط من قدرها ، فتزيد احتقار عشيقها لها

وبقى وليم لامب يرقب طيش زوجته في سكون ؛ فقد كان يحبها ولا يستطيع فراقها . ولم يتدخل خشية أن يثير التدخل عنادها ، فتمعن في تصرفاتها وجنونها . وخيل إليه أن زوجته تعانى الحمى البايرونية التي تفشت بين النساء أخيراً فألقت بهن جميعاً تحت أقدام الشاعر الجميل ، وعند ما تزول هذه الحمى وتهبط حرارتها ، ستعود كارولين إلى سابق عهدها و إخلاصها .

وفي بيت كارولين عرف بايرون حماتها الليدى ملبورن فأعجب بعقلها وسعة تفكيرها ، وزالت الكلفة بين الاثنين ، فحدثها بعلاقته بزوجة ابنها واحتقاره لطيشها ، وحدثته هي بامتعاضها من استهتارها ، وتحديها لتقاليد المجتمع وعرفه . ومنذ ذلك العهد أصبحت ليدى ملبورن كاتمة سره ، يحدثها بكل ما يعتمل في قلبه،

ويكاشفها بمختلف أسراره مهما بلغت تلك الأسرار من خطر .

واتفق بايرون مع ليدى ملبورن أن يضع حداً لعلاقته بكارولين ، فقد جاءت أمها لزيارتها بعد أن سمعت عنها مختلف القصص والأقاويل ، ورأت أن تصحب ابنتها فى رحلة إلى إرلندا لتبعدها عن حبيبها ، وتخفف حدة الرأى العام . وبعد إلحاح خضعت كارولين وسافرت ، ولكنها ظلت تكتب لبايرون كل يوم ، تبثه لواعج شوقها ، وتهدده بالعودة إن لم يجب رسائلها . ولم يجد أمامه سبيلا للخلاص إلا الهرب من لندن ، فقبل دعوة آل أكسفورد ، وسافر إلى قصرهم فى الريف . وهناك وقع تحت سحر ليدى أكسفورد ، فشجعته على قطع علاقته نهائياً بكارولين ، وأملت عليه خطاباً أرسله إلى خليلته القديمة يقول فيه:

« لم أعد أحبك . . . وما دمت تضطهديننى بتلك المطاردة التى لا تناسب الأنوثة ، فاعلمى إذن أننى متعلق بسيدة أخرى ، يمنعنى الشرف من ذكر اسمها . . . وسأذكر بالشكر اللحظات العدة التى تمتعت فيها باهتمامك . . . وسأبقى دائماً صديقك ، إن سمحت لى أن أكون كذلك . وأول برهان على حسن مقصدى نصيحتى هذه : أصلحى غرورك المزرى وانشرى

نزعاتك الشيطانية على غيرى ، واتركينى فى سلام » .

***

شغل بايرون بحياته الجديدة عن كتابة الشعر ، وانقضت لياليه فى الحفلات والمغازلات ، ومرت الشهور أولاً فى صراع مع كارولين ؛ وثانياً فى الخضوع لسحر ليدى أكسفورد وجمالها ، فانقطع الوحى واستسلم للهو والدعة . وكانت هذه طبيعة بايرون الحقة : فإذا حزن وتألم فاض بالشعر قلمه فى سهولة وقوة وعذوبة ، وإذا سعد وهدأت ثورته هدأ الوحى بهدوء نفسه وضعف بضعف ثورته . وظل على هذا الحال طوال حياته ، فسجلت أيام الشقاء أروع قصائده وأكثرها خلوداً .

ومنذ عودته من رحلته حتى عام ١٨١٣ لم يكتب بايرون ما يستحق الذكر ، وكل ما نظمه قصيدة « الفالس » وطبعها دون اسمه . وبعد ذلك كتب أولى قصائده الرومانتيكية « الكافر » ، وهى قصة شعرية تدور حول التكفير والتوبة ، فنرى الكافر يسرق زوجة حسن الذى يثأر لشرفه المسلوب ، فيغرقهما ، أما الكافر فينجو ويعود لقتل حسن ؛ ثم يأوى إلى دير يقضى فيه بقية عمره فى التكفير والتوبة .

وهذه القطعة أيضاً طبعت بطابع مؤلفها كما هو الحال فى « الطفل هارولد » ، وكشفت عن وحدته النفسية ، وشعوره ضد الأقدار والبشر ، ونالت نجاحاً عظيما لأن الناس قرأوا بين سطورها حوادث الشاعر نفسه وآراءه ومعتقداته .

***

فى بادىء الأمر لم تقنع كارولين لامب بالهزيمة ، فأمطرت بايرون — كما ذكرنا — بالخطابات الحارة ، والتهديدات الشديدة . ولم تكتف بذلك بل التجأت إلى خليفتها ليدى أكسفورد ترجوها أن تتوسط لديه ، ليصفح عنها ، ويغفر لها طيشها ، ويعود إلى حبها ! . ولما وصلها خطابه الشديد انتهى صراعها ، وتداعت قوتها ، ومرضت مرضاً خطيراً كاد يودى بحياتها . وعند ما تماثلت للشفاء بلغ بها الضعف والهزال درجة أدهشت الناس . وعند عودتها إلى لندن ظلت ترجو وتلح فى أن ترى حبيبها مرة أخيرة ، فأشفقت حماتها ليدى ملبورن عليها ؛ واقترحت أن تتم المقابلة بشرط حضور شخص ثالث معهما . وطلب بايرون أن يكون الشخص الثالث هو ليدى أكسفورد ! . ولم تتم المقابلة بسبب هذا الشرط .

وجن جنون ليدى كارولين فأقامت حفلة كبيرة أحرقت فيها تمثالا صغيراً لحبيبها . ورقصت خادماتها حول النيران ، وفى نهاية الرقص ألقت فيها خصلة شعره التى تحتفظ بها ، ونسخاً من خطاباته ، وختمت الحفلة بقطعة شعرية من نظمها ، وأرسلت إليه تفاصيل هذا العمل الجنونى ، فازداد احتقاره ومقته لها .

ولم تنته المأساة عند هذا الحد . ففى اليوم السادس من شهر يوليه عام ١٨١٣ أقامت إحدى النبيلات حفلة راقصة ، وتقابلت فيها كارولين مع بايرون ، فتبادلا بضع كلمات قاسية ، وانتهت بأن اختطفت سكيناً من فوق المائدة وشهرته فى يدها ، فنظر إليها فى احتقار وبرود وقال :

— هيا يا عزيزتى ، ولكن إذا كنت تلعبين دور البطولة ، فأحسنى اختيار ضحية سكينك ؛ ولتكن الطعنة إلى قلبك أنت ، أما قلبى فقد طعنته كثيراً من قبل ! . .

ثم دار على عقبيه وترك الغرفة . لم يعرف المدعوون ما حدث بالضبط ، ولكنهم رأوا ليدى كارولين تجرى بينهم ، والسكين فى يمينها والدماء تسيل من ذراعها الأخرى ، ثم تمايلت وسقطت على الأرض مغمى عليها . وكان بايرون فى ذلك الوقت يتحدث

مع إحدى السيدات فى حجرة أخرى ؛ فلما سمع ما حدث قال فى برود :

— " ألعوبة أخرى من ألاعيبها المعهودة ! "

وبعد ساعات قليلة عرف أهل لندن جميعاً ما حدث ، وكتبت الجرائد القصة تحت عنوان « فضيحة كبرى » ، وثارت ثائرة الرأى العام ، ومع ذلك عاد الشاعر يوماً إلى بيته ، فوجد ليدى كارولين قد اقتحمته قبل حضوره ، وخطت على الصفحة الأولى من كتاب من كتبه كلمة « اذكرنى » ، فتناول القلم وفى الحال نظم تحت كلمتها قصيدته الشعرية المعروفة :

« أذكرى ... واذكرى ... حتى اليوم الذى تكون فيه »
« الجحيم مثواك ، أن النـدم والعار لن يتركاك . »
« أذكرى ... واذكرى جيداً أن زوجك أيضاً لن ينساك ، »
« فكلانا سوف يذكرك : خائنـة له شيطانة لى . »

وفى خلال كل هذه المطاردات الجنونية ، كانت كراهية بايرون لها واحتقاره إياها يزدادان ، ولازمه الشعوران طيلة حياته ، فظل يذكرها بالشر إلى يوم مماته .

٥

خرج بايرون من علاقته بكارولين منهك الأعصاب ثائر النفس ، وانضوى تحت لواء ليـدى أكسفورد عسى أن يجد الهدوء . وسعد معها بعض الوقت ، وقرر أن يسافر فى صحبتها إلى أوروبة ، ولكنه كشف أن الحبيبة الجديدة تشرك الكثيرين معه فى قلبها ، فغضب الشاعر الشاب ، وعدل عن الرحيل .

وعاد إلى لندن حزيناً كاسف البال ؛ فقد كان فى الماضى ينعى فراغ حياته ، وحرمانه من العطف والحب . وظل منذ طفولته فى بحث دائم عن هذا الحب ، وعند ما وجده أخيراً ذاق منه الأمرّين . وهدمت الصدمات المتكررة بقية ثقته بالمجتمع ، وتضاعف احتقاره للبشر ، وزادت عقيدته إيماناً أن المرأة لا تعرف مبادئ الشرف والإخلاص . وفى غمرة ثورته النفسية الجديدة ، وصلته الأنباء بقرب وصول أخته لأبيه أوجستا .

كانت أوجستا بايرون قد تزوجت منذ سنوات بقريب لها اسمه « كولونيل لى » ، وهو رجل مقامر عربيد ، لم يرع للزواج حرمة ، فجعل ينفق نقوده بسخاء على الخمر والمقامرة والنساء .

وعند ما أنجب أطفالا ثلاثة ، كانت الثروة قدتبددت ، وارتبكت حالته المالية مما دعا الزوجة إلى الرحيل . وعلى الرغم من خياناته المتكررة وإسرافه الشديد ظلت أوجستا أمينة على عهده ، تحبه وتخلص له ، وتعنى بأطفالها ، وتحسن على الفقراء ، وتساعد الضعفاء مما جمع القلوب حولها .

وفى شهر يونيه عام ١٨١٣ وصلت أوجستا إلى لندن ، واستقبلها بايرون فرحاً ، فلم يكن قد رآها فى حياته إلا مرة واحدة منذ سنوات . وأعجب بأخلاقها البسيطة ، وثيابها الأنيقة ، وقوامها اللدن . وقارن فى نفسه بينها و بين أمه الخشنة ، فازداد تعلقه بها .

ولم تكن أوجستا ذكية أو مثقفة ، بل هى محدودة التعلم ، بسيطة التفكير أقرب إلى الغباء منها إلى الذكاء . وهى تمتاز بالمرح الدائم ، وخفة الروح ، والمهارة فى تقليد الناس بطريقة مضحكة . وهى أيضاً فطرية إلى حد بعيد ، تحب كل شىء ولا تحب شيئاً ، لا تعرف من الحياة إلا ناحيتها المرحة البراقة ، وتعيش لحاضرها فقط ، فلا يهمها الماضى ولا تفكر فى المستقبل .

ووجد بايرون فى هذا اللون الجديد المثل الأعلى للمرأة التى

تعجبه . . . والمرأة التى تعيش قانعة فى حدود طبيعتها ولا تحاول الخروج عنها .

ولعل أعظم ما جذبه إليها هو التشابه الكبير بينهما فى الخلْق والخلق : فهى خجلة حيية تنفر من الناس وتميل إلى الوحدة ، وشعرها كستنائى مجعد كشعره ، وفمها صغير ممتلىء الشفتين ، ولونها باهت شفاف . ودهش أن وجد شبيهاً له فى الحياة من حيث الشكل والأخلاق والطباع ، فجعل يتأمل هذا الشبيه بعجب وإعجاب .

وكانت حياة بايرون إلى هذه اللحظة خالية مجدبة : ففى طفولته قاسى الشقاء على يدى أمه ومربيته ، وفى المدرسة لقى العذاب بسبب عرجه وكبريائه وفى عالم النساء منى بالصدمات ، و بين الأصدقاء رأى الخيانة والرياء . وتلفت حوله فلم يجد ما يحبه فأحب نفسه ، وجعل من شخصه معبوده الوحيد ، وقضى الأيام فى إرضاء هذا المعبود وإشباع رغباته وملاذه . وفجأة وجد شبيهاً لمعبوده ؛ شبيهاً له فى كل شىء ، فعبده دون أن يشعر ، وأشركه فى حبه العظيم لنفسه . وهدأت نفسه فى صحبتها ، فقد كانت تحبه لشخصه ، ولم تهمها قدمه العرجاء ، ولم تأبه لفقره أيام

طفولته ، ولم يخفها شذوذه ، ولم ينفرها كفره وإلحاده ، وكلها أمور أبعدت قلوب غيرها من الناس عنه ؛ وملأت أوجستا فراغ حياته فكان يخرج فى صحبتها فخوراً ، ويقدمها إلى أصدقائه فى تيه وإعجاب .

وبعد ثلاثة شهور عادت إلى بيت زوجها فى « سيكس مايل بوتوم » .

* * *

عندما ابتعدت أوجستا اختلى بايرون بنفسه يناقشها الحساب فعاودته آلامه ، وتملكه حزن شديد ، وأقبل على الخمر عسى أن يهرب من ضميره ، ولكن ذلك الضمير أطبق عليه وطارده فى كل مكان حتى على مائدة الشراب .

ودارت أفكاره حول العلاقات المحرمة ، ولم يستطع كبح جماح قلمه ولسانه : ففى الحفلات والمجتمعات يطرق موضوع هذه العلاقات ، ثم يدافع عنها فى حرارة وقوة ؛ وعند ما ينصرف ينظر الناس بعضهم إلى بعض فى قلق ، وتشكك ، ودهشة . وبذلك فضح بايرون نفسه وأثار الشكوك نحوه بلسانه وكتاباته ، وغرس بيده بذور الفضيحة التى قضت على سمعته فيما بعد .

وأكبَّ بايرون على أوراقه يقرض الشعر كما هي عادته في كل ثورة نفسية . وانساب به القلم في سلاسة وعذوبة ، وتسللت آلام قلبه إلى القصائد فخرجت قطعاً فريدة في عالم الأدب . وأتم قصته الثانية « عروس أبيدوس » وهي قصة تركية تدور حول هذا الموضوع و بطلتها زليخا تحب أخاها سليماً :

« سليم ، يا أعز الأحباب . . . خبرني، أتكرهني أم تخشاني ؟ »
« تعال ، وضع رأسك على صدري فأقبلك حتى الهدوء والمنام »
« أتظن أنني أحتمل فراقك ، فأشطر قلبي نصفين ؟ »
« لو انتزعوك مني فقدت أنت حبيبتك ، وفقدت أنا مرشدي ، »
« ولم تعرف الدنيا ، ولن تعرف، اللحظة التي تشتت بين روحينا ، »
« وعندما يهبط عزرائيل بصولجانه المخيف ليفرق الأحباب »
« سيميتنا حتماً ، ولكن ليتحد قلبانا في التراب . »

وأتم هذه القصيدة في أسبوعين فقط ، مع أنها تبلغ مائتين وألفاً من الأبيات ، لأنها كانت صورة من حياته ، وطبعها ونشرها ، ووضع في الصفحة الأولى سطراً يقول : « الجزء الأول مأخوذ من ملاحظات في حياتي » و بهذه الجملة أثبت شكوك الناس وأقاويلهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كتب قصة شعرية أخرى هى « القرصان » ، و بطلها كنراد يشبهه تماماً : فهو خجول يميل إلى الوحدة ، وينفر من الناس . حكمت الأقدار عليه بالشر ، فاندفع إلى الجريمة دون رغبة أو إرادة . وتخدعه الحياة ، ثم تصدمه أحداثها ، فيعلن الحرب على المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن أجل أخطاء البعض يصب جام شره على الكل . وتعجم المصائب عوده ، فينكر التو بة ، و يزدرى التكفير ، ولا يطلب الغفران . ولا يرق قلب البطل الشيطان إلا لشخص واحد فقط هى حبيبته « ميدورا » .

وقدم هذه القصيدة أيضاً بجملة تفضح سره : « مأخوذة من تجارب شخصية » ، وتبعها بكلمات لتاسو : « أفكاره لا تستطيع الهدوء فى قلبه » . وهكذا كان بايرون دائماً ضعيفاً ، لا يعرف السيطرة على لسانه أو قلبه ، عبقرياً فى التحدث عن نفسه وأعماله ، فلقد شاءت الدنيا التى حرمته الحب أن تصبح نفسه معبوده الوحيد .

***

وتطايرت الإشاعات فى أنحاء البلاد ، وضج المجتمع صاخباً

غاضباً ، وتناقل الناس كتاباته وأقواله التي يشير فيها إلى خطيئته : وسرهم جميعاً أن يتلوث اسمه ، بعد أن أثار حوله الكراهية بعلاقاته النسوية ، وكبريائه الشديدة ، وتحديه لسياسة البلاد بتمجيد عدوها نابليون . وبدأ نجمه فى الأفول رجلا ، وفى الصعود شاعراً . وأغلقت أبواب القصور أمامه ، ولكن كتبه نالت أعظم درجات النجاح . ووقف بايرون يشهد هبوط مجده ، فتحرك غضبه البايروني ، وازداد سخطه على الدنيا فتحداها بجنون ، ومنح أخته ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكتب قصيدة هى أجمل مانظم فى حياته :

« حرام أن يجرى اسمك على لسانى ، أو يخطه قلمى ، »
« ففى نغماته حزنى ، وفى قصـــتنا خطيئة ! »
« والدمع الذى يسيل على خدى فيحرقه ، »
« يعبر عما يخالج قلبى من أفكار حزينة ، »
« والساعات التى مرت بنا ، قصيرة لم تشبع لنا رغبة ، »
« طـــويلة فى تعذيبها للضـــمير . »
« فمتى تنقضى مرارة تلك الساعات وحلاوتها ؟ »
« لتكن السعادة من نصيبك ، ولتقع الخطيئة على ، »

« فاغفري أيتهـا المعبودة ، واهجرى إن شئت ، »
« ولكن قلبي الذى وهبته لك سيبقى خالصاً ، »
« ولن تحطمـه الدنيـا مهما فعلت . »
« وستبقى نفسى فى ظلامها الحالك ذليلة لك ، »
« ولو ركع العالم تحت قدمىّ لما بلغ سعادة قربى منك . »
« آهة منك تشقيني ، ونظرة منك تسعدني ، »
«وستعجب الدنيا لما أضحيه،فندعها جانباً، ونواصل الحب.»

ولكن بايرون على الرغم من عناده وصلفه ، كان يتمنى لو استطاع الخلاص ؛ وفكر فى الزواج وسيلة لإنقاذه ، ثم تراكمت الديون ، وتضاعفت أرقامها ، وازدادت إلى درجة خطيرة . وبعد تردد صمم على إتمام فكرته ، وقرر أن يربط حياته بحياة فتاة عاقلة غنية ، تنقذه بعقلها من جنونه ، وبمالها من ديونه ، فتقدم يخطب الآنسة « أنابيلا ميلبانكي » ابنة أخى صديقته وكاتمة سره ليدى ميلبورن ، وتزوج منها وهو فى السابعة والعشرين من عمره .

٦

كانت أنابيلا ميلبانكى الابنة الوحيدة لسير رالف ميلبانكى شقيق ليدى ملبورن . ولدت وترعرعت فى قصر والدها فى الريف ، ونشأت بين أيدٍ قوية حكيمة ، فنالت قسطاً عظيماً من الثقافة ، وتشبعت بمبادئ الدين ، واشتهرت بين الناس بالتقوى والحكمة والهدوء ؛ وعند ما ظهر ديوان « الطفل هارولد » قرأته كغيرها ، وأعجبت به ؛ ثم سافرت إلى لندن لتقضى فيها بضعة أسابيع .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٨١٢ أقامت كارولين لامب حفلة راقصة صباحية ، ودعت إليها خيرة المجتمع ، ومن بينهم أنابيلا ابنة خال زوجها . ووجدت الضيفة أن الجو الذى يسود المكان لا يناسب خلقها الهادىء ، فجلست عن كثب ترقب الجميع . ودخل بايرون ، فأحاطت به السيدات وتهافتن على خطب وده ، والتقرب إليه ، فلما جاء دور أنابيلا رفضت التعارف به ، خشية أن تنضم إلى زمرة المعجبات . وبعد بضعة أيام قابلته مرة ثانية ، فوجدته هادئاً خجولاً ، وتبادلا

الحديث ، فكان أول ما قاله أن أبدى دهشته الشديدة ، من أن تقبل الاتصال بمجتمع كهذا « لا يقوى فرد فيه على مواجهة ضميره أو مناقشته الحساب ! » ولم تمض دقائق معدودات حتى فتح لها قلبه ، وحدثها بآلامه ، وبكراهيته لمثل هذه المجتمعات ، وحبه للهدوء والوحدة . وأعجبها حديثه ، وتبينت فيه شخصاً آخر يختلف تمام الاختلاف عما سمعته من قبل . وانتهى الأمر عند هذا الحد ، وعادت أنابيلا إلى الريف لتستأنف حياتها الساكنة . ولكنها لم تنسه ، فلما كتبت بضع قصائد صغيرة ، أرسلتها إلى كارولين ، وطلبت منها أن تستطلع رأى الشاعر الجميل فيما نظمته . وكانت إجابة بايرون : « إنها فتاة ممتازة ، فمن كان يظن أن مظهرها الهادىء يخفى قوة كهذه ، وتنوعاً فى التفكير ؟ ولكنى لا أريد أن أستزيد من معرفتها ، فهى أسمى من أن تتصل بملك ضال مثلى ، ولو كانت أقل كمالاً مما هى عليه لأعجبتنى أكثر » . وكانت هذه أيضاً هى عقيدة الكثيرين فى أنابيلا .

وعندما اشتد طيش كارولين فى عام ١٨١٤ وتضاعف استهتارها ، فكر بايرون فى أن يتزوج ليضع حداً لعلاقته بها .

وكاشف ليدى ملبورن برغبته فى الزواج من أنابيلا ، وكلفها الاتصال بها وتبليغها الرسالة . ولم يكن طبعاً للحب نصيب فى هذه الفكرة ، فترددت الصديقة بعض التردد لاختلاف الاثنين فى التربية ، والمبادىء ، والأخلاق ، مما لا يبشر بسعادة مقبلة ؛ ولكنها اقتنعت بصدق رغبة بايرون ، فأرسلت إلى ابنة أخيها تكاشفها بالأمر . ولكن أنابيلا حكمت عقلها كعادتها ، ورفضت فى أدب بحجة كاذبة ، وهى أنها متعلقة بشخص آخر . ولما علم بايرون برفضها ، ازداد اهتمامه بها ، لأنه لم يعهد رفضاً من امرأة قبلها . أما هى فقد داخلها سرور عظيم أن استطاعت جذب الشاعر الجميل الذى جنت به نساء انجلترا . وعلى الرغم من رفضها الزواج منه ، ظلت تفكر فيه ، وتتبع حركاته وسكناته ، وتصغى إلى ما يتناقله الناس عنه من أقاويل ، وبذلك فضحت — دون أن تشعر — حبها الخفى له .

وعند ما تهامس الناس بأمر علاقته بأوجستا ، وصلت الهمسات إليها فى الريف ، فاشتد بها الحزن . وأصبح بايرون بعد ذلك محور تفكيرها الدائم ، وساءلت نفسها : أحقاً هو شرير كما يقولون ؟ ولكن قلبها أجابها بغير ذلك . وبعد طول التفكير

ظنت أنابيلا أنها قد اهتدت إلى موطن الداء فيه : فأخطاؤه جميعاً نتيجة سوء تربيته الأولى ، وما شروره إلا قشرة زائفة تخفى تحتها صفات نبيلة طيبة ، لم تجد مجالا للظهور . واقتنعت أخيراً أنه ملك غوى ، وعليها أن تنقذه من غوايته فترد إليه إيمانه بتقواها ، وتشفى جروح قلبه بعطفها ، وتزيل عنه بإخلاصها تلك القشرة التى كوّنتها الأيام الخائبة . ولقد صدقت أنابيلا فى شرحها للداء ، ولكنها لم تتبين أبداً ، أن الإصابة قد استفحلت و بلغت حداً لاعلاج له . و بدافع أملها الخادع بدأت تراسله ، فارتفعت الكلفة بينهما ، وعند ما أطبقت الفضيحة عليه ، وجد الطريق ممهداً ، فتقدم ثانية إليها ، وفى هذه المرة قبلت الزواج منه دون تردد .

وأقبل بايرون على الزواج ، بعقيدة تختلف عن عقيدتها كل الاختلاف : لم يكن يحمل لها حباً ، وظن أنها أيضاً لا تحبه ، ولذلك بنى أملا واسعاً فى حياة طيبة مقبلة . فقلبه فى شغل بأوجستا عن أية امرأة أخرى ، ومن الحكمة إذن ألا يدخل الحب فى زواجه بعد ذلك ، و يكفيه أن تصبح امرأته المستقبلة قائدة له فى الحياة ومرشدة . والمرء لا يستطيع القيادة أو الإرشاد

إذا كبله الحب بقيوده القاسية . وأخطأ فى التقدير كعادته ، فلقد كانت أنابيلا تحبه من أعماق قلبها ، بدليل اهتمامها العظيم بتتبع أخباره ، وندمها على رفضها الأول له ، وقبولها ثانية الزواج فرحة سعيدة .

وأخطأت هى أيضاً : فظنت أنه يحبها ويعبدها ، وعاهدت نفسها على أن تكون ملكه المنقذ ، وأن تخلصه من ضلالته بما لحبها عليه من قوة وسلطان ! وبذلك تؤدى خدمة للمجتمع ، وتستحق عند الله الأجر والثواب . وفى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٨١٥ ربط الاثنان حياتهما بعد أن وقفا أمام المذبح على أرض من الخيال والأوهام .

* * *

لم يعد الزواج على بايرون بالفائدة المادية التى كان ينتظرها : فقد ربط سير رالف لابنته معاشاً سنوياً ، قدره ألف جنيه ، تتسلم منه ثلثمائة لنفقاتها الخاصة ، وينال زوجها الباقى . وقرر أن يسير على هذا النظام حتى تئول إليها الممتلكات بعد وفاته ، ووفاة زوجته . وخرج بايرون من الصفقة صفر اليدين ، فالمبلغ

الجديد لايكفى نفقات حياته الزوجية ، وستبقى ديونه على حالها إن لم تتضخم وتتضاعف .

ولم يعد الزواج أيضاً بالفائدة المعنوية المرجوة : إذ تبين أن عروسه تحبه من أعماق قلبها وقد اختارها على غير هذا الظن ! وسيحول هذا الحب دون أن تكون قائده ومرشده ، فالعقل والقلب لا يسيران أبداً جنباً إلى جنب . وتملكه الغيظ والغضب ، وتحرك شيطان الشر فى قلب أفقدته الأيام رقته وحساسيته ، وانتوى أن يعذب المرأة التى ارتكبت — فى نظره — جريمة فاحشة بحبها له . وما كادت العربة تسير بهما إلى رحلة شهر العسل ، حتى انفجر ضاحكا وقال لها فى سخرية لاذعة :

— « لقد ذهبت ضحية خيالك وأوهامك ! أو تظنين — وأنت على هذا الذكاء — أن فى استطاعة امرأة أن تصلحنى؟ يكفى أن تكونى زوجتى لأكرهك ، ولو كنت زوجة رجل آخر لأعجبتنى أكثر ! »

ثم تمهل قليلا وقال :

— ستعرفين بعد أنك اقترنت بشيطان مريد !

ونزلت أقواله على قلبها الحار نزول الصقيع ، وتحطمت كبرياؤها. وفى ثورة غضبها استدعت خادمتها ، وأمرتها أن تجلس معهما فى العربة ، لتضع حداً لأقواله المهينة .

ومرت أيام شهر العسل فى مرارة قاسية ، وخيم على العروسين حزن واكتئاب ، ورأت من أخلاق زوجها عجباً : تارة يثور فيصب على رأسها جام غضبه ، وتارة أخرى يهدأ فيعطف عليها ويطلب منها الصفح والغفران . وماتكاد تسعد بعطفه لحظة حتى ينقلب وحشاً كاسراً . وفى خلال غضباته يحدثها بأمور جديدة عليها ، فيرتعد قلبها المؤمن الطاهر من مجرد سماعها ، ويرى بعينه الثاقبة مظاهر إيمانها ، فيثور ويحاول أن يحطمه . وفى المساء يجلس معها ساعات طوالا ، يقنعها بوجهة نظره فى الأديان ، ويردد على أسماعها ما تلقاه فى اسكتلندا على يد باترسون وماى جراى .

ولم تكرهه أنابيلا أو تحقد عليه ، فقد كان حبها له أقوى من أن تزعزعه مثل هذه الأشياء ، وظل الملك المنقذ ينتظر الفرصة المناسبة للقيام بواجبه ! ولكن شكاً خطيراً بدأ يعذب قلب هذا الملك .

* * *

بدأت شكوك أنابيلا بعد يومين من زواجها، فقد تسلم بايرون رسالة من أخته أوجستا ، تلقبه فيها بأعز الأحباب ، فقرأه أمامها بصوت مرتفع ، وسألها رأيها فى هذه الكلمات ! و بعد ذلك بأيام وجدها تقرأ كتابا ، يدور موضوعه حول العلاقة المحرمة ، فغضب إلى حد أخافها غضبه وأزعجها . ومع ذلك كان أبداً يدور حول الموضوع و يدافع عنه بحرارة شديدة .

وفى الليل ترى ليدى بايرون أحوالاً عجيبة ، فالهواجس تطارد نومه ، والأرق يلازمه ؛ فينهض من فراشه ، ليتفقد غدارته وخنجره ثم يجول فى البيت وحيداً ، ليعود منهكا إليها عند مطلع الفجر . وجمعت شجاعتها يوماً فسألته عما يقلقه ، فاعترف أنه يكتم سراً دفينا خطيراً ، وسيحدثها به عند ما تضع طفلها الأول . وطبيعى أن تشك أنابيلا ، ولكن حبها ينكر عليها شكوكها ، فتبعدها عن رأسها فى الحال .

و بعد ثلاثة أشهر طويلة قرر الزوجان أن يعودا إلى لندن ، وأبدى بايرون رغبته فى المرور وحده على «سيكس مايل بوتوم» لزيارة أخته أوجستا ، ولكن ليدى بايرون صممت على أن ترافقه و بعد إلحاح قبل أن يأخذها معه كارها .

واستقبلتهما أوجستا فى شىء من البرود والجمود ، وشغل الأخوان بعضهما ببعض عن أنابيلا ، فقضت ليلتها وحيدة شاردة الفكر .

وتكررت القصة كل ليلة ، فحزنت حزناً بليغاً ، وذبل وجهها وفقدت شهوة الطعام ، وجعلت تعد الأيام ، حتى تعود إلى لندن فيزول عن قلبها ذلك الكابوس .

وتملك ليدى بايرون الرعب الشديد ، فانكبت على الكتاب المقدس تقرؤه كل ليلة ، لتعيد آياته هدوء قلبها المفقود .

ومع كل ذلك أحبت الزوجة الطيبة أخت زوجها ، حين غيرت هذه سلوكها بعد اليوم الأول ، وزايلها البرود والجمود ، وعطفت على أنابيلا ، وحمتها من ثورات بايرون وغضباته . وفى كل صباح تجلس المرأتان تتحدثان عن حبيبهما المشترك ، فتمد الأخت الزوجة بالنصح والإرشاد فى أسلوب طعامه وطريقة معاملته ، وعندما انتهت الزيارة كانت ليدى بايرون نهباً لعاطفتين متضاربتين : حبها لأوجستا ، ورعبها من السر الدفين . وضعف جسدها لما تعانيه ، وازداد ضعفها بأعراض الحمل التى ظهرت عليها .

* * *

. نزل بايرون وزوجته لندن ، وسكنا فى بيت أنيق فى شارع بيكاديللى يبلغ إيجاره سبعمائة جنيه سنوياً ، وهو كل ما أصابه من صفقة الزواج . وتطلبت الحياة الجديدة نفقات كثيرة ، فازدادت ديونه ، ولم يعد إيراد ممتلكاته يكفى أرباح هذه الديون . واشترى بايرون نصيباً فى مسرح « دروری لین » وبذلك دخل عضواً فى مجلس إدارته . ومهد له المركز الجديد فرصة الاتصال بالممثلات ، فانغمس فى الملاذ مرة أخرى ليهرب من شبح الخطيئة الذى يطارده دائماً . وعند ما يعود من سهراته كل ليلة ويرى وجه أنابيلا يمتلىء بالتقوى ، والصبر ، والحزن يتحرك ضميره من مرقده ، فيثور على نفسه ، ويصب جام غضبه على رأس من تحرك ذلك الضمير فى هدوء وسكون .

وعجبت ليدى بايرون لحالته الشاذة ، ولم تستطع عينها الصائبة أن تفهم حالة الصراع النفسى الذى يعانيه ، وظنت أنه يوشك أن يجن ، فأرسلت تدعو أوجستا لزيارتهما ، والبقاء معهما بعض الوقت ، عسى أن يخفف وجودها حدة أخلاقه ؛ وعارض هو فى الدعوة ، وحاول جهده أن يثنيها عن عزمها فلم يفلح .

وعادت الحياة إلى ما كانت عليه فى «سيكس مايل بوتوم» ففى كل ليلة تصعد أنابيلا وحدها إلى حجرتها ، لتتنصت إلى ضحكات الاثنين وحديثهما . وازدادت كراهيتها لأوجستا، وندمت على دعوتها وقررت أن تتخلص منها . وأخيراً ذهبت الضيفة البغيضة ، وعادت إلى بيتها ، فهدأ قلب ليـدى بايرون بعض الهدوء ، وظنت أن وقت الأحزان قد ذهب ، وعهد الاطمئنان قد حان .

ولكن الأقدار كانت تقف أبداً لبايرون بالمرصاد ففى ذلك العهد وصلت أخبار تحمل هزيمة ناپليون ، وكان الشاعر من أشد المعجبين به ؛ فحزن ، وتحطمت آماله فى سياسة أوربة ، وفقد الأمل فى إمكان وجود جمهورية عادلة تحرر تلك البلاد من قسوة ميترنيخ . و بينما كانت انجلترا ترقص طرباً لنصرها ، كان بايرون ينظم القصائد فى تمجيد البطل المهزوم ووداعه : وعافت نفسه البلاد التى يعيش فيها ، وعاودته الرغبة فى هجرها إلى أقطار الشرق البعيدة . ولعن الزواج الذى يقيده ، و يحرمه حرية السفر والترحال.

وجدّت ارتباكات مالية عدة ، وألح الدائنون فى طلب

أموالهم، ثم حجزوا على أكثر ممتلكاته . وفكر بايرون فى أزمته الشديدة ، فلم يجد إلا أن يحمل أنابيلا أسباب هذه المصائب والنكبات ، وندم على الزواج ، فازدادت قسوته وشراسته . وفى خلال ثوراته يأتى العجيب من الأعمال ، وحدث ذات مرة أن أمسك بساعته الذهبية ، وحطمها على الأرض فى جنون .

وأشرفت ليدى بايرون على الوضع وأحست رغبة شديدة فى أن يلازمها أحد خلال هذه الفترة . وضاق صدرها بالأحزان ، فتمنت لو استطاعت أن تكاشف صديقة أو قريبة بما يؤلمها ؛ فكرت فى أمها ، ثم عادت وخشيت هذه الأم ، فلو عرفت ليدى ميلبانكى بما تعانيه ابنتها لحتمت عليها الانفصال عن زوجها ، وأنابيلا ماتزال تحب بايرون ، وتأمل أن تنقذه فى يوم من الأيام . لم تجد إذن إلا أوجستا فأرسلت تدعوها مرة ثانية ، فلبت الدعوة فى الحال . ودهشت لما عرا أخاها من تغير شديد خلال الأشهر الأخيرة ، و بعد محادثات طويلة اقتنعت المرأتان بأنه مجنون .

وفى اليوم العاشر من شهر ديسمبر عام ١٨١٥ وضعت أنابيلا طفلة جميلة أطلق الأب عليها اسم « أوجستا آدا » . و بعد الوضع

بأسبوعين بلغت الأزمة المالية حداً خطيراً ، فهبط الدائنون على البيت ، وحجزوا على رياشه ، وحددوا للبيع تاريخاً قريباً . وتحت وطأة هذه المصيبة الجديدة أرسل بايرون إلى زوجته فى حجرة نومها ورقة يطلب منها العودة إلى والديها . وجرحت كبرياؤها ، فأجابت برقعة أخرى تقول فيها إنها ستطيع أمره ، وترحل عن بيته ومعها طفلتها حين يسمح لها الطبيب بمغادرة الفراش .

واستدعت الدكتور بيلى لتستطلع رأيه فى حالة زوجها العقلية وصارحته بمخاوفها ، ووصفت له جنون تصرفاته خلال الأشهر الأخيرة . واشتركت أوجستا فى ذلك المؤتمر الصغير ، فطلب الطبيب أن تمهله بعض الوقت ليراقب بايرون عن قرب ، و يبدى رأياً فى جنونه أو عقله . و بعد أسبوع أخذت أنابيلا طفلتها الصغيرة آدا وسافرت إلى قصر والدها فى الريف تنتظر رد الطبيب .

٧

دخلت أنابيلا على والديها ، فلم يعرفاها لشدة ما طرأ عليها من تغير ؛ فوجهها ممتقع ، وعيناها ذابلتان ، وجسدها نحيل ، ومظاهر الشقاء والألم تنبعث من كل كلمة أو حركة منها . ولم يكن من المعقول أن وضع الطفلة قد سبب كل هذا ، ولذلك جلس الوالدان يستوضحان الأمر منها ، ويستجوبانها بأسئلة دقيقة حكيمة . وحاولت أنابيلا أن تخفي الحقيقة عنهما ، ولكن ضعفها وحزنها تغلبا عليها ، فقصت على أسماعهما تفاصيل تصرفاته ، وأخفت شكوكها فيما يتصل بأوجستا . وثار غضب سير رالف وزوجته ، ووجدا في معاملة بايرون لابنتهما سهانة لهما ، ونيلا من كرامة الأسرة ، ولكنها أوضحت لهما فكرة جنونه ، فزايلهما الغضب ، وغفرا له ، واقترحا دعوته إلى الريف ليعالج تحت إشرافهم جميعاً .

وبعد أسابيع قليلة ، وصلت تقارير الأطباء تقول إن بايرون سليم العقل والذهن ، وكل ما يعانيه هو مزاج حاد موروث ، وصفات شريرة متأصلة فيه . وكانت هذه الأخبار صدمة شديدة

لأنابيلا : فلو كان مجنونا لفهمت معنى تصرفاته ومعاملته ، ولعادت إلى بيته لتعنى به وتخدمه . أما أن يكون عاقلا ، فلا مجال لتسامح أو غفران ؛ وفى عاصفة شديدة من البكاء ، قصت على والديها ما سبق أن أخفته ، وصارحتهما بشكوكها فى علاقته بأخته ، وشواهدها على هذه الشكوك . وأمام الحقيقة الخطيرة قرر الوالدان فصل ابنتهما عن زوجها بالقانون ، وأرسلا خطابا لبايرون يطلبان منه الموافقة ، وندب محام للتفاهم معه .

وفوجئ بايرون بهذا الخطاب ، ودهش أن تقرر زوجه فجأة مثل هذا القرار ، بعد أن احتملته طويلا ، وأظهرت له من مظاهر الحب شيئاً كثيراً ، فأى داع جديد يدفعها الآن إلى هجره ، واقتطاعه من حياتها هكذا ؟ ! أهى أخلاقه ؟ ولكنها تعرف أن أخلاقه متأصلة فيه ولا حكم له عليها ، وقد غفرت كثيراً من قبل ! أم هى أوجستا ؟ وارتد عقل بايرون إلى رأسه ، فرأى الحقيقة الواضحة أمامه ، وعرف أن امرأته خير زوجة فى الحياة ، وسيحطمه هجرها إلى الأبد .

وفى الواقع كان بايرون يحب أنابيلا ، ويقدر صفاتها النبيلة وأخلاقها النادرة ؛ ولولا هذا الحب لما تيقظ ضميره وعذبه ،

فاندفع إلى الملاذ فى جنون هربا منه . أما قسوته عليها ووحشيته فى معاملتها فنتيجة صراعه مع نفسه التى امتلأت بالخزى والعار والندم ، أمام تسامح زوجته ، وإيمانها القوى ، وتقواها الخالصة . ولو كان شخص آخر غيره لما أخذ الصراع فى نفسه هذا الشكل المخيف ، ولكن بايرون اختلف عن غيره من الناس ، وتربى بين الآلام والأحزان ، وصدمته الدنيا بويلاتها ، وأورثه أجداده دماء لا تعرف التعقل أو الهدوء ، وأصابته الطبيعة بإحساس مرهف لم يحتمل قسوة الحياة ، نخفت صوته ومات . وكل هذه الظروف تبرر شذوذه ،وقسوته ، وتصرفاته العجيبة ، وتملأ النفس بالحزن عليه والرثاء له .

ولم يجد بايرون إلا أن يلجأ إلى أوجستا ، فكتبت لأنابيلا تبلغها رسالته ، وتطلب منها التعقل ، وتؤكد لها حبه ، وتذكرها بالأيام السعيدة القليلة التى قضتها معه . ولم يجد الخطاب أذناً صاغية ، فاقتحم بايرون نفسه الميدان ، وحاول جهده أن يثنيها عن قرارها ؛ تارة بالاستعطاف ، وتارة بالتهديد ، ولكن أسرة ميلبانكى ، وعلى رأسها أنابيلا ، وقفوا ثابتين ، ولم تزحزحهم هذه المحاولات عن قرار الانفصال .

وتطايرت الإشاعات ، وتهامس الناس بحقيقة دوافع هذا الانفصال ، وتردد اسم أوجستا على كل لسان ، وأنذر الجو بفضيحة تقترب ، ولكن أسرة ميلبانكى أظهرت نبلا عظيما : فلم يتحدث أفرادها بشىء ، وطلبوا الانفصال بدعوى القسوة فى المعاملة فقط . وظن بايرون أنه فى مأمن ، فرفض الموافقة على الانفصال ، فكتبت أنابيلا تقريراً سريا عن الأسباب الحقيقية التى تدفعها إلى هذه الخطوة الحكيمة ، وأعطته محاميها ، ليعرضه على الزوج ، وهددت بتقديمه إلى المحكمة إذا صمم على الرفض . وكانت نتيجة التقرير أن تخاذل بايرون ، ووافق فى الحال . ولم يعرف الناس ما فى هذه الوثيقة من أمور أو اتهامات ، وبقيت محتوياتها سراً غامضاً حتى أعلنه حفيد بايرون بعد وفاة الشاعر بأربعين عاما أو أكثر .

وعلى الرغم من احتياط آل ميلبانكى وتكتمهم الشديد ، تطايرت الأقوال ، وضج المجتمع غاضباً ثائراً ، وجرفت الفضيحة ما اعترض طريقها ، وساهمت كارولين لامب فى إشعال النيران بترديد تصريحاته السابقة عن العلائق المحرمة ، وبإعلان الخطابات التى أشار فيها إلى الموضوع . وبدأ نجمه فى الأفول سريعاً ،

وهرب الناس منه ، وأغلقت أبواب الدور فى وجهه ، وامتنعت الطبقة الراقية عن دعوته إلى حفلاتها ، أو مصافحته فى الطرقات . وأرادت ليدى چيرسى أن تنقذه ، وتقف أمام تيار الرأى العام ، فأقامت حفلة كبيرة ودعت بايرون وأوجستا إليها ، فما كاد الأخوان يدخلان البهو ، حتى انصرف جميع المدعوين ، فدخل حجرة أخرى ، فزايلها الناس فى الحال . واضطر معبود الجماهير السابق أن ينتحى ركناً بعيداً يرقب منه ثورة هذه الجماهير عليه فى غضب ومهانة ؛ ووقف فى هذا المكان يعقد ذراعيه على صدره كتمثال جميل للرعب والخطيئة . وخرج من هذه المحنة بقسوة جديدة ، وجمود مضاعف ، وامحى كل أثر فى نفسه لنبل أوطيبة أو إحساس .

عند ماعاد بايرون إلى بيته ، وتهالك على مقعده ، واستعرض حياته إلى هذه اللحظة ، ورأى كيف ارتفع منذ سنوات فجأة إلى سماء الشهرة والعظمة والعبادة ، وكيف سقط فى لحظة من عليائه إلى هاوية العار والمهانة ؛ قرر أن يرد الإساءة إلى المجتمع مضاعفة ، فما دام الناس قد حكموا عليه بالشر ، فليلعب دور الشيطان كما يريدون ، ويذيقهم كأس المرارة كما يتذوقه الآن .

وثار غضبه البايرونى ، فأخرجه عن حدود الحكمة والعقل ، وأكب على أوراقه يكتب مقالا فى تمجيد نابليون ، والتنديد بسياسة البلاد ، ونظم القصائد فى مديح عدو انجلترا . ونشرت إحدى الجرائد مقاله ، بحجة رغبتها فى إطلاع القراء على رأى سياسى لنبيل انجليزى ، وبظهور المقال أصبح بايرون خائناً لوطنه عدواً لبلاده !

ولكن المجتمع لا يهزم بسهولة كما ظن بايرون ، فقد تضاعف غضب الناس ، وتجمعوا فى طريقه إلى مجلس اللوردات ، وأمطروه وابلا من الشتائم والسباب . وفى المجلس رفض الأعضاء مصافحته ، أو تبادل الحديث معه ، وعند الباب انتظرت النساء ليبصقن فى وجهه . وانتهز الدائنون هذه الفرصة ، فتعجلوا الحجز وباعوا أثاث بيته فى مزاد علنى ، وتلفت بايرون حوله فوجد نفسه وحيداً فى بيت خال من الأصدقاء والرياش . وجد نفسه وحيداً فى بلد يموج بالملايين ، فانتوى الرحيل ، وعقد العزم على هجر المجتمع الذى نبذه نبذاً لم يذكر التاريخ له مثيلا من قبل .

***

أعد بايرون معدات الرحيل ، وقبل سفره بأسبوع ، اندفع

إلى مغامرة غرامية جديدة بقيت آثارها بعد ذلك سنوات : ففى العهد الأخير دأبت سيدة مجهولة على مراسلته ، وفى بادىء الأمر لم تكتب اسمها فى رسائلها ، وبالتدريج كشفت له عن شخصيتها ، وعن حبها العميق الذى تكنه له . وطاردته هذه السيدة ، وهى كلير كلير مونت ، فى كل مكان ، واقتحمت عليه بيته مرات عدة ، فطردها الخدم شر طردة . وأخيراً أرسلت إليه تقترح أن يسافرا إلى الريف ، ويقضى معها ليلة قبل رحيله . وكان بايرون إذ ذاك وحيداً تعساً شقياً ، ولذلك خضع لاقتراحها ، وسافر مع كلير كلير مونت إلى الريف ، وقضى الليلة التى تطلبها . وعافتها نفسه بعد ذلك ، فقطع صلته بها ، وساعده على تصرفه أنه لم يكن يحبها ، أو يعجب بها ، وكل ما فى الأمر أنه استجاب ، أمام تهالكها عليه رغبة فى أن يجد بعض العزاء والسلوى .

وفى اليوم السابق لسفره جلس بايرون وحيداً فى بيته ، فتحركت الأفكار فى رأسه والآلام فى قلبه : تذكر الماضى بحلاوته : والحاضر بمرارته . تذكر أنابيلا ، وقد حرم عطفها إلى الأبد ، وابنته آدا التى لم يرها إلا أياما قليلة . وانهار الجبار تحت

وطأة أحزانه ، فاستسلم للبكاء ، وتناول ورقا وقلماً ، وراح يودع زوجته بقصيدة رائعة مطلعها :

« وداعاً . . . إلى الأبد . . . وداعاً . . . . »

« هذا قلبي طوع أمرك ، وإن رفضت الصفح عنى ، »

« فقد كشفت صدرى لعينك ، فرأيت ما يحويه ، »

« وعليه نام رأسك ، وأقفل النعاس عينك ، »

« فبربك كيف أمكن هكذا أن تطعنيه ؟؟! . »

وعند ما أخذ صديقه مور أصول هذه القطعة ، وجد أن الدموع قد طمست معظم الكلمات . .

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨١٦ خرج طريد المجتمع من بيته عند بزوغ الفجر ، ليهجر وطنه إلى الأبد . وفى هذا الوقت المبكر تجمع الناس أمام منزله ليروا معبودهم السابق ، وهو يغادر البلاد ذليلا محطما ، وبين بسماتهم الساخرة ، وشتائمهم القاسية ، ابتعدت العربة بالشاعر الجميل فى رفقة طبيبه « پوليدورى » وخادمه الأمين « فلتشر » . واضطر بايرون أن يسلك فى سفره طريقا طويلا ، فقد رفض الفرنسيون أن يسمحوا له بالمرور فى أراضيهم لآرائه النابليونية ، فاتجه أولاً

إلى دوفر ، ومنها إلى سويسرا عن طريق بلچيكا .

وكان خبر رحيله قد سبقه إلى دوفر ، فاحتشدت الطرقات بالجماهير ، وتخفت السيدات فى زى الخادمات ، ووقفن على باب الفندق ينتظرن انصرافه ، وبين هذه المظاهرات العجيبة سار بايرون إلى السفينة ، رافع الرأس ، شامخ الأنف ، ولكن عند ما تحركت به ، وبدأت أرض الوطن تبتعد ، اغرورقت عيناه بالدموع .

٨

ما كادت انجلترا تختفى عن أنظار بايرون ، حتى تغلب على ضعفه ، وكبت دموعه ، وعادت الابتسامة إلى شفتيه ، ولكنها ابتسامة حزينة تخفى ما يعتمل فى صدره من آلام وأحزان . وحالت الكبرياء دون أن يستسلم للضعف أمام من معه ، فضاق قلبه بما فيه ، ولم يجد وسيلة للخلاص إلا الشعر . واختمرت فى رأسه فكرة الجزء الثانى من « الطفل هارولد » ، فأكب على أوراقه يصف ذلك العهد الجديد ، ويشرح حالته النفسية فى

أبيات رائعة حزينة ، وبدأ القصيدة بمناجاة ابنته آدا ، واختتمها بوداعها .

وفى مدينة بروكسل زار ميدان القتال حيث انهزم بطله نابليون فى معركة ووترلو . وقف وحيدا فى الميدان ينظر و يتأمل، و ينعى بطلا ارتفع ثم سقط مثله ، و إن اختلفت طريقة السقوط .

وجال الشاعر شهراً فى بلاد أوربة ، ثم اتجه إلى سويسرا ، ووصل إلى جنيف فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو . وما كاد بايرون يدخل الفندق حتى وجد أن كلير كليرمونت قد سبقته إليه فى رفقة الشاعر الانجليزى « شيلى » وزوجته .

وعقدت الصداقة أواصرها بين الرجلين ، فكلاهما شاعر عظيم قفز ببلاده إلى عهد أدبى جديد ، وكلاهما رفع راية العصيان على تقاليد مجتمعه ، فكان نصيبه النفى والتشريد . وسارت الحياة هادئة فى جنيف : ففى الصباح يسبحان معا فى البحيرة ، أو يجولان فى الجبال . وفى المساء يتناقشان فى السياسة أو يتحدثان فى الشعر والأدب .

وكان شيلى يشبه بايرون فى ميوله السياسية : فهو يحب نابليون ، و يقدس ذكراه ، و يعتقد أن معركة ووترلو قد ذهبت

بكل أمل فى تحرير أوربة من ربقة الاستعباد؛ ولكنه كان يختلف عنه فى الأخلاق والإيمان : فهو هادىء الطبع ، حلو الأخلاق ، رقيق المعاملة ، يدخل السلام فى قلوب سامعيه بصوته الخافت ، وحكمه البليغة ، وإيمانه القوى الراسخ .

ووجد بايرون فى هذا الصديق الذى يشبهه ، ويختلف عنه سحراً عميقاً ، فتأثر به إلى حد بعيد ، وبفضله زال تشككه مؤقتا ، واختفت الأشباح التى تطارده ، وأحب الطبيعة الساكنة الهادئة ، فوصفها فى شعره وصفا رقيقا وديعا ، يختلف كل الاختلاف عن أسلوبه الثائر السابق .

وفى ذات يوم زار الشاعران قصر « شييون » الأثرى ، فأوحت الزيارة لبايرون بقصيدة جديدة هى « سجين شيبون » . وفى هذه القصيدة يتحدث السجين عن نفسه وإخوته الذين سجنوا معه فى القصر الموحش الرهيب ، ويموت الإخوة واحداً إثر واحد ، ولا يبقى إلا هو . وبعد جهد كبير يحطم الأغلال عن معصميه ، ويصعد إلى نافذة سجنه ليلقى نظرة إلى العالم الخارجى ، فيرى أمامه جبال سويسرا الشامخة :

« نظرت إليها فوجدتها كما كانت، ولم تغيرها الأيام كما غيرتنى: »

« فالثلوج الأزلية تحوط قممها ، ومن تحتها تهتز البحيرة فى رقة ، »
« ويجرى الرون فى قوة وفتوة . وسمعت السيول وهى تقفز غاضبة ، »
« لترتطم بالصخور والشجيرات . ومن بعيد وقفت المدينة »
« بأسوارها البيضاء وقلاعها الناصعة . »
« رأيت أيضا جزيرة صغيرة خضراء »
« لا تزيد مساحتها عن أرض سجنى ، »
« وخيل إلى أنها تبسم لى مرحبة ، »
« وأنا أطل عليها من نافذة قبوى . »
« وفى وسط الجزيرة قامت ثلاث شجرات طويلة ، »
« تنمو عليها زهور جميلة ذات عبير قوى ، »
« وتجرى تحتها مياه جدول رقراق ، »
« وبين آونة وأخرى يداعب النسيم أغصانها ، »
« فتتمايل فى تيه ودلال . »

وهذه القصيدة الطبيعية الهادئة تدل على تأثير صحبة شيلى فى شاعرنا الثائر .

وتجددت علاقته بكاير كليرمونت التى لم يكن قد رآها إلا مرة واحدة قبل سفره من انجلترا ، وكأن الأحزان لم ترقق

قلبه نحو النساء ، فسامها عذاب الاحتقار والإهانة ، ولم ينس أبداً أنها اقتحمت عزلته ، وفرضت نفسها عليه ، وارتمت بين ذراعيه دون حياء أو خجل ، وعند ما علم أنها تنتظر مولوداً منه زاد احتقاره لها ، ولكنه انتوى أن يربى الطفل ليؤنس وحشته ، و يبدد وحدته ، ثم يتخذه أداة لتعذيب المرأة المستهترة .

و بعد ثلاثة أشهر سافر آل شيلى ، فتألم بايرون لفراقهم ، ولكنه تنفس الصعداء عند ما رحلت كلير فى صحبتهم ؛ وكتب إلى أوجستا خطاباً يقول فيه :

« لا تؤنبينى ، أيتها العزيزة ، فماذا كان باستطاعتى أن أفعل ؟ امرأة طائشة تصر على ملاحقتى ، بالرغم من قسوتى عليها ! ! لقد بذلت جهداً عظيما ، حتى أقنعتها بالبعد عنى ، والعودة إلى وطنها ، وثقى أنه لم يكن فى مقدورى أن أتخلص منها أو أتجنبها إذ لا أحبها ، وليس بقلبى متسع لحب جديد ، ولكنى لم أستطع أن ألعب دور الفيلسوف مع امرأة قطعت ثمانمائة ميل لتجردنى من فلسفتى . »

* * *

عند ما سافر شيلى ، أحس بايرون للمرة الأولى بقسوة الوحدة

ووطأة النفى ، وعادت أشباح الماضى تطارده : تذكر أنابيلا التى حطمته بقسوتها ، وآدا الصغيرة وقد حرمت رعايته ، ثم أوجستا وهى فى معزل عن الناس ، تبكى عارها وخطيئتها . واشتد به الحنين إليها ، فنظم لها قصيدة حارة يقول فى مطلعها :

« وإن ذهبت أيام المجد ، وأفل نجم الحظ ، »
« فقد أبت عينك أن ترى زلات أخ عزيز . »
« ومع أن الأحزان شملتك ، والآلام غمرتك ، »
« فقد أبى قلبك إلا أن يشركنى فى حبه العظيم »

وحركت ذكراها ضميره من مرقده ، وبدأ الصراع مرة أخرى ، وسيطرت العلاقة المحرمة على ذهنه وأفكاره ، فعمد إلى الشعر ، ليخفف أحزانه ، ونظم قصة جديدة عنوانها « مانفريد » . وفى هذه القصة وصف شامل لحياة المؤلف وصراعه وخطيئته : فمانفريد أمير من أمراء الألب نال ثقافة عظيمة ، ولكنه اتصل « باستارتى » ، فظلت الخطيئة الكبرى تعذبه ، فيتعلم فنون السحر ، ويستحضر الأرواح ، لعلها تمنحه التوبة والغفران . وعند ما يصف « أستارتى » للساحر نجد أن المؤلف يصف أخته تماما :

مانفريد : « كانت تشبهنى فى عينيها ، وشعرها ، »
« وتقاسيمها ، ونغمات صوتها ؛ »
« ولكن فى دعة وهدوء وجمال ؛ »
« لها وحدة أفكارى وآرائى »
« ورغبتى فى تذوق المعرفة الخفية ، »
« ولكنها تفوقنى رقة : تعرف الشفقة ، »
« والابتسام، والدموع التى لم أسكبها إلا من أجلها . »
« كان لها أخطائى، أما فضائلها فلم أشاركها فيها ... »
« لقد أحببتها وحطمتها ! ! »

الساحر : « أحطمتها بيدك ؟ »

مانفريد : « لا . . . بل قلبى الذى حطم قلبها . »

وقبل أن ينتهى من هذه القصة حل الشتاء ، وهبط السائحون الإنجليز على سويسرا ، واتجهت إليه العيون فى جمود وسُخرية واحتقار ، فعقد العزم على الرحيل ، وسافر فى شهر نوفمبر إلى البندقية « مدينة القلب السحرية » كما يقول .

* * *

وصل الشاعر إلى البندقية فى نوفمبر عام ١٨١٦ ، فاستأجر

بيتاً جميلاً ، وحط الرحال فيه . وهدأت نفسه بعض الشىء ، وامتلأ قلبه بالسرور لوجوده فى مدينة أحلامه ؛ وظن أن الأفكار التى طاردته فى سويسرا ستنتهى ببدء هذا العهد الجديد. ومضت الأيام الأولى كما يشتهى ، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه وعرف أنه لا سبيل للهرب من نفسه ؛ فهى تتبعه أينما ذهب .ومن أجل أن ينسى ، أقبل على كتابة الشعر ، فأتم قصيدة «مانفريد».

وعند ما فرغ منها اشتد حنينه إلى بلاده ، وازدادت رغبته فى تذوق المجد والسعادة التى عرفها هناك ، فكتب الخطابات إلى أصدقائه فى انجلترا ، ولكن البعد كان قد أنساهم معبودهم القديم ، فأبطأوا فى الرد . وثار غضبه على قلبه الذى ما زال يتعلق ببلاد نبذته ، و بأصدقاء نسوه ، فأرسل إلى ناشره « مرى » خطاباً يقول فيه :

« — منذ شهر مايو لم أتسلم رسالة من انجلترا ، على الرغم من أننى كتبت كثيراً فى قلق ولهفة ، وهذا يكشف لى عن حقيقة من يسمون أنفسهم أصدقائى . وأحمد الله ، أننى كلما غبت أكثر قلّ السبب الذى يدعونى إلى الأسف على الوطن ، أو الحزن على فراق من يعيشون فيه . قل لهوبهاوس : إننى لن

أغفر له أو لأى شخص آخر ، إهماله وقسوته ، بالصمت فى وقت أتمنى فيه أن أسمع من أصدقائى . »

وظل الأصدقاء على صمتهم ، فتضاعفت ثورته ، وأرسل ثانية إلى مرى يقول :

« — أرجو ألا يفكروا فى تحنيطى بعد وفاتى ودفنى فى بلادكم ؛ فلن تجد عظامى الراحة فى قبر انجليزى ، ولا أريد أن يختلط ترابى بأرض هذا البلد . ولو خيل إلى أنه قد يبلغ الانحطاط بأصدقائى أن يفعلوا هذا ، لأصابنى الجنون على فراش الموت ، فلن أقبل حتى أن أطعم ديدانكم بجثتى . »

وهذه الخطابات الغاضبة الشديدة تكشف عما يخفيه صدره من حنين إلى بلاده ، وتعلق بها . وقرر بايرون أن يتغلب على أفكاره ، وازدادت النيران تأججاً واشتعالاً ، وبدأ صراع قوى مخيف بينه وبين قلبه وإحساساته ، وعهد الصراع أخطر عهوده ، ولذلك انغمس فى الملاذ بجنون لا مثيل له ، وأمعن فى الاستهتار والمجون ، وهجر المجتمعات الراقية ، وجمع حوله حثالة الناس . وبعد أن كان مطمح الأنظار من أشراف الإنجليز انتمى إلى فئة تختلف عنهم تماماً ، وخص بالحب امرأتين على قسط عظيم

من الجهل والانحطاط الخلق ، وسره أن يرى حرباً ضروساً تشب بينهما فى سبيل الغلبة والنصر ؛ وامتدت مشاجرات المرأتين إلى الطرقات ، فتفرج أهل البندقية جميعاً بمناظر مخجلة . وخص بالصداقة رجالاً فقدوا مظاهر الرجولة وسيرتها منذ أمد بعيد .

وكان لعهد الانحطاط هذا تأثير على شكله أيضاً : فبدا كأنه فى الأربعين وهو لم يبلغ الثلاثين ، وذبل وجهه ، وتجعد جبينه ، واكتنز جسمه باللحم والشحم ففقد رشاقته القديمة ، وخشن صوته وذهبت نغماته الموسيقية الرخيمة ، وتساقط شعره ، ودب المشيب فى عارضيه ، وارتسمت على فمه صورة الاستهتار والشهوة والمجون . وإنّ تغيّر شكل بايرون إلى هذا الحد من القبح لأكبر دليل على يأسه العظيم ، لأن جماله كان أبداً أهم شىء فى حياته .

ولم يكن بايرون راضياً عن حاله أو أسلوب حياته ؛ بل كان حزيناً متألماً لما وصل إليه ؛ فأغرق أسفه فى كئوس الشراب ، وأقبل على الخمر يغترف منها، ففاق أكبر سكيرى مجتمعه العربيد ، وأصابت الخمر كبده فتورمت ، وسببت له آلاماً لا تطاق ، وجعل يقضى لياليه يتقلب على فراشه متأوهاً ، وحرمه المرض لذة النوم ، فتوترت أعصابه ، وتضاعفت خشونته وقسوته .

وفى خلال هذا العهد وصل الشاعر شيلى إلى البندقية ، ليسلم إليه « أليجرا » الصغيرة ابنته من كلير كليرمونت . وكانت الطفلة تبلغ عاماً واحداً من عمرها ، فتقبلها مسروراً ، وعاشت فى بيته بعض الوقت ، ولكن زوجة القنصل الإنجليزى فى البندقية تألمت للبيئة الخطيرة التى تحوطها ، فضمتها إلى أحضانها .

وشاء الله أن ينقذ بايرون من الانحطاط الذى تمرغ فيه ، فأصابته حمى الملاريا ، وأشرف على الموت ، ولما شفى قرر أن يغير أسلوب حياته ، فطرد خليلتيه ، وقطع صلته بأصدقائه ، وطرق بيوت الأشراف مرة أخرى ، واندمج فى المجتمع الذى يناسب مركزه وثقافته . وقابل يوماً سيدة إيطالية صغيرة ، وهى « تريزا » سليلة آل جامبا ، وزوجة كونت چيسيولى الهرِم ، نخلبت لبه ، واستطاعت أن تروضه ، وتعيد السلام إلى قلبه وذهنه ؛ فلما سافرت بعد ذلك إلى « راڤينا » نفض غبار البندقية عن قدميه ، ولحق بها .

وفى ديسمبر عام ١٨١٩ هجر «مدينة قلبه السحرية» وكتب إلى قنصلها الإنجليزى يقول عنها :

— أكره هذا البلد وكل ما ينتمى إليه !

٩

سافر بايرون إلى « رافينا» ، ليلحق بحبيبته تريزا چيسيولى وبذلك أنقذ نفسه من عهد الانحطاط الذى غرق فيه . وصحب معه ابنته أليجرا ، لتبدد سأمه ، وتؤنس وحشته .

وفى سكون الفندق الأنيق الذى نزل فيه ثاب إليه عقله ، واختلى بنفسه يناقشها الحساب : استعرض الأعوام الأخيرة ، فوجدها ذهبت هباء فى أعمال لا يحبها ولا يشتهيها ، ولكنه يندفع إليها رغبة فى النسيان والسلوى . وتساءل : أيقضى ما تبقى له من العمر هكذا ؟ حقيقة هو يقرض الشعر ، ويقدم لبلاده أدباً رائعاً سيبقى لها ذخراً على مر القرون والأجيال ، ولكن نفسه قلقة حائرة ، لا تجد فيما ينتجه راحة أو سلاماً . وأحس رغبة شديدة فى أن يرضى تلك النفس ، ويشعرها بالحياة ، وأن يثبت للعالم قدرته على جلائل الأعمال ، ويقدم لوطنه صفحة جديدة نبيلة ، تمحو ما سبقها من صفحات سوداء . وتذكر أيام طفولته عند ما كان يحلم بشهرة تختلف عن شهرته الآن ، وبمجد فى عالم الأعمال لا فى عالم البيان .

واهتدى إلى نفسه الحقة أخيراً ، فاستكان قلبه ، وهدأت ثورته ، وظهرت فيه ناحية جديدة طيبة ، وهى ناحية الخيرات والإحسان ، فوقف مالاً على عجائز الإيطاليين وفقرائهم ، وربط معاشاً للملاجىء ودور اليتامى، ومد الأديرة والكنائس بالعطايا الثمينة. وانتشرت أخبار أعماله الخيرية ، فأحبه الناس ، وتجمعوا حوله ، وتطلعوا إليه فى احترام وتبجيل .

وكانت أوربة فى ذلك العهد تعانى أزمة سياسية خطيرة ، عقب الحلف المقدس الذى ذهب بآمال عدة فى الحرية ، فثارت اسپانيا ، وحصلت على دستور طيب لبلادها . وتسربت روح الثورة إلى إيطاليا ، فقام الناس بحركة مماثلة ، ونادوا بسقوط السلطة البابوية ، ونجح أهل ناپولى فى أن ينتزعوا من ملكهم دستوراً عادلاً ؛ وتحركت بولونا ورافينا تبغيان الوصول إلى نفس النتيجة .

ووقف بايرون فرحا يرقب صراع من حوله فى سبيل الحرية ، وانتوى أن يخدم قضيتها ، ويساعد إيطاليا على تحرير نفسها ، وأقسم أن يضحى بكل مرتخص وغالٍ فى سبيل غرضه الأسمى ، وتطلع إلى عمل كبير يشبع نفسه ، ويرضى مبادئه .

وكانت الظروف ممهدة : فالشعب بأجمعه يتأجج وطنية ، والأطفال يهتفون للحرية فى الطرقات ، والأمريكيون يتمرنون علنا على فنون الحرب والقتال ، والأهالى يجمعون الأسلحة والذخيرة ، ويخفونها استعداداً لليوم المنتظر .

وتدخل الشاعر فى سياسة البلاد ، فانضوى تحت لواء حزب الكاربونارى ، وخدمه بحماسة وإيمان ، ومده بالأموال ، فانتخبوه فى راڤينا رئيساً للشعبة الأمريكية من «جماعة إخوان حرية إيطاليا» . ووجد أن إقامته فى الفندق تعرقل تصرفاته ، وتضعه تحت رقابة الحكومة ؛ ولذلك عزم على الانتقال ، واستأجر طبقة من قصر جيسيولى ، وحط الرحال فيه . وأصبح الجو الجديد الذى يحوطه لا يناسب وجود طفلة صغيرة ، فأرسل أليجرا إلى دير خارج المدينة ، وأمر أن تعمد طبقاً لمبادىء الكاثوليكية ، وتركها هناك فى رعاية الراهبات .

وانقلب مسكنه الجديد إلى مخزن كبير للذخيرة ؛ وأرسل إلى لندن يطلب من أصدقائه أن يمدوه بالأسلحة والبارود ؛ ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت الحجرات بالبنادق والطلقات . وحالت جنسيته الانجليزية بينه وبين تدخل السلطات ، فوقف

أولو الأمر يرقبونه من بعيد فى غيظ وحنق ، وجعلوا يحوكون الدسائس لقتله والتخلص منه ؛ ومع ذلك لم يأبه للخطر الذى يهدده ، ووقف ثابتاً يعمل فى جرأة ، و يمهد للوطنيين سبيل الاجتماع سرا تحت سقفه ، و يمد المتآمرين بالمال .

وترجم البعض ديوان « الطفل هارولد » إلى الإيطالية ، وحفظ الناس ما يتناول بلادهم وتحريرها ، فألهبت الأشعار نيران الوطنية فى قلوبهم، ورددوها صلوات مقدسة تبارك الحركة التى يقومون بها .

ومع هذه البطولة العظيمة ، والأعمال المجيدة ، ظل قلبه وحيداً حزيناً ، ففى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢١ بلغ بايرون الثالثة والثلاثين من عمره ؛ وداخله الحزن فى ذلك اليوم ، فكتب فى يومياته يقول :

« — فى الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل أبلغ الثالثة والثلاثين من عمرى ! ! وهأنذا أذهب الى فراشى ، بقلب مثقل بالحزن لأننى عشت كل هذه الأعوام دون فائدة . . . ساعة القصر تدق الآن منتصف الليل ، وأنا فى الثالثة والثلاثين ! !

ولـكنى لا آسف على ما فعلت قدر أسفى على ما كنت أستطيع أن أفعله . »

ثم تلا ذلك بيتان من الشعر :

« فى طريق الحياة القذر ، تعثرت إلى الثالثة والثلاثين ، »
« ترى ماذا تركته لى كل هذه الأعوام ؟ ؟ »
« لا شىء غـــــير ثلاثة وثلاثين ! ! »

ولـكنه لم يترك لأحزانه سبيلا تظهر به على وجهه ، وأخفاها حذراً بين طيات قلبه ، وظلت الابتسامة على شفتيه ، تبعث الثقة فى نفوس المجاهدين ، وتشجعهم على مواجهـة الخطر ، وتعلمهم التضحية فى سبيل التحرير .

وأبى الحظ أن يترك بايرون فى سعادته ، فتدخل — وتلك عادته — ليحطم آماله وأحلامه : ففى شهر مارس من ذلك العام هجمت القوات النمساوية ، وقمعت الحركة الإيطالية ، وسحب ملك نابولى الدستور الذى سبق أن منحه لشعبه ، وتفرقت الجمعيات الوطنية ، وتخلى أهل رافينا عن جهادهم ، وقبض الحرس البابوى على المتآمرين ، فخرج الشاعر من ميدان الأمانى مخذولا ، فانتوى أن يهجر رافينا إلى الأبد .

لم يسكت بايرون عن قرض الشعر خلال المرحلة المفعمة بالمخاطر والأعمال ، فنظم فى ذلك العهد قصة « دون چوان » التى تختلف كل الاختلاف عن الأسطورة الأسبانية القديمة . ورسم فيها صورة واسعة لحياته ورحلاته و إحساساته ، وفى نفس الوقت هجا حياة الانجليز إذ ذاك ، ونقد الطبقة الحاكمة .

وفى « دون چوان » تتغير فلسفته القديمة فى الحياة ، نتيجة إقباله على قراءة ڤولتير ، وتشبعه بمبادئه ، ويزول عهد بايرون الحزين الغامض ، وتسود شعره السخرية المستترة وراء قناع كثيف من النقد المرير .

ولم يكتف بهذه القصيدة . بل كتب قصصاً أخرى مستقاة من الإنجيل ، ولكنها مصبوغة بصبغته ، ومحورة وفق أفكاره و إحساساته . وأهم هذه القصص « قابيل » التى وضع فيها احتجاجه الحار على الأقدار ، وخلق الرذيلة فى الإنسان . وتبدأ القصة بعد طرد آدم من الجنة ، حيث يعيش مع أولاده الذين يعبدون الله جميعاً ، ولكن قابيل يأبى أن يشاركهم فى عبادتهم غاضباً على من قدر الخطيئة على أبيه ، وينكر أن يقاسى عقاب

جريمة لم يقترفها . وعلى لسان هذا الثائر يضع المؤلف احتجاجه الشخصى ، ويفسر شكوك نفسه ، ويفصح عن غضبه على الأقدار والناس :

قابيل : « أهذه هي الحياة ؟ أعمل وأكدّ دون أمل ؟ »
« أأشقى لأن أبى لم يحتفظ بمكانه فى الجنة ؟ ولكن »
« ما ذنبي ؟ لم أكن ولدت عند ما فعل ذلك ، ولست »
« أحب العالم الذى أعيش فيه . ولماذا استسلم للحية ، »
« وخُدع بالمرأة ؟ وما دام قد استسلم ، فأى خير يرجى »
« من تعذيبه ؟ لقد غُرست الشجرة ، فلماذا لا تكون له ؟ »
« وإن لم تكن له ، فلماذا وضع بجوارها ، وقد ظهرت »
« لعينيه أبهى وأينع مما حولها ؟ إجابة واحدة لكل هذه »
« الأسئلة : « هذه إرادته ، وهو طيب رحيم ، ومن »
« أدرانى أنه كذلك ؟ ألأنه قوى جبار يكون أيضاً »
« طيباً رحيما ؟ إننى أحكم بالثمار ، وهى مرة المذاق »
« وعلى أن أقتات بها من أجل غلطة سواى . »

وفى مكان آخر من الرواية تظهر « عادة » أخت قابيل

وزوجته ، وفى حوارها مع الشيطان « لوسيفار » يدافع بايرون عن علاقته بأخته :

عادة : « قابيل . . . لا تذهب مع هذا الروح ، واحتمل »
« ما نحتمله ، وأحببنى فأنا أحبك »

لوسيفار: « أتحبينه أكثر من أمك وأبيك ؟ »

عادة : « نعم . . . وهل فى ذلك خطيئة أيضاً ؟ »

لوسيفار: « لا . . . ليس الآن ، ولكنها ستكون »
« خطيئة فى عهد أولادك »

عادة : « ماذا تقول ؟ ! ألن يستطيع ابنى أن »
« يحب أخته أينوح ؟ »

لوسيفار: « سيحبها ، ولكن ليس كما تحبين قابيل »

عادة : « أواه يا إلهى . . . ألا يتحابان ، وينجبان »
« ما يتطلبه الحب منهما ؟ ألم يرضعا من هذا »
« الثدى ؟ أو لم يولد أبوهما من نفس الرحم »
« التى تم بهـا خلقى ، وفى نفس الساعة التى »
« ولدت فيها ؟ ألم نتحاب نحن الاثنين ؟ »

وعندما يقتل قابيل أخاه هابيل ، يأتى الملك ليصمه فيخضع

للعقاب . وهنا يدافع بايرون عن نفسه و يهجم على الأقدار التى حكمت عليه بالخطيئة :

قابيل : « ولدت بعد الطرد بزمن قصير ، ولم يكن عقل »
« أمى من الحية قد هدأ ، ولا حزن أبى على الجنة قد »
« ذهب . أما أنا فما سعيت إلى الحياة أو صنعت نفسى ! »

وعندما ظهرت القصيدة ، وطبعت فى انجلترا حمل النـاس عليها حملة شديدة من الناحية الدينية ، ولكن بايرون قابل الثورة فى شجاعة وتحد كعادته .

* * *

حزن بايرون على إخفاق الثورة الإيطالية ، فقد كان يعقد عليها الآمال ، ويرجو أن تتيح له فرصة إرضاء نفسه القلقة ، وفرصة خدمة مبادئه الحرة . ولم يعد فى راڤينا ما يدعوه إلى البقاء بعد أن تحطمت آماله ، ونفيت أسرة حبيبته تريزا من البلد ، فانتوى الرحيل ، وسمعت كلير كليرمونت أنه وضع ابنتها أليجرا فى الدير ، فغضبت عليه واحتجت ، لما عرف عن راهباته من قسوة وخشونة . وطلبت أن تزورها ، فرفض أن يسمح لها بالزيارة ، فأرسلت من يستطلع حالتها ، فجاءتها الأخبار بما حقق

ظنونها الأولى . وتوالت الخطابات على بايرون ، يطلب فيها شيلي إخراج أليجرا من الدير ، وعند ما علم بقرب رحيله من رافينا ، استحلفه أن يحضرها معه إلى بيزا ، ولكن بايرون لم يرد على الرسائل ، ولم يعرها أقل اهتمام ، فقد حانت الفرصة لتعذيب المرأة التي يكرهها . ونسى أنه بتعذيبه كلير إنما يعذب الصغيرة أضعافا ؛ ولما إلى وصل بيزا كان شيلي في انتظاره ، فوجد أنه قد أحضر معه ثلاث أوزات لتؤنس وحشته ، ولكنه لم يحضر أليجرا الصغيرة !

* * *

لم يشعر بايرون بالسعادة في بيزا ، فهناك جالية انجليزية كبيرة ترقب حركاته وسكناته ، في احتقار وسخرية ؛ وطبيعى أن يتملكه القلق بين أعدائه وكارهيه . وضيقت كلير كليرمونت عليه الخناق عند ما علمت بوصوله وقد ترك ابنتها خلفه ، وتحرك الوحش الذى يكمن في صدر الأم إذ أحست خطراً يتهدد وليدتها ، فكاتبته ثانية بغضب وحنق ، وكالت له الإهانات بغير حساب ، ولما لم تجد أذنا صاغية غيرت أسلوب رسائلها ، وعمدت إلى اللين والاستعطاف ، وجعلت ترجوه في خضوع وذلة أن يسمح لها برؤية ابنتها ! وقالت في رسالة إليه :

— « لا أستطيع مقاومة شعور باطنى يحدثنى بأنى لن أراها ثانية ، فأستعطفك أن تحطم هذا الشعور ، بأن تسمح لى برؤيتها . »

لم يجبها ، ولم يلب رجاءها ، فتدخل شيلى ولكنه لم يوفق إلى إقناعه ؛ وعندما رأى عينى بايرون تشعان بالسرور ، لآلام الأم المسكينة ، كف عن محاولته ، ونصح لكلير بالصمت . وأخيراً وصلت الأخبار بموت أليجرا إثر إصابتها بحمى خطيرة انتشرت أخيراً فى الدير .

وحزن الشاعر على ابنته ، فلم يكن يظن أن عناده سيقضى على الصغيرة ، وأحس بالندم على قسوته وأراد أن يكفر عن زلته ، فكلف رساماً شهيراً أن يرسم لها صورة كبيرة ، وأمر بتحنيط جثمانها ، وإرساله إلى انجلترا ليدفن فى مقبرة كنيسة هارو . وسأل كلير الموافقة فأبت أن تبدى له رأيا ، وتركته يفعل مايشاء ، وطلبت فقط أن يعطيها خصلة من شعر ابنتها وصورة صغيرة لها ؛ وفى هذه المرة أجاب الطلبين من فوره .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو عام ١٨٢٣ شحنت جثة أليجرا ، وأرسلت فى سفينة إلى إنجلترا ، ولكنها

لم تدفن فى المكان الذى اختاره لها ؛ لأن ولاة الأمور رفضوا أن تضم أرجاء المقبرة رفات طفلة غير شرعية ، وانتهى الأمر بأن حفر لها قبر صغير خارج حدود المكان ، ودفنت فيه دون ضريح أو شاهد يحمل اسمها ، ولكن الطبيعة عطفت على أليجرا فنمت بجوار قبرها شجرة جميلة ما زالت قائمة إلى اليوم ، تشير إلى مثواها المجهول .

وعاقب الله بايرون فحرمه رؤية ابنته الشرعية آدا التى كان يفخر بها ، ويناجيها فى أشعاره ، إذ نشأت وترعرعت دون أن تسمع باسم والدها إجابة لرغبات أسرة أمها !

وانتهت أيام پيزا بكارثة فادحة هى وفاة شيلى غرقاً ، وبذلك فقد شاعرنا آخر صديق له . وعندما أحرقت الجثة تنفيذا لوصية الراحل ، طلب بايرون أن يعطى الجمجمة ليحتفظ بها تذكارا لصديقه ، ولكن زوجة الميت وأصدقاءه رفضوا إجابة هذا الطلب لأنه سبق أن جلب من اليونان جمجمة استعملها قدحاً للخمر فيما بعد ، وخشوا أن يحل برأس شيلى ما حل بسابقه !

***

نزل بايرون بمدينة چنوا فى شهر سبتمبر عام ١٨٢٢ ، وعاش

فيها زهاء عام ، وفى خلال هذه المدة بلغ حنينه إلى وطنه أقصاه ، وتحرق شوقاً إلى رؤية بلاده وأسرته ، وتمنى لو استطاع العودة إلى زوجته وابنته ؛ فلما لم تتحقق رغائبه سئم الحياة فى إيطاليا ، وفكر فى هجرها إلى وطن جديد . واتجهت أنظاره ثانية إلى اليونان التى تحارب فى سبيل استقلالها ، وعاودته الرغبة فى مساعدة هذه البلاد العزيزة ، وأراد أن يخدم قضية الحرية من جديد .

وكانت اليونان إذ ذاك فى حرب طاحنة مع مستعمريها الأتراك ، وعلى الرغم من ضعف اليونانيين وقلة استعدادهم ، توالت انتصاراتهم على أعدائهم الأقوياء ، مما يبشر بالفوز والنجاح . ولكن الحالة السياسية انقلبت فجأة إلى فوضى خطيرة . فلم يكن هناك قائد ممتاز ، يستطيع أن يجمع شمل الجيوش ، ويوجهها توجيها صحيحاً ، ولم يكن هناك حزب سياسى يعمل فى سبيل المصلحة الوطنية فقط . ولجأ اليونانيون إلى انجلترا ، ينشدون مساعدتها فى محنتهم ، فسافر مندوب منهم إلى لندن ، ليدافع عن قضية بلاده ، فتشكلت لجنة انجليزية لتساعده فى مهمته .

وانتوى بايرون أن يلبى نداء الحرية ، وأعلن حربها أولا

بقلمه ، فأضاف إلى « دون چوان » فصلا جديدا يذهب فيه البطل إلى حصن إسماعيل ، خلال الحملة التركية الروسية ، فيكشف عن حقارة حياة القوادِ الذين يتخذون التقتيل مهنة دائمة ، ويسخر من الرجال الذين يحاربون فقط ، من أجل الأوسمة والشهرة .

وكانت سخرية بايرون لاذعة مريرة ؛ تردد صداها فى جميع أنحاء أوربة ، وكانت القصيدة برداً وسلاما على قلوب الملايين من الرجال الذين قاتلوا وعذبوا من أجل أنانية رؤسائهم ؛ وترجمت القطعة إلى كل اللغات ، وحفظها الناس فى مختلف البلاد ؛ واقتطف أصدقاء اليونان من « الطفل هارولد » الفقرات التى تمجد هذه البلاد ، وطبعوها ونشروها فى كل مكان ، فتهيأت الأذهان لقضيتها ، وتفتحت القلوب لمساعدتها ، وانتشالها من محنتها .

وعقد بايرون عزمه على السفر إلى اليونان ، ليمدها بأمواله ، ويقاتل أعداءها بنفسه ، وكتب مقطوعة يقول فيها :

« لقد استيقظ الموتى ، فهل أنام ؟ »
« وثار العالم على ظالمه ، فهل أخضع ؟ »

« وطاب الزرع ، فهل أتوانى عن الحصاد ؟ »
« لن أتردد ، فالشوكة فى مرقدى ، »
« ونداء الحرب فى أذنى ، وصداها فى قلبى . »

وساعد بايرون على تحقيق عزمه أن كان فى ذلك العهد من الأغنياء ؛ فقد باع ضيعتيه نيوستيد وروشديل بمبالغ طائلة ، ونال عن طريق زوجته نصف الثروة الضخمة التى آلت إليها أخيراً ، وصار إيراده من كتبه سبعة آلاف من الجنيهات كل عام .

وأعد لسفره سفينة ، جهزها بالمؤن والذخيرة ، وصحب معه صديقه بيترو جامبا شقيق تريزا ، وكذلك خادمه فلتشر ، وطبيبه الدكتور برونو ؛ وأبحر الجميع إلى اليونان ، بعد أن أرسل إلى أصدقائه بانجلترا يقول :

« سترون — إذا امتد بى العمر عشر سنوات أخر — أننى لم أنته بعد ... لا أقصد فى الأدب ، فما خلقت لهذا اللون . ولكنكم سترون منى عملا يدهش الفلاسفة فى مختلف العصور ! »

في اليوم السادس عشر من شهر يوليه عام ١٨٢٣ بدأ بايرون رحلته البحرية ، فما تحركت السفينة حتى وقف على ظهرها يرقب اختفاء الشاطىء الأوربى فى بسمة حزينة ، فقد كان قلبه يحدثه أن هذه الرحلة هى آخر رحلاته فى الحياة . وفى خلال الأيام الأخيرة ظل يؤكد لأصدقائه قائلا :

— « لن أعود أبداً من اليونان . »

وتملكه هذا الشعور وهو يرقب ابتعاد الشاطىء ، فنظر إلى بيترو جامبا فى أسى وقال :

— « ترى أين أكون فى مثل هذا اليوم من العام القادم؟ »

وقد وجد فى مذكرات بيترو :

— « فى نفس اليوم ، ونفس الشهر من العام التالى ، حملناه إلى مقبرة أجداده ! »

***

وعلى ظهر السفينة تغيرت أخلاق بايرون تماما : كان أبداً فرحاً مسروراً ، لا يغضب ولا يثور ؛ يعطف على الكل ، ويعنى

بمن معه ، ويواسى الحزين ويخدم المريض . وانتشر روحه الهادىء الجميل فى أنحاء السفينة ، فملأ قلوب من عليها بالشجاعة والتفاؤل ، والأمل . وقرر أن يقطع كل صلة له بالنساء ، فلقد كنّ أبداً سبب سقوطه ونكباته ، وحلن دائماً بينه و بين الحياة التى يتمناها . وقرر أيضاً ألا يكتب شعراً ، ليثبت للعالم قدرته على الأعمال لا الكلمات ؛ وانتوى أن يلعب دورا فى عالم البطولة والتضحية ، يرفع اسمه إلى سماء المجد والفخار ؛ ومن يدرى ؟ لعل أنابيلا تعطف إذ ذاك ، وتقبل العودة إليه ، فيعيش ما تبقى من العمر بين أسرته وفى بلاده .

ومن أجل أن يفيد قضية اليونان ، حمل معه عشرة آلاف دولار اسبانى ، وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات الإنجليزية ، وصكوكا تضع تحت إمرته أربعين ألفاً أخرى . وكرس كل هذا المال ، لخدمة الحرية واستعادة استقلال اليونان .

وفى اليوم الثانى من شهر أغسطس لاح شاطىء سيفالونيا ، فأشار إليه قائلا :

— «لست أدرى لماذا أشعر الآن ، أن السنوات الاثنتى عشرة التى مضت منذ زيارتى هذه البلاد قد انزاح حملها من فوق كتفى» .

كانت قصائد بايرون عن اليونان وحريتها ، قد سبقته إليها ، وانتشر خبر قدومه لمعاونتها ، فاحتشدت الجماهير فى ميناء أرجوستولى ، لاستقبال البطل . ونزل الشاعر من السفينة ، فرأى جموعاً زاخرة ، من النساء والرجال والأطفال يهتفون باسمه ، ويحيونه فى حماسة وحمية ؛ فوقف فى مكانه لا يقوى على الحركة واغرورقت عيناه بالدموع ، فما عرف التمجيد والاحترام منذ زمن بعيد !

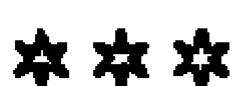
وعقب نزوله وصلته رسالة من « ماركو بوزاريس » قائد جبهة « أناتوكيلون » ، يناشده الإسراع إلى مساعدته ، لوقف تقدم الأتراك . ولكن لم تمض ساعات قلائل ، حتى جاءت الأخبار باستشهاد الزعيم فى ساحة القتال ؛ وطلبت منه الحكومة اليونانية أن يتمهل ، ولا ينضم إلى فريق معين حتى تصله إرشادات جديدة ؛ ولذلك استأجر بيتاً فى ميتاكساسا ، وعاش فيه مع صديقه بيترو ، وطبيبه برونو ، وخادمه فلتشر ، ينتظرون وصول الإرشادات .

وجاءت الأوامر بسفره إلى « ميسولونجى » فركب فى السفينة مرة ثانية ، وأبحر إليها ، فوصلها فى اليوم الخامس من شهر يناير

عام ١٨٢٤ ، بعد أن استهدف لعاصفة هوجاء ، واشتبك مع الأتراك فى قتال .

وفى ميسولونجى استقبله الناس بحفاوة لا مثيل لها ، واصطفت الجيوش لتقدم له تحية عسكرية ، واحتشدت الجماهير تهتف باسمه ، وتواثبت القلوب فرحة بقدومه ، وأشرقت الوجوه سعيدة برؤيته .

و بين مظاهر التمجيد والتبجيل نزل بايرون إلى المستقبلين فى حلة عسكرية استعارها من أحد الضباط ؛ ووطئت أقدامه البلاد التى مات فيها .



كانت حياة بايرون فى ميسولونجى سلسلة من العذاب النفسى والجسدى ، فسجلت صحيفة تملأ القلوب بالحزن والرثاء : فالبلدة صغيرة رطبة ، لا ترتفع كثيراً عن مستوى البحر ؛ تحيط بها المستنقعات الراكدة ، وتنتابها العواصف والرياح ، وتتساقط فيها أمطار غزيرة تقلب الطرقات إلى بحيرات من الوحول ، وتفوح فى جوها رائحة الأسماك والأملاح ، ويكثر فيها الذباب والبعوض نذر الأمراض والحميات .

وعاش بايرون فى بيت صغير يقع فوق رابية تطل على الشاطىء من بعيد ؛ ولم تكن سبل الراحة تتوافر فى ذلك البيت : فالجدران رقيقة ، والسقف مختل ، والنوافذ أضعف من أن تقاوم الرياح ؛ ومع ذلك لم يحزن أو يتألم ، بل عاش فيه سعيداً راضياً .

وما إن استقر به المقام حتى استعرض موقف اليونان فى ذهنه ، فوجد أموراً عدة لا تبشر بالنجاح : فالفوضى تسود الأحزاب السياسية ، والقواد ضعفاء ، لا نفوذ لهم على الرجال ؛ والمدينة تحتشد بجنود مرتزقة من قبائل السوليوت الهمجية ، ومع ذلك لم تدفع الحكومة أجورهم ، فاشتد بهم الجوع ، وأصبحوا خطراً على البلاد أكثر من الأعداء .

وقرر بايرون أن يعمل فى الحال ، فأرسل إلى انجلترا يطلب مدداً من الحكومة ؛ وجعل السوليوت تحت إمرته الشخصية ، ودفع لهم متأخر مرتباتهم من ماله الخاص ، وتكفل بنفقات جيشه الجديد ، فبلغ ما دفعه فى يوم واحد خمسين ألفاً من الدولارات .

ولم تكن هناك حركات حربية تبعد تفكير السوليوت عن الثورة والمشاغبة ، فرأى أن يمرنهم على القتال وأساليبه ، وبذلك يشغل أذهانهم ، ويجعل منهم جيشاً منظما مفيداً . وكرس

صباحه كل يوم لتعليمهم ، وقام نفسه بتمرينهم تحت الأمطار المتساقطة ، و بين الرياح الغاضبة .

ولكن الحكومة الإنجليزية ترددت فى إرسال ما طلبه من الإمدادات ؛ وانتشرت المجاعة فى ميسولونجى ، فقام بتنظيم توزيع الطعام ، وقلل وجباته الشخصية ليطعم غيره ، وعاش على الماء والخبز المجفف فقط ، وكانت النتيجة أن ضعفت صحته ، ونحل جسده ، وتضاءلت مقاومته ، فانهار كيانه ، وعاودته أمراضه القديمة مما عجل منيته .

وضعفت مالية البلاد فى ذلك العهد ، واحتاجت الحكومة إلى مبالغ إضافية ، لتستطيع مواصلة القتال ضد الأتراك ، فأرسل بايرون يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تمنح اليونان قرضاً كبيراً تساعدها به على التحرر ؛ ولكن انجلترا ترددت أيضاً ، فوهب لليونان نقوده ، لينقذ الجيوش من مأزقها . ولم يكتف بذلك ، بل كتب الرسائل إلى أصدقائه الإنجليز ، ينشد مساعدتهم ، فقاموا – تلبية لرغبته – بحملة صحفية شديدة ، وطبعوا قصائده التى تتناول الحرية اليونانية ، ونشروها فى كل

مكان ، ليهيئوا الرأى العام ، و يضطروا ولاة الأمور أن يوافقوا على القرض والإمدادات .

***

وجد بايرون أن الأتراك يحتلون حصن « ليبانتو » ، فيعرقلون تقدم الجيوش ، ولذلك عزم على مفاجأة الحصن والاستيلاء عليه . وانتوى أن يقود الحملة بنفسه ، ليلهب شجاعة رجاله و يضمن النجاح . وأعد العدة فى حذر ، وأنفق أموالا طائلة ، ولكنه فوجىء فى اللحظة الأخيرة ، بعصيان جيشه ، وثار السوليوت ، يطلبون تسليم مسجون تركى ، ليمثلوا به ، فلما رفض مطلبهم ، اقتحموا عليه بيته ، وهددوه فى حجرته . ووقف بايرون أمامهم ثابتاً ، وتناول غدارته وواجههم فى شدة وصرامة ، فانسحبوا أمامه خائفين . وهكذا انتصر وحيداً على جيش كبير ، ولكن أمله تحطم فى مهاجمة الحصن ، وطرد الأتراك منه .

وحدث بعد ذلك أن حاصر الأتراك ميسولونجى ، وأصبح السبيل الوحيد للخلاص اختراق الحصار بهجوم ليلى ، فتعهد بايرون الحملة ، وأعد العدة ، وقرر لها اليوم السابق لعيد ميلاده ليحيي

هذا العيد بنصر عظيم ، ولـكن الأتراك تخلوا عن المدينة فجأة ، فخبط مشروعه الجديد .

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير أتم الشاعر عامه السادس والثلاثين ، فجلس بين أصدقائه حزيناً كئيباً ، وتناول ورقاً وقلماً ، ونظم القصيدة الوحيدة التى كتبها فى اليونان ، وقال فيها :

« إن كنت تأسف على زوال الشباب فلم تعيش ؟ »
« هاك أرض الموت الشريف النبيـــل ، »
« فإلى ميـــدان الجهاد ، واستشهد فيه »
« وابحث لنفسك عن قبر جندى ، »
« فهـــو لك أشرف القبـــور ؛ »
« وتأمل حولك ، واختر لجسدك مثوى ، »
« وارقـد لتســتريح . »

وفى المساء تضاعف حزنه وتشاؤمه ، فنادى خادمه وسأله أيرغب فى السفر إلى إيطاليا ؟ فأجاب الخادم :

— نعم . . . إذا ذهب مولاى أذهب معه .

فابتسم بايرون فى أسى ، وقال :

— كلا ... لن أعود أبداً من اليونان ، وسيحول الأتراك أو اليونانيون أو الجو دون عودتى !

وكان لا يزال يذكر نبوءة قديمة حدثته بها إحدى المنجمات فى طفولته ، وأكدت له فيها أن العام السابع والثلاثين هو أخطر مراحل حياته !

***

وانتعشت الآمال فى قلبه من جديد عند ما بلغه وصول سفينة إنجليزية تحمل مهندسين وذخيرة ومؤناً . وبدأ المهندسون فى تعليم الرجال شئون السلاح والمدفعية ، ولكن السوليوت ثاروا ثانية ، وقتلوا ضابطاً سويسرياً ، فانتشر الذعر بين المهندسين ، وطلبوا العودة فوراً إلى بلادهم ، فسهل لهم بايرون سبيل الرحيل ، ودفع لهم مرتباتهم ونفقاتهم حتى غادروا البلاد .

وانتشر الطاعون فى المدينة ، ثم حدث زلزال شديد هدم البيوت وقوض المنشآت الحربية ، ومع ذلك سمع بايرون أن الجنود أسروا أربعاً وعشرين امرأة تركية ، وانتووا بيعهن فى أسواق الرقيق ، فخرج بين الطاعون والزلزال ، وأفرج عن الأسيرات ، وأعادهن سالمات إلى بلادهن ، فسجل فى تاريخه

عملا إنسانياً رائعاً يمحو الكثير من زلاته السابقة .

وعلى الرغم من كل هذا ظل بايرون رقيقاً مجاملا : لم تفقده الصدمات شجاعته ، ولم تضعف النكبات أمله فى النصر والحرية وظل كريماً إلى النهاية يبذل ماله بسخاء فى سبيل القضية التى يحارب من أجلها . ولو كان رجل آخر مكانه ، وذاق فى ميسولونجى عذاب الجوع والفشل ، لعاد إلى وطنه ورضى من الغنيمة بالإياب ، ولكن بايرون لم يفعل ذلك ، بل بقى شجاع القلب قوى العزيمة ، يشعل الحماسة بصبره واحتماله ، ويطمئن القلوب بثقته وابتسامه . وبابتعاده عن النساء ظهرت مواطن الحسن فى أخلاقه ، وتعرف الناس حقيقة نفسه وطباعه ، فلقد كانت المرأة أبداً عدواً لدوداً تقلب هذا الملك إلى شيطان مريد .

وفى بعض الأحيان كان الشاعر يضعف تحت وطأة المصائب ، فيأسف على قدومه ؛ وحدث ذات يوم أن تسلم خطاباً من صديقه هوبهاوس يحذره فيه اليونان ، فابتسم بايرون وقال :

— « آه . . . تحذير بعد أوانه . . . كتحذير رجل من امرأته بعد أن يعقد زواجه منها ! »

ولكن مثل هذه اللحظات كانت نادرة وقصيرة ، فيتغلب

عليها و يعود إلى هدوئه وشجاعته ، و يقول لأصدقائه إنه يفضل هذه الحياة وخشونتها وآلامها على حيـــاة لندن ومرحها ونسائها وخمرها :

— « إن الفقر بأساء شديدة ، ولكنه يسمو بكثير على غيره من النظم الفانية التى لا تحوى معنىً أو شعوراً ! »

وعرضت عليه الحكومة اليونانية وظيفة المحافظ العام ، و يقولون إن هذا المركز كان الخطوة الأولى فى سبيل العرش ، وليس هذا بغريب على بطل طموح ، ولكن القدر لم يمهله ليصل إلى هذا أو ذاك .

***

فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير جلس بايرون فى بيته مع جماعة من الأصدقاء ، فأحس بالعطش ، وأخذ بعض النبيذ ليشربه ، ولكن سحنته انقلبت فجأة ، وقام من مقعده ، فلم يستطع المسير ؛ ووقف فى مكانه لحظة ثم تخبط وسقط فاقد النطق . وحضر الطبيب على عجل ، وأسعفه بالعلاج ، فعاد إليه رشده .

وفى اليوم التالى كان ضعيفاً باهت اللون وشكا ألماً برأسه ،

فأحضروا له علقاً يمتص بعض دمائه ، وعند ما أزيح العلق ظلت الدماء تنزف من جبهته ، وعجز الطبيب عن إيقافها إلا بعد جهد كبير .

وبقى المريض فى فراشه لا يغادره ، حتى وصلته أخبار طيبة تقول : إن أصدقاءه فى لندن نجحوا فى حملتهم ، وبمساعدة أشعاره اشتد ضغط الرأى العام ، فقررت الحكومة منح اليونان قرضاً كبيراً . وتملكه سرور شديد ، فزايل فراشه ، وخرج على ظهر جواده ، للرياضة قليلا ، ولكن الأمطار هطلت فجأة ، فعاد إلى بيته محموماً .

واشتد به المرض ، فقرر الأطباء نقله إلى بلد آخر تتوافر فيه وسائل العلاج ؛ وأبت الطبيعة عليه ذلك ، فظلت الأمطار تنهمر والرياح تعصف ، فلم يستطيعوا نقله .

وفى اليوم الخامس عشر من شهر أبريل انحطت قواه ، ومع ذلك لم يفقد الأمل فى الشفاء ولم يطرؤ على ذهنه أن المنية قد حانت . . . لا لأنه كان يخاف الموت أو يخشاه ، بل لأنه كان يتمنى العودة إلى وطنه ، والعيش فيه مع زوجته وابنته .

واقتضت الحالة أن يفصد ، فعارض خشية النزيف ، و بعد إلحاح خضع لرأى الأطباء ، وقال لهم :

— « إنكم قصّابون ، فخذوا ما يكفيكم من دمائى . . . هيا ، انتهوا من هذه المسألة ! » .

وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم التاسع عشر قطع الأطباء كل أمل فى شفائه فجلس فلتشر و بيترو بجواره يبكيان ، فابتسم وقال لهما مداعباً :

— « يا له من منظر جميل ! » .

بيد أنه أحس بدنو الأجل ، فطلب من خادمه فلتشر أن يصغى إلى وصيته ، لينفذها بعد وفاته ؛ ولما حاول الخادم إحضار ورقة وقلم ، منعه بايرون قائلا :

— « كلا بالله عليك . . . سنضيع بذلك وقتاً طو يلا . انتبه ، واستمع لأوامرى . »

وسكت برهة ثم استطرد :

— « طفلتى الصغيرة . . . آدا المسكينة . . . لوكنت رأيتها مرة واحدة ! بلغها دعواتى وبركتى ، وكذلك أختى وأولادها ، واذهب إلى زوجتى ، وأخبرها بكل شىء . »

وخانه الصوت ، فظل يتمتم بحديث طويل استغرق عشرين دقيقة ، ولم يفهم الخادم منه كلمة واحدة ؛ وطلب منه أن يعيد الحديث ، فهتف المريض يائساً :

— « فات الوقت ، وضاع كل شيء . . . أحقاً لم تفهم حديثي ؟ »

— لم أفهمه يا مولاي ، فحاول أن تعيده ثانية .

— « كيف يمكنني؟...فات الوقت... وانتهى كل شيء . »

فقال الخادم حزيناً :

— ما هذه إرادتنا ، بل هي إرادة الله .

إذ ذاك جمع بايرون شجاعته ، وحاول الكلام ثانية دون فائدة ، وكل ما سمعه فلتشر و بيترو كلمات متقطعة :

— « زوجتي . . . ابنتي . . . أختي . . . أخبرهن بكل شيء ، فأنت تعرف رغباتي . »

واشتدت آلام رأسه ، فأزاحوا له الرباط عنه ، وأحس المريض بالراحة ، فأجهش بالبكاء ، وقال له بيترو :

— ستتحسن حالتك الآن ، ياسيدي اللورد . . . اذرف من الدمع ما استطعت ، فستشعر بالراحة وتنام .

أجاب بايرون فى ضعف :

— لست أخشى الموت ، ولكن لماذا لم أذهب إلى انجلترا قبل حضورى إلى هذه البلاد ؟

وعاوده الهدوء ، وألقى على من حوله التحية ، وطلب أن ينام ، وأسلم الروح فى منتصف السابعة .

***

كانت العاصفة تهب فى هوج ، والأمطار تتساقط فى سيول ، والطرقات تمتلئ بالوحول ، ومع ذلك تجمع الناس ، ينتظرون أنباء بطلهم المحبوب ؛ وما ذاع نعيه حتى هلعت قلوبهم ، وأجهشوا بالبكاء ، وهتف الكل قائلين :

— « مات الرجل العظيم »

وعند الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل ، وأغلقت الحكومة دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات فى جميع أنحاء اليونان وأقامت الكنائس صلوات على روحه .

***

وفى اليوم الأول من شهر يوليه عام ١٨٢٤ وصلت إلى انجلترا السفينة « فلوريدا » ، وهى تحمل جثمان الشاعر الطريد ،

ولم يكن فى استقبالها إلا أخته أوجستا و بعض الأصدقاء .
وطلبت الأخت أن تودعه ، ففتح الصندوق ، ولكن وجهه كان قد تغير كثيراً بفعل التحنيط ، فلم تعرفه .

وأرادوا أن يدفنوه فى كنيسة وستمنستر ، ولكن الأساقفة رفضوا إجابة الطلب ، بل رفض القساوسة جميعاً الصلاة عليه ؛ فتقرر أن يدفن فى نيوستيد دون احتفال دينى .

وسئلت أنابيلا عن رغباتها فيما يخص الجنازة ، فلم تبد رأياً، ورفضت أن تتدخل ، حتى لم ترسل طاقة من الزهور إلى قبره .

وفى اليوم الخامس من شهر يوليه سارت جنازة صغيرة إلى نوتنجهام ، وفى أحد البيوت المطلة على الطريق وقفت امرأتان تنظران من نافذة : فبكت إحداهما ، وهى مارى زوجة شيلى ؛ ونظرت الأخرى فى سخرية وجمود ، وكانت كلير كليرمونت أم أليجرا الصغيرة !

ودفن بايرون فى نيوستيد بجوار أمه ، فجمع القبر بين قلبين تشاحنا وتفرقا فى الحياة .

***

و بعد أسابيع قليلة أراد أصدقاؤه تمجيد ذكراه ، فجمعوا

ألف جنيه ليصنعوا تمثالا كبيراً له ، ولكن المثالين الانجليز اعتذروا عن صنعه ، فكلف فنان ألمانى بالعمل ، وصنعه فى بلاده وأرسله إلى انجلترا عام ١٨٢٩ .

وكان الرأى العام ما زال يحقد على بايرون ، فرفضت الهيئات والجمعيات والمتاحف تسلم التمثال ، وبقى مهملا فى مخازن الجمرك عشرة أعوام ! . ولكن هذا التمثال وضع بعد ذلك العهد فى جامعة كامبردج ، وما زال بها إلى اليوم تحوطه أجل آيات الاحترام والتبجيل .

***

١١

تتمــــــة .

قد يكون من دواعى التسلية أن نحدث القارىء بمصير مذكرات بايرون ، تلك الوثائق التاريخية الهامة ، التى لو بقيت لأرسلت شعاعاً من الضوء على كل ما غمض من حياته ؛ وأن نقص عليه أيضاً نبذاً عن الشخصيات التى ارتبطت به ، وما تم لهؤلاء بعد هجرته ووفاته .

كتب بايرون مذكراته أثنـاء وجوده فى إيطاليا ، وأرسلها هدية إلى صديقه توماس مور ، وطلب منه ألا يطبعها أو يقرأها إلا بعد وفاته . وحلت بمور كارثة مالية ، فاضطر إلى بيع المذكرات للناشر مرى مقابل ألف جنيه .

و بقيت المذكرات فى حوزة الناشر حتى وفاة الشاعر ، إذ ذاك حاول مور أن يستردها منه، فقام نزاع شديد بين الاثنين. ولكن جون كام هوبهاوس رأى فى نشر المذكرات إساءة للراحل ، لما قد يكون فيها من اعترافات خطيرة . وانضمت إليه أوجستا فى هذا الرأى . وقامت مفاوضات طويلة بين الطرفين فى سـبيل إحراق المذكرات دون قراءتها أو نشرها . واتفق الطرفان بعد أربع سنوات ، فأحرقت المذكرات عام ١٨٢٨ فى حضور مور ومرى وهوبهاوس وأوجستا .

***

أظهرت ليدى بايرون نبلا وشهامة عظيمة فيما يخص زوجها ، فقد رفضت أن تصرح بشىء بعد أن هجرته ، واضطر إلى الرحيل من انجلترا . وعندما تطايرت الاشاعات عن علاقته بأخته ، وضج المجتمع بالفضيحة ، ظلت صامتة ، وأبت أن تبوح بحقيقة الدوافع التى

أدت إلى هجره . ولما رأت ما تعانيه أوجستا من احتقار واضطهاد عام ، تقدمت إلى صداقتها ، وأخذتها تحت رعايتها ، وساعدتها بالمال طيلة حياتها .

وكانت نتيجة هذا الكرم الشاذ أن انقلب الرأى العام عليها ، واتهمها الناس بقلة الاحساس ، وموت العاطفة ، و بلادة الذهن ؛ واحتقروها ونبذوها ، لصمتها وعطفها على أوجستا ؛ وظلت طريدة المجتمع ، حتى ماتت عام ١٨٦٠ .

ولم يشفع الموت لأنا بيلا ، فكتب محام اسمه « باجيت » مقالة يعقب فيها على وفاتها و يقول عنها :

«إن أحقر نساء الطريق فى حى «هايماركت» أفضل شخصية من ليدى بايرون ! » .

ولكن أنا بيلا تصرفت هكذا خوفاً على اسم ابنتها آدا ، وخشية أن تحطم الفضيحة مستقبل الفتاة البريئة .

وعند وفاتها تركت وراءها صندوقا محكم الإغلاق ، يحوى كثيراً من الأوراق ، وأوصت بتسليمه إلى بعض من تأتمنهم من الأصدقاء ، وطلبت فى وصيتها ألا يفتح هذا الصندوق إلا بعد وفاتها بعشرين عاماً أى سنة ١٨٨٠ . وجاء ذلك العام

ومضى ، ولم يفتح الأصدقاء الصندوق حذراً من أن يجدوا فيه ما يثبت الإشاعات القديمة ، فيحملوا أنفسهم تبعة هم فى غنى عنها .

وبقى الصندوق مغلقاً حتى مات آخر هؤلاء الأصدقاء ، فانتقلت ملكيته إلى اللورد « لوفليس » حفيد الشاعر . وفى عام ١٩٠٥ فتح لوفليس الصندوق ، فوجد الوثائق التى تثبت قصة بايرون وأوجستا ، ومن ضمنها خطابات يعترف الاثنان فيها بالخطيئة .

وأحس حفيد الشاعر أن الواجب يدعوه إلى مصارحة الجمهور بالحقيقة فكتب القصة فى كتاب أسماه « أستارتى » ، وهو اسم بطلة ديوان « ما نفريد » ، وطبع الكتاب ووزعه ، فانكشفت المأساة على حقيقتها أمام الناس .

* * *

أوصت ليدى ميلبانكى والدة أنابيلا ألا يذكر اسم بايرون على مسمع من ابنته آدا ، أو تقرأ لها أشعاره حتى تشب وتترعرع ؛ فلم تعرف الفتاة شيئاً عن أبيها إلا فى الخامسة عشرة من عمرها . ولما قرئت لها الأشعار لم تعجب بها كثيراً ، لأنها كانت إلى العلوم أميل منها إلى الآداب .

وكانت آدا جميلة الشكل ، رخيمة الصوت كوالدها ، ولكن كان فى تصرفاتها بعض الشذوذ ، فتنافرت هى وأمها ، وعاشا فى خلاف مستمر .

وعند ما بلغت العشرين تزوجت من إرل « لوفليس » ، ورزقت منه صبياً أصبح فيما بعد لورد لوفليس مؤلف «أستارتى» وماتت عام ١٨٥٢ قبل أمها بثمانى سنوات ، وقد بلغت من العمر سبعاً وثلاثين سنة . ودفنت — إجابة لوصيتها — بجوار والدها فى نيوستيد .

***

لما قرئت وصية بايرون وجد أنه ترك لأخته ثروة تربى على مائة ألف جنيه ، ولكن أوجستا بددت المال فى بحر سنتين ، وعادت إلى فقرها السابق . والتجأت إلى أنابيلا تنشد المساعدة ، فأمدتها بالمال طوال حياتها ، ولولا هذه المساعدة لماتت هى وأولادها جوعاً . وتوفيت أوجستا عام ١٨٥١ .

اقرأ

نتيجة الاستفتاء

بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ اجتمعت لجنة الاستفتاء فى دار مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر بحضور حضرات الأساتذة : الدكتور طه حسين بك وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف عن لجنة اقرأ ، والأستاذين شفيق نجيب مترى صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ويوسف مشاقه مديرها .

وقد صار إحصاء وفرز الأصوات الواردة فبلغ عددها ٢٧٠٩ بنسبة ١٨٠/٠ من النسخ التى توزع شهرياً .

●

نال الكتاب رقم ٨ «مذكرات دجاجة» للدكتور إسحق موسى الحسينى بالقدس باستحسان أكبر عدد من القراء ، وكان ذلك بنسبة ٣١٠/٠ من مجموع الأصوات الواردة فاستحق جائزة « اقــرأ » لسنة ١٩٤٣ وقدرها سبعون جنيهاً مصرياً .

●

فاز حضرة السيد مصطفى البارودى بمعهد الحقوق العربى بدمشق بالاقتراع السرى من بين القراء الذين استحسنوا الكتاب الفائز فاستحق الجائزة المخصصة لذلك وقدرها ثلاثون جنيهاً مصرياً .

بمناسبة العيد الألفى لأبى العلاء المعرى

٣٦٣ هـ — ١٣٦٣ هـ

تقـــدم

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ص

١) مع أبى العلاء فى سجنه (الطبعة الثالثة) ٢٥

تحليل دقيق لنفسية أبى العلاء مع وصف لفنونه الشعرية والنثرية ، ونزعاته النفسية وبواعثها ، فى أسلوب سهل ممتع طريف ، للدكتور طه حسين بك.

٢) رسالة الغفران (ترجمة انجليزية) ٣٠

هدية الأدب العربى إلى الأدب الانجليزى ، اشترك فى إخراجها الأستاذان : كامل كيلانى و ج . براكنبرى

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ قرشا
السودان	٥٥ مليما	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ مِلا

الكتاب التالى يظهر فى ابريل ١٩٤٤

